الإنسان كما أرادة الرحمن وليس كما يريده الشيطان

أعده لصالح الزاد
د. سعيد أبو الأسعاد

الإنسان.. كما أراده الرحمن وليس كما يريده الشيطان

أعده لصالح الزاد
د. سعيد أبو الإسعاد

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

الأزهـــر
مجمع البحوث الاسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

[redacted]

السيد / الدكتور "محمد أبو الإسعاد"

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد :

بناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : "الإنسان كما أراده القرآن" تأليف ...

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

عبد العزيز زكريا

مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في / / ١٤ هـ
الموافق ٢٤ / ١ / ٢٠٠٨م

"عبد الظاهر محمد عبد الرازق"

"الأصل بعد المقابلة"

"يعتمد الأمين العام"

٣

اسْتِفْتَاح

أعُوذُ باللّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾

الحَمْدُ للهِ الرَّحيمِ الرَّحْمٰن .. الَّذى اسْتَوَى بِقُدْرَتِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ بَنِي الإِنْسان .. ولِحِكْمَةٍ أَرادَها سَخَّرَ لَهُم ما تَحْتَوِيهِ الأَمْكِنةُ والأَزْمان .. فَسَوَّدَ وعَبَّدَ وعَدَّدَ ووَحَّدَ وخَلَقَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ زَوْجان .

فَسُبْحانَهُ سُبْحانَ هُوَ الرَّبُ المُقْتَدِرُ الرَّحْمٰن .. إِلَيْهِ تَنْتَهِي كائِنَةُ الأَكْوانِ ، وعِنْدَهُ بَلْ وبِهِ تَنْخَتِمُ اسْتِدارَةُ دائِرَةِ الأَزْمان :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ .

والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَتَمَّانِ الأَكْمَلانِ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ حَبِيبِ الرَّحْمٰنِ ، وإِنْسانِ عَيْنِ كُلِّ إِنْسانٍ ، بَعَثَهُ اللّهُ رَحْمَةً لِعَوالِمِ الأَكْوان .. ورَضِىَ اللّهُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وأَصْحابِهِ الكِرامِ الأَعْيان .. سادَةِ الدُّنْيا وأَعْقَلِ بَنِي الإِنْسان ..... وبَعْدُ :

فَمُرادُنا مِنْ هَذا البَيانِ والتِّبْيان .. تَخْلِيصُ نَفْسِ الإِنْسانِ مِنْ يَدِ الشَّيْطان .. لِيَصِيرَ عَبْداً لِلرَّحْمٰن .. وخاصَّةً بَعْدَ أَنِ اسْتَحْوَذَ الشَّيْطانُ عَلَى رُؤُوسِ أَهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ فى عُمُومِ مَمْلَكَةِ بَنِي الإِنْسان .

بَلْ وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى مالا يَتَصَوَّرُهُ جَنان .. أَنْ تَجَسَّدَ الشَّيْطانُ فى زِيِّ إِنْسان .. بُغْيَةَ اسْتِدْراجِ بَنِي الإِنْسانِ إِلَى اعْتِقادٍ مُؤَدَّاهُ الجَهْرُ بِلِسانِ الحالِ والقال .. أَنَّهُ لا

إلَهَ إلاَّ الإنْسان .

ولا يَعْزُبُ عَنْ ثاقِبِ فَهْمِكُم أَنَّ الحَقَّ تَبارَكَ وتَعالَى ، خَلَقَ المَلأَ الأَعْلَى طَهارَةً صِرْفَةً ونُوراً رُوحانِيّاً ، لَيْسَ لِلكَثافَةِ البَشَرِيَّةِ فيهِ نَصيبٌ ، كَما خَلَقَ الحَيَوانَ قَدْ تَغلَّبَتْ طِباعُ الحَيَوانيَّةِ فيهِ عَلَى الرُّوحانِيَّةِ ، وظَهَرَ حُكْمُ البَهيمِيَّةِ والجُثْمان . وخَلَقَ - تَبارَكَ وتَعالَى - الإنْسانَ جامِعاً لِلْمَظْهَرَيْنِ ، وأَوْدَعَ فِيهِ سِرَّ النَّشْأَتَيْن .. فَهُوَ المُسْتَعِدُّ (إذا ما أَخَذَ بِيَدِ البَشَرِيَّةِ ، وفَرَّ بِها وسَما مِنْ دَيْجُورِ ظُلْمَةِ الكَثافَةِ إلَى فَسيحِ رُوحِ التَّنْزِيهِ الرُّوحانِي) أَن تَنْتَظِمَهُ هَوامِعُ مَجالِي القُدُسِ الأَعْلَى ، فَقَد يُساوِي مَلَكاً أَو يَسْمُو عَلَيْهِ ، كَما أَنَّهُ المُسْتَعِدُّ للانْحِطاطِ مِنَ البَهيمِيَّةِ إلَى الدَّرْكِ الأَدْنَى .

وقَدْ وَهَبَ عَزَّ شَأْنُهُ الإنْسانَ ، مِنَ المَدارِكِ والمِنَحِ والمَواهِبِ ، ما هُوَ كافٍ لِلْعُروجِ بِهِ لأَعْلَى عِلِّيِّين .. غَيْرَ أَنَّهُ إنْ أَهْمَلَ تِلْكَ الكُنُوزَ ، ولَمْ يُراعِ حَقَّ اللّهِ فِيها جَذَبَهُ الشَّيْطانُ إلَى أَسْفَلِ سافِلين .

إنَّهُ مِنْ أَقْوَى العَوائِقِ عَنْ بُلُوغِ مَرْضاةِ الرَّحْمٰنِ اتِّباعُ خُطُواتِ الشَّيْطانِ ووَساوِسِهِ وآثارِهِ ودَسائِسِهِ ، فَإنَّهُ كَما وَرَدَ فَإنَّ الشَّيْطانَ لَيَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، فَيُضِلُّهُ ويَغْوِيهِ ، وبِالشَّهَواتِ والمَفاتِنِ يُغْرِيهِ ، فَيُهْلِكُهُ ويُرْدِيهِ ، إلَّا مَنْ عَصِمَهُ اللّهُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ ، وقالَ تَعالَى :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾

وفِي مَعْرَضِ الأَقْنِعَةِ ، يَسْتَوِي رِداءُ القِدِّيسِ وعَباءَةُ الشَّيْطان .. وتُزَيَّفُ القِيَمُ فَيَلْهَجُ بِالسَّلامِ لُصُوصُ الأَنامِ ، ويُبَشِّرُ بِحُقُوقِ الإنْسانِ أَعْداءُ الإنْسان .. ويَرْجُمُ الاسْتِعْبادَ مَنِ اسْتَبْدَلوا بِالرِّقِّ الفَرْدِي الرِّقَّ الجَماعِي ، وسَخَّروا العِلْمَ لِوَأْدِ رُوحِ الإنْسانِ بِأَجْهِزَةٍ جَهَنَّمِيَّةٍ تَغْسِلُ مُخَّهُ وتَسْتَبِيحُ ضَمِيرَهُ

وتَنْتَهِكُ مَكْنُونَ سِرِّهِ ، وقَدْ كانَ العَبِيدُ فى العُصُورِ الخالِيَةِ تُقَيَّدُ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِالسَّلاسِلِ والأَغْلالِ ، وتَبْقَى لَهُم ضَمائِرُهُمْ وقُلوبُهُم مَنْطِقَةً حَراماً لا تُنْتَهَكُ ولا تَخْضَعُ لأَىِّ قَيْدٍ أَو رَقابَة .

بَلْ وذَهَبوا إِلَى أَبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ بِأُسٍّ مِنَ الشَّيْطان .. إِلَى مُضاهاةِ خَلْقِ الرَّحْمٰن .. فَشَمَّروا عَنْ ساعِدِ الجِدِّ لاسْتِنْساخِ الإِنْسان ..

وفى هَذا الخِضَمِّ المَرِيرِ (حَيْثُ تَسْتَنْزِفُ الخُصُومَةُ الَّتى صَنَعَها أَعْداءُ الإِنْسانِ قُوَى أُمَّةِ الإِسْلام ، فَأَوْقَدَتْ بَيْنَها نارَ العَداوَةِ والبَغْضاءِ ، بَعْدَ أَنْ تَكَفَّلَتْ الإِرْساليَّاتُ التَّبْشِيرِيَّةُ والمَدارِسُ الأَجْنَبِيَّةُ والطَّواغِيتُ الصَّهْيونِيَّةُ ، بِتَرْبِيَةِ جِيلٍ مُشَوَّهٍ مَمْسُوخٍ مِنْ أَبْناءِ الأُمَّةِ ، يُدْعَى لِغَيْرِ آبائِهِ ويَنْتَمِي فِكْراً وثَقافَةً ومَذْهَباً إِلَى غَيْرِ أُمَّتِهِ) يَتَطَلَّعُ الإِنْسانُ المُؤْمِنُ مِنْ ثَنايا ضَعْفِهِ وعَجْزِهِ إِلَى تِلْكَ القُدْرَةِ القُدْسِيَّةِ المُدَبِّرَةِ ، فَيَعْتَصِمُ بِها ، ويَفيءُ إِلَى ظِلِّها ..

وهَكذا يَهْدِيهِ تَفْكِيرُهُ ، وتَقُودُهُ فِطْرَتُهُ إِلَى الالْتِجاءِ إِلَى خالِقِ الوجُودِ الَّذى ، تَنْطِقُ المَوْجُوداتُ بِوجُودِهِ ، وتُؤَكِّدُ وَحْدانِيَّتَهُ ، وتَشْهَدُ أَنَّهُ لَوْلاهُ ما كانَتْ هَذهِ الكائِنات ..

ومِنْ هُنا يَتَقَرَّبُ الإِنْسانُ إِلَيْهِ ، ويُقْبِلُ عَلَيْهِ ؛ لأَنَّهُ - سُبْحانَهُ - مَلاذُ النَّفْسِ ، ومَلْجَأُ القَلْبِ ، فَيَجِدُ عِنْدَهُ القُوَّةَ والنَّصْرَ ، والرَّاحَةَ والأَمانَ ، والأَمْنَ مِنَ الحَيْرَةِ والضَّلالِ ، والفَصْلَ بَيْنَ الحَقِيقَةِ والخَيالِ ، فَكُلُّ مَنْ فى الوجُودِ مِنْهُ بَدأَ ، وإِلَيْهِ يَعُودُ ..

والإِيمانُ بِالخالِقِ ذَخِيرَةٌ مِنْ القُوَّةِ ، تَمُدُّ البَشَرِيَّةَ بِزادٍ صالِحٍ ، لا تَسْتَمِدُّهُ مِنْ غَيْرِ هَذا الطَّرِيقِ ، فَإِنَّ وُجُودَ خالِقِ الوجُودِ واضِحٌ ، وتَوْضِيحَ الواضِحِ إِشْكال .. وإِنْكارَ الواقِعِ عَمًى وضَلال .

ولَيْسَ الإِنْسانُ مُجَرَّدَ بَشَرٍ يَأْكُلُ الطَّعامَ ويَمْشِي فِي الأَسْواقِ ، وإِنَّما الإِنْسانِيَّةُ فِيهِ

ارْتِقاءٌ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتي تُؤَهِّلُهُ لِلْخِلافَةِ في الأَرْضِ واحْتِمالِ تَبِعاتِ التَّكْليفِ وأَمانَةِ الإِنْسانِ ، لأَنَّهُ المُخْتَصُّ بِالعِلْمِ والبَيانِ والعَقْلِ والتَّمْييزِ ، مَعَ ما يُلابِسُ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ تَعَرُّضٍ للابْتِلاءِ بِالخَيْرِ والشَّرِّ ، وفِتْنَةِ الغُرُورِ بِما يُحِسُّ مِنْ قُوَّتِهِ وطاقَتِهِ ، وما يَزْدَهِيهِ مِنَ الشُّعُورِ بِقَدْرِهِ ومَكانَتِهِ فى الدَّرَجاتِ العُلْيا مِنْ دَرَجاتِ التَّطَوُّرِ ومَراتِبِ الكائِنات .

وإِذا كانَ البَعْضُ يَتَصَوَّرُ أَنَّ هَذا الارْتِقاءَ يَتَحَقَّقُ بِمَظاهِرِ الرَّفاهِيَةِ المُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّ هَذا البَعْضَ يَقَعُ فى خَطَأٍ فادِح .. فالرَّفاهِيَةُ مَعَ البُعْدِ عَنْ نَبْعِ الأَنْوارِ الإِيمانِيَّةِ ، لا تَعْنِي غَيْرَ مَزِيدٍ مِنَ المُعاناةِ والشَّقاءِ لِلنَّفْسِ الإِنْسانِيَّة .. أَما الرُّقِيُّ الحَقِيقِيُّ المَنْشُودُ فَهُوَ : ارْتِقاءُ الرُّوحِ فى مَدارِجِ الإِيمانِ ، واسْتِغْلالُ كُلِّ طاقاتِ الإِنْسانِ ، بِما يُحَقِّقُ لَهُ أَسْمَى أَنْواعِ الإِيمان ..

إِنَّهُ أَمانٌ أَمامَ تَقَلُّبِ الأَيَّام ..لأَنَّها تَسْتَمِدُّ ثَباتَها وأَمْنَها مِنْ أَنْوارِ الواحِدِ الدَّيَّان.. ومِنْ وَعْدِهِ الحَقِّ الَّذى لا يَتَبَدَّلُ مَهْما مَرَّتِ السُّنُونَ والأَعْوام .

واللّهَ أَسْأَلُ وبِنَبِيِّهِ الكَرِيمِ ﷺ أَتَوَسَّلُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ خالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهِ العِباد .. إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وهُوَ القادِرُ الجَواد .

د.سعيد أبو الأسعاد

الشَّيْطان .. في زِيِّ إِنْسان

تَجَسَّدَ الشَّيْطانُ في زِيِّ إِنْسان .. وأَعْلَنَها مُدَوِيَّةً : تَجِدُنا في كُلِّ مَكان ؛ وهَدَفُهُ ومُبْتَغاهُ أَنْ يَجُرَّ ما اسْتَطاعَ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ إِلَى اعْتِقادٍ مُؤَدَّاهُ الجَهْرُ بِلسانِ الحالِ والقالِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الإِنْسان .

وقَدِ اعْتادَ مَنْ يَدورُ فى فَلَكِ الشَّيْطانِ عَلَى التَّسَتُّرِ وَراءَ شِعاراتٍ قَدِ تَبْدو فِى ظاهِرِها مَعْقُولَةً ، يُلْقِي النَّاسُ إِلَيْها أَسْماعَهَم وتَبْلُغُ مِنْهُم غايَةَ الإِقْناعِ ، دُونَ أَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَى مَزالِقِها الخَطِرَةِ الَّتى تَخْتَلِطُ فِيها المَرامِي وتَتَشابَهُ السُّبُلُ ، فَتُفْضِي إِلَى الضَّلال .

وهَؤُلاءِ وإِنْ تَعَوَّدوا عَلَى تَرْدِيدِ هَذهِ الشِّعاراتِ بِاللِّسانِ ، فَإِنَّهُم يَعْمَلُونَ جاهِدِينَ عَلَى تَدْمِيرِ مُحْتَواها بِالسِّنانِ والأَفْعال ؛ نَذْكُرُ بَعْضاً مِنْها عَلَى سَبِيلِ المِثال :

﴿١﴾ بِدَعْوَى الإِنْسانِيَّة .. ارْتَكَبُوا المَجازِرَ الجَماعِيَّة :

نَرَى عَلَى مَدارِ السَّاعةِ مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ ، ما تَقُومُ بِهِ حِفْنَةُ الأَشْرارِ الَّتى اسْتَوْظَفَها الشَّيْطانُ لِلخَرابِ والدَّمارِ ، بِدَعْوَى مُعاقَبَةِ أَفْرادٍ عَلَى ما قامُوا بِهِ مِنْ جَرائِمَ بِحَقِّ الإِنْسانِيَّةِ ، ومِنْ عَجَبٍ أَنَّ هَؤُلاءِ الأَفْرادَ قَدْ جِيء بِهِم إِلَى سُدَّةِ الحُكْمِ بِإِيعازٍ وإِجارَةٍ مِنَ الشَّيطان ؛ لإِهْدارِ واسْتِنْزافِ مُقَدَّراتِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ وكَأَنَّ الأَمْرَ مُسَلْسَلٌ يَأْتِي تَنْفِيذُهُ كَما أُعِدَّ سابِقاً بِإِتْقان .. ولَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي الآنَ فِى العِراقِ وفَلَسْطِينَ وأَفْغانِسْتان .

إِنَّ الإِنْسانِيَّة فى عُرْفِ العُقَلاءِ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ لَيْسَتْ مَلائِكِيَّةً ولا إِبْلِيسِيَّةً ؛ لَيْسَتْ جَبْرِيَّةَ تَسْلِيمٍ وطاعَةَ تَسْخِيرٍ ، ولا هِىَ مَحْضَ شَرٍّ وشَهْوَةَ تَمَرُّدٍ وإِصْرارٍ عَلَى الضَّلال .

وإِنَّما هِىَ تَحْقِيقٌ لِلذَّاتِ ، عَنْ تَمْيِيزٍ ووَعْيٍ وإِرَادَة ..

هِىَ تَجْرِبَةُ الابْتِلاءِ ، يَتَعَرَّضُ فِيها آدَمُ لِلْغِوايَةِ فَيَغْوَى ، ثُمَّ يُؤَرِّقُهُ ضَمِيرُهُ وتُحاسِبُهُ النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ ، فَيَنْدَمُ ويَتُوبُ ، ويَمْضِى لِيُمارِسَ خِلافَتَهُ فى الأَرْضِ ، فلا تَكُونُ حَياتُهُ كُلُّها ، مِنْ بَدْءِ خَلْقِهِ إِلَى آخِرِ وُجُودِهِ ، إِلَّا مَعْرَكَةً مُتَّصِلَةً بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، يَحْتَمِلُ فِيها تَبِعَةَ عَمَلِهِ ومَسْؤُلِيَّةَ اخْتِيارِه .

وعِصْمَةُ الملائِكَةِ عَنْ إِجْبار .. دُونَ خَيْرِيَّةِ الإِنْسانِ عَنِ اخْتِيار .

وكُلُّ خَيْرٍ مِنَ الإِنْسانِ كَسْبِيٌّ لا تَحْظَى بِهِ المَلائِكَةُ المُسَخَّرَة ..

وأَىُّ شَرٍّ تَسْخَطُهُ التَّوْبَةُ ويُكَفِّرُ عَنْهُ حِسابُ النَّفْسِ اللَّوامَة .

هَذِهِ هِىَ الإِنْسانِيَّةُ السَّوِيَّةُ الَّتى اسْتَحَقَّتِ الخِلافَةُ فى الأَرْض .

وحِينَ يَشِذُّ بَعْضُ أَفْرادِها عَنْ هَذِهِ الإِنْسانِيَّةِ السَّوِيَّةِ ، فَيَقْتَرِفُ الشَّرَّ شَهْوَةً ومُتْعَةً دُونَ أَنْ يَرْدَعَهُ ضَمِيرٌ أَو يُؤَرِّقَهُ قَلَقٌ ، فَإِنَّ هَذا الشُّذوذَ يَخْرُجُ بِمِثْلِ هَذا الشِّرِّيرِ عَنْ طَبِيعَةِ هَذِهِ الإِنْسانِيَّةِ السَّوِيَّةِ ، ويَمْسَخُهُ شَيْطاناً مَرِيداً ، مِنْ صَنْفِ إِبْلِيسَ

أَصْلِ الشَّرِّ .

﴿٢﴾ ومِنْ ذَلِكَ ما يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ : العَوْلَمَة ..

والعَوْلَمَةُ والعَلْمانِيَّةُ تُشيرانِ إِلَى العالَم ؛

فالعَوْلَمَةُ : تَعْنِي صَبَّ العالَمِ كُلِّهِ فى بَوْتَقَةٍ واحِدَةٍ وقِيَمٍ وعاداتٍ واحِدَة .

والعَلْمانِيَّةُ : تَرُدُّ النَّاسَ إِلَى عالَمِ المادَّةِ بَعِيداً عَنِ الوَحْيِ والرِّسالاتِ السَّماوِيَّة .

إِذَن ؛ فالعَوْلَمَةُ : احْتِلالٌ عَقائِدِيٌّ واقْتِصادِيٌّ ، هَدَفُهُ : تَخْلِيَةُ شُعُوبِ العالَمِ مِنْ كُلِّ القِيَمِ السَّماوِيَّةِ وصِبْغَتُهُم بِالصِّفاتِ الشَّيْطانِيَّة .

ولـمَّا كانَتِ الأُمَّةُ الإِسْلامِيَّةُ ذاتَ اتِّصالٍ بِالسَّماءِ ، مِمَّا جَعَلَ الشَّيْطانُ وأَعْوانُهُ يُعْلِنُونَ الحَرْبَ عَلَى الإِسْلامِ فى عَقِيدَتِهِ وشَرِيعَتِهِ وعَلَى المُسْلِمينَ فى وَحْدَتِهِمْ مُتَّخِذِينَ الدَّعْوَةَ لِلْقُطْرِيَّةِ التَّمْزِيقِيَّةِ طَرِيقاً إِلَى ذَلِكَ ، وزَيَّنُوا لِكُلِّ قُطْرٍ شِعارَ الحُرِّيَّةِ والاسْتِقْلالِ بِحَيْثُ يَكُونُ مَسْئُولاً عَنْ نَفْسِهِ فَقَط ، فَسَمِعْنا شِعارات :

(مِصْرُ لِلْمِصْرِيِّينَ) ، و(سُوريا لِلسُّورِيِّينَ) ، و (السُّعُودِيَّةُ لِلسُّعودِيِّينَ) ، وهَكذا حَتَّى لا تَبْقَى أَيَّةُ عَلاقَةٍ مِنْ شَأْنِها أَنْ تُؤَدِّىَ إِلَى تَضافُرِ الجُهُودِ لِرَدِّ مَكائِدِ هَؤُلاءِ الأَعْداء .

والحَقُّ جَلَّ فى عُلاهُ نَبَّهَنا إِلَى ذَلِكَ فى مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ :﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾[1].

مِنْ مَظاهِرِ العَوْلَمَةِ المُشَاهَدَةِ يَوْمِيَّاً فى عالَمِنا العرَبِي والإِسْلامِي :

مِثْلَ الهَجْمَةِ الشَّرِسَةِ الَّتى بَدَأَها الأَعْداءُ عَلَى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالَى ، ثُمَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، والصَّحابَةِ ، وعُلَماءِ الدِّينِ ، ثُمَّ بِالتَّحْرِيضِ عَلَى بَعْضِ الفَتاوَى الَّتى تُرْضِي مَنْ بِيَدِهِ السُّلْطَةُ لِيَعْتَرِضَ عَلَيْها باقِى العُلَماءِ فَتُحْدِثُ البَلْبَلَةَ فى نُفُوسِ العامَّةِ ، فَتَنْعَدِمُ الثِّقَةُ فى هَؤُلاءِ وأُولَئِكَ ؛ ومِنْ ثَمَّ تَزُولُ الهَيْبَةُ والمَهابَةُ

(١) سُورَةُ البَقَرَة (مِنَ الآيَة ٢١٧) .

والاحْتِرامُ والتَّقْدِيرُ لِعُلَماءِ المُسْلِمين .

ومِنْهُ ما يَتَبَنَّاهُ البَعْضُ بِهَدَفِ تَفْرِيغِ القُرْآنِ الكَرِيمِ مِنْ أَحْكامِهِ وتَشْرِيعاتِهِ ، ومِنْها عَلَى سَبِيلِ المِثال : الشِّيفْرَة ، أو تُسَمَّى بـ(البَصْمَة القُرْآنِيَّة) ، حَيْثُ أَعْلَنَ صاحِبُ مَجمُوعَةِ شَرِكاتٍ عالَمِيَّة والمُقِيمُ بـ(بازل) بِسويسرا عَنِ اكْتشافِهِ المُعْجِزِ والَّذى وَزَّعَ بَيانَهُ فى عِدَّةِ مُؤْتَمَراتٍ صَحَفِيَّةٍ بِمِصْرَ(بَلَدِ الأَزْهَر) ، وتَضَمَّنَ بِإيجازٍ ما يَلِي :

أَنَّهُ بَعْدَ إِحْدَى عَشَرَ سَنَةً مِنَ البَحْثِ الدَّؤُوبِ ، مَنَّ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَلَى الباحِثِينَ مُؤَسِّسِي الشَّرِكَةِ بِكَشْفٍ عَظِيمٍ ، يُخاطِبُنا بِهِ اللّهُ اليَوْمَ ، حَيْثُ فَتَحَ اللّهُ لِلْبَشَرِ الشَّفَراتِ الرَّبَّانِيَّةِ الحاكِمَةِ لِنَصِّ القُرْآنِ العَظِيم . فَثَبَتَ يَقِيناً رِياضِيًّا بِالإِعْجازِ العَدَدِي ولأَوَّلِ مَرَّةٍ فى تارِيخِ البَشَرِيَّةِ لِكُلِّ مَنْ شَكَّ فى ذَلِكَ ، أَنَّ القُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ، بِدَلِيلٍ مِنْ آياتِهِ أَنَّ ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ بِشَفَراتٍ يَسْتَحِيلُ عَلَى الإِنْسِ والجانِ كِتابَةُ نَصٍّ مَنْطِقِيٍّ مَفْهُومٍ بِها . فَظَهَرَ ولأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ نُزُولِ القُرْآنِ سِرُّ الأَرْبَعَةِ عَشَرَةَ مِنَ الحُروفِ المُتَقَطِّعَةِ (النُّورانِيَّة) الَّتى لا تَجْتَمِعُ إِلَّا لِتُشَكِّلَ جُمْلَةً واحِدَةً (نَصٌّ حَكِيمٌ قاطِعٌ لَهُ سِرٌّ) ، وأَخْرَجَتِ الشَّفَراتُ ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ نُزولِ القُرْآن ، الآياتِ الكريمَةَ الَّتى تُشَكِّلُ هَذا (النَّص الحَكيم القاطِع) بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنا بِسِرِّهِ ، فَيُخاطِبُنا اللّهُ ـ جَلَّ وعَلا ـ اليَوْمَ شَفَقَةً ورَحْمَةً مِنْهُ عَلَى ما وَصَلَتْ إِلَيْهِ أُمُورُنا الدِّينِيَّةُ والدُّنْيَوِيَّةُ مِنْ سُوء . كَما دَلَّتِ الشَّفَراتُ القُرآنِيَّةُ ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ ، عَلَى (الآياتِ المُحْكمات) الَّتى (هُنَّ أُمُّ الكِتاب) :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

والَّتى هِىَ الأَساسُ الأَوْحَدُ لِتَأْوِيلِهِ الصَّحِيحِ ، كَما شَمَلَت الشَّفْرَةُ ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ أَيْضاً ، تِبْيانَ النِّظامِ الرَّبَّانِي للجُذورِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتى اسْتَخْدَمَها الخالِقُ فى كُلِّ مَوْضُوعٍ شَكَّلَ سُنَّةَ اللهِ ، الَّتى (لا تَبْدِيلَ ولا تَغْيِيرَ فِيها) ، الأَمْرُ الَّذي سَيَحْسِمُ بِإِذْنِ اللهِ التَّطَرُّفَ والتَّخَبُّطَ والعَداءَ الَّذى تَفَشَّى فى وبَيْنَ الأَدْيانِ السَّماوِيَّةِ ، مُجَدِّداً لِلْحِوارِ الدِّيني بِإِذْنِ الله ، وجامِعاً لأَهْلِ الكِتابِ عَلَى وَحْدانِيَّةِ اللهِ وسُنَّتِهِ فى شُؤُونِ عِبادِهِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ ، حَيْثُ يَنُصُّ سُبْحانَهُ وتَعالَى تَحْدِيداً مُسَبِّباً شَفَراتِهِ ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

كَما رَجَّحَتِ الشَّفَراتُ احْتِمالَ وُجُودِ (نَمُوذَج رِياضِي مُعْجِز لِلقُرْآن) جارِي التَّضَرُّع إِلَى الله أَنْ يَمُنَّ بِهِ عَلَيْنا ... أ. هـ .

وهُنا نُقَرِّرُ قَبْلَ أَنْ نَسْتَرْسِلَ مَعَهُم لَكَشْفِ حَقِيقَةِ نواياهُم :

بِأَنَّ المُسْلِمَ الحَقَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيماً مُطْلَقاً بِما أَخْبَرَ بِهِ الحَقُّ قائِلاً : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ ؛ فَلا يَحْتاجُ حَقِيقَةً لِمَنْ يُبَرْهِنُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ ، وإِنَّما حاجَتُهُ الحَقِيقِيَّةُ هِىَ تَطْبِيقُ أَحْكامِ القُرْآنِ فى أَفْرادِ مُجْتَمَعِهِ لِتَسْتَقِيمَ حَياتُهُم ويَسْعَدَ جَمِيعُهُم .

وفى ضَجِيجِ هَذِهِ الأَلْفاظِ الطَّنَّانَةِ وخَلابَةِ ما يُقَدِّمُهُ المُتَحَدِّثُ بِلسانِ مَنْ كُشِفَتْ لَهُ حُجُبُ الغَيْبِ وأُوتِىَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ عِلْماً ؛ تَتَعَذَّرُ الرُّؤْيَةُ الثَّاقِبَةُ الَّتى تُمَيِّزُ حَقّاً مِنْ باطِلٍ ، وعِلْماً مِنْ دَجَلٍ ، وإِيماناً مِنْ زُخْرُفِ قَوْلٍ وبَهْرَجِ بِدْعَةٍ ، ويَفُوتُها أَنْ تَفْصِلَ بَيْنَ مَنْطِقِ تَفْكِيرٍ عِلْمِيٍّ وجُرْأَةِ ادِّعاءٍ وطُبُولِ إِعْلانٍ .

وهَذا ما أَفْصَحَ عَنْ مَكْنُونِ نَواياهُم حَيْثُ قالَ أَصْحابُ هَذِهِ الفِكْرَةِ الجَدِيدَةِ أَنَّ هُناكَ أَوامِرَ فى القُرْآنِ خاصَّةً بِزَمَنٍ مُعَيَّنٍ ، وأَنَّهُم يُحْصُونَ كَلِماتِ القُرْآنِ وحُرُوفِهِ والأَعْدادِ الَّتى وَرَدَتْ فِيهِ لِيَصِلُوا إِلى المُحْكَمِ والمُتَشابِهِ ، وأَنَّ المُحْكَمَ

عِنْدَهُمْ يَظَلُّ باقِياً إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ ، بَيْنَما المُتَشابِهُ هُوَ ما كانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وانْتَهى .

ويَسْتَنْتِجُونَ مِنْ ذَلِكَ أُمُوراً خَطِيرَةً مَثَلاً : إِلْغاءُ الجِهادِ ، لأَنَّ نِداءَ الجِهادِ كانَ مُوَجَّهاً لِلنَّبِيِّ ﷺ ، والنَّبِيُّ ماتَ فَلا يُوجَدُ جِهاد ..

ويَزْعُمُونَ أَنَّ الكَلامَ عَنْ بَنِي إِسْرائِيلَ فى القُرْآنِ الكَرِيمِ كانَ يَنْصَبُّ عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ المَوْجُودِينَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ولَيْسُوا المَوْجُودينَ الآنَ ، وأَيْضاً يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لا يُوجَدُ فى القُرْآنِ الكَرِيمِ عَذابُ قَبْرٍ ولا يُوجَدُ حِجابٌ لِلْمُسْلِماتِ ، وهَكَذا .

ومِنْ مَظاهِرِ العَوْلَمَةِ والتَّغْرِيبِ الَّتى تَسْرِي فى المُجْتَمعاتِ العَرَبِيَّةِ سَرَيانَ النَّارِ فى الهَشِيم : تَهْمِيشُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِحسابِ اللُّغاتِ الأَجْنَبِيَّةِ حَيْثُ انْتَشَرَتِ المَدارِسُ والجامِعاتُ الأَجْنَبِيَّةُ المُخْتَلِفةُ ؛ الأَمْرِيكِيَّةُ والبرِيطانِيَّةُ والأَلْمانِيَّةُ والفَرَنْسِيَّةُ وغَيْرُها ، وخُطُورَةُ هَذا الأَمْرِ تَنْطَوِي فى أَنَّ الطِّفْلَ الَّذى يَدْفَعُ أَهْلُهُ آلافَ الجُنَيْهاتِ ويَلْجَأُونَ لِوَسائِلَ مُخْتَلِفَةٍ لإِلْحاقِ أَبْنائِهِمْ بِهَذهِ المَدارِسِ وهُم مازالُوا فى سِنِّ الرَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِمْ ، تَكُونُ النَّتِيجَةُ أَنْ يَنْشَأَ هَذا الطِّفْلُ وهُوَ يَدْرُسُ لُغَةً أَجْنَبِيَّةً ويَشْعُرُ أَنَّهُ مُتَفَوِّقٌ فِيها ومِنْ ثَمَّ يَبْحَثُ عَمَّنْ يُجِيدُ هَذهِ اللُّغَةَ لِيَتَصادَقَ مَعَهُ ، ويَقْرَأَ الكُتُبَ الَّتى صَدَرَتْ بِهَذهِ اللُّغَةِ والَّتى هِىَ بِالطَّبْعِ بَعِيدَةٌ عَنِ القُرْآنِ والسُّنَّةِ ، ومِنْ ثَمَّ يَنْشَأُ الطِّفْلُ مَفْتُوناً بِالحَضارَةِ الغَرْبِيَّةِ وبِأَصْحابِ هَذهِ اللُّغَة .

ولا يَخْفَى عَلَيْنا جَمِيعاً تِلْكَ المُصْطَلحَاتِ المُسْتَخْدَمَةِ بَيْنَ أَفْرادِ المُجْتَمَعِ والَّتى تَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ الجَمِيعِ ولَيْسَ لَها عَلاقَةٌ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ، ولَكِنَّها أَصْبَحَتْ واقِعاً مُؤْلِماً فى المُجْتَمعاتِ العَرَبِيَّةِ ؛ مِنْها عَلَى سَبِيلِ المِثالِ لا عَلَى سَبِيلِ الحَصْرِ : سُوبَر مارْكِت ، كُومبيُوتر ، مِترو ، أُوف ساید ، mobile ، Television ،

W.C , Choose، ومَطاعِم الـ Take away .

وكَذَلِكَ مُحاوَلاتِ تَغْييرِ مَعالِمِ المُجْتَمَعِ وقِيَمِهِ وعاداتِهِ وتَقالِيدِهِ مِنْ خِلالِ المُؤْتَمَراتِ المُتَكَرِّرَةِ ومِنْها مُؤْتَمَرُ السُّكَّانِ الَّذي يَأْتِي لِيُقَرِّرَ ويُقَنِّنَ العَلاقاتِ خارِجَ نِطاقِ الأُسْرَةِ ، والزَّواجَ المِثْلِي ، وحُريَّةَ الإِجْهاضِ ، واسْتِعْمالَ الواقِي الذَّكَرِي ، وكَذَلِكَ مِنْ خِلالِ وَسائِلِ الإِعْلامِ المُخْتَلِفَةِ المَسْمُوعَةِ والمَقْرُوءَةِ والمَرْئِيَّةِ ، فَنَجِدُ ذَلِكَ واضِحاً جَلِيّاً فى الصُّحُفِ القَوْمِيَّةِ الَّتى لَها صَفَحاتٌ كامِلَةٌ فى الكُرَةِ والثَّقافَةِ والفَنِّ فى حِينَ لا تَأْخُذِ الصَّفْحَةُ الدِّينِيَّةُ إلاَّ حَيِّزاً صَغِيراً فى هَذهِ الجَرائِدِ ، كَذَلِكَ الإِذاعَةِ والتِّليفزيون مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّها مَنْظُومَةٌ مُتَكامِلَةٌ لِتَغْيِيرِ المُجْتَمَعِ وتَغْرِيبِهِ وجَعْلِهِ عَلَى نَسَقِ حَياةِ أَعْداءِ الإِسْلام .

وللاسْتِمْرارِيَّةِ فى تَحْقيقِ ذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الأَعْداءَ لا يَمَلُّونَ مِنْ مُحاولاتِهِم المُتَكَرِّرَةِ لِفَرْضِ سَيْطَرَتِهِمْ وبَسْطِ نُفُوذِهِمْ وفَرْضِ ضُغُوطٍ اقْتِصادِيَّةٍ وعَسْكَرِيَّةٍ وثَقافِيَّةٍ عَلَى الحُكُوماتِ العَرَبِيَّةِ والإِسْلامِيَّةِ لِتَتَقَبَّلَ وتَتَشَرَّبَ القِيَمَ الجَدِيدَةَ ، ويَسْتَخْدِمُونَ فى ذَلِكَ وَسائِلَ مُتَعَدِّدَة ؛ وعَلَى سَبِيلِ المِثالِ وفِيما يَتَعَلَّقُ بِقَضِيَّةِ حُقُوقِ الإِنْسانِ والَّتى وَقَّعَتْ عَلَيْها كُلُّ الدُّوَلِ الإِسْلامِيَّةِ مِنْ مُنْطَلَقِ اعْتِمادِها عَلَى وُجُودِ نَصٍّ فى حُقُوقِ الإِنْسانِ هُوَ الحِفاظُ عَلَى تَقالِيدِ الشُّعُوبِ وثَقافاتِها ، وبَعْدَها عادوا لِيَقُولُوا إِنَّ مِيثاقَ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ صَدَرَ عَنِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ وهِيَ الوَحِيدَةُ الَّتى تُقِرُّ المَبادِىءَ والقِيَمَ الَّتى تَضَمَّنَها مِيثاقُ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ ، وبُناءً عَلَيْهِ : جاءَتْ مَسْأَلَةُ الحُرِّيَّةِ فى أَنْ يَفْعَلَ الإِنْسانُ ما يُرِيدُ دُونَ ضَوابِطَ أَخْلاقِيَّةٍ .

وإِنَّ مِنْ مَظاهِرِ دَعْمِ العَوْلَمَةِ فى المُجْتَمعَاتِ العَرَبِيَّةِ والإِسْلامِيَّةِ بِشَكْلٍ عامٍ تَتَجَلَّى فى وُجُودِ نُخْبَةٍ تَمْلِكُ القَرارَ الفِكْرِيَّ والثَّقافِيَّ والحَضارِيَّ وتَمْلِكُ القَرارَ عَلَى المساحاتِ الأُخْرَى فى المُجْتَمَعِ ، وهَذهِ النُّخْبَةُ ظاهِرُها ظاهِرُ الإِنْسِ ولَكِنَّ قُلُوبَهُم وعُقُولَهُم شَيْطانِيَّة ؛ يَتَعَمَّدُونَ مَذَلَّةَ المُسْلِمِينَ فى الوَقْتِ الَّذى يُذِلُّهُم فِيهِ أَعْداءُ الإِسْلامِ ، ولا يَقْبَلُونَ أَيَّ شَيْءٍ إِسْلامِيٍّ ، بَلْ يَتَواصَوْنَ بِمُحارَبَةِ الإِسْلامِ

فى مَجالاتِ الإِعْلامِ والثَّقافَةِ والفِكْرِ ويُجِيدونَ فى التَّزْوِيرِ والتَّحْرِيف .. إِنَّهُم أَذِلاَّءُ ضُعَفاءُ جُبَناءُ إِلاَّ عَلَى المُسْلِمين .

العَوْلَمَةُ مُخَطَّطٌ مُعْلَن :

لَيْسَتِ العَوْلَمَةُ مُؤَامَرَةً بَلْ هِىَ مُخَطَّطٌ مُعْلَنٌ لِتَفْكِيكِ العالَمِ العَرَبِي والإِسْلامِي ، فَهَذِهِ هِىَ الصَّهْيونِيَّةُ (الذِّراعُ الأَيْمَنُ لِلْماسُونِيَّةِ الشَّيْطانِيَّةِ) فى الثَّمانِينات قامَتْ بِإِعْدادِ مُخَطَّطٍ أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ (اسْتِراتِجِيَّة إِسْرائِيل فى الثَّمانِينات) ، تَحَدَّثُوا فِيهِ عَنْ تَفْتِيتِ العالَمِ الإِسْلامِي وقالوا : إِنَّ تَفْتِيتَ مِصْرَ سَيُفَتِّتُ الباقِينَ وتَكَلَّمُوا عَنْ تَقْسِيمِ العِراقِ إِلَى ثَلاثِ دُوَلٍ (أَكْراد ، وسُنَّةٍ ، وشِيعَة) ، وتَحَدَّثُوا فى مُخَطَّطِهِمْ عَنْ تَفْتِيتِ العالَمِ الإِسْلامِي وعَنْ تَمْزِيقِهِ وخَلْقِ فَوْضَى عارِمَةٍ (بِدَعْوَى أَنَّها فَوْضَى خَلاَّقَة) ، ولِهَذا فَإِنَّ كُلَّ ما يَحْدُثُ الآنَ فى العِراقِ والصُّومالِ وفَلَسْطِينَ ولُبْنانَ مُخَطَّطٌ مَرْسُومٌ لِتَفْتِيتِ العالَمِ الإِسْلامِي وتَمْزِيقِهِ ، وكُلُّ هَذا جُزْءٌ مِنَ العَوْلَمَةِ حَيْثُ تَمَّ اجْتِياحُ العالَمِ الإِسْلامِيِّ بِالقَواعِدِ العَسْكَرِيَّةِ الأَمْرِيكِيَّةِ (الذِّراعِ الأَيْسَرِ لِلْماسُونِيَّةِ الشَّيْطانِيَّةِ) والَّتى مَلأَتِ العالَمَ العَرَبِيَّ والإِسْلامِي .

وخُلاصَةُ القَوْل : إِنَّ الشَّيْطانَ يُقَدِّمُ لِلإِنْسانِ ما يَدْعُوهُ إِلَيْهِ فى صُورَةٍ بَرَّاقَةٍ لامِعَةٍ تَأْخُذُ بِالأَلْبابِ وتُشَجِّعُ النَّاسَ عَلَى الاقْتِناعِ والمَيْلِ إِلَيْهِ ، فَأَوْلِياءُ الشَّيْطانِ قالَ اللهُ فِيهِم : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾[1] .

فالشَّيْطانُ مِنَ الإِنْسِ يَأْتِي بِكُلِّ ما يُرَغِّبُ الإِنْسانَ ولا يُنَفِّرُهُ ، فَيُرَغِّبُهُ فى الحَضارَةِ الغَرْبِيَّةِ والنِّظامِ العالَمِي والحَداثَةِ والتَّحَرُّرِ والتَّغْذِيَةِ بِالعَوْلَمَة .

فالهَدَفُ المُعْلَنُ أَنَّ العَوْلَمَةَ جاءَتْ بِحُجَّةِ فَتْحِ قَنَواتٍ وجَعْلِ الشُّعُوبِ كَأَنَّها شَعْبٌ واحِدٌ ، والثَّقافاتِ كَأَنَّها ثَقافَةٌ واحِدَةٌ ، ولكِنْ عِنْدَما يُحِيطُ الإِنْسانُ بِالحَقِيقَةِ يَعْرِفُ أَنَّ العَوْلَمَةَ ما هِىَ إِلاَّ هَيْمَنَةُ وسَيْطَرَةُ قُوَى البَشَرِ والَّتى تَتَمَثَّلُ بِصُورَةٍ

---

(١) سُورَةُ الأَنْعام ، مِنَ الآيَة ١٢١ .

أَساسِيَّةٍ فى ذِراعَي الماسُونِيَّةِ كَما وَضَّحْنا سَلَفاً .

﴿٣﴾ إشاعَةُ الفاحِشَةِ بِحُجَّةِ الوِقايَةِ مِنَ الفاحِشَة :

والقِصَّةُ أَنَّ الأُمَمَ المُتَّحِدَةَ قَدْ رَصَدَتْ عَشَرَةَ مِلْياراتِ دُولارٍ لِشَبَكَةِ الهَيْئاتِ الإيمانِيَّةِ لِمُواجَهَةِ الإيدْز ، والَّتى اخْتَصَروها فى مُنَظَّمَةِ (شَهامَة) ، ولِهَذهِ الشَّبَكَةِ لَجْنَةٌ تَنْفِيذِيَّةٌ تَتَلَقَّى أَوامِرَها مِنْ هُناكَ مُباشَرَةً ويَنْبَثِقُ عَنْها لِجانٌ فَرْعِيَّةٌ تَجُوبُ النُّجُوعَ والقُرَى والمُدُنَ وأَنَّها تَتَّخِذُ مِنْ مُواجَهَةِ الإيدْز سِتاراً لِنَشْرِ الفاحِشَةِ ، ونُدَلِّلُ عَلَى ذَلِكَ بِمِثالٍ عَمَلِيٍّ واقِعِيٍّ :

فَلَيْسَ مَرَضُ الإيدْز فى مِصْرَ بِالخُطُورَةِ الَّتى تَسْتَوجِبُ أَنْ تَتَحَرَّكَ لَها الأُمَمُ المُتَّحِدَةُ ، ذَلِكَ أَنَّ وَزِيرَ الصِّحَّةِ المِصْري د . حاتِم الجَبَلي صَرَّحَ بِمُناسَبَةِ اليَوْمِ العالَمِي لِمُكافَحَةِ الإيدْز أَنَّ إِحْصائِيَّاتِ البَرْنامَجِ الوَطَنِي لِمُكافَحَةِ المَرَضِ أَثْبَتَتْ أَنَّ عَدَدَ مَرْضَى الإيدْز فى مِصْرَ يَبْلُغُ ٨٨٠ مَرِيضاً فَقَط ، أَى أَقَلَّ مِنْ أَلْفِ مَرِيضٍ بِالنِّسْبَةِ لأَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مِلْيُوناً ، أَيْنَ هَذا الخَطَرُ إِذَن الَّذي يُقْلِقُ الأُمَمَ المُتَّحِدَة ؟ ! وما نِسْبَةُ انْتِشارِ هَذا إِلَى نِسْبَةِ المُصابِينَ بِمَرَضِ الفَشَلِ الكُلَوِي أَو السَّرطانِ أَو الفيْروساتِ الكَبدِيَّة ؟ !!

لِماذا لَمْ تَتَحَرَّكِ الأُمَمُ المُتَّحِدَةُ لِهَذهِ الأَمْراضِ الفَتَّاكَةِ والَّتي وَصَلَتْ نِسْبَتُها فى مِصْرَ إِلَى حَدِّ الخَطَر !

(جاءَ هَذا التَّصْرِيحُ مِنَ السَّيِّدِ الوَزير فى صَحِيفَةِ الأَهْرامِ وهِىَ الصَّحِيفَةُ الرَّسْمِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ فى عَدَدِها الصَّادِر فى ٤/ ١٢/ ٢٠٠٦ م ـ ص ١٥) .

وبَعْدَها بِيَوْمَيْنِ فَقَط جاءَ فى الأَهْرامِ أَيْضاً : انْطِلاقُ القافِلَةِ العَرَبِيَّةِ لِلتَّوْعِيَةِ ضِدَّ الإيدْز ، مِنْ فُنْدُق (انتركونتينتال سيتى ستارز) بِمَدِينَةِ نَصْر ، تَحْتَ رِعايَةِ جامِعَةِ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ بِإِشْراف د . إِبْراهيم الكِرْداني المُتَحَدِّثِ الرَّسْمِي والمُسْتَشارِ الإِقْلِيمي لِمَكْتَبِ شَرْقِ المُتَوَسِّطِ بِمُنَظَّمَةِ الصِّحَّةِ العالَمِيَّة ..

ومازالَتِ القَوافِلُ المُمَوَّلَةُ مِنَ الخارِجِ تَجُوبُ البِلادَ ، ومِنْ أَهَمِّ ما تَدْعُو إِلَيْهِ وذَلِكَ لِلتَّذْكِرَةِ فَقَط :

١- إِباحَةُ الشُّذُوذِ الجِنْسِي والزَّواجِ المِثْلِي .

٢- إِباحَةُ المُتاجَرَةِ بِالجِنْسِ أَى فَتْحُ أَبْوابِ الدَّعارَةِ في مِصْرَ .

٣- مَنْعُ خِتانِ الإِناث .

٤- تَأْخِيرُ سِنِّ الزَّواجِ ، وفَرْضُ القُيُودِ عَلَى الزَّواجِ الشَّرْعِي الحَلالِ بِدَعْوَى الصِّحَّةِ الجِنْسِيَّةِ ، وإِطْلاقُ العَنانِ لِعَلاقاتِ الحَرامِ بِدَعْوَى الحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّة .

٥- سَحْبُ سُلْطَةِ الأَبِ عَلَى أَبْنائِهِ وبَناتِهِ مِنْ سِنِّ السَّادِسَةِ عَشَرَةَ ، مَعَ مَنْعِهِم مِنَ الزَّواجِ ، وإِتاحَةِ الفُرْصَةِ لَهُمْ فى مُمارَسَةِ الجِنْسِ الآمِنِ بِاتِّخاذِ الواقِي الذَّكَرِي الَّذي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتاحاً بِالمَجَّانِ لِلطَّلَبَةِ والطَّالِبات .

٦- تَدْرِيسُ الثَّقافَةِ الجِنْسِيَّةِ بَدْءاً مِنَ السَّنَةِ الأُولَى الإِبْتِدائِيَّةِ بِلَفْتِ نَظَرِ كُلٍّ مِنَ البِنْتِ والوَلَدِ إِلَى ما عِنْدَ الآخَرِ مِنَ الأَعْضاءِ التَّناسُلِيَّةِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُدَرَّسُ لَهُم طُرُقُ إِثارَةِ كُلٍّ مِنْهُما لِلآخَرِ جِنْسِيّاً .

وكُلُّ هَذا قَدْ تَضَمَّنَهُ مُؤْتَمَرُ السُّكَّانِ الَّذى انْعَقَدَ بِالقاهِرَةِ ١٩٩٤ م ، ومازالَتْ أَفْكارُهُ وبُنُودُهُ هِيَ هِيَ لَمْ تَتَغَيَّرْ ، وكُلَّما وَجَدَ مُقاوَمَةً هَدَأَ مُؤَقَّتاً لِيَعُودَ أَشْرَسَ مِمَّا كان.[١]

وهَذا ما يَحْدُثُ الآنَ واضِحاً جَلِيّاً لِمَنْ لَهُ عَيْنانِ تُبْصِران :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[٢]



---

(١) مِنْ مَقال للدكتور(محمد المختار محمد المهدي) بمجلّة التّبْيان شهر رمضان ١٤٢٨ هـ .

(٢) سورة الأعراف أية ٢٠١ .

﴿٤﴾ ومِمَّا يُطَنْطِنُونَ بِهِ : (المُواطَنَةُ وإهْدارُ الحُقُوقِ الإنْسانِيَّةِ فى المُجْتَمعَاتِ الإسْلامِيَّة) :

والحَقُّ الَّذى لا خَفاءَ فيهِ إلاَّ عَلَى الَّذينَ أَعْماهُم الشَّيْطانُ فَسَحَرَ أَبْصارَهُم : أَنَّ الشَّريعَةَ الإسْلامِيَّةَ قَدْ رَفَعَتْ قِيمَةَ الإنسانِ فَوْقَ كُلِّ المُقَدَّسات ..

فَقالَ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى :﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾(١)

وكَيْفَ لا يَكُونُ مُكَرَّماً وفيهِ نَفْخَةٌ عُلْوِيَّةٌ مِنْ رُوحِ اللهِ تَعالَى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.(٢)

ولا نَنْسَى هَذا المَوْقِفَ الخالِدَ فى أَثْناءِ حَجَّةِ الوَداعِ حَيْثُ أَشارَ سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ إلَى الكَعْبَةِ (وهِىَ ما هِىَ وما تُمَثِّلُهُ فى قُلُوبِ المُسْلِمينَ) ، ثُمَّ قالَ ﷺ : (ما أَعْظَمَكِ وما أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ ولَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ)(٣).

فَلَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرَباً أَنْ يَجْعَلَ الإسْلامُ الاهْتِمامَ بالإنْسانِ عَلَى رَأْسِ أَوْلَوِيَّاتِه .

ولِذَلِكَ فَقَدْ رَكَّزَ النَّبِيُّ ﷺ فى خُطْبَةِ الوَداعِ عَلَى قَضِيَّةِ الإنْسانِ وحُقُوقِهِ الأَساسِيَّةِ ، وسَنَتَعَرَّضُ فِيما يَلِي لأَهَمِّ هَذهِ الحُقُوقِ مِنْ خِلالِ اسْتِقْصائِنا لِلنُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ والمُمارَساتِ الصَّحِيحَةِ لِلشَّرِيعَةِ الإسْلامِيَّة :

أَوَّلاً : حَقُّ الحَياة :

١) حَياةُ الإنْسانِ مُقَدَّسَةٌ :لا يَجُوزُ لأَحَدٍ أَنْ يَعْتَدِىَ عَلَيْها: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٤)، ولا تُسْلَبُ هَذهِ القُدْسِيَّةُ إلاَّ بِسُلْطانِ الشَّرِيعَةِ (لا يَحِلُّ دَمُ امْرِيءٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِإحدَى ثَلاث : الثَّيِّبِ الزَّانِي ، والنَّفْسِ بِالنَّفْسِ ،

---

(١) سُورَةُ الإسْراء الآيَة ٧٠.
(٢) سُورَةُ ص آيَة ٧١ ، ٧٢ .
(٣) أَخْرَجَهُ (ابْنُ ماجَه) .
(٤) سُورَةُ المائِدَة (مِنَ الآيَة ٣٢) .

والتَّارِكِ لِدينِهِ المُفارِقِ لِلْجَماعَة)[1]

٢) كَيانُ الإنْسانِ المادِّيِّ والمَعْنَوِيِّ حِمًى ، تَحْمِيهِ الشَّرِيعَةُ فى حَياتِهِ ، وبَعْدَ مَماتِهِ ، ومِنْ حَقِّهِ التَّرَفُّقُ والتَّكريمُ فى التَّعامُلِ مَعَ جُثْمانِهِ :

(إنْ كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخاه فَلْيُحْسِنْ كَفَنَهُ)[2]، ويَجِبُ سَتْرَ سَوْءاتِهِ وعُيُوبِهِ الشَّخْصِيَّة

(لا تَسُبُّوا الأَمْوات ، فَإِنَّهُم أَفْضَوا إِلَى ما قَدَّمُوا)[3].

٣) لا يَجُوزُ لِشَعْبٍ أَنْ يَعْتَدِىَ عَلَى شَعْبٍ آخَر ، ولِلشَّعْبِ المُعْتَدَى عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ العُدْوان : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾[4].

ويَتَحَمَّلُ المُسْلِمُونَ فى سَبيلِ نُصْرَةِ المَظْلُومِ واجِباً لا تَرَخُّصَ فِيهِ ، فَرَدُّ الاعْتِداءِ واجِبٌ شَرْعِيٌّ تَأْثَمُ الأُمَّةُ بتَرْكِهِ :﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[5].

إنَّ تَرْكَ الدِّفاعِ عَنِ المُسْلِمينَ (وهِىَ مُهِمَّةُ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّة) ، جَعَلَتْ ذِئابَ الأَرْضِ يَطْمَعُونَ فِيهِم حَتَّى صارَ الدَّمُ المُسْلِمُ أَرْخَصَ الدِّماءِ فى العالَمِ ، وانْتُهِكَتْ بِلادُ المُسْلِمينَ مِنْ أَوْلِياءِ الشَّياطِين .

لَقَدْ كانَتِ المَرْأَةُ تَصْرُخُ : وامُعْتَصِماه ، فَتَهُبُّ لَها جُيُوشُ المُسْلِمينَ ، فَما الَّذى حَدَثَ ؟!

رَبُّ وامُعْتَصِماهُ انْطَلَقَتْ * مِلْءَ أَفْواهِ البَناتِ اليُتَّمِ

لامَسَتْ أَسْماعَهُم لَكِنَّها * لَمْ تُصادِفْ نَخْوَةَ المُعْتَصِمِ

إنَّ المُسْلِمينَ عَبْرَ القُرونِ أَصْحابُ تاريخٍ نَظِيفٍ ، وسِجِلٌّ ناصِعٌ فى احْتِرامِ حَقِّ الحَياةِ حَتَّى لأَعْدائِهِم المُخالِفينَ لَهُمْ فى الدِّينِ إذا الْتَزَمُوا السَّلامَ : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فَلَمْ يَتَوَرَّطِ المُسْلِمُونَ قَطُّ فى حَرْبِ إِبادَةٍ لِشَعْبٍ أَو تَطْهِيرٍ عِرْقِيٍّ لأُمَّةٍ ، عَلَى نَحْوِ ما فَعَلَهُ مَصَّاصُو الدِّماءِ فى أُوروبَّا المُتَحَضِّرَة !!

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارِي) . (٢) أَخْرَجَهُ (مُسْلِم) . (٣) أَخْرَجَهُ (البُخاري) .
(٤) سُورَةُ الشُّورَى (الآيَة ٤١) . (٥) سُورَةُ البَقَرَة (الآيَة ١٩٠)

ثانيا : حَقُّ الحُرِّيَّة :

١) حُرِّيَّةُ الإِنْسانِ مُقَدَّسَةٌ (كحَياتِهِ) وهِيَ الصِّفَةُ الطَّبيعيَّةُ الأُولَى الَّتى بِها يُولَدُ الإِنْسانُ ؛ كَما قالَ الفاروقُ عُمَرُ رضي الله عنه : (مَتَى اسْتَعْبَدْتُم النَّاسَ وقَدْ وَلَدَتْهُم أُمَّهاتُهُم أَحْراراً) ، ويَجِبُ تَوْفِيرُ الضَّماناتِ الكافِيَةِ لِحِمايَةِ حُرِّيَّةِ الفَرْدِ ، فَلا يَجُوزُ تَقْييدُها إلاَّ بِسُلْطانِ الشَّرِيعَةِ ، وبِالإِجْراءاتِ الَّتى تُقِرُّها الشَّرِيعَةُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

٢) لِكُلِّ فَرْدٍ حُرِّيَّةُ التَّفْكِيرِ والاعْتِقادِ والتَّعْبِيرِ ، دُونَ تَدَخُّلٍ مِنْ أَحَدٍ ، مادامَ يَلْتَزِمُ الحُدودَ العامَّةَ الَّتى أَقَرَّتْها الشَّرِيعَةُ ، ولَكِنْ لا يَجُوزُ إِذاعَةُ الباطِلِ ، ولا نَشْرُ ما فِيهِ تَرْويجٌ لِلْفاحِشَةِ ، أَو تَخْذِيلٌ لِلأُمَّةِ :

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

٣) والتَّفْكِيرُ الحُرُّ بَحْثاً عَنِ الحَقِّ واجِبٌ راجِعٌ إِلَى الأَصْلِ :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (٣) ، واحْتِرامُ مَشاعِرِ المُخالِفينَ فى الدِّينِ مِنْ أَخْلاقِ المُسْلِمينَ فلا يَسْخَرُ أَحَدٌ مِنْ مُعْتَقداتِ غَيْرِهِ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٤)

٤) مِنْ حَقِّ كُلِّ فَرْدٍ ومِنْ واجِبِهِ : أَنْ يُعْلِنَ رَفْضَهُ لِلظُّلْمِ ، وإِنْكارَهُ لَهُ ، وأَنْ يُقاوِمَهُ ، دُونَ تَهَيُّبٍ مِنْ أَحَدٍ كائِناً ما كانَ : (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَيُّ الجِهادِ أَفْضَلُ ؟ قالَ : كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطانٍ جائِرٍ) (٥) ، وفى الحَديثِ : (إِنَّ

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب (الآيَة ٥٨) .
(٢) سُورَةُ الأَحْزاب (الآيَة ٦٠- ٦١) .
(٣) سُورَةُ الكافِرون (الآيَة ٦) .
(٤) سُورَةُ الأَنْعام (الآيَة ١٠٨) .
(٥) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذي والنَّسائي) .

النَّاسَ إذا رَأَوا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم اللهُ بِعِقاب)[1]

٥) سَرائِرُ البَشَر مَوْكُولَةٌ إِلَى خالِقِهِمْ وَحْدَهُ كَما قالَ المُصْطَفَى ﷺ : (أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ)[2]، وخُصُوصِيَّاتُهم حِمًى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾[3].

٦) حَقُّ حُرِّيَّةِ الارْتِحالِ والتَّنَقُّلِ مَكْفُولٌ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[4]

ثالِثاً : الحُقُوقُ الاقْتِصادِيَّة :

١) عَلَى كُلِّ إِنْسانٍ قادِرٍ أَنْ يَعْمَلَ ويُنْتِجَ ، تَحْصِيلاً لِلرِّزْقِ مِنْ وُجُوهِهِ المَشْرُوعَةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[5].

٢) المِلْكِيَّةُ الخاصَّةُ مَشْروعَةٌ عَلَى انْفِرادٍ ومُشارَكَةٍ ، لِكُلِّ إِنْسانٍ أَنْ يَقْتَنِيَ ما اكْتَسَبَهُ بِجُهْدِهِ وعَمَلِهِ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾[6].

ولا يَجُوزُ الاعْتِداءُ عَلَى المِلْكِيَّةِ الخاصَّةِ إِلَّا بَعْدَ حُكْمٍ قَضائِيٍّ نَزِيهٍ :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[7].

والمِلْكِيَّةُ العامَّةُ مَشْروعَةٌ لِمَصْلَحَةِ الأُمَّةِ بِأَسْرِها : (النَّاسُ شُرَكاءُ فى ثَلاثٍ : الكَلَأِ والماءِ والنَّار)[8]، وحُرْمَةُ المِلْكِيَّةِ العامَّةِ أَعْظَمُ ، وعُقُوبَةُ الاعْتداءِ عَلَيْها أَشَدُّ : (مَنْ أَخَذَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ)[9]، وتَوْظِيفُ المِلْكِيَّةِ العامَّةِ لِمَصْلَحَةِ الفِئاتِ المَحْرُومَةِ واجِب :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

---

(١) أَخْرَجَهُ (أَصْحابُ السُّنَن) .
(٢) أَخْرَجَهُ (مُسْلِم) .
(٣) سُورَةُ الحُجُرات (مِنَ الآيَة ١٢) .
(٤) سُورَةُ النِّساء (الآيَة ٩٧) .
(٥) سُورَةُ المُلْك (الآيَة ١٥) .
(٦) سُورَةُ النَّجْم (الآيَة ٤٨) .
(٧) سُورَةُ البَقَرَة (الآيَة ١٨٨) .
(٨) أَخْرَجَهُ (الإِمامُ أَحْمَد) .
(٩) أَخْرَجَهُ (البُخاري) .

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[1]

٣) لِفُقَراءِ الأُمَّةِ حَقٌّ مُقَرَّرٌ فى مالِ الأَغْنِياءِ نَظَّمَتْهُ الزَّكاةُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2] .

٤) والعَمَلُ شِعارٌ رَفَعَهُ الإِسْلامُ لِمُجْتَمَعِهِ : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[3]

وهُوَ حَقٌّ لِكُلِّ فَرْدٍ ، والعامِلُ مِنْ واجِبِهِ أَنْ يُتْقِنَ ومِنْ حَقِّهِ :

أ- أَنْ يُوَفَّى أَجْرُهُ دُونَ حَيْفٍ أَو مُماطَلَةٍ لَهُ : (أَعْطُوا الأَجِيرَ حَقَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ)[4] .

ب - أَنْ يُوفَرَّ لَهُ حَياةٌ كَرِيمَةٌ تَتَناسَبُ مَعَ ما يَبْذُلُهُ مِنْ جُهْدٍ وعَرَقٍ :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[5] .

ج - وأَنْ يَجِدَ الحِمايَةَ الَّتى تَحُولُ دُونَ غُبْنِهِ واسْتِغْلالِ ظُرُوفِهِ ، جاءَ فى الحَديثِ القُدسِيِّ : (ثَلاثَةٌ أَنا خَصْمُهُم يَوْمَ القِيامَة : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيراً فاسْتَوْفَى مِنْهُ ولَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ .....)[6] .

رابعاً : حُقُوقُ الأَقَلِيَّات :

١) الأَوْضاعُ الدِّينيَّةُ للأَقَلِّيَّاتِ يَحْكُمُها المَبْدَأُ القُرْآنِيُّ العام :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[7] ، وقَوْلُهُ تعالَى ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[8] .

---

(١) سُورَةُ الحَشْر (الآيَه ٧) .
(٢) سُورَةُ التَّوْبة (الآيَة ١٠٥) .
(٣) سُورَةُ الأَحْقاف (الآيَة ١٩) .
(٤) سُورَةُ المعارج (الآيَة ٢٤ ، ٢٥)
(٥) أَخْرَجَهُ (ابْنُ ماجه) .
(٦) أَخْرَجَهُ (البُخاري) .
(٧) سُورَةُ البَقَرة (الآيَة ٢٥٦) .
(٨) سُورَة المُمْتَحنة (الآيَة ٨) .

٢) الأَوْضاعُ المَدَنِيَّةُ ، والأَحْوالُ الشَّخْصِيَّةُ لِلأَقَلِّيَّاتِ تَحْكُمُها شَرِيعَةُ الإِسْلام إِنْ هُمْ تحاكَمُوا إِلَيْنا : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾(١)، فَإِنْ لَمْ يَتحاكمُوا إِلَيْنا كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتحاكَمُوا إِلَى شَرائِعِهِمْ ما دامَتْ تَنْتَمِي (عِنْدَهُمْ)لأَصْلٍ إِلَهِيٍّ : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٢).

وبَعْدُ .. أَيُّها المَوْتُورونَ والمُتَشَدِّقُون : هَذِهِ حُقُوقُ الإِنْسانِ فى الإِسْلامِ ، وهِىَ أَساسٌ مَكِينٌ لِحُقُوقِ المُواطَنَةِ وبَيانٌ أَنَّ رِسالَةَ الإِسْلامِ رَحْمَةٌ عامَّة :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٣).

ولْيَعْلَمِ الَّذينَ يتَحَدَّثُونَ (بِنَزْغٍ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ) عَنِ اضْطِهادِ الأَقَلِّيَّاتِ فى المُجْتَمَعاتِ الإِسْلامِيَّةِ : أَنَّ الإِسْلامَ لا يُظْلَمُ فى دِيارِهِ أَحَدٌ ، فَلَيْتَ هَؤُلاءِ المُرْجِفينَ فى المَدينَةِ يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَواطِنِ الاضْطِهادِ الحَقِيقِيَّةِ لِلأَقَلِّيَّاتِ المُسْلِمَةِ الَّتى تَتَعَرَّضُ لِلْمَجازِرِ الرَّهِيبَةِ فى أَماكِنَ كَثِيرَةٍ مِنَ العالَمِ ، ولَيْتَهُم يَتَأَمَّلُونَ ولا يُغْمِضُونَ أَعْيُنَهُمْ عَنْ فَظائِعِ رُؤُوسِ الشَّياطِينِ فى العِراقِ وأَفغانِسْتانَ وفَلَسْطِينَ ، وقَدْ كَشَفَ عَوارَهُمْ ما رَأَيْناهُ بِأَعْيُنِنا فى جُوانْتانامو وأَبِي غَرِيب ، مِنْ ناحِيَةٍ وفى الهُجُومِ عَلَى الحِجابِ مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرَى !!!!(٤)

٥) **ومِنْ هَذِهِ الشِّعاراتِ : الحُرِّيَّة الدِّينِيَّة** : والَّتى تَقْتَضِي عِنْدَ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ حُرِّيَةَ التَّنَقُّلِ مِنْ دِينٍ لِآخَرَ ، وتُرَكِّزُ عَلَى تَرْكِ المُسْلِمِ لِدينِهِ وإِلْغاءِ (حَدِّ الرِّدَّةِ) اسْتِناداً إِلَى ما قالَهُ بَعْضُ الوصُولِيِّينَ الَّذينَ يَلْوُونَ النُّصُوصَ القُرْآنِيَّةَ ويُخْرِجُونَها مِنْ سِياقِها فَيَقْتَطِعُونَ جُمْلَةً مِنْ آيَةٍ مِثْلَ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾(٥).

---

(١) سُورَةُ المائِدة (الآيَة ٤٢) .
(٢) سُورَةُ المائِدة (الآيَة ٤٧) .
(٣) سُورَةُ الأَنْبِياء (الآيَة ١٠٧) .
(٤) مِن مقالٍ لـ (د. مُنير جُمْعَة) بمجلة التِّبْيان .
(٥) سُورَةُ البَقَرَة (مِنَ الآيَة ٢٥٦) .

ومِثْلَ : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] ، غَيْرُ ناظِرينَ إِلَى تَكْمِلَتِها الَّتى تُبَيِّنُ مَصِيرَ المُؤْمِنِ والكافِر .

يُبَيِّنُ هَذا المَعْنَى إِذا قُلْتَ (وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى) لِوَلَدِكَ : أَنْتَ حُرٌّ فى المُذاكَرَةِ أَو فى اللَّعِبِ فَنَتِيجَةُ الامْتِحانِ هِىَ الَّتى تَحْكُمُ .. هَلْ إِذا قُلْتَ ذَلِكَ لِوَلَدِكَ تَكُونُ آمِراً أَو مُحِبّاً لَهُ اللَّعِبَ .... ؟!

أَو تَكُونُ مُحَذِّراً لَهُ مِنَ اللَّعِبِ !

وهَلْ إِذا كانَتِ الرِّدَّةُ مُباحَةً فى شَرِيعَتِنا فَكَيْف جاءَ الأَمْرُ بِجِهادِ المُرْتَدِّينَ فى كِتابِ اللهِ تَعالَى حَيْثُ يَقُولُ جَلَّ فى عُلاه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[2] .

وهَلْ إِذَا قالَ اللهُ سُبْحانَهُ : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ كانَ لَنا أَنْ نَسْرِقَ ونَقْتُلَ دُونَ نَظَرٍ إِلَى ما بَعْدَها ، وهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿٦﴾ ولَيْسَ بِبَعِيدٍ عَنْ شِعارِ الحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّة ، ما نَراهُ يُدَنْدِنُونَ لَهُ بِدَعْوَى **التَّسامُحِ الدِّينِي** ؛ وأَنَّ الكُلَّ فى واحِدٍ أَلَا وهُوَ الإِنْسان .

ومُرادُ الشَّيْطانِ تَذْوِيبُ الأَدْيان .. تَوْطِئَةً لِعِبادَتِهِ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰن .

وفى سَبِيلِ ذَلِكَ يُهَيِّئُونَ اللِّقاءَ والالْتِقاءَ بَيْنَ الشَّبابِ اليَهُودِي والمُسْلِمِ والمَسِيحِي تَحْتَ رايَةِ الـ (peace now) أَى (السَّلامُ الآن) ، وما أَدْراكَ ما يَحْدُثُ فى هَذهِ المَحافِلِ مِنْ تَشَرُّبٍ لِسياساتِ الإِباحِيَّةِ والتَّحَلُّلِ والتَّفَسُّخِ مِنَ القِيَمِ الدِّينِيَّةِ بِدَعْوَى التَّحَضُّرِ والمَدَنِيَّةِ والعَصْرِيَّة .

وفى هَذا الاتِّجاهِ قَد نَجَحُوا فى حَذْفِ خانَةِ الدِّيانَةِ مِنْ جَوازاتِ السَّفَرِ فى غالِبِيَّةِ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ والإِسْلامِيَّة .

---

(١) سُورَةُ الكَهْف (مِنَ الآيَة ٢٩) .
(٢) سُورَةُ المائِدَة (الآيَة ٥٤) .

٧ ومِمَّا يُرَوِّجُهُ المُعانِدونَ : **سَلْبَ الإِسْلامِ لِحُرِّيَّةِ المَرْأَة** ؛ فَدَفَعُوها لِلْمَهانَةِ والامْتِهان ، والإِسْلامُ قَدْ أَحاطَها بِسِياجِ الأَمان ، وهاكَ البَيان :

يَقُولُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (١) .

عِنْدَما أَباحَ الإِسْلامُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِها لِتُباشِرَ عَمَلاً ما ، قَدْ كانَ ذَلِكَ لِضَرورَةٍ قُصْوَى ، مِنْ حَيْثُ كان العَمَلُ ابْتِداءً مَعْقُوداً بِناصِيَةِ الرَّجُلِ ، فَهُوَ المَسْئُولُ عَنْ نَفَقَةِ البَيْت ..

الخُروجُ لِلضَّرورة : ولَكِنْ لا بَأْسَ مِنْ خُروجِ المَرْأَةِ لِلْعَمَلِ ، تَبْتَغِي فَضْلاً مِنْ رَبِّها إِذا كانَتْ بِلا عائِلَ ، أَو لَها عائِلٌ لَكِنَّهُ لا يُغَطِّي كُلَّ نَفَقاتِ البَيْت . ولَكِنْ تِلْكَ الرُّخْصَةُ مَشْروطَةٌ بِأَنْ تَخْرُجَ مُتَّشِحَةً بِعِفَّتِها .. فَإِذا كانَ فى العَمَلِ عُدْوانٌ عَلَى هَذِهِ العِفَّةِ ، فَإِنَّ الإِسْلامَ يَرْفُضُ العَمَلَ لِفُقْدانِ العُنْصُرِ الأَخْلاقِيِّ الَّذى هُوَ أَعَزُّ لَدَيْهِ مِنْ كُلِّ مَتاعِ الدُّنْيا . وإِلَّا فلا مَعْنَى لِأَنْ تَعْمَلَ المَرْأَةُ ، ثُمَّ يَكُونُ عِرْضُها مُباحاً أَو كَلأً مُسْتَباحاً ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مَصْلَحَةَ القَوالِبِ لا تَغْنِي عَنْ مَصْلَحَةِ القُلُوب (٢) .

نَعَم .. القُلُوبُ : الَّتى يَجِبُ أَنْ نُعَمِّرَها بِالقِيمِ الجامِعَةِ المانِعَةِ ، فَإِذا اخْتَفَى العُنْصُرُ الأَخْلاقِي .. فَحِمايَةً لِلْمَرْأَةِ مِنَ الزَّيْغِ وصِيانَةً لِلْمُجْتَمَعِ مِنَ الفَسادِ .. عَلَيْها أَنْ تَعُودَ إِلَى بَيْتِها : تَكْريماً لَها واعْتِزازاً بِها ، كَجَوْهَرَةٍ مَكْنُونَةٍ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هُناكَ فى البَيْتِ فِراراً بِها مِنْ طَمَعِ الطَّامِعِينَ ، وإِلَّا (فَإِنَّ إِصْرارَها عَلَى الخُروجِ مُتَبَذِّلَةً مُتَبَرِّجَةً بِزِينَةٍ) يُحَمِّلُها مَسْئُولِيَّةَ ما يَحْدُثُ مِنَ انْحِرافٍ ، عَلَى ما يَقُولُ الرَّافِعِي : (لو كُنْتُ قاضِياً .. وعُرِضَتْ عَلَيَّ قَضِيَّةُ شابٍّ تَحَرَّشَ بِفَتاةٍ مُتَبَرِّجَةٍ ، لَعاقَبْتُ الفَتاةَ أَوَّلاً ، لأَنَّها تَكْشِفُ اللَّحْمَ الطَّرِيَّ .. لِلْهِرِّ الجائِع) !!

ولَقَد فَسَّرَ المُغْرِضُونَ الآيَةَ الكَرِيمَةَ عَلَى هَواهُمْ وهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾، فَسَّروها تَفْسِيراً خاطِئاً فَكانَتِ النَّتائِجُ المُتَرَتِّبَةُ عَلَيْهِ أَيْضاً خاطِئَة : ونَحْنُ بِدَوْرِنا نَسْتَعْمِلُ حَقَّنا فى الرَّدِّ ، شارِحِينَ الآيَةَ الكَرِيمَةَ

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب (مِنَ الآيَة ٣٣) .

(٢) مِنْ مَقالٍ للدكتور محمود عمارة بمجلة الأزهر .

شَرْحاً يُحِقُّ اللّٰهُ بِهِ الحَقَّ ، ويُبْطِلُ الباطِل .

وقَبْلَ الرَّدِّ ؛ هُناكَ نُقْطَةُ نِظامٍ وهِيَ :

أَنَّ الآيَةَ لا تُفَسَّرُ مَنْزُوعَةً مِنَ سِياقِها وسِياقُ الآيَةِ هُنا هُوَ أَمْرُ النِّساءِ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الفَضائِلِ الإِنْسانِيَّةِ الَّتى لا تَنْهَضُ البُيُوتُ إِلاَّ عَلَيْها وهِيَ :

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ ، ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ ، ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، ﴿ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ، ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ .

ويَعْنِي قَوْلُهُ تَعالَى : لا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ .. (تَرْقِيقَ الكَلامِ إِذا خاطَبْنَ الرِّجالَ ؛ أَى : أَنَّ المَرْأَةَ تُخاطِبُ الأَجانِبَ بِكَلامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ أَى : لا تُخاطِبُ المَرْأَةُ الرِّجالَ الأَجانِبَ كَما تُخاطِبُ زَوْجَها)[1] .

ومَعْنَى القَرارِ فى قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ مِنَ القَرار ، وفيهِ رائِحَةُ الوَقار .. أَى : (الْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حاجَة) ، ونُلاحِظُ أَنَّ البَيْتَ لَيْسَ كَما يَزْعُمُونَ سِجْناً ، ولا القَرارَ فيهِ وَأْدٌ ؛ وإِنَّما يُرِيدُها الإِسْلامُ مُحْتَرَمَةً كُلَّ الوَقْتِ ؛ فَلا تَعْرِضُ نَفْسَها فيما يُشْبِهُ أَسْواقَ النُّخاسَةِ .. وهَذا سِرُّ قَرارِها (لا كَما يَزْعُمُ مَنْ قالَ عَلَى اللّٰهِ شَطَطاً وعَلَى المَرْأَةِ غَلَطاً) ، ثُمَّ إِنَّ البُيُوتَ بُيُوتُكُنَّ أَى بُيُوتُ النِّساءِ وإِذا كانَت وَثِيقَةُ التَّمْلِيكِ بِاسْمِ الزَّوْج ؛ فَإِنَّ البَيْتَ بَيْتُها ، وهُوَ بِذَلِكَ لَيْسَ وَأْداً ولا سِجْناً ، وإِنَّما هِيَ الحِمايَةُ لِتَظَلَّ المَرْأَةُ كالبَيْضِ المَكْنُونِ لا تُدَنِّسُها يَدُ لامِس .

وإِذَنْ فالبُيُوتُ عِنْدَئِذٍ واحَةٌ ظَلِيلَةٌ نَدِيَّةٌ بالعِفَّةِ والأَمْنِ والحُرِّيَّةِ والكَرامَة .

هَذِهِ القِيَمُ تَحْمِي المَرْأَةَ مِنَ التَّبَذُّلِ وتَحْمِى الرِّجالَ مِنَ الإِثارَة .

وكانَتِ المَرْأَةُ تَمْشِي بَيْنَ الرِّجالِ : فَذَلِكَ تَبَرُّجُ الجاهِلِيَّة .

---

(١) ابْنُ كَثِير .

فَإذا جاءَ الإِسْلامُ لِيَحْمِيَها مِنْ هَذا الهَوانِ ، فَتِلْكَ هِيَ الحُرِّيَّةُ وهَذهِ هِيَ الكَرامَةُ المَحْسُوبَةُ للإِسْلامِ ولَيْسَتْ مَحْسُوبَةً عَلَيْه .

ومَعَ هَذا القَرار الَّذي قَدْ تُمْلِيهِ الضَّرُورَةُ فإِنَّ الآيَةَ الكَرِيمَةَ تُحَرِّضُ النِّساءَ عَلَى أَنْ يَكُنَّ لَهُنَّ وُجُودٌ مُكَثَّفٌ فى صَمِيمِ المُجْتَمَعِ : فالقَرارُ فى البَيْتِ لا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ أَنْ يَكُنَّ مِحْوراً تَدُورُ عَلَيْهِ عَجَلَةُ المُجْتَمَعِ فَهُنَّ مَأْمُوراتٌ بِالصَّلاةِ وهِيَ حَقُّ الخالِقِ ، ثُمَّ بِإِيتاءِ الزَّكاةِ وهِيَ حَقُّ المَخْلُوقِ ، ثُمَّ التَّحَرُّرِ مِنَ الهَوَى لِيَكُونَ الوَلاءُ كُلُّهُ للهِ تَعالَى ، وما يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الانْحِرافِ ، لِيَكُنَّ فى الأُسَرِ عِمادَها ، ولِلأَوْلادِ نِعْمَ المُرَبِّي ، ولِلزَّوْجِ خَيْرَ مُعِين .

وفَوْقَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِنَّ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ ما يَهْبِطُ فى بُيُوتِهِنَّ مِنَ الوَحْيِ الأَعْلَى لِيَكُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَنَواتٍ مِنْ قَنَواتِ المَعْرِفَةِ تَصُبُّ فى نَهْرِ المُجْتَمَعِ مِنْ أَسْرارِ الرَّسُولِ ما يَغِيبُ عَنِ الرِّجال .

وإِذَنْ فلا يعْنِي القَرارُ فى البَيْتِ صَيْرورَةَ الزَّوْجَةِ مُتْعَةً حَيَوانِيَّةً ، ولَنْ تَكُونَ النَّظْرَةُ إِلَيْها جِنْسِيَّةً كما يَزْعُمُونَ وإِنَّما هِيَ شَرِيكٌ فاعِلٌ فى إِدارَةِ البَيْتِ ، بَلْ وإِدارَةِ المُجْتَمَع .

وإِذا عاوَدْنا النَّظَرَ فى قَوْلِ الحَقِّ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

نَجِدُ : تَجاوُزَ المُتَسَرِّعينَ كُلَّ الخُطُوطِ الحَمْراءِ ، عِنْدَما قالوا عَلَى الإِسْلامِ بُهْتاناً عَظِيماً بِشَأْنِ المَرْأَةِ الَّتى ظَنُّوها وقَدْ حُكِمَ عَلَيْها بِالمَوْتِ الأَبَدِيِّ حِينَ جَعَلَ قَرارَها فى البَيْتِ الَّذى صارَ مَحْبَساً لَها وهِيَ رَهِينَتُهُ !

فَقَدْ ظَهَرَ بِما لا يَدَعُ مَجالاً لِلشَّكِّ ، ومِنْ خِلالِ هَذهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ ، الَّتى اسْتَشْهَدوا بِها : ظَهَرَ أَنَّ المَرْأَةَ فى مِرْآةِ الإِسْلامِ شَخْصِيَّةٌ تَعِيشُ فى بُؤْرَةِ الشُّعُور ، ولَيْسَ عَلَى هامِشِ الحَياة .

ومَنْ تَأَمَّلَ الآيَةَ الكَرِيمَةَ فى إِطارٍ مِنْ سِياقِها .. بَدَتِ المَرْأَةُ بِمَلامِحِها المُشْتَقَّةِ

مِنَ (المُروءَة) وكانَ لابُدَّ بَعْدَ هَذهِ الحَقائِقِ مِنَ التَّسْلِيمِ بِالنَّتيجَةِ المُنْتَهِيَةِ إِلَيْها وهِيَ أَنَّ المَرْأَةَ عُنْصُرٌ فاعِلٌ ، لا مُنْفَعِلٌ ولَكِنَّهُ العِنادُ الرَّافِضُ لِكُلِّ دَليلٍ ، لأَنَّهُ غَيْرُ مُؤَهَّلٍ لِلتَّعامُلِ مَعَ الآخَرِينَ بِالدَّليلِ وذَلِكَ شَأْنُ الطَّبْعِ الدَّخِيلِ ، وإِذا أَلْغَى هَؤُلاءِ المُتَعَنِّتُونَ عُقُولَهُم .. فَلَمْ يَدْعَنُوا لِلدَّليلِ الآخِذِ بِحُجُزِهِمْ إِلَى الحَقِّ المُبِينِ بَلِ اسْتَسْلَمُوا لِقيادِ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ ، فَإِنَّ هُناكَ مِنَ الوَقائِعِ ما يُشَكِّلُ دَليلاً واقِعِيًّا وتاريخِيًّا يُثْبِتُ أَنَّ المَرْأَةَ الَّتى كانَ البَيْتُ مَمْلَكَتَها كانَتْ لَها حَرَكَتُها الإِيجابِيَّةُ خارِجَ عَتَبَةِ البَيْتِ عَلَى نَحْوٍ يَرْفُضُ مَقُولَةَ هَؤُلاءِ الجاحِدِين .

فالقُرْآنُ الكَرِيمُ يُقَدِّمُ النَّمُوذَجَ الكامِلَ لِلْمَرْأَةِ عامِلَةً فاضِلَةً ، وذَلِكَ فى سُورَةِ القَصَصِ وفى قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1] .

فالمَرْأَةُ تَعْمَلُ بَعْدَما عَجَزَ الرَّجُلُ عَنِ العَمَلِ ، وتَعْمَلُ ما يُناسِبُها مِنَ الأَعْمالِ وفى سَبِيلِ كَرامَتِها وعِفَّتِها تَتَحَمَّلُ المَشاقَّ ، وتُفَضِّلُ أَنْ تَكُونَ آخِرَ مَنْ يَسْقِى عَلَى أَلاَّ تَبِيعَ شَرَفَها بِدُنْياها .. ثُمَّ هِيَ تُخاطِبُ الرَّجُلَ الأَجْنَبِيَّ مَحْكُومَةً بِعِفَّتِها وإِبائِها .

وكانَ لِلْمَرْأَةِ دَوْرُها المَرْمُوقُ فى التَّحَوُّلاتِ الخَطِيرَة :

فَهَذهِ السَّيِّدَةُ أَسْماءُ بِنْتُ أَبى بَكرٍ رضي الله عنهما (وكانَتْ حامِلاً) تَتَكَفَّلُ بِحَمْلِ الطَّعامِ لِلرَّسُولِ ﷺ ووالِدِها فى الهِجْرَةِ ، ولَمْ يَقْعُدْ بِها حَمْلُها ووَهَنُها عَنِ التَّضْحِيَةِ بِراحَتِها ، بَلْ بِحَياتِها فى سَبِيلِ اللهِ وفى هَذا الجَوِّ المَشْحُونِ بِالخَطَر .

وكانَتْ تَقُومُ بِخِدْمَةِ زَوْجِها (الزُّبَيْر بن العَوَّام) رضي الله عنه ، تَقُومُ عَلَى شُئُونِ فَرَسِهِ ، وكانَت تَسْتَقِى الماءَ .. ثُمَّ تَجْمَعُ النَّوَى وتَدُقُّهُ دَقًّا .

وهَذِهِ (خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ) رضي الله عنها طالَبَتْ بِحَقِّها فى شَجاعَةٍ أَدَبِيَّةٍ تُحْسَدُ عَلَيْها مِنَ المَرْأَةِ اليَوْمَ ، بَلْ إِنَّها تُجادِلُهُ ﷺ فى ذَلِكَ جِدالاً انْتَهَى بِحُصُولِها عَلَى هَذا

---

(١) سُورَةُ القَصَص (الآية ٢٣) .

الحَقِّ مِنْحَةً مِنَ اللهِ تَعالَى ، لا مِنَّةً مِنَ الزَّوْجِ .

وكانَ دَوْرُهُنَّ الأَخْطَر ، عَلَى جَبْهَةِ القِتال : يَسْقِينَ الماءَ ويُجَهِّزْنَ الطَّعامَ ويُحَرِّضْنَ عَلَى القِتالِ ، ثُمَّ يُعالِجْنَ المَرْضَى حَتَّى عَلَى مُسْتَوَى نِساءِ بَيْتِ النُّبُوَّة واللَّاتِى يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِنَّ الأَمْرُ ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ اتِّجاهاً مُباشِراً ، فَهَذِهِ السَّيِّدَةُ فاطِمَةُ الزَّهراءُ رضي الله عنها بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحْرِقُ الحَصِيرَ بَعْدَ تَطْهِيرِ الجُرْحِ بِالماءِ ثُمَّ تَحْشُو بِتُرابِهِ جُرْحَ أَبِيها ﷺ ، فى الوَقْتِ الَّذى كانَتْ فيهِ أُوروبَّا تَحْتَقِرُ مِهْنَةَ الطِّبِّ ، بَلْ وتَمْنَعُ التَّداوِىَ بِالعَقاقِيرِ وإذا كانَ ولابُدَّ مِنْ عِلاجٍ : فَبِتَعاوِيذِ الكُهَّانِ وإلاَّ كانَ الحِرْمانُ الكَنَسِي ! ؟ .

وإذا كانَ الصَّلِيبُ الأَحْمَرُ أَو الهِلالُ الأَحْمَرُ .. يُمارِسُ دَوْرَهُ اليَوْمَ خارِجَ المَعْرَكَةِ وبَعْدَ أَنْ تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزارَهَا فَإِنَّ المَرْأَةَ المُسْلِمَةَ كانَت تُخاطِرُ بِوُجُودِها فى مَعْمَعانِ المَعْرَكَةِ الَّتى قد تُكَلِّفُها حَياتَها !

وحَتَّى عَلَى مُسْتَوى أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ : فَقَدْ كانَتِ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ وكانَتِ السَّيِّدَةُ أُمُّ سُلَيْم رضي الله عنهما تَحْمِلانِ قِرَبَ الماءِ ، وتَغْسِلانِ الجِراحَ .. فَذَلِكَ خَيْرٌ لِلْمَرْأَةِ .. أَم ما يَحْدُثُ فى بِلادِ المُفْتَرِينَ ؟ إِنَّ الاتِّهامَ بِالوَأْدِ يَنْبَغِى أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى الوائِدِ اليَوْمَ هُناكَ فى بِلادٍ يَصِفُونَها (بِالمُتَحَضِّرَةِ) وفى القَرْنِ الحادِي والعِشْرِين !!

لَقَدْ كانَ العَرَبِىُّ يَئِدُ ابْنَتَهُ لِواحِدٍ مِنْ سَبَبَيْن :

إِمَّا مَخافَةَ العار ، أَو مَخافَةَ الفَقْر .

ومَعَ رَفْضِنا لِلْوَأْدِ مَهْما كانَ سَبَبُهُ ، إِلَّا أَنَّنا نُوقِظُ الغافِلِينَ مِنَ اللِّئامِ اللَّائِمِينَ لِنَقُولَ لَهُم : إِذا وَجَدَ العَرَبِىُّ لِلْوَأْدِ سَبَباً ، فَما هِىَ العِلَّةُ اليَوْمَ فى أَنْ تَضَعَ أُمٌّ وَلِيدَها فى دُرْجِ المَكْتَبِ حَتَّى يَمُوت !؟ ما هُوَ عُذْرُ الرِّجالِ هُناكَ ، وفى بِلادٍ تَدَّعِي أَنَّها تَحْتَكِرُ المَدَنِيَّة .

ما عُذْرُ والِدٍ .. يُجْبِرُ ابْنَتَهُ عَلَى الخُروجِ مِنَ البَيْتِ وَراءَ رِزْقِها ؟! ثُمَّ هِىَ اليَوْمَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ باكِيَةً لأَنَّها تُرِيدُ اسْتِئْجارَ غُرْفَةٍ فى بَيْتِهِ بِعِشْرِينَ وهُوَ يَرْفُضُ

حَتَّى تَدْفَعَ ثَلاثِين ؟! يَحْدُثُ هَذا فى نَفْسِ الوَقْتِ الَّذى يُطالِبُ فِيهِ الإِسْلامُ المَرْأَةَ أَنْ تَقَرَّ .. لا فى بَيْتِ زَوْجِها وإِنَّما فى بَيْتِها هِىَ .

وتَعَجَّبْتُ حَتَّى كِدْتُ لا أَتَعَجَّبُ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ يَرْمُونَ الإِسْلامَ بِدائِهِمْ ثُمَّ يَهْرَبُونَ هَؤُلاءِ يَجْعَلُونَ مِنْ حَسَناتِي .. سَيِّئاتِي !!

وهُنا نُكَرِّرُ .. بَلْ نُقَرِّرُ : أَنَّ الإِسْلامَ لَمْ يَحْكُمْ عَلَى المَرْأَةِ بِالسِّجْنِ المُؤَبَّدِ فى بَيْتِها ، ولَمْ يُقِمْ حَوْلَها (التَّحْصِينات) المانِعاتِ مِنَ الحَرَكَةِ والعَمَلِ خارِجَ البَيْتِ كَما يَزْعُمُ الزَّاعِمُون .

وسَواءٌ أَكانَ الأَمْرُ بِالقَرارِ خاصّاً بِزَوْجاتِهِ ﷺ أَو يَشْمَلُ كُلَّ النِّساءِ المُسْلِماتِ .. فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَنْفِي الواقِعَ التَّارِيخِىَّ وهُوَ اشْتِراكُ المَرْأَةِ مَعَ الرَّجُلِ فى تَرْقِيَةِ المُجْتَمَعِ بِالوقُوفِ مَعَهُ فى خَنْدَقٍ واحِدٍ فى اتِّجاهِ البِناءِ والتَّعْمِيرِ والدِّفاعِ عَنِ الوَطَنِ مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ أَمْرَهُنَّ بِالقَرارِ فى البُيُوتِ لَمْ يَكُنْ أَبَدِيّاً ، فَقَدْ كانَ لأُمَّهاتِ المُؤْمِنينَ دَوْرٌ فَعَّالٌ عَلَى أَرْضِ المَعارِكِ العَسْكَرِيَّةِ كَما أَسْلَفْنا ..

وهَذِهِ السَّيِّدَةُ (صَفِيَّةُ بنتُ عَبْدِالمُطَّلِب) رضي الله عنها عَمَّةُ الرَّسُولِ ﷺ تَنْزِلُ مِنَ الحِصْنِ يَوْماً ومَعَها عَمُودٌ .. فَضَرَبَتْ بِهِ يَهُودِيّاً .. فَقَتَلَتْهُ .. ثُمَّ عادَتْ إِلَى الحِصْنِ وفى هُدوء !

ولَقَدْ كانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ مَجالاً ظَهَرَتْ فِيهِ هِمَّةُ النِّساء ..

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ: (لَمَّا كانَ يَوْمُ أُحُد . انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ ولَقَدْ رَأَيْتُ عائِشَةَ بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ ، وأُمَّ سُلَيْم ، وأَنَّهُما لَمُشَمِّرَتانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِما (الخَلاخِيل) ، تَحْمِلانِ القِرَبَ فى سُرْعَةٍ ووَثْبٍ عَلَى مُتُونِهِما (ظُهُورِهِما) تُفْرِغانِهِ فى أَفْواهِ القَوْم)[1] ، والقَوْمُ هُم الرِّجالُ بِطَبِيعَةِ الحال .

وعَلَى فَرْضِ أَنَّ الأَمْرَ خاصٌّ بِزَوْجاتِهِ وآلِ بَيْتِهِ ﷺ دُونَ بَقِيَّةِ النِّساءِ فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَجْعَلُ القَرارَ حُكْماً عامّاً لأَنَّ القاعِدَةَ الإِسْلامِيَّةَ تَقُولُ : (إِنَّ فِعْلَ المَعْصُومِ وهُوَ النَّبِىُّ ﷺ لا يَدُلُّ عَلَى الوجُوب ، بَلِ الجوازُ والمَشْروعِيَّةُ فَقَط ، كما هُوَ مُقَرَّرٌ فى

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

عِلْم الأُصُول) (١)

وإذَنْ فالقرارُ هُوَ الأَصْلُ حِفاظاً عَلَى المَرْأَةِ مِنَ التَّبذُّلِ ، وصِيانَةً لَها مِنَ الذِّئابِ العاوِيَةِ ! ولَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَلْغِ شَخْصِيَّتَها ، ولَمْ يَجْعَلْها كَمّاً مُهْمَلاً .. وإنَّما كانَ لَها دَوْرُها المُؤَثِّرُ فى مَجْرَى الأَحْداثِ ، لاسِيَّما عَلَى أَرْضِ المَعْرَكَةِ العَسْكَرِيَّة :

أ) حَرامُ بِنْتُ مِلْحانَ كانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ تَرْكَبُ أُسْطُولاً بَحْرِيّاً مَعَ زَوْجِها عُبادَةَ بنِ الصَّامِت رضي الله عنه .

ب) أَسْماءُ بِنْتُ يَزِيد (المَعْروفَةُ بِخَطِيبَةِ النِّساءِ) لَمْ تَكُنْ تُجِيدُ فَنَّ الكَلامِ فَقَطْ ثَرْثَرَةً ومِراءً ، وإنَّما كانَت فى المَواقِفِ الصَّعْبَةِ عِنْدَ حُسْنِ الظَّنِّ بِها ، فَقَدْ بايَعَتْهُ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ مَعَ كَوْكَبَةٍ مِنَ الرِّجال ، وما يُشِيرُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ إِعْطائِهِ العَهْدَ عَلَى اسْتِرْخاصِ الحَياةِ الَّتى تَرْصُدُها لِتَبْذُلَها فى سَبِيلِ شَيْءٍ أَعَزَّ مِنْ هَذِهِ الحَياةِ وهُوَ الإِسْلامُ ، بَلْ إِنَّها لَمَّا دَقَّتْ طُبُولُ الحَرْبِ (فى مَعْرَكَةِ اليَرْمُوك) فَعَلَتْ ما لايَفْعَلُهُ إِلاَّ الأَشِدَّاءُ مِنَ الرِّجالِ ، فَقَدِ اقْتَلَعَتْ عَمُودَ الخَيْمَةِ .. ثُمَّ قَتَلَتْ بِهِ تِسْعَةً مِنَ الرُّوم .

وأَيْنَ مِنْ شَجاعَتِها تِلْكَ ما يَتَباهَى بِهِ المُسْتَغْرِبُونَ اليَوْمَ تَنْوِيهاً بِشَجاعَةِ امْرَأَةٍ تَسَلَّقَتْ جَبَلاً شاهِقاً وبِقَلْبٍ مَزْروعٍ غَيْرِ مَطْبُوع .

إِنَّ شَجاعَةَ (خَطِيبَةِ النِّساءِ) لأَرْبَى فى المِيزانِ مِنْ كُلِّ ما يَدَّعُون !! هَذِهِ المَرْأَةُ الَّتى كانَت دُرَّةً فى كَوْكَبَةِ النِّساءِ اللاَّئِى أَمَرَهُنَّ (خالِدُ) رضي الله عنه أَنْ يَكُنَّ وَراءَ الجَيْشِ ، وأَنْ يَقْتُلْنَ كُلَّ هارِبٍ مِنَ الرِّجالِ ، وما يَشِي بِهِ ذَلِكَ مِنْ شَجاعَةٍ عَزِيزَةِ المَنال .

لَقَدْ كانَتْ كَوْكَبَةُ النِّساءِ فى اليَرْمُوكِ فَوْقَ مُسْتَوَى المَوْقِفِ ، فَإِنَّ الخَوْفَ الرَّعِيبَ يُمْكِنُ أَنْ يَقْطَعَ الصِّلَةَ بَيْنَ الخَلايا العَصَبِيَّةِ بَيْنَ القَلْبِ وبَيْنَ المُخِّ الَّذي يَتَوَقَّفُ فى مَعْمَعانِ الهَوْلِ ، فَتَتَوَقَّفُ إِشارَتُهُ إِلَى القَلْبِ بِتَدَفُّقِ الدَّم ..

ولَكِنَّ المَرْأَةَ فى شَخْصِ تِلْكَ المَجْمُوعَةِ مِنَ المُقاتِلاتِ ، كانَت حُجَّةً تُحْبِطُ ما

---

(١) النِّقاب / ٦١ د. القَرضاوي .

يَزْعُمُهُ الزَّاعِمُونَ مؤَكِّدَةً أَنَّ الأَمْرَ بِقَرارِ المَرْأَةِ فى البَيْتِ لَمْ يَمْنَعْها مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَى الجَبْهَةِ العَسْكَرِيَّةِ مُقاتِلاً شَرِيفاً .

ولَكِنَّ المُفْتَرِينَ يُنْكِرونَ الشَّمْسَ فى رائِعَةِ النَّهار ، مُتَجاهِلينَ مَنْظُومَةَ القِيَمِ الَّتى أُمِرَتْ بِها مَعَ هَذا (القَرار) مُرَكِّزينَ فَقَطَ عَلَى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ، وكانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْتَرِفُوا صاغِرِينَ : بِأَنَّ القَرارَ فى البَيْتِ أَشْرَفُ مِنْ قَرارِ المَرْأَةِ فى اليُونان .. فى قاعِ البِئْرِ هُناكَ حَتَّى يُدْرِكَها المَوْت !! .

ولَمْ تَكُنْ شَجاعَةُ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ مُبادَراتٍ فَرْدِيَّةٍ ، لَكِنَّها كانَتْ ظاهِرَةً عامَّةً ، وهَذهِ (أُمُّ خَلاَّد) رضي الله عنها تَشْهَدُ مَعَ زَوْجِها وولَدِها وأَخِيها ، تَشْهَدُ غَزْوَةَ أُحُد ، فَلَمَّا اسْتُشْهِدوا جَمِيعاً تَحَمَّلَتْ وَحْدَها قَسْوَةَ المَوْقِفِ ، ولَمْ تُذْهِبْ نَفْسَها مَعَ الغَمِّ شُعاعاً .

ومَعَ هَذهِ الحَقائِقِ الدَّامِغَةِ نَسْمَعُ مَنْ يَتَبَجَّحُ مُدَّعِياً أَنَّ المَرْأَةَ المُسْلِمَةَ كانَتْ قَعِيدَةَ البَيْتِ تَحْتَ رَحْمَةِ زَوْجِها الَّذي كانَ يُرِيدُها مُتْعَةً لِلْفَراشِ ، فَأَقامَ حَوْلَها التَّحْصِيناتِ لِتَظَلَّ لَهُ وَحْدَهُ ؟! فى الوَقْتِ الَّذى كانَتْ مَعَهُ وعَلَى الجَبْهَةِ العَسْكَرِيَّةِ تَدِكُّ تَحْصِيناتِ العَدُوِّ !! وهُم يُنْكِرُون ذَلِكَ بِلا عِلْمٍ ولا هُدَىً ولا كِتابٍ مُنِير .

وتَعْجَبُ مِمَّنْ يَجْعَلُ مِنْ مَحاسِنِكَ دَلِيلَ إِدانَتِكَ !؟

إِنَّهُم خُلَفاءُ قَوْمِ لُوط ، الَّذين جَعَلُوا الطُّهْرَ بَدَلَ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضِياً لِلْبَقاءِ ، جَعَلُوهُ سَبَبَ الخُروجِ فَقالُوا ما حَكاهُ القُرْآنُ الكَرِيم :

﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (١) .

٨ ومِنَ الحِيَلِ الشَّيْطانِيَّةِ الَّتى يُولُونَها جُلَّ اهْتِمامِهِمْ وبالِغَ عِنايَتِهِمْ ما يُعْرَفُ بـ (**بُنُوك اللَّبَن**) وصاحَبَ ذَلِكَ حَمْلَةٌ إِعْلامِيَّةٌ مُنَظَّمَةٌ تَصَدَّتْ لَها أَبْواقُهُم فى جَمِيعِ وَسائِلِ الإِعْلامِ والَّتى تَعالَتْ نَبَراتُها مُتَباكِيَةً عَلَى الأَطْفالِ الأَبْرِياءِ الَّذينَ فَقَدوا أُمَّهاتِهِم ، ولِما لِلَّبَنِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ الإِسْراعُ وتَعْمِيمُ بُنُوكِ اللَّبَنِ لِتَقُومَ بِمَهامِّها الإِنْسانِيَّةِ المُلِحَّةِ فى رُبُوعِ الأَمْصارِ الإِسْلامِيَّة .

---

(١) سُورَةُ النَّمل (مِنَ الآيَة ٥٦)

إِنَّهُ مَنْفَذٌ جَدِيدٌ يَلِجُ مِنْهُ الشَّيْطانُ لإِشاعَةِ زِنَى المَحارِمِ فى المُجْتَمَعاتِ الإِسْلامِيَّةِ ، كَى يَتَزَوَّجَ الأَخُ أُخْتَهُ مِنَ الرَّضاعَةِ دُونَ أَنْ يَدْرِي .

إِنَّ الإِسْلامَ لا يَمْنَعُ (بَلْ يَحُثُّ عَلَى التَّعاونِ والبِرِّ والمُواساةِ) مِنْ أَنْ يَرْضَعَ طِفْلٌ حُرِمَ مِنْ لَبَنِ أُمِّهِ لأَي سَبَبٍ مِنَ امْرَأَةٍ أُخْرَى ، ولَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ الأُمُورُ واضِحَةً ؛ بِأَنْ يَكُونَ هَذا الطِّفْلُ مَعْروفاً والأُمُّ الَّتى أَرْضَعَتْهُ فَتَصِيرَ أُمّاً لَهُ فى الرَّضاعَةِ ، ويَصِيرَ أَبْناؤها إِخْوَةً لِهَذا الطِّفْلِ مِنَ الرَّضاعَةِ ، عِنْدَئِذٍ لا يَحْدُثُ اخْتِلاطٌ فى الأَنْساب .

بُنُوكُ اللَّبَنِ فِيها امْتِهانٌ لِلْمَرْأَة :

قُلْ لِي بِرَبِّكَ ، أَلَيْسَ فى ذَهابِ الأُمِّ المُرْضِعِ لِبُنُوكِ اللَّبَنِ لِتُدِرَّ ثَدْيَيْها ، وتُسْكِبَ لَبَنَها ، مُقابِلَ أَجْرٍ لإِغْرائِها ، وقَدْ شَبَّهُوها بِالبَقَرَةِ والجامُوسَةِ امْتِهانٌ لَها ؟ .. هَذا ما أَرادُوهُ لَها !! ومِنْ عَجَبٍ أَنَّ هَذهِ الحَمْلَةَ تَتَوازَى مَعَها دَعْوَةٌ وصَرْخَةٌ مُطالِبَةً بِالمَوْتِ الرَّحِيمِ ، وسَنِّ تَشْرِيعٍ بِذَلِكَ لِمَنْ أُيِسَ مِنْ شِفائِهِ !!! ولا تَعْلِيق .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ .

﴿٩﴾ ومِمَّا يُتَرْثِرُونَ بِهِ بِدَعْوَى (**تَحْرِير المَرْأَةِ ومُساواتِها بِالرَّجُلِ**) ، أَنَّ فى (**تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ**) إِجْحافاً بِحُقُوقِها ، ويَبْدو أَنَّ هَذا مُقَدِّمَةٌ لِلْمُطالَبَةِ بِأَنْ تُعَدِّدَ المَرْأَةُ أَزْواجَها كَما يُعَدِّدُ الرَّجُلُ زَوْجاتِهِ لِتَكُونَ المُساواةُ كامِلَةً بَيْنَهُما .

وعَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ آدَمَ خَلَقَ لَهُ حَوَّاء ، فَكانَ لِكُلِّ رَجُلٍ زَوْجَةٌ ولِكُلِّ امْرَأَةٍ زَوْجٌ واحِدٌ ، ثُمَّ تَغَيَّرَ الوَضْعُ بِأَنِ انْتَشَرتْ شُيُوعِيَّةُ النِّساءِ والرِّجالِ واخْتَفَى نِظامُ الأُسْرَةِ نَهائِيّاً ، حَتَّى مَلَّتِ البَشَرِيَّةُ هَذا النِّظامَ ، فَتَطَوَّرَ إِلَى أَنْ حَدَّدَتِ المَرْأَةُ عَدَداً مُعَيَّناً مِنَ الرِّجالِ لِيَكُونوا أَزْواجاً لَها ، حَتَّى إِذا حَمَلَتْ ووَضَعَتْ مَوْلُودَها ، دَعَتْ جَمِيعَ أَزْواجِها وعَرَضَتْ عَلَيْهِم المَوْلُودَ واخْتارَتْ واحِداً مِنْهُم وقالَتْ لَهُ هَذا ابْنُكَ يا فُلان .

ولَكِنْ هَذا النِّظامُ لَمْ يَكُنْ هُوَ النِّظامُ المِثالِي ، ولِهَذا تَغَيَّرَ الوَضْعُ ، فَأَصْبَحَ للرَّجُلِ وَضْعٌ اجْتِماعِيٌّ مُتَمَيِّزٌ وأَصْبَحَ هُوَ الَّذى يُعَدِّدُ الزَّوْجاتِ ، حَتَّى إذا جاءَ الإِسْلامُ فَنَظَّمَ الأَمْرَ ووَضَعَ حَدّاً أَعْلَى لِتَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ بِأَلَّا يَزِيدَ عَلَى أَرْبَعِ نِساءٍ بِشُروطٍ وضَوابِطَ مُعَيَّنَة .

وهَكَذا جاءَ الإِسْلامُ لِيَحِدَّ ما عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ فَوْضَى فى الزَّواجِ وفَوْضَى فى مُعامَلَةِ المَرْأَةِ والإِساءَةِ إِلَيْها ، فَكَرَّمَها وعَزَّزَها وقَرَّرَ لَها مِنَ الحُقُوقِ ما لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ أَىُّ نِظامٍ فى العالَمِ حَتَّى الآن .

إِنَّ نِظامَ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ يُؤَدِّي إِلَى المُساواةِ بَيْنَ النِّساءِ فى حَقِّ الزَّواجِ إِذْ مِنْ حَقِّ كُلِّ امْرَأَةٍ أَنْ تَتَزَوَّجَ لِتُؤَدِّىَ رِسالَتَها فى الحَياةِ ، وفى غالِبِ الأَحْيانِ الآنَ يَكُونُ عَدَدُ النِّساءِ أَكْبَرَ مِنْ عَدَدِ الرِّجالِ فَإِذا مَنَعْنا التَّعَدُّدَ كَثُرَ عَدَدُ النِّساءِ العَوانِسِ ، ومِنْهُنَّ مَنْ لا تَسْتَطِيعُ عِفَّةَ نَفْسِها فَتَنْزَلِقُ إِلَى مَهاوِي الرَّذِيلَةِ وتَفْتَحُ المَجالَ لِلْفِسْقِ والفُجُورِ ، فَتَنْحَلُّ عُرَى الأُسْرَةِ وتَفْسُدُ العَلاقاتُ بَيْنَ الزَّوْجَيْن .

بِالإِضافَةِ إِلَى أَنَّ فى مَنْعِ التَّعَدُّدِ تَعَدِّي عَلَى حَقِّ النِّساءِ اللاَّتِى لَمْ يَتَزَوَّجْنَ فى الحُصُولِ عَلَى زَوْجٍ أُسْوَةً بِهَؤُلاءِ اللاَّتِى تَزَوَّجْنَ .

إِنَّ وُجُودَ نِساءٍ بِدُونِ أَزْواجٍ أَخْطَرُ عَلَى الأُسْرَةِ مِنْ زواجِهِنَّ عَلَى زَوْجاتٍ أُخْرَياتٍ لأَنَّهُنَّ يَعْمَلْنَ عَلَى هَدْمِ الأُسْرَةِ القائِمَةِ والانْتِقامِ مِنْها والحِقْدِ عَلَيْها .

إِنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى أَعْلَمُ بِما يَنْفَعُ المُجْتَمَعَ ، وما يَتَلاءَمُ مَعَ حاجَةِ خَلْقِهِ ، وإِنَّ ما يَقُولُهُ ويُرَدِّدُهُ البَعْضُ فى المُجْتَمَعاتِ الإِسْلامِيَّةِ مِنْ أَنَّ المَرْأَةَ فى العَصْرِ الحَدِيثِ حَصَلَتْ عَلَى مُكْتَسَباتٍ لَمْ يَصِلْ إِلَيْها الإِسْلامُ قَوْلٌ مَرْفُوضٌ مُجافٍ لِلْحَقِيقَةِ تَوَلَّى نَشْرَهُ الشَّيْطانُ بِلِسانِ مَنْ أَغْواهُ مِنْ بَنِي الإِنْسان .

﴿١٠﴾ ومِنْ هَذهِ الشِّعاراتِ شِعارُ (الدِّيمُقْراطِيَّة مُتَزَيِّيَةً بِزِيِّ العَلْمانِيَّة) والقَصْدُ مِنْ وَرائِهِ هَدْمُ القِيَمِ السَّماوِيَّة ، . وتَزامُناً مَعَها صَنَعوا حَرَكاتٍ وحَرَّكُوها وهَيَّئُوا لَها الشَّعْبِيَّة .. تَحْتَ الشِّعاراتِ الإِسْلامِيَّةِ واتَّخَذُوهُم أَداةَ ضَغْطٍ

عَلَى الحُكَّامِ ومَصْدَرَ تَخْدِيرٍ لِلرَّعِيَّة وزَيَّنُوا لَهُم أَنَّهُم إِخْوانَ ..... وحَقِيقَةً كانُوا إِخْواناً لِلشَّياطِين .

وهَذا لَيْسَ تَجَنِّياً عَلَيْهِمْ ، فَأَمْرُهُم لا يَخْفَى عَلَى مَنْ كانَ لَهُ بَصِيصٌ مِنْ نُورِ اللّهِ ولا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِم صَراحَةً (والمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسانِهِ) : نُرِيدُ أَنْ نَحْكُمَ بِالإِسْلام ، ولَوْ كانُواصادِقِينَ لَقالُوا : نُرِيدُ أَنْ نُحْكَمَ بِالإِسْلام .

ونَعُودُ إِلَى العَلْمانِيَّةِ ولَيْسَ ما حَدَثَ فى اسْتانْبُول (مَرْكَز الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ) بِبَعِيد ؛ فَقَد جَاءوا بِالماسُونِي (كمال الدين أَتاتورك) ، ولا أَدْرِي أَيَّ دِينٍ الَّذى بَلَغَ كَمالَهُ ؟! إِلاَّ أَنْ يَكُونَ دِينَ الشَّياطِين .. الَّذينَ آزَرُوهُ وأَطاحُوا بِخَلِيفَةِ المُسْلِمين .

ويَجْدُرُ بِنا أَنْ نَذْكُرَ هُنا النَّصَّ الَّذى جاءَ فى دائِرَةِ المَعارِفِ الماسُونِيَّةِ ويَتَعَلَّقُ بِكَلامِنا .

تَقُولُ دائِرَةُ المعارِفِ الماسُونِيَّة : (إِنَّ الانْقِلابَ التُّرْكِي الَّذي قامَ بِهِ الأَخُ مُصْطَفَى كَمال أَتاتُورْك أَفادَ الأُمَّةَ كَثِيراً ، فَقَد أَسْقَطَ السَّلْطَنَةَ وأَلْغَى الخِلافَةَ وأَبْطَلَ المحاكِمَ الشَّرْعِيَّةَ وأَلْغَى دِينَ الدَّوْلَةِ الإِسْلامَ .. وهَذا هُوَ الإِصْلاحُ الَّذى تَتَّبِعُهُ الماسُونِيَّةُ فى كُلِّ أُمَّةٍ ناهِضَةٍ .. فَمَنْ يُماثِلُ أَتاتُورْكَ مِنْ رِجالاتِ الماسُون سابِقاً ولاحِقاً ؟ !!!)[1]

ولِلأَسَفِ الشَّدِيد ! بَعْدَ سُقُوطِ دَوْلَةِ الخِلافَةِ العُثْمانِيَّةِ وعُلُوِّ شَأْنِ أَعْدائِها مِنَ اليَهُودِ والصَّلِيبِيِّينَ الماسُونِيِّينَ : عَمَدُوا إِلَى تارِيخِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ العَظِيمَةِ فى عُصُورِها الفاتِحَةِ فَعَمِلُوا عَلَى دَفْنِهِ وإِخْفائِهِ .

وفى المُقابِلِ فَإِنَّهُم جَاءوا إِلَى فَتْرَةِ الضَّعْفِ والانْهِيار (فَتْرَةِ ضَعْفِ بَعْضِ السَّلاطِين المُتَأَخِّرِينَ وانْشِغالِهِم بِلَهْوِهِمْ ومُجُونِهِم) فَنَفَخُوا فِيها وضَخَّمُوا مِنْ حَجْمِها وأَظْهَرُوها لِلعالَمِ كُلِّهِ عَلَى أَنَّها حالَةُ الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ عَلَى إِطْلاقِها .

ولِلأَسَفِ الشَّدِيد !! فَإِنَّ الغالِبِيَّةَ العُظْمَى مِنَ المُسْلِمِينَ قَد سايَرُوهُم سُلُوكَهُم

---

(١) نَقْلاً عَنْ مَجَلَّةِ (التِّبْيان) شَوَّال ١٤٢٨ هـ .

هَذا .. وراجَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الزُّورُ والبُهْتانُ والَّذى أَشاعَهُ بِإِتْقانٍ الشَّيْطانُ ، فانْساقُوا وراءَهُم فى تِلْكَ المُؤامَرَة ؛ مُؤامَرَةِ تَشْوِيهِ وتَزْوِيرِ تارِيخِ الدَّوْلَةِالعُثْمانِيَّةِ العَظِيمَةِ ، وإِخْفاءِ عُصُورِها الزَّاهِرَةِ وسَلاطِينِها الفاتِحِينَ العِظامِ الَّذينَ فَتَحُوا أُورُوبَّا وبَثُّوا الرُّعْبَ فى قُلُوبِ مُلُوكِها والهَلَعَ والفَزَعَ فى نُفُوسِ أُمَرائِها .

إِنَّ فى عَصْرِ السَّلاطِينَ الفاتِحِينَ عاشَتِ الدَّوْلَةُ العُثْمانِيَّةُ خِلافَةً راشِدَةً امْتَدَّتْ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ قُرونٍ حَيْثُ اتَّسَعَتْ فِيها رُقْعَةُ البِلادِ ودَخَلَ النَّاسُ فى الإِسْلامِ أَفْواجاً وجَماعاتٍ ، وارْتَفَعَتْ راياتُهُ خَفَّاقَةً عالِيَةً بَيْنَ مَشارِقِ الأَرْضِ ومَغارِبِها ، وعَلَتْ أَعْلامُ النَّصْرِ فَوْقَ قِلاعِ أُورُوبَّا وأَسْوارِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ومِنْ بَعْدِها صَحارِي آسْيا وغاباتِ أَفْرِيقْيا ، ومَرَّتْ عَلَى الدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ العَظيمَةِ فَتْرَةٌ مِنَ الزَّمانِ سادَتِ الدُّنْيا وهابَها العالَمُ وخَطَبَ وُدَّها الأَباطِرَةُ والمُلُوكُ والأُمَراء.

أَلَيْسَ السُّلْطانُ عَبْدُالحَميد الثَّانِي هُوَ الَّذى رَفَضَ الإِغْراءاتِ الماسُونِيَّةِ الشَّيْطانِيَّةِ مُقابِلَ تَسْلِيمِ القُدْسِ لِلصَّهايِنَة ؟ وذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ عَقْدِ مُؤْتَمَر (بازل) بِسويسرا عام (١٨٩٧ م) والَّذى قَرَّرَ اتِّخاذَ فَلَسْطِينَ وَطَناً قَومِيّاً لِلْيَهُودِ ، ذَهَبَ اليَهُودِي (هرتزل) إِلَى الخَلِيفَة (عبدالحميد) وذَكَرَ لَهُ أَنَّ الحَرَكَةَ الصَّهْيونِيَّةَ مُسْتَعِدَّةٌ أَنْ تُقَدِّمَ قَرْضاً لِلدَّوْلَةِ العُثْمانِيَّةِ قَدْرُهُ خَمْسُونَ مليوناً مِنَ الجُنَيْهاتِ ، وأَنْ تُقَدِّمَ هَدِيَّةً خاصَّةً لِخَزانةِ السُّلْطانِ قَدْرُها خَمْسَةُ مَلايينَ مِنَ الجُنَيْهاتِ ، نَظِيرَ السَّماحِ لِلْيَهُودِ بِإِقامَةِ وَطَنٍ قَوْمِيٍّ لَهُمْ فى فَلَسْطين .

فَرَدَّ الخَلِيفَةُ قائِلاً : (بَلِّغُوا الدكتور هِرتزل أَلَّا يَبْذُلَ بَعْدَ اليَوْمِ شَيْئاً مِنَ المُحاوَلَةِ فى هَذا الأَمْر ، فَإِنِّي لَسْتُ مُسْتَعِدّاً لأَنْ أَتَخَلَّى عَنْ شِبْرٍ واحِدٍ مِنْ هَذِهِ البِلادِ لِتَذْهَبَ إِلَى الغَيْر .. فالبِلادُ لَيْسَتْ مِلْكِي بَلْ هِيَ مِلْكُ شَعْبِي ، وشَعْبِى رَوَى تُرْبَتَها بِدِمائِهِ ، فَلْيَحْتَفِظِ اليَهُودُ بِمَلايينِهِمْ مِنَ الذَّهَب) .

وأَصْدَرَ فَرَماناً بِمَنْعِ هِجْرَةِ اليَهُودِ إِلَى فَلَسْطِين .

ولَقَدْ ظَلَمَ ذَلِكَ التَّزْوِيرُ هَذهِ الخِلافَةَ الإِسْلامِيَّةَ العَظِيمَة .. خِلافَةَ العُثْمانِيِّينَ

الزَّاهِرَة .. خِلافَةَ الانْتِصاراتِ والفُتُوحاتِ فى عُصُورِها الأُولَى .. وذَلِكَ لأَنَّ تارِيخَها كُتِبَ بِأَيْدِي أَعدائِها سَوَاءٌ مِنَ الأُوروبِيِّينَ أَو العَرَبِ الَّذينَ تَرَبَّوا عَلَى مَناهِجِ الغَرْبِ الغَرِيبِ عَنِ الحَقِّ والحَقِيقَةِ ، ووَصَمُوا الخِلافَةَ بِأَنَّها احْتِلالٌ لِلدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ واسْتِبْدادٌ بِمُقَدَّراتِها .

أَلَيْسَ فِينا رَجُلٌ رَشِيد ؟!!

﴿١١﴾ وبِمَدْعاةِ المَدَنِيَّة وصِيانَةِ الحُقُوقِ الإِنْسانِيَّة :

عُطِّلَ تَطْبِيقُ الحُدودِ الشَّرْعِيَّةِ فى أَغْلَبِ البِلادِ الإِسْلامِيَّةِ ، مِمَّا كانَ نَتِيجَتُهُ اسْتِشْراءَ المَفاسِدِ الأَخْلاقِيَّةِ اسْتِرْضاءً لِلْحَوْزَةِ الشَّيْطانِيَّةِ ؛ فَوَجَدْنا فى مِصْرَ عَلَى سَبِيلِ المِثال :

شابّاً اغْتَصَبَ طِفْلَةً ، وآخَراً ذَبَحَ عَجُوزاً وسَرَقَ مالَها ، وثالِثاً اخْتَلَسَ أَمْوالَ شَرِكَتِهِ ، ورابِعاً احْتالَ عَلَى البُنُوكِ وسَرَقَ عِدَّة مِلْياراتٍ مِنْ أَمْوالِها .....

ولا عَجَب .. فَقَدْ حانَ لِبُذُورِ الشَّيْطانِ أَنْ تَأْتِيَ بِثِمارِها :

فَمَنِ اغْتَصَبَ الطِّفْلَةَ دُفِعَ بِشَهْوَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ مُقاوَمَتَها فى ظِلِّ غَلاءِ المُهُور ، ووُجُودِ وَسائِلَ إِعْلامٍ تَنْشُرُ الفُحْشَ والعُرْيَ ،وعُلَماءَ لَمْ يَقُومُوا بِواجِبِهِم فى تَرْبِيَتِهِ ومَنْ قَتَلَ العَجُوزَ لِسَرِقَتِها لَمْ يَجِدْ عَمَلاً يَقْتاتُ مِنْهُ ، ومَنْ سَرَقَ مِلْياراتٍ مِنَ البُنُوكِ وَجَدَ مَنْ يُسَهِّلُ لَهُ تِلْكَ السِّرْقَةَ أَو مَنْ يُشارِكُهُ فِيها مِمَّنْ هُم عَلَى رَأْسِ سُدَّةِ الحُكْم .

﴿١٢﴾ وبِدَعْوَى أَنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وما جَعَلَ عَلَيْكُم فى الدِّينِ مِنْ حَرَج :

اسْتَطاعَ أَنْ يُزَيِّنَ الشَّيْطانُ لِكَثِيرِينَ سُوءَ أَعْمالِهِمْ ، ويَدْفَعَ بِهِم إِلَى **التَّفْرِيطِ فى كَثِيرٍ مِنْ ثَوابِتِ إِسْلامِهِمْ** ، مُتَمَسِّحِينَ بِسَماحَةِ الإِسْلامِ وهُوَ حَقٌّ يُرادُ بِهِ باطِل .. ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ العُلَماءَ مُعَسِّرُونَ وأَنَّ الدِّينَ سَمْحٌ ومادامَ سَمْحاً فَهُم يُطالِبُونَ المُسْلِمِينَ بِالتَّنازُلِ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ ؛ ومِنْ أَمْثِلَةِ هَذا : مُطالَبَةُ البَعْضِ

---

(١) سُورَةُ الطَّلاق (مِنَ الآيَة ١) .

بِحَذْفِ لَفْظِ ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ ، وحَذْفِ (القَوامَةِ) مِنْ مُنْطَلَقِ مَزاعِمِهِمْ بِمُساواةِ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ وإزالَةِ الفَوارِقِ بَيْنَهُما ،.حَتَّى يَقُومَ الرَّجُلُ بِعَمَلِ وَظائِفِ المَرْأَةِ مِنْ حَمْلٍ ورَضاعَةٍ وغَيْرِهِ مادامَ أَنَّها تَعْمَلُ وتُنْفِقُ مِثْلَ الرَّجُلِ كَذَلِكَ يُنْكِرُونَ مَسْأَلَةَ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ ولِماذا أَباحَها الإِسْلامُ لِلرَّجُلِ ولَمْ يَجْعَل لِلْمَرْأَةِ الحَقَّ فى تَعَدُّدِ الأَزْواج .

ويُطالِبُونَ بِعَدَمِ جَوازِ طَلاقِ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ إِلَّا أَمامَ المَأْذُونِ وهُوَ ما يَتعارَضُ مَعَ قَوْلِ اللهِ تَعالَى : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ .

وفِيما يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ المِيراثِ ومِنْ مُنْطَلَقِ مُناداتِهِمْ بِمُساواةِ الرَّجُلِ والمَرْأَةِ فى المِيراثِ : خَطَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ الإِسْلامِيَّةِ خُطُواتٍ نَحْوَ هَذا الأَمْرِ كـ (تُونُس) ، (وتُرْكيا) ؛ فَساوَتْ بَيْنَ مِيراثِ الأَخِ والأُخْتِ مِمَّا يُعَدُّ أَكْبَرَ مِنْ مُجَرَّدِ التَّفْرِيطِ فى أَحْكامِ الدِّينِ ، وقَدْ حَذَّرَ الحَقُّ جَلَّ فى عُلاهُ الأُمَّةَ عَلَى لِسانِ نَبِيِّهِ ومُصْطفاهُ ﷺ قائِلاً : ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١) .

ومِنْ عَجَبٍ أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ فَرَّطُوا فى الثَّوابِتِ هُمْ أَصْحابُ الأَصْواتِ العالِيَةِ فى الأُمَّةِ الآنَ ، بَلْ ووَصَلوا إِلَى دَرَجَةِ التَّأْثِيرِ القَوِيِّ عَلَى صانِعِي القَرار ، حَتَّى إِنَّ كَثِيراً مِنَ العُلَماءِ يَخافُونَهُم ، وهُنا نُذَكِّرُ بِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (٢) .

بَيْنَ المُفَرِّطِينَ والمُتَشَدِّدِينَ تَسْهُلُ مُهِمَّةُ الشَّيْطانِ اللَّعِين :

إِنَّ تَصَدِّي أَنْصافِ المُتَعَلِّمِينَ أَو الجُهَلاءِ بِالدِّينِ لِلفَتْوَى مِنْ أَسْبابِ وُجُودِ التَّيْسِيرِ غَيْرِ المُنْضَبِطِ والتَّفْرِيطِ الَّذي أَضاعَ الدِّينَ ، وصَدَقَ مَنْ قالَ : ما تَرَكَ الأَوائِلُ قَوْلاً لِقائِل .. فَقَدِيماً قالوا : ثَلاثَةٌ بِهِنَّ ذَهابُ العُمْران :

١ - أَنْصافُ العُلَماءِ يُخَرِّبونَ الأَدْيان .

٢ - أَنْصافُ الأَطِبَّاءِ يُخَرِّبُونَ الأَبْدان .

---

(١) سُورَةُ المائِدَة (مِنَ الآيَة ٤٩) . (٢) سُورَةُ آل عِمْران (الآيَة ١٧٥) .

٣ - أَنْصافُ السَّاسَةِ يُخَرِّبُونَ الأَوْطان

إِنَّهُ إِلَى عَهْدٍ قَرِيبٍ كانَ (العالِمُ العامِل) بَيْنَ النَّاسِ مُنْتَشِر ، أَمَّا الآنَ فَأَصْبَحَ وُجُودُهُ كَوجُودِ الزِّئْبَقِ الأَحْمَر .. وإِنْ وُجِدَ فَهُوَ مُسْتَتِر .

وأَمَّا مارْكَة .. اللِّى (عامِلْ عالِم) فَهذا فى العَددِ كَجَرادٍ مُنْتَشِر .

إِنَّ ظُهُورَ الفَسادِ أَضْحَى جَلِيًّا لِلْعَيان .. بِحَيْثُ لا يُخْطِئُهُ إِنْسان ..

وجاءَ مُواكِباً لِتَصَدِّي أُولَئِكَ لِلْفُتْيا عَبْرَ الفَضائِيَّاتِ الَّتى صُنِعَتْ وبُرْمِجَتْ عَلَى عَيْنِ الشَّيْطان .. والَّتي تُبَثُّ عَلَى مَدارِ السَّاعَةِ إِلَى كُلِّ مَكان .

ومِمَّا زادَ الطِّينُ بِلَّةً ؛ أَنَّ هَؤُلاءِ المُفَرِّطِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُم بالمُفَكِّرِينَ الإِسْلامِيِّينَ ، كَما أَنَّ المُتَشَدِّدِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُم بِشَيْخِ الإِسْلام ، هَذا فى الوَقْتِ الَّذى نَجِدُ فِيهِ العُلَماءَ والفُقَهاءَ الَّذينَ دَرَسُوا العِلْمَ الشَّرْعِيَّ ودَرَسُوا أُصُولَ الفِقْهِ وعَرَفُوا الحَلالَ والحَرامَ لا يَأْخُذونَ المِساحَةَ الكافِيَةَ فى تَوْصِيلِ المَفْهُومِ الصَّحِيحِ لِلنَّاسِ ، حَتَّى وُكِّلَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِه .

﴿١٣﴾ ومِنْ تِلْكَ الشِّعارات : **خِتانُ الإِناث .. امْتِهانٌ لآدَمِيَّةِ الإِنْسان** ومِنَ الأَمْثِلَةِ الصَّارِخَةِ عَلَى هَذا الاتِّجاهِ المُدَمِّرِ ما أُذِيعَ وتَرَدَّدَ عَلَى كُلِّ لِسانٍ أَنَّ خِتانَ الإِناثِ حَرامٌ يُوجِبُ القِصاصَ ، ولا يَدْرِي مَنْ لَهُ قِسْطٌ مِنَ العِلْمِ عَلَى أَيِّ دَلِيلٍ اسْتَنَدَ هَذا التَّحْرِيمُ سِوَى ما أَرادَتْهُ الأُمَمُ المُتَّحِدَةُ ومُؤْتَمَراتُ السُّكانِ وحُقُوقُ الإِنْسانِ كَما يَقُولُون .

هَلْ يَسْتَسِيغُ مُسْلِمٌ أَنْ يُحَرِّمَ شَيْئاً أَقَرَّهُ النَّبِىُّ ﷺ ولَمْ يَنْهَ عَنْهُ مَعَ انْتِشارِهِ فى مَكَّةَ والمَدِينَةَ ، ولَعَلَّ قارِىءَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ قَوْلِ سَيِّدِنا حَمْزَةَ رضي الله عنه فِى غَزْوَةِ أُحُد إِلَى سَبَّاعِ بنِ عَبْدِالعُزَّى : (إِلَيَّ يا ابْنَ مُقَطِّعَةِ البُظُور) - وسَيِّدُنا حَمْزَةُ وسَبَّاعُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ - ، ولَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ شِعْرَ سَيِّدِنا حَسَّانَ بنِ ثابِتٍ رضي الله عنه وهُوَ يَهْجُو هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ ، ويَصِفُها بِأَنَّها لَمْ تَخْتَتِن ، فيَقُولُ عَنْها : هِنْدُ الهُنُودِ طَوِيلَةُ البَظْرِ .

هَذا مِنْ ناحِيَةِ ثُبُوتِ هَذهِ العادَةِ فى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وحِينَ نُفَتِّشُ فى أَحادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ أَىِّ نَهْيٍ عَنْ هَذهِ العادَةِ لا نَجِدُ سِوَى التَّرْشِيدِ بِأَنْ يَكُونَ القَطْعُ لِما بَرَزَ فَوْقَ الجِلْدِ ، والنَّهْىُ عَنِ الإِنْهاكِ ويُعَلَّلُ النَّهْىُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَحْظَى لِلزَّوْجِ وأَنْضَرُ لِلزَّوْجَة .

بَلْ نَجِدُ الإِسْلامَ يُرَتِّبُ عَلَى وُجُودِ الخِتانِ عِنْدَ المَرْأَةِ حُكْماً تَشْرِيعِيًّاً إِذا الْتَقَى بِهِ خِتانُ الرَّجُلِ ، فَأَيْنَ إِذَنْ نَصُّ التَّحْرِيم ؟! .

ثُمَّ كَيْفَ يَكُونُ القِصاصُ لِمَنْ دَعا إِلَى ذَلِكَ حِينَ تَكُونُ الخاتِنَةُ أُنْثَى مَخْتُونَةً ، أَو حِينَ يَكُونُ الخاتِنُ رَجُلاً وهُوَ بِالطَّبْعِ مَخْتُونٌ ؟! .

إِنَّ دُعاةَ الفِتْنَةِ فى عالَمِنا الإِسْلامِي قَدْ يُمَوِّهُونَ عَلَى عُلَمائِنا بِأَمْثِلَةٍ تَقَعُ فى بَعْضِ قَبائِلِ أَفْرِيقيا حِينَ يَقْطَعُونَ الشَّفْرَتَيْنِ ويُخَيِّطُونَ المَكانَ إِلَى أَنْ تَتَزَوَّجَ الفَتاةُ فَيُجْرُونَ لَها فَتْحاً جِراحِيًّاً ويُسَمُّونَ ذَلِكَ خِتاناً .. فَهَلْ سَمِعَ أَحَدٌ فى بِلادِنا العَرَبِيَّةِ بِأَنَّ هَذا خِتانٌ ، ثُمَّ إِذا كانَتْ هُناكَ أَخْطاءٌ عِنْدَ مَنْ يَقُومُونَ بِالخِتانِ الشَّرْعِي فَيُخالِفُونَ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَدَمِ الإِنْهاكِ ، أَو يُجْبِرُونَ كُلَّ فَتاةٍ عَلَى الخِتانِ ولو كانَتْ غَيْرَ مُحْتاجَةٍ إِلَيْهِ ، أَو يَزِيدونَ جُرْعَةَ التَّخْدِيرِ فَتَمُوتُ الفَتاةُ ويَجْعَلُونَ ذَلِكَ مُبَرِّراً لِتَحْرِيمِهِ .. فَهَلْ يَكونُ العِلاجُ بِالمَنْع ؟! .

إِنَّ كَثِيراً مِمَّنْ يُجْرُونَ عَمَلِيَّاتٍ جِراحِيَّةً مِنَ الأَطِبَّاءِ يَنْسَوْنَ أَدَواتِ الجِراحَةِ فى بَطْنِ المَرِيضِ ، ولَمْ نَسْمَع أَنَّ ذَلِكَ مُبَرِّرٌ لإِلْغاءِ الجِراحَةِ ، وكَم مِنْ مَرِيضٍ تُوفِّىَ بِسَبَبِ زِيادَةِ جُرْعَةِ التَّخْدِير .

لِذَلِكَ كُلِّهِ اسْتَنْكَرَ مَجْمَعُ البُحُوثِ الإِسْلامِيَّةِ بِجُمْهُورِيَّةِ مِصْرَ العَرَبِيَّةِ تَحْرِيمَ خِتانِ الإِناثِ ، ولَكِنَّهُ دَعا إِلَى تَرْشِيدِهِ بِحَيْثُ لا يَقَعُ ضَرَرٌ عَلَى الفَتاةِ ، وأَوْكَلَ تَحْدِيدَ الضَّرَرِ إِلَى أَهْلِ الذِّكْرِ مِنَ الأَطِبَّاءِ ، ومَعَ ذَلِكَ نُشِرَ فى الصُّحُفِ القَوْمِيَّةِ تَخْصِيصُ مِلْيار دولار لِلدَّعْوَةِ إِلَى مَنْعِ خِتانِ الإِناثِ فى أَرْبَعِ مُحافَظاتٍ فَقَط بِمِصْرَ .. ولَنا أَنْ نَتَساءَلَ تَساؤُلاً مَشْرُوعاً : مِنْ أَيْنَ هَذا المِلْيار ؟ إِنْ كانَ مِنَ الدَّوْلَةِ فَكانَ الأَوْلَى أَنْ يُصْرَفَ هَذا المَبْلَغُ الضَّخْمُ فى تَزْوِيجِ العَوانِسِ وهُم كُثُر ،

وإنَ كانَ مِنْ غَيْرِها فَما مَصْلَحَتُهُم فى ذَلِكَ ؟ .

أَوَ لا يُعَدُّ هَذا اخْتِراقاً آخَرَ يُضافُ إِلَى ما خَصَّصَتْهُ المَعُونَةُ الأَمْرِيكيَّةُ لِتَغْيِيرِ المُسْلِمِ لِدينِهِ ومَبادِئِهِ ؟!.[1]

﴿١٤﴾ كَذَلِكَ حَمْلَتُهم الدَّؤوبَةُ تَحْتَ عُنْوان :

تَنْظِيمُ النَّسل .. لِحياةٍ كَريمَةٍ وأُسْرَةٍ أَفْضَل

ومِنَ الأَمْثِلَةِ الصَّارِخَةِ كَذَلِكَ لِتَطْوِيعِ الدِّينِ لِما يُرِيدُهُ المُخَطِّطُونَ مَوْضُوعُ تَحْدِيدِ النَّسْلِ المُخَفَّفِ بِكَلِمَةِ تَنْظِيمِ النَّسل : يَقُولُ المُؤَيِّدونَ : إِنَّ الصَّحابَةَ كانَتْ تَعْزِلُ والقُرْآنُ يَنْزِلُ ، فَهذا إِقْرارٌ لِلْعَزْلِ وهُوَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسائِلِ مَنْعِ النَّسْلِ . ويَقُولُونَ إِنَّ واجِبَ الأَبِ أَنْ يُنْفِقَ عَلَى أَوْلادِهِ فَإِذا لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ ذَلِكَ ، فَلْيَمْنَعْ وُجُودَ هَؤُلاءِ الأَوْلادِ حَتَّى لا يَكُونَ مَصِيرُهُم كَأَطْفالِ الشَّوارِعِ .

وبَدَأَتِ الدِّعاياتُ فى وَسائِلِ الإِعْلامِ عَلَى مَدَى خَمْسِينَ عاماً تَدْعُو إِلَى الاقْتِصارِ عَلَى مَوْلُودٍ واحِدٍ أَو مَوْلُودَيْنِ حَتَّى إِذا جاءَ الثَّالِثُ قالُوا عَنْهُ إِنَّهُ جَاءَ خَطَأً .. ولا نَدْرِي مَنِ الَّذي أَخْطَأَ : أَهُوَ الَّذي بَثَّ الرُّوحَ أَمِ الأَبُ ؟ وهَل الأَبُ هُوَ الَّذي يَخْلُقُ ؟! لَقَد مَسَّتِ المَسْأَلَةُ عُنْصُراً مِنْ عَناصِرِ العَقِيدَةِ .. ثُمَّ كَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَ هَذا وبَيْنَ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ القَطْعِيَّةِ فى مِثْلِ قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[2] ، وقَوْلِهِ :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[3] ، وقَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4] ، وكَذَلِكَ فى الأَحادِيثِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الزَّواجِ مِنْ أَجْلِ الكَثْرَةِ المُؤْمِنَة .

وكَيْفَ نَفْهَمُ قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[5] .

وفى الأَحادِيثِ ما يُؤَكِّدُ أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ ومَعَهُ رِزْقُهُ وأَجَلُهُ .

---

(١) مِنْ مَقال لـ (د. محمد المختار محمد المهدي) بمجلَّةِ التِّبْيان .
(٢) سُورَةُ الأنعام (من الآية ١٥١) .
(٣) سُورَةُ الإسْراء (مِنَ الآية ٣١) .
(٤) سُورَةُ الواقِعَة (الآيتان ٥٨ ، ٥٩) .
(٥) سُورَةُ هُود (مِنَ الآيَة ٦) .

سَيَقُولُ المُؤَيِّدونَ إِنَّنا لَمْ نَقْتُلْ أَوْلادَنا ولَكِنْ مَنَعْنا وُجُودَهُم أَصْلاً .

ونَسْأَلُهُم لِماذا كانَ المَنْعُ ؟ أَلَيْسَ هُوَ العِلَّةُ لِلْوَأْدِ .. بِحُجَّةِ الفَقْرِ والإِمْلاقِ وكَثْرَةِ المَصارِفِ فى مُقابِلِ قِلَّةِ المَوارِدِ ، وهَلْ يُمْكِنُ لِلصَّحابَةِ ﷺ أَنْ يَعْزِلُوا خَشْيَةَ الفَقْرِ أَو مِنَ الفَقْرِ وهُمْ يَقْرَأُونَ تِلْكَ الآيات ؟! أَلَيْسَ مِنَ الواجِبِ قَبْلَ إِصْدارِ أَىِّ فَتْوَى أَنْ نَجْمَعَ النُّصُوصَ المُتَّصِلَةَ بِها ونُوَفِّقَ بَيْنَها ؟ ..

إِنَّ كَثيراً مِنَ الجِهاتِ تَنْشُرُ إِحْصائِيَّاتِ زِيادَةِ النَّسْلِ وتَتَناسَى الإِحْصائِيَّاتِ الأُخْرَى الَّتى تَقُولُ مَثَلاً : إِنَّ المُوَظَّفَ المِصْرِىَّ لا يَعْمَلُ فى اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دقائِقَ ، والَّتى تَقُولُ : إِنَّ مِصْرَ تَعِيشُ عَلَى ٥٪ فَقَط مِنْ أَرْضِها .. أَيْنَ اسْتِغْلالُ هَذِهِ الأَرْض ؟ ، وكَيْفَ تُسْتَغَلُّ بِلا أَطْفالٍ يَتَحَوَّلُونَ إِلَى شَبابٍ ورِجال : ثُمَّ أَلَيْسَ مِنْ فَهْمِ الواقِعِ أَنْ نُدْرِكَ حِرْصَ غَيْرِ المُسْلِمينَ عَلَى خَفْضِ مَوالِيدِ المُسْلِمينَ لِتَظَلَّ الهَيْمَنَةُ الاقْتِصادِيَّةُ والبَحْثِيَّةُ لِغَيْرِ المُسْلِمينَ دائِماً .. ولِماذا يَدْفَعُونَ هَذِهِ الأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ لِهَذِهِ الأَغْراضِ بِالذَّات ؟ هَلْ أَصابَهُم جُنُونٌ حَتَّى يَصْرِفُوا أَمْوالَهُم فِى غَيْرِ صالِحِ بِلادِهِمْ ، أَمْ هَلْ يُساعِدُوننا لِلّهِ وهُم لا يُؤْمِنُونَ بِاللّه .

إِنَّ الإِسْلامَ قَدْ نَظَّمَ النَّسْلَ بلا وَسائِلَ صِناعِيَّةٍ حينَ حَدَّدَ لِلرَّضاعَةِ سَنَتَيْنِ ، ولأَقَلِّ الحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُر ، قالَ تَعالَى :﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[1] ، وقَدْ صَرَّحَ كَثِيرٌ مِنَ المُخْتَصِّينَ بِأَنَّ المَرْأَةَ لَوْ حَافَظَتْ عَلَى مَواعِيدِ الرَّضاعَةِ لَيْلاً ونَهاراً فَإِنَّها لا تَحْمِلُ .. وإِنَّ كُلَّ وَسِيلَةٍ صِناعِيَّةٍ لَها آثارُها الجانِبِيَّةُ .. فَهَلْ لَنَا أَنْ نَعِىَ كُلَّ جَوانِبِ المَسْأَلَةِ قَبْلَ أَنْ نُفْتِىَ فِيها ؟!

إِنَّ تَنْظِيمَ النَّسْلِ أَو مَنْعَهُ يَخْضَعُ فى الإِسْلامِ لِلضَّرُورَةِ القُصْوَى حِينَ يَكُونُ الحَمْلُ ضارّاً بِالزَّوْجَةِ ضَرَراً مُؤَكَّداً يُحَدِّدُهُ الأَطِبَّاءُ الأَكْفاءُ المُؤْمِنُون .. أَمَّا مَنْ تُرِيدُ الحِفاظَ عَلَى جَمالِها أَو تُرِيدُ أَنْ تُدْخِلَ أَوْلادَها مَدارِسَ اللُّغاتِ وتَرَى أَنَّ ما تَحْصُلُ عَلَيْهِ شَهْرِيّاً لا يَكْفِي مَصارِيفَ هَذِهِ المَدارِسِ فَتَكْتَفِي بِطِفْلٍ أَو اثْنَيْنِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، فَهذا خُروجٌ عَنِ الفِطْرَةِ وعَنِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللّهِ ومُجاراةٌ لِما خَطَّطَ لَهُ

---

(١) سُورَةُ الأَحْقاف (مِنَ الآيَة ١٥) .

المتآمِرُون .

إنَّ الأَمْثِلَةَ لِلَيِّ أَعْناقِ النُّصُوصِ أَو لإِغْفَالِ بَعْضِها وانْتِقاءِ ما يَخْدُمُ المُرادَ .. مِنَ الكَثْرَةِ الآنَ ؛ بِحَيْثُ تُمَثِّلُ كارِثَةً للأُمَّةِ وضَياعاً لاسْتِقْلالِها ولِمَعالِمِ الإِسْلامِ ومَبادِئِه .(١)

تَذْكِير .. وتَحْذِير :

إنَّ مِمَّا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ إنَّ كُلَّ الأَقْيِسَةِ الفاسِدَةِ ، والقَضايا الباطِلَةِ والأَفْكارِ الهَدَّامَةِ إنَّما هِيَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطان ، وإنَّ الدِّفاعَ عَنْها والتَّشَبُّثَ بِها إنَّما هُوَ جَدَلٌ شَيْطانِي ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ ﴾ فَهُناكَ وَحْيٌ إِلَهِيٌّ لِلأَنْبِياءِ بِالحَقِّ والخَيْرِ ، وهُناكَ وَحْيٌ شَيْطانِيٌّ لِلسُّفَهاءِ بِالباطِلِ والشَّرِّ ، وإنَّ أَوْلِياءَ الشَّياطِين مِنَ السُّفَهاءِ يَتَمَسَّكُونَ بِوِجْهاتِ النَّظَرِ الباطِلَةِ ويُجادِلُونَ المُؤْمِنينَ بِالباطِلِ لِيَقْلِبُوا الحَقائِقَ اسْتِكْباراً عَلَى الحَقِّ .

ومِمَّا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ إنَّ الإِنْسانَ مَسْؤُولٌ عَنْ سُلُوكِهِ مَسْئولِيَّةً كامِلَةً ، وإنَّ عَوامِلَ المَعْصِيَةِ تَرْجِعُ إِلَى الإِنْسانِ والبِيئَةِ الفاسِدَةِ ، أَمَّا الشَّيْطانُ فَهُوَ عامِلُ إِغْراءٍ فَقَط ، ولَيْسَ هُوَ كُلُّ أَسْبابِ المَعْصِيَةِ ، وسَيَتَبَرَّأُ الشَّيْطانُ مِنَ الإِنْسانِ يَوْمَ القِيامَةِ ويَتَحَمَّلُ الإِنْسانُ مَسْؤُلِيَّتَهُ وَحْدَهُ ، قالَ اللّهُ تَعالَى :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢)

ومِنْ ثَمَّ يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَزَّ بِإِسْلامِهِ وأَنْ يَقُولَ كَما قالَ سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه : (لَقَدْ كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنا اللّهُ بِالإِسْلامِ فَإِذا طَلَبْنا العِزَّ فى غَيْرِهِ أَذَلَّنا اللّهُ) .

---

(١) مِنْ مَقالٍ لـ (أ.د. محمد المختار محمد المهدي) بمجلة التبيان .

(٢) سُورَةُ إبراهيم (الآية ٢٢) .

أُمَّةٌ تَدَّعِي التَّمَدُّنَ ورِعايَةَ حُقُوقِ الإِنْسان .. وتَحْتالُ كالذِّئابِ لِسَلْبِ ثَرَواتِ الأُمَمِ الضَّعِيفَةِ وقَدْ أَلْقَت قِيادَها لِلشَّيْطان :

وهَذا ما نَراهُ الآنَ واضِحاً جَلِيّاً لِلْعَيانِ ، فِيما تَفْعَلُهُ أَمْريكا وبريطانيا ومَنْ قاسَمَهُما هَذهِ السِّياسَةَ الرَّعْناءَ ، مِمَّنْ يَزْعُمُونَ التَمَدُّنَ ، ويُنادُونَ بِاسْمِ الإِنْسانيَّةِ ، وهُم يَحْتالُونَ احْتيالَ الذِّئابِ لِنَهْشِ أَجْسادِ الأُمَمِ ، ولا تَمْتَلِئُ مَعِدَتُهُم لا مِنْ دِماءِ الأُمَمِ ولا مِنْ لُحُومِها ، فَتَرْجُمُها فى أَوْطانِها ، وتُكَدِّرُ صَفْوَها ، وتَسْتَعْبِدُها ، وتُثْقِلُ عَلَيْها عِبْءَ الطَّلَبِ ، فَتَسْلُبُ نِعْمَتَها ، وتَجْعَلُها مُثْقَلَةً بِقُيُودِ الذِّلَّةِ والمَسْكَنَةِ ، ولا تَعُدُّ هَذا ظُلْماً ولا أَذَىً لِتِلْكَ الأُمَّةِ ولاهَضْماً ، وتَرْجُفُ بِخَبَرٍ كاذِبٍ تُلَفِّقُهُ لِغَرَضٍ مِنْ أَغْراضِها ، فَتَمْلأُ الفَضاءَ صِياحاً بِدَعْوَى الإِنْسانِيَّة .

فَلَو قِيلَ لَها : ما هَذهِ الحَمِيَّةُ ، وما ذَلِكَ التَّخْليطُ ؟!

لابُدَّ وأَنْ تَخْرُسَ عَنِ الجَواب .. جَهْلاً بِالصَّواب .

وهَكَذا مَسْلَكُ أَوْلِياءِ الشَّيْطانِ فى كُلِّ زَمانٍ ومَكان .

وأَمَّا عِبادُ الرَّحْمٰن : فَمَنْهَجُهُم الحُبُّ لِلّٰهِ ، والبُغْضُ لِلّٰهِ ، لا لِغَرَضٍ ، وشُكْرُ النِّعْمَةِ ، قَلَّتْ أَو كَثُرَتْ ، وإِرادَةُ النَّفْعِ لِخَلْقِ اللّٰهِ كُلِّهِم ، والتَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وتَرْكُ اليَأْسِ والقُنُوطِ ، والصَّبْرُ ، والتَّواضُعُ ، والوَفاءُ ، وتَرْكُ العُجْبِ ، وطَرْحُ الحِقْدِ والحَسَدِ والغَضَبِ والغِشِّ والحِرْصِ والطَّمَعِ ، وتَرْكُ البُخْلِ والخَدِيعَةِ وإِشْغالِ القَلْبِ بِحُبِّ الدُّنْيا ..

وتَعَلُّمُ العِلْمِ ، وتَعْلِيمُهُ ، والنُّصْحُ لِلّٰهِ ولِلنَّاسِ ، واجْتِنابُ اللَّغْوِ والتَّباعُدُ عَنْ إِضْرارِ الخَلْقِ بِاليَدِ واللِّسانِ ، والتَّطَهُّرُ بِالثَّوْبِ والبَدَنِ ، وإِيتاءُ الزَّكاةِ ، والصَّوْمُ ، والحَجُّ وسَتْرُ العَوْرَةِ ، والصِّدْقُ فى المُعامَلاتِ ، وقَوْلُ الحَقِّ ، والقِيامُ بِحُقُوقِ العِيال ، وبِرُّ الوالِدَيْن ، ومُعامَلَةُ الأَقْرَبِينَ بِالمَعْروفِ ، وصِلَةُ الرَّحِم ، والإِحْسانُ إِلَى المَوالِي ، والعَدْلُ فى كُلِّ الأُمُور .

وعَدَمُ الشُّذوذِ عَنِ الجَماعَةِ ، وطاعَةُ أُولِي الأَمْرِ (وهُم أَهْلُ البَيِّنَةِ مِنَ العُلَماءِ والفُقَهاءِ والأُمَراءِ الَّذينَ يُمثِّلُونَ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ تَمْثِيلاً صَحِيحاً بَعِيداً عَنِ الهَوَى والغَرَضِ وعَنْ سائِرِ المُؤَثِّراتِ ، ويُمَثِّلونَ طَوائِفَها المُخْتَلِفَة) فَهُم أَصْحابُ الكِفايَةِ فى الرَّأْي والتَّشْرِيعِ وأَهْلُ الدِّرايَةِ بِمَصالِحِ الأُمَّةِ وما يُوافِقُها .

والإِصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ ، والمُعاوَنَةُ عَلَى البِرِّ ، والأَمْرُ بِالمَعْروفِ والنَّهْىُ عَنِ المُنْكَرِ ، وأَداءُ الأَمانَةِ ، وإِكْرامُ الجارِ ، وإِنْفاقُ المالِ فى حَقِّهِ ، وكَفُّ الأَذَى والضَّرَرِ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ ، وإِماطَةُ الأَذَى عنِ الطَّرِيق .

هَذهِ القَواعِدُ أُمَّهاتُ أَحْكامِ الشَّرْعِ الأَنْوَر ؛ فَمَنْ كانَ مُنْصِفاً مِنْ أَىِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْناسِ الآدَمِيِّينَ ، ومِنْ أَىِّ مَذْهَبٍ كانَ ، وأَمْعَنَ النَّظَرَ بِحُكْمِ هَذهِ القَواعِدِ الشَّرِيفَةِ ، يَعْلَمُ ويَتَحَقَّقُ حَقَّ اليَقِين : أَنَّ المُسْلِمَ أَقامَهُ الشَّرْعُ نَفْعاً عامَّاً لِخَلْقِ اللهِ تَعالَى ، ولا عِبْرَةَ بِذِي جَهْلٍ مِنَ المُسْلِمينَ لَمْ يَعْرِفْ أَحْكامَ الدِّينِ المُبِين . فَإِنَّ الإِنْسانِيَّةَ مَنارُها الاسْتِعدادُ الفِطْرِي الَّذي انْدَمَجَ فى نَفْسِ الطِّينَةِ ، وقامَ مَعَ الكَوْنِيَّة .

وبَعِيداً عَنِ الإِسْلام .. إِذا انْدَفَعَتْ كُلُّ طائِفَة لِلْغَرَضِ النَّفْسِي .. وانْبَعَثَتْ مَعَ الحِقْدِ الطَّبِيعِي .. وقام بِها الحِرْصُ وقَعَد .. ورَبَطها الشَّرَهُ والطَّمَعُ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَد .. فَلابُدَّ وأَنْ يُنْتِجَ ذَلِكَ أَضْراراً عَظِيمَةً فى أَنْفُسِ النَّوْعِ الإِنْسانيِّ والأَمْوال ويَضُرَّ بالعالَمِ البَشَرِيِّ فى الأَخْلاقِ والأَحْوال .. ويُرَى الشَّيْطانُ وقَد صالَ وجال ..



الصَّهْيُونِيَّة تَتَسَتَّرُ بِاليَهُودِيَّة .. وغايَتُها هَدْمُ الأَدْيانِ السَّماوِيَّة

وكَما هِيَ عادَةُ الشَّيْطانِ يَدْخُلُ للإِنْسانِ بِما يُوافِقُ هَوَىً فى نَفْسِهِ ، وها هُوَ يَجِدُ ضالَّتَهُ المَنْشُودَةَ فى أُناسٍ جَمَحَ بِهِم الخَيالُ مُنْتَهاه .. فَبَعَثَ ورَسَّخَ فِيهِم عَقائِدَ شَعْبِ اللّهِ المُخْتار .. أَرْضِ المِيعادِ وجَبَلِ صَهْيُون .. مَعْرَكَةِ هَرْمَجَدُّون .. وذَلِكَ إِيذاناً بِعَوْدَةِ المَسِيحِ لِتَأْسِيس مَمْلَكَةِ اللّهِ عَلَى الأَرْضِ لِيَحْكُمَ العالَمَ مِنْ أُورشَلِيم واسْتَطاعَ أَنْ يَجْمَعَ أَعْدَى الأَعْداءِ فى خَنْدَقٍ واحِدٍ ، فاليَهُودُ لا يَعْتَرِفُونَ بِالسَّيِّدِ المَسِيح عليه السلام .

إِنَّ المَسِيحَ الَّذي يُهَيِّئُ الشَّيْطانُ لِعَوْدَتِهِ وظُهُورِهِ هُوَ المَسِيحُ الدَّجَّال .. والَّذي تَجْمَعُهُ بِالشَّيْطانِ وَحْدَةُ الغايَةِ والغِوايَةِ ، وتَوْطِئَةً لِذَلِكَ حُرِّفَتِ التَّوْراةُ والأَناجِيلُ لِغَرَضٍ يَسْعَى إِلَيْهِ إِبْلِيسُ .

انْفِصال .. واتِّصال

يَتَكَوَّنُ الكِتابُ المُقَدَّسُ مِنَ (العَهْدِ القَدِيم) : وهُوَ النَّصُّ المُقَدَّسُ المَرْجِعِيُّ لَدَى اليَهُودِ والمَسِيحِيِّينَ وهُوَ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ ومِائَةِ صَفْحَة .

ثُمَّ (العَهْدِ الجَدِيدِ) : وهُوَ النَّصُّ المُقَدَّسُ المَرْجِعِيُّ لِلْمَسِيحِيِّينَ فَقَط .. فَلا يُؤْمِنُ بِهِ اليَهُودُ ولا يُؤْمِنُونَ بِعِيسَى عليه السلام .

والكِتابُ المُقَدَّسُ حافِلٌ بالنُّبُوءاتِ عَنْ خَرابِ أُورشَلِيمَ بِسَبَبِ فَسادِ أَهْلِها ، ثُمَّ عَوْدَتُها فى نِهايَةِ الزَّمانِ لِتَكُونَ مَمْلَكَةَ الرَّبِّ عَلَى الأَرْض .

العَهْدُ الجَدِيدُ حافِلٌ بِالنُّصُوصِ الَّتى تُفَسَّرُ عَلَى أَنَّها تَحْقِيقٌ لِنُبُوءاتِ العَهْدِ القَدِيمِ ، أَو (لِيَتِمَّ ما جاءَ فى الكِتابِ) الَّذى هُوَ العَهْدُ القَدِيم ؛ مِنْها نُبُوءاتٌ عَنْ : مِيلادِ المَسِيحِ ، ومِنْها عَنْ رِسالَتِهِ ودُخُولِهِ أُورشَلِيمَ كَمَلِكٍ لِلْيَهُودِ وابْنِ داوُدَ ، ويَمْلِكُ إِلَى الأَبَدِ ، ولا تَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهايَة .

وتَصِلُ النُّبوءاتُ إِلَى ذُرْوَتِها فى رُؤْيا يُوحَنَّا (آخِر أَسْفارِ العَهْدِ الجَدِيد) والَّتى تَتَكَلَّمُ عَنْ مَعْرَكَةِ هَرْمَجَدُّونَ الَّتى تَسِيلُ فِيها الدِّماءُ : (.... وجَرَى أَنْهاراً حَتَّى

إِلَى لُجُمِ الخَيْلِ ارْتِفاعَ أَلْجِمَةِ الخَيْلِ مَسافَةَ أَلْفٍ وسِتِّ مِائَةِ غَلْوَة نَحْوَ ٣٠٠ كيلو مِتْر كَما جاءَ فى شَرْحِ كِتابِ الحَياة)[١].

اعْتِراف .. وانْحِراف

• وبِذَلِكَ أَصْبَحَتْ عَوْدَةُ إِسْرائِيلَ إِلى أَرْضِ المِيعادِ بِشارَةً بِقُدُومِ المَسِيحِ ، ودَلِيلاً عَلَى صِحَّةِ الكِتابِ المُقَدَّسِ ومَرْجِعِيَّتِهِ .

• اكْتَسَبَ بَنُو إِسْرائِيلَ أَهَمِّيَّةً جَدِيدَةً ، حَتَّى ولَوْ بِصِفَتِهِم أَداةً لِعَوْدَةِ المَسِيحِ ، وقِيامِ مَمْلَكَتِهِ عَلَى الأَرْض .

• كَذَلِكَ أَصْبَحَ تارِيخُ بَنِي إِسْرائِيلَ ، أَو العَبْرانِيِّينَ القَدامَى مِثالاً يَحْتَذِي بِهِ الأَمريكيُّونَ المُهاجِرونَ ، أَو شَعْبُ اللهِ الجَدِيدُ المُهاجِرُ إِلَى أُورشَلِيمَ الجَدِيدَةِ ، أَو أَرْضِ المِيعادِ الجَدِيدَةِ (أَمْريكا) .

• مُبارَكَةُ الرَّبِّ لِمَنْ يُبارِكُ إِسْرائِيل .

ومُنْذُ مُنْتَصَفِ القَرْنِ الماضِي (وخاصَّةً بَعْدَ حَرْبِ ١٩٦٧ م والَّتى كانَتْ بِمَثابَةِ مُعْجِزَةٍ إِلَهِيَّةٍ لَدى الأُصُولِيِّينَ المَسِيحِيِّينَ واليَهُود) لا يَتَكَلَّمُ ولا يَكْتُبُ مُفَكِّرٌ أَو عالِمٌ أَمْرِيكِىٌّ عَنِ الحَضارَةِ أَو القِيَمِ المَسِيحِيَّةِ ، ولَكِنْ عَنِ الحَضارَةِ اليَهُومَسِيحِيَّةِ وقِيَمِها ، بَلْ إِنَّ العَدِيدَ مِنْهُم يَقُولُ بِأَنَّ القِيَمَ والأَخْلاقَ والحَضارَةَ اليَهُودِيَّةَ هِىَ أَساسُ قِيَمِ وأَخْلاقِ وحَضارَةِ أَمْريكا ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الغَرْب .

فَعَلَى سَبِيلِ المِثالِ لا الحَصْر ؛ جاءَ فى كِتاب (أَمْريكا والأَرضُ المُقَدَّسة) مُوشى دافيز صَفحة ٥ :

• التَّوْراةُ فى المُعْتَقَداتِ الأَمْرِيكِيَّةِ هِىَ مَصْدَرُ الإِيمان ؛ فَلُغَتُها وخَيالاتُها وتَوْجِيهاتُها الأَخْلاقِيَّةُ تُشَكِّلُ جُزْءاً لا يَتَجَزَّأُ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ الأَمْرِيكِيَّة .

• والأَنْبِياءُ والوَثَنِيُّونَ والمُلُوكُ والعامَّةُ الَّذينَ عاشُوا فى إِسْرائِيلَ القَدِيمَةِ ، نَهَضُوا لِلْقِيامِ بِأَدْوارٍ مُعاصِرَةٍ فى التَّارِيخِ الأَمْرِيكى ؛ فى أَيَّامِهِ المُشْرِقَةِ

---

(١) رؤيا يُوحَنَّا (الإِصْحاح ١٤ - ٢٠) .

والعَصِيبَةِ عَلَى حَدٍّ سَواء .

وأَمَّا فى كتابِ (كَيْفَ نَفْهَمُ الأُصُوليَّةَ البُروتسْتانتيَّة والإيفانجليكيَّة)[1] ، جورج إم مارسدن ، فَقَد جاءَ فى صفحة ٩٩ : (... رُبَّما كانَ التَّأْثيرُ السِّياسيُّ الأَعْظَمُ للإيفانْجليكيَّةِ عَلَى السِّياسَةِ الأَمْريكيَّةِ خِلالَ الخَمْسينَ عاماً الماضِيَةَ ، هُوَ فى دَوْرِها الخاصِّ بِتَوْسيعِ القاعِدَةِ الشَّعْبِيَّةِ الخاصَّةِ بِالدَّعْمِ شِبْهِ الكامِلِ وغَيْرِ القابِلِ لِلتَّحَوُّلِ لِدَوْلَةِ إسْرائيل) .

تُرَكِّزُ تَعالِيمُ عَقِيدَةِ (المَرْحَلِيَّةِ) ذاتِ الانْتِشارِ الواسِعِ داخِلَ الحَرَكَةِ مُنْذُ ثَلاثِيناتِ القَرْنِ العِشْرِين ، عَلَى التَّنَبُّؤِ بِأَنَّ دَوْلَةَ إسْرائِيلَ سَوْفَ تَلْعَبُ دَوْراً جَوْهَرِيّاً فى خُطَّةِ اللهِ الخاصَّةِ بِالآخِرَةِ ، حَتَّى إنَّ مُعْظَمَ هَؤُلاءِ الإيفانْجليكيِّينَ الجُدُدِ الَّذينَ هَجَروا تفاصِيلَ (المَرْحَلِيَّةِ) لا يَزالُونَ يَحْمِلونَ إيماناً لا يَتَزَعْزَعُ بِدَوْرِ إسْرائِيلَ الَّذى قَدَّرَهُ اللهُ لَها ، ويَحْظَى هَذا الاعْتِقادُ بِشَعْبِيَّةٍ جارِفَةٍ فى أَمْريكا .

إيضاح .. وافْتِضاح

وفيهِ يَتَّضِحُ انْسِلاخُ أَمْريكا وأُوروبَّا مِنْ أَىِّ قِيَمٍ مَسيحِيَّةٍ حَقيقيَّةٍ ، بَلِ انْصَبَغُوا وتَخَلَّقُوا بِالأَخْلاقِ الشَّيْطانِيَّةِ ، مِنَ الإفْراطِ فى اسْتِعْمالِ القُوَّةِ والعُنْفِ والشِّرْعَةِ المادِيَّةِ ، وسِياساتِ السَّعْي للسَّيْطَرَةِ عَلَى العالَمِ مِمَّا أَفْرَزَ الحَمَلاتِ الاسْتِعمارِيَّةِ الَّتى اسْتَنْزَفَتْ دِماءَ وأَمْوالَ أَفْرِيقيا وآسْيا عَلَى مَدارِ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمانِ ، وبَعْدَها دِماءَ العالَمِ كُلِّهِ مِنْ جَرَّاءَ حَرْبَيْنِ عالَمِيَّتَيْنِ أَسالَتا دِماءَ ما يَزيدُ عَلَى مائَةِ مِليُون ضَحِيَّةٍ ، وهَدَمَتْ مِئاتِ المُدُنِ وآلافِ القُرَى ، ولَيْسَ بَعِيداً عَنَّا ما يَجْرِي الآنَ فى العِراقِ وفَلَسْطِينَ وأَفْغانِستانَ ، وهاكَ البَيان :

فى يَوْمِ الاحْتِفالِ بِإعادَةِ تَنْصيبِهِ رَئِيساً للوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأَمريكيَّة ، بَدأَ (بوش) المَراسِمَ بِالصَّلاةِ فى الكَنيسَةِ ، ثُم أَلْقى كَلِمَةً تَبْشِيرِيَّةً بِالقِيَمِ

---

(١) الإيفانْجليكيَّة : هى طائِفَةُ البروتسانَت الَّتى تُؤْمِنُ بِعِصْمَةِ الكِتابِ المُقَدَّسِ ، أى صِحَّتُهُ المُطْلَقَةُ ، وأَنَّهُ يَجِبُ تَفْسيرُهُ حَرْفِيّاً .

الأَمْريكيَّة .

وبَعْدَها وفى نِهايَةِ فبراير ، زارَ (بوش) حُلفاءَهُ الأُوروبيِّينَ فى بروكْسِل ، وأَلْقى كِلمَةً تَمَحْورَت عَلَى اشْتِراكِ أَمْريكا وأُوروبَّا فى القِيَمِ ، وبِأَنَّ اتِّحادَهُم فى القِيَمِ جَدِيرٌ بِأَنْ يُزيلَ أَىَّ عَقَبَةٍ قَد تُقابِلَهُم مِنَ العالَم .

(يَعْلَمُ مَنْ خاطَبَهُم بوش أَنَّهُ يَقْصِدُ بِذَلِكَ القِيَمَ المَسِيحيَّةَ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ اليَهومَسِيحيَّة) .

ونَحْنُ نَذْكُرُ بَعْضاً مِنَ القِيَمِ المَسِيحيَّةِ كما جاءَ بِها المَسِيحُ عليه السلام وكما تَتَّضِحُ فى أَناجِيلَ مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا .. فَهُوَ صاحِبُ رِسالَةِ السَّلامِ والحُبِّ والتَّسامُحِ ، والزُّهْدِ فى الدُّنْيا ، والبُعْدِ عَنِ المادِيَّاتِ ..... ولْنَتَذَكَّرْ بَعْضاً مِنْ جَواهِرِ حِكْمَتِهِ :

- مِحْوَرُ الشَّرِيعَةِ : حِبَّ لأَخِيكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ .
- دُخُولُ الجَمَلِ مِنْ سَمِّ الخِياطِ أَسْهَلُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّة .
- إِذا اشْتَهَتْ عَيْنُكَ امْرَأَةً فَقَدَ زَنَتْ ، فاخْلَعْها .
- الَّذينَ يَلْجَأُونَ إِلَى السَّيْفِ ، بِالسَّيْفِ يَهْلَكُون .
- مَمْلَكَتِى لَيْسَتْ فى هَذا العالَم .

كَذَلِكَ نَذْكُرُ بَعْضاً مِنَ القِيَمِ اليَهُودِيَّةِ الَّتى جاءَتْ فِى الوَصايا العَشْر :

- أَنا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيارِ عُبُودِيَّتِكَ ، لا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِواىَ ، لا تَنْحَتْ لَكَ تِمْثالاً ، ولا تَضَعْ صُورَةً ما مِمَّا فى السَّماءِ مِنْ فَوْق ، وما فى الأَرْضِ مِنْ تَحْت ، وما فى الماءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْض .

لا تَسْجُدْ لَهُنَّ ولا تَعْبُدْهُنَّ ؛ لأَنِّى أَنا الرَّبُّ إِلَهُكَ ، إِلَهٌ غَيُورٌ ، أَفْتَقِدُ آثامَ الآباءِ فى البَنِينَ حَتَّى الجِيلِ الثَّالِثِ والرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِىَّ وأَبْدِي إِحْساناً نَحْوَ أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِىَّ الَّذينَ يُطِيعُونَ وَصاياىَ .

اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ . سِتَّةُ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وتَقُومُ بِجَمِيعِ مَشاغِلِكَ . أَمَّا اليَوْمُ

السَّابعُ فَتَجْعَلُهُ سَبْتاً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ ؛ فَلا تَقُمْ فيهِ بِأَىِّ عَمَلٍ أَنْتَ أَو ابْنُكَ أَو ابْنَتُكَ أَو عَبْدُكَ أَو أَمَتُكَ أَو بَهيمَتُكَ أَو النَّزيلُ المُقِيمُ داخلَ أَبْوابِكَ .

لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ صَنَعَ السَّماءَ والأَرْضَ والبَحْرَ وكُلَّ ما فِيها فى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَراحَ فى اليَوْمِ السَّابِع . لِهَذا بارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وجَعَلَهُ مُقَدَّساً . أَكْرِمْ أَباكَ وأُمَّكَ لِكَى يَطُولَ عُمْرُكَ فى الأَرضِ الَّتى يَهَبُكَ إِياها الرَّبُّ إِلَهُكَ . لا تَقْتُلْ لاتَزْنِ . لا تَسْرِقْ . لا تَشْهَدْ زُوراً عَلَى جارِكَ . لا تَشْتَهِ بَيْتَ جارِكَ ولا زَوْجَتَهُ ، ولا عَبْدَهُ ، ولا أَمَتَهُ ، ولا ثَوْرَهُ ، ولا حِمارَهُ ، ولا شَيْئاً مِمَّا لَهُ .

أَيْنَ هَذا مِنْ أَخْلاقِيَّاتِ الأُصُولِيَّةِ اليَهُودِيَّة ؟ مِثْلَ شَعْبِ اللهِ المُخْتار ، وأَنَّ بَقِيَّةَ العالَمِ غَيْرُ مُخْتارِينَ (أَى مَرْفُضُونَ) ، وأَرْضِ المِيعادِ ، والأَوامِرِ الإِلَهِيَّةِ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ فِي المَدِينَةِ - بِحَدِّ السَّيْفِ - مِنْ رِجالٍ وشُيُوخٍ ونِساءٍ وأَطْفالٍ وحَتَّى الحَيواناتِ ، وقَتْلِ الأَسْرَى حَتَّى لَو كانَ الأَسْرَى نِساء !! ، ولا تُبْرِمُوا مَعَهُم اتِّفاقاً ولا تُوثِقُوا مُعاهَدَةً ، ويَهْزِمُ رَبُّ الجُيوشِ كُلَّ الشُّعوبِ أَمامَكُم ، وأَقْرِضِ الأَجْنَبِىَّ بِالرِّبا ولا تَقْرِضْ أَخاكَ بِالرِّبا ، ولْيَكُنْ كَنْعان (الفَلَسْطينيُّونَ والعَرَبُ) مَلْعُوناً ، ولْيَكُنْ عَبْدَ العَبِيدِ لإِخْوَتِهِ .

وأَمَّا اسْتِمْرارِيَّةُ إِذْعانِ الرَّئيسِ الأَمْريكى لأَفْكارِ الأُصولِيِّينَ المَسِيحيِّينَ والصَّهْيونيَّةِ المَسِيحيَّةِ واليَهُودِيَّةِ ، والَّتى تُؤْمِنُ بِضَرورَةِ قِيامِ إِسْرائيلَ ، وبِناءِ هَيْكَلِ سُلَيْمانَ ، حَتَّى يَجِيءَ المَسيحُ ثانِياً ويَحْكُمَ العالَمَ مِنْ أُورشَلِيم ، وتَشْتَعِلَ حَرْبَ هَرْمَجَدُّونَ (طِبقاً لتَفْسِيراتِهم لِرُؤْيا يُوحَنَّا) ويَسِيلَ الدَّمُ لِمسافَةِ ٣٠٠ كم حَتَّى يَبْلُغَ ارتفاعُ الدَّمِ أَلْجِمَةَ الخَيْلِ ...

فَما هَذا فى الحَقيقَةِ إِلاَّ جُزْءاً مِنْ أَفْكارِ الماسُونِيَّةِ النَّافِذَةِ والمُحَرِّكَةِ لِذراعَيْها فى كُلٍّ مِنْ واشنْطُن وتَلِّ أَبيب .

وهاهُم قَدْ تَذَرَّعُوا بِما يُسَمُّونَهُ حَرْباً عَلَى الإِرْهابِ ، لِيَجْعَلُوها حَرْباً عَلَى الإِسْلامِ وقَدْ نَطَقَها (بوش) صَراحَةً أَنَّها حَرْباً صَلِيبِيَّة .

أَلْسِنَةُ الخَلْق .. أَقْلامُ الحَقّ :

عَلَى مَرْأَى ومَسْمَعٍ مِنَ العالَمِ ، قالَ رَئِيسُ فنزويلا (تشافيز) أَثْناءَ إِلْقائِهِ خِطاباً بالأُمَمِ المُتَّحِدَة :

الشَّيْطانُ كانَ واقِفاً بالأَمْسِ فى مكانِي هَذا .

(ويَقْصِدُ بِذَلِكَ جورج بوش ، والَّذى أَلْقَى خِطاباً قَبْلَ تشافيز بِيَوْمٍ واحدٍ وفى نَفْسِ المكانِ بِالأُمَمِ المُتَّحِدَة) .



إماطَةُ ما اسْتَطعْنا مِنَ اللِّثام ..لِتَبيُّنِ وُجُوهِ شِرارِ الأَنام

لَـمَّا كانَ الشَّيْطانُ مِنَ الـمُنْظَرِينَ لِحِكْمَةٍ قَدَّرَها رَبُّ العالَـمِينَ ، حَيْثُ تَوَعَّدَ الشَّيْطانُ بِإغواءِ بَني الإنْسانِ أَجْمَعينَ ، إلاَّ ما اسْتَثناهُ اللهُ مِنَ العِبادِ الـمُخْلَصِين فَإنَّ الشَّيْطانَ جَدَّ واجْتَهَدَ وما كَلَّ ولا مَلَّ طَرْفَةَ عَيْن .. حَتَّى ضَمَّ لِكَتِيبَتِهِ جُنْداً مِنْ كُلِّ جِنْسٍ ولَوْن .. مِمَّنْ حَقَّ عَلَيْهِم أَزَلاً القَوْل .

ولَـمَّا وَجَدَ الشَّيْطانُ فى أَصْحابِ الفِكْرِ اليَهُودِي الاسْتِعْدادَ الفِطْرِي للانْقِيادِ لِما أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ العَهْدَ بِإنْجازِهِ ، حَيْثُ صاحَبَ الفِكْرَ اليَهُودِيَّ هَوَسٌ شاذٌّ تَفَرَّدَتْ بِهِ هَذِهِ العَقِيدَةُ عَنْ باقِى الأُمَم ، وما زالَتْ فِكْرَةُ الانْتِقاءِ النَّوْعِي تُهَيْمِنُ عَلَى النَّفْسِ اليَهُودِيَّةِ إلَى يَوْمِنا هَذا ، حَيْثُ الاعْتِقادُ بِأَنَّ أَرْواحَ اليَهُودِ تَتَمَيَّزُ عَنْ باقِى الأَرْواحِ ، عَلَى أَنَّها جُزْءٌ مِنَ اللهِ كَما أَنَّ الابْنَ جُزْءٌ مِنَ الأَب .

ولَقَدْ جاءَ فى مُقَدِّمَةِ كِتاب (الكوزاري) الصَّادِرِ بِتَوْجِيهٍ مِنْ شُعْبَةِ التَّرْبِيَةِ التَّابِعَةِ لِلْكِنِيسِتْ والحائِزِ عَلَى مُصادَقَةِ وَزارَةِ الثَّقافَةِ والـمَعارِفِ ، وهُوَ بِقَلَمِ الدُّكتور أ. تسيفوري ما نَصُّهُ : (وقَدْ مُنِحَتِ التَّوْراةُ لِشَعْبِ إسْرائِيلَ مِنْ دُونِ العالَـمِينَ جَمِيعاً لأَنَّهُم صَفْوَةُ الشُّعُوبِ بِأَسْرِها ، ولأَنَّ لُغَتَهُ أَشْرَفُ لُغَةٍ يَنْطِقُ بِها البَشَر ، وشَعْبَ إسْرائِيلَ هُوَ صَفْوَةُ الشُّعوبِ كُلِّها ويَرْجِعُ ذَلِكَ إلَى تَمَيُّزِ عُنْصُرِهِ وتَفَوُّقِ تَرْبِيَتِهِ ، وعُنْصُرُ شَعْبِ إسْرائيلَ هُوَ أَفْخَرُ العَناصِرِ لأَنَّهُ تَكَوَّنَ عَنْ طَرِيقِ الأَفْضَلِ مِنْ جِيلٍ لِجِيل) .

وهَذا الكِتابُ يُدَرَّسُ فى الـمَدارِسِ الثانَوِيَّةِ فى إسْرائِيل .

ولَقَدْ جاءَ فى الكِتابِ نَفْسِهِ عَلَى لِسانِ الحاخام شينؤرس قَوْلُهُ : إنَّ الفَرْقَ بَيْنَ اليَهُودِي وغَيْرِاليَهُودِي هُوَ مِنَ النَّوْعِ الَّذى يَنْطَبِقُ عَلَى التَّعْبِيرِ السَّائِر (لا وَجْهَ لِلشَّبَهِ) ، إذْ كَيْفَ يُمْكِنُ البَحْثُ عَنْ فَرْقٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مِنْ مُسْتَوَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ كُلِّيّاً ، فَفي حِينَ يَجْلِسُ اليَهُودِيُّ فى الـمَرْتَبَةِ العُلْيا ، ويَنْحَدِرُ مِنَ الصِّنْفِ الأَسْمَى ، تَقْبَعُ بَقِيَّةُ الأُمَمِ فى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ وتَنْحَدِرُ مِنْ أَدْنَى صَفّ .

وهَكذا نَرَى مِنَ العَبَثِ البَحْثَ عَنْ وَجهٍ لِلتَّشابُهِ بَيْنَهُما[١]

وحَسْبَما جاءَ فى كِتاب (الجمارا) : فَإِنَّ الجَسَدَ اليَهُوديَّ يَخْتَلِفُ كُلِّيًّا عَنْ بَقِيَّةِ البَشَرِ والشُّعُوبِ ، وذَلِكَ مِنْ حَيْثُ أَكْلُهُم وشُرْبُهُم وطِينَتُهُم ، وما يَصِحُّ عَلَى الجِسْمِ (المادَّةِ) يَصِحُّ أَيْضاً عَلَى النَّفْسِ (الرُّوح) ، إِذْ أَنَّ أَصْلَ أَرْواحِ شُعُوبِ العالَمِ هُوَ مِنْ طَبَقاتِ النَّجاساتِ الثَّلاثِ ، بَيْنَما أَصْل أَرْواحِ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الرُّوحِ القُدُسِ ذاتِها[٢].

وجاءَ فى التَّلْمُود : (أَنَّ الإِسْرائيلِيَّ مُعْتَبَرٌ عِنْدَ اللهِ أَكْثَرَ مِنَ المَلائِكَةِ ، وأَنَّ اليَهُودَ جُزْءٌ مِنَ اللهِ ، فَإِذا ضَرَبَ أُمِّيٌّ إِسْرائِيلِيًّا فَكَأَنَّما ضَرَبَ العِزَّةَ الإِلَهِيَّةَ ، والفَرْقَ بَيْنَ دَرَجَةِ الإِنْسانِ والحَيَوانِ هُوَ بِقَدْرِ الفَرْقِ بَيْنَ اليَهُودِ وغَيْرِ اليَهُودِ ، والشَّعْبَ المُخْتارَ هُم اليَهُودُ فَقَط ، أَمَّا باقِى الشُّعُوبِ فَهُم حَيوانات)[٣]، (تَرَى الأَدْيانُ السَّماوِيَّةُ أَنَّ الدُّنْيا والمالَ والثَّراءَ مُلْكٌ للهِ ، ولَمَّا كانَ التَّلْمُودُ يُقَرِّرُ أَنَّ اليَهُودَ أَجْزاءٌ مِنَ اللهِ ، فَإِنَّ اليَهُودَ لِذَلِكَ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُم مالِكينَ لِكُلِّ ما فى الأَرْضِ بِالنِّيابَةِ عَنِ الإِلَه)[٤].

وفى التَّوْراةِ أَنَّ الرَّبَّ قالَ لِمُوسَى : (هَكذا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرائيلَ ... سأُرْسِلُ هَيْبَتِي أَمامَكَ وأُزْعِجُ جَمِيعَ الشُّعُوبِ الَّذي تَأْتي عَلَيْهِم ، ... لا أَطْرُدُهُم مِنْ أَمامِكَ فى سَنَةٍ واحِدَةٍ ، لِئَلاَّ تَصيرَ الأَرْضُ خَرِبَةً فَتَكْثُرَ وُحُوشُ البَرِّيَّة .. قَلِيلاً قَلِيلاً أَطْرُدُهُم مِنْ أَمامِكَ إِلَى أَنْ تُثْمِرَ وتَمْلِكَ الأَرْض .. واجْعَلْ تُخُومَكَ مِنْ بَحْرِ (سُوف) إِلَى بَحْر (فَلَسْطينَ) ، ومِنَ البَرِّيَّةِ إِلَى النَّهْر ، فَإِنِّى أَدْفَعُ إِلَى أَيْدِيكُم سُكانَ الأَرْضِ فَتَطْرُدُهُم مِنْ أَمامِكُم)[٥].

فى هَذهِ النُّصُوصِ وغَيْرِها وَجَدَ الشَّيْطَانُ ضالَّتَهُ التى تُسَهِّلُ لَهُ مُهِمَّتَهُ ، فَصَنَعَ الصَّهيُونِيَّةَ وجَعَلَها ذِراعاً رَئِيساً للماسُونِيَّة .

---

(١) التَّرْبِيَةُ الصَّهْيونيَّة ، لـ (حسن الباش) ، دار قُتَيْبَة – بَيْروت ودِمَشْق .

(٢) المَرْجِعُ نَفْسُهُ ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٣) ، (٤) مُقارنةُ الأديانِ اليهوديَّة ، لـ (أَحمد شلبى) ص ٢٦٨ .

(٥) الكِتابُ المُقَدَّسُ ، سِفْرُ الخُروج ، الإِصْحاح ٢٣ ، جم ٢٧ – ٣١ – ١٢٤ – ١٢٥ .

ووَجَدَ فى تَغْذِيَتِهِ لأَوْهامِ حِلْمِ اليَهُودِيَّةِ العالَمِيَّةِ ، لإِعادَةِ بِناءِ هَيْكَلِ سُلَيْمانَ ، وإِقامَةِ مَجْدِ إِسْرائِيلَ وحُكْمِ العالَمِ الفُرْصَةَ السَّانِحَةَ لإِغْواءِ وإِفْسادِ بَنِي الإِنْسانِ وصَرْفِهِم عَنْ طَرِيقِ الرَّحْمٰنِ والزَّجِّ بِهِم فِي زُمْرَةِ الشَّيْطان .

ووَظَّفَ لِذَلِكَ إِمْكاناتِهِ حَيْثُ كانَ التَّوْظِيفُ المادِيُّ يَسِيرُ جَنْباً إِلَى جَنْبٍ مَعَ التَّوْظِيفِ المَعْنَوِيِّ ، وفى كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيانِ يَصْعُبُ فَصْلُهُما ، لِأَنَّ الخُطَطَ الَّتى تُرْسَمُ والمُؤْتَمَراتِ الَّتى تُعْقَدُ لا تَنْفَكُّ عَنْ دَعْمِها بِالأَمْوالِ الَّتى تُسْكِتُ كَثِيراً مِنَ الأَفْواهِ ، وتُعْمِي كَثِيراً مِنَ الأَبْصارِ لِتَحْقِيقِ مآرِبِ الماسُونِيَّةِ العالَمِيَّةِ ، وبَثِّ فِكْرِها الصَّهْيُونِي سَواءٌ بَيْنَ الأَوْساطِ اليَهُودِيَّةِ أَو غَيْرِ اليَهُودِيَّةِ ؛ لِذا يُمْكِنُنا أَنْ نُجْمِلَ ذَلِكَ كُلَّهُ تَحْتَ عُنْوانٍ واحِدٍ ، هُوَ (الخُطَطُ ووَسائِلُ الأَهْدافِ الماسُونِيَّةِ) فَمِنْ هَذِهِ الخُطَط :

١) **الاعْتِمادُ عَلَى السِّرِّيَّةِ والكِتْمان** : إِذْ جاءَ فى البُروتُوكُولِ الأَوَّلِ ، لِما يُسَمَّوْنَ بِحُكَماءِ صَهْيُون : (وفى هَذِهِ الأَحْوالِ الحاضِرَةِ المُضْطَرِبَةِ لِقُوَى المُجْتَمَعِ سَتَكُونُ قُوَّتُنا أَشَدَّ مِنْ أَيِّ قُوَّةٍ أُخْرَى ، لأَنَّها سَتَكُونُ حَتَّى اللَّحْظَةِ الَّتى تَبْلُغُ فِيها مَبْلَغاً لا تَسْتَطِيعُ مَعَها أَنْ تَنْسِفَها أَيُّ خُطَّةٍ ماكِرَة)[١] .

٢) **الغايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَة** : (وعَلَيْنا ونَحْنُ نَضَعُ خُطَّتَنا أَلَّا نَلْتَفِتَ إِلَى ما هُوَ خَيْرٌ وأَخْلاقِيٌّ ، بِقَدْرِ ما نَلْتَفِتُ إِلَى ما هُوَ ضُرورِيٌّ ومُفِيدٌ)[٢] .

٣) **العُنْفُ والخَدِيعَة** : يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شِعارُنا (كُلُّ وَسائِلِ العُنْفِ والخَدِيعَة) ولِذا يَتَحَتَّمُ عَلَيْنا أَلَّا نَتَرَدَّدَ لَحْظَةً واحِدَةً فِي أَعْمالِ الرِّشْوَةِ والخَدِيعَةِ والخِيانَةِ ، إِذا كانَتْ تَخْدُمُنا فِي تَحْقِيقِ غايَتِنا)[٣] .

ويَقُولُ هِرْتزل[٤] : (يَجِبُ أَنْ نُقِيمَ حَمْلَةَ صَيْدٍ كَبِيرَةٍ ومِنْ ثَمَّ نَجْمَعُ الحَيَواناتِ كُلَّها مَعاً ، ونُلْقِي فى وَسَطِها القَنابِلَ المُمِيتَةَ) ، حَيْثُ تَحَدَّثَ صَراحَةً : (لا دَوْلَةَ

---

(١) بُروتُوكولات حُكماءُ صَهْيون . لـ (التُّونْسي) ص ١١٥ . (٢) المَرْجِعُ نَفْسُهُ ، ص ١١٦ . (٣) المَرْجِعُ نفسُهُ .

(٤) تيودو هِرْتزل : عاشَ بَيْنَ ١٨٥١ - ١٩٠٤م ، كاتِبٌ مَجَرِيٌّ يهودِيٌّ ، كانَ مُظْهِراً لِتَأْسِيسِ الحَرَكَةِ الصَّهْيونِيةِ ، (يُراجَعُ المُنْجِدُ فى الأَعْلام) ص ٥٤٠ .

يَهُودِيَّةَ مِنْ غَيْرِ إِرْهاب)[1]

٤) **الشِّعاراتُ البَرَّاقَة** : كَذَلِكَ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ صاحَ فى النَّاسِ (الحُرِّيَّة .. والإِخاء) ، إِنَّ صَيْحَتَنا (الحُرِيَّةُ ، والمُساواةُ ، والإِخاءُ) قَدْ جَلَبَتْ إِلَيْنا فِرَقاً كامِلَةً مِنْ زَوايا العالَمِ الأَرْبَعِ عَنْ طَرِيقِ وُكَلائِنا المُغَفَّلِينَ ، وقَدْ حَمَلَتْ هَذهِ الفِرَقُ أَلْوِيَتَنا فى نَشْوَة [2]

٥) **إِثارَةُ الفِتَنِ** : وهَذهِ طَبِيعَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فى الشَّخْصِيَّةِ اليَهُودِيَّةِ ، ويَعْتَرِفُ اليَهُودُ بِذَلِكَ ، فَقَدْ وَرَدَ فى مَجَلَّةِ الجامِعَةِ الإِسْرائِيلِيَّةِ نَصٌّ خَطِيرٌ بِهَذا الشَّأْنِ ، اقْتَطَفَهُ Ionls - daste ، ووَضَعَهُ عَلَى غُلافِ كِتابٍ عَنِ (اليَهُودِ والجَمْعِيَّاتِ السِرِّيَّةِ) ، وفِيما يَلي هَذا النَّصُّ :

(نُصادِفُ فى كُلِّ التَّغَيُّراتِ الفِكْرِيَّةِ الكُبْرَى تَقْرِيباً عَمَلاً يَهُودِيّاً ، سَواءٌ كانَ ظاهِراً واضِحاً أَو خَفِيّاً سِرِّيّاً ، وعَلَى هَذا فَإِنَّ التَّارِيخَ اليَهُودِيَّ يَمْتَدُّ بِامْتِدادِ التَّارِيخِ العالَمِي بِجَمِيعِ مَجالاتِهِ ، حَيْثُ تَغَلْغَلَ فِيهِ بِآلافِ الدَّسائِس) .

وما مِنْ هَيْئَةٍ أَو مُؤَسَّسَةٍ فِي أَيٍّ مِنْ مُجْتَمَعاتِ العالَمِ ، إِلاَّ وتَشْعُرُ أَنَّ فِيما بَيْنَها طابُوراً خامِساً ، يُحَسُّ أَثَرُهُ ، ويُجْهَلُ كُنْهُهُ .

إِنَّهُ عامِلُ هَدْمٍ لِكُلِّ إِعْمار .. وعامِلُ قَلَقٍ يُؤَرِّقُ الاسْتِقْرار .

إِنَّهُ لَبِنَةٌ مِنْ لَبِناتِ الماسُونِيَّةِ والَّتى غِذاؤها إِراقَةُ الدِّماءِ وإِحداثُ الدَّمار .

٦) **السَّيْطَرَةُ عَلَى وَسائِلِ الإِعْلام** : لَقَد أَثْبَتَ إِحْصاءُ سَنَةَ ١٩٥٦ م الخاصُّ بِالصَّحافَةِ ، أَنَّ اليَهُودَ يُصْدِرُونَ (٨١٩) صَحِيفَةً ومَجَلَّةً بِمُخْتَلَفِ اللُّغاتِ وفى مُخْتَلَفِ الأَقْطار ، وهُوَ عَدَدٌ يُمَثِّلُ الأَغْلَبِيَّةَ العُظْمَى مِنْ صُحُفِ العالَمِ ومَجَلاَّتِه .

ولِلْيَهُودِ مِثْلُ هَذا التَّفَوُّقِ فى وَسائِلِ الإِعْلامِ الأُخْرَى كَدُورِ النَّشْرِ ووَكالاتِ الأَنْباءِ بَلْ فى السِّينِما والإِذاعَةِ والتليفزيون فى مُعْظَمِ بِلادِ العالَم .

---

(١) التربيةُ الصَّهْيونيَّة ، لـ (حسن الباش) ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) بُروتُوكولات حُكَماءُ صَهْيُون ، لـ (التُّونْسي) .

(٣) مُقارَنَةُ الأَدْيانِ اليَهُودِيَّة ، لـ (أحمد شلبي) .

وهُمْ يَقُولُونَ بِصَلَفٍ وكِبْرِياء : إنَّ الصَّحافَةَ قَدِ انْتَهَتْ إلَى الوقُوعِ تَحْتَ سَيْطَرَتِنا عَدا شَواذٍّ قَلِيلَةٍ مِنْها يُمْكِنُ تَجاهُلُها بِارْتِياح .. اكْتَسَبْنا عَنْ طَرِيقِ الصَّحافَةِ قُوَى ذاتَ نُفُوذٍ فى الوَقْتِ الَّذى احْتَجَبْنا فِيهِ وَراءَ الظَّلام.(١)

لَقَدْ سَيْطَرْنا عَلَى وَكالاتِ الأَنْباءِ المُهِمَّةِ فى العالَمِ ، فَلَنْ يَصِلَ إعْلانٌ واحِدٌ لِلْجُمْهُورِ دُونَ رَقابَتِنا وسَنَنْشُرُ ما نُرِيدُ نَشْرَهُ لِصالِحنا ، ولَنْ نَنْشُرَ مَعَ ما يَتَعارَضُ مَعَ اتِّجاهِنا وآمالِنا.(٢)

٧) **نَشْرُ الفَساد** : هُناكَ خُطَطٌ ومُمارَساتٌ يَهُودِيَّةٌ لإفْسادِ المُجْتَمَعِ الإنْسانِي بِكُلِّ طَبَقاتِهِ ؛ فَكانَ المَسْرَحُ الأَوَّلُ لِلْفَسادِ هُوَ طَبَقَةُ الحُكَّامِ ، والمُسْتَهْدَفُ الأَوَّلُ هُوَ العائِلَةُ ، والضَّحِيَّةُ الأُولَى هِيَ المَرْأَةُ .. إذْ وَرَدَ فى البُروتُوكُولِ العاشِر : (فَإذا أَوْحَيْنا إلَى عَقْلِ كُلِّ فَرْدٍ فِكْرَةَ أَهَمِّيَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ فَسَوْفَ نُدَمِّرُ الحَياةَ الأُسَرِيَّةَ بَيْنَ الأُمِّيِّينَ ، وتَفْسَدُ أَهَمِّيَّتُها التَرْبَوِيَّة)(٣)

ووَرَدَ أَيْضاً فى البُرُوتُوكُولِ الأَوَّلِ : (إنَّ الجُمْهُورَ بَرْبَرِيٌّ ، وتَصَرُّفاتِهِ فى كُلِّ مُناسَبةٍ عَلَى هَذا النَّحْوِ ، فَما إنْ يَضْمَنَ الرِّعاعُ الحُرِّيَّةَ ، حَتَّى يَمْسَخُوها سَرِيعاً فَوْضَى ، والفَوْضَى ذاتُها قِمَّةُ البَرْبَرِيَّةِ ، وحَسْبُكُمْ فانْظُروا إلَى هَذهِ الحَيواناتِ المَخْمُورَةِ الَّتى أَفْسَدَها الشَّرابُ ، ومِنَ المَسِيحِيِّينَ أُناسٌ أَضَلَّتْهُم الخَمْرُ ، وانْقَلَبَ شَبابُهُم مَجانِينَ بالكِلاسِيكِيَّاتِ والمُجُونِ المُبَكِّرِ الَّذي أَغْراهُم بِهِ وُكَلاؤُنا ومُعَلِّمُونا ، وخَدَمُنا ، وقَهْرَماناتُنا(٤) فى البُيُوتاتِ الفَنِّيَّةِ ، وكَتَبَتُنا(٥) ومَنْ إلَيْهِمْ ، ونِساؤنا فى أَماكِنِ لَهْوِهِمْ .

وإلَيْهِمْ أُضِيفَ مَنْ يُسَمِّينَ نِساءَ المُجْتَمَعِ والرَّاغِباتِ مِنْ زُمَلائِهِمْ فى الفَسادِ والتَّرَف)(٦).

٨) **السَّيْطَرَةُ عَلَى الاقْتِصادِ العالَمِي** : وقَدْ وَرَدَ فى البُروتوكولِ الثَّامِن :

---

(١) مُقارَنَةُ الأَدْيان اليَهُودِيَّة ، لـ (أَحمد شلبي) .

(٢) بُروتوكولات حُكَماءُ صَهْيُون ، لـ (التُّونسي) ، البروتوكول الثَّانى عَشَر ، ص ١٢١ .

(٣) مُقارَنَةُ الأَدْيانِ اليَهُودِيَّة ، لـ (أَحمد شلبي) .

(٤) فَهْرَمانَة : هِيَ القَيِّمَةُ عَلَى شُؤونِ المَنْزِلِ أو عَلَى تَرْبِيَةِ الأَطفالِ ، وهِيَ المُرَبِّيَةُ (الدَّادَة) وقَلَّما تَخْلُو مِنْها البُيُوتُ الكبيرَة .

(٥) الَّذينَ يَكْتُبُونَ الرَّسائِلَ والحِساباتِ ونَحْوَها فى البُيُوتِ التِّجارِيَّةِ ودواوين الحُكومَة . (٦) البروتوكولات ، لـ (التُّونسي)

(إِنَّنا سَنُحِيطُ حُكُومَتَنا بِجَيْشٍ كامِلٍ مِنَ الاقْتِصادِيِّينَ ، وهَذا هُوَ السَّبَبُ فى أَنَّ عِلْمَ الاقْتِصادِ هُوَ المَوْضُوعُ الرَّئِيسُ الَّذي يَعْلَمُهُ اليَهُودُ ، وسَنَكُونُ مُحاطِينَ بِأُلوفٍ مِنْ رجالِ البُنُوكِ ، وأَصْحابِ الصِّناعاتِ ، وأَصْحابِ المَلايينِ ، وأَمْرُهُم لا يَزالُ أَعْظَمَ قَدْراً ، إِذاً الواقِعُ أَنَّ كُلَّ شَىْءٍ سَوْفَ يُقَرِّرُهُ المال)[1].

٩) تَأْسِيسُ المُنَظَّماتِ الدَّوْلِيَّةِ والسَّيْطَرَةُ عَلَيْها :

وَرَدَ فى البُروتُوكُولِ التَّاسِع : (لَقَدْ ضَجَّتِ الشُّعُوبُ بِضَرورَةِ حَلِّ المُشْكِلاتِ الإِجْتِماعِيَّةِ بوَسائِلَ دَوْلِيَّةٍ ، وإِنَّ الاخْتِلافاتِ بَيْنَ الأَحْزابِ قَدْ أَوْقَعَتْها فى أَيْدِينا ، فإِنَّ المالَ ضَرورِىٌّ لِمُواصَلَةِ النِّزاعِ ، والمالُ تَحْتَ أَيْدِينا) .

وهَذا ما نَلْمَسُهُ عَمَلِيّاً عَنِ الهَيْئاتِ الدَّوْلِيَّة . كَأَنَّها وُجِدَتْ لحمايَةِ إِسْرائيلَ ودَعْمِها كَما يَظْهَرُ فى كثيرٍ مِنْ قَراراتِ مَجْلِسِ الأَمْنِ وهَيْئَةِ الأُمَمِ المُتَّحِدَة ...

١٠) التَّجَسُّسُ والاتِّجارُ بِالمَعْلُومات :

مِنْ أَقْدَمِ المِهَنِ الَّتى اخْتَصَّ بِها اليَهُودُ : هِىَ التَّجَسُّسُ ، وكانَ مِنْ أَقْدَمِ الجَرائِمِ الَّتى قامُوا بِها هِىَ نَقْلُ أَخْبارِ المَسِيحِ إِلَى الكَهَنَةِ حَيْثُ قامَ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ يَهُوذا الأَسْخَرْيُوطِي حَيْثُ تآمَرَ مَعَ الكَهَنَةِ بِتَسْلِيمِ المَسِيحِ لَهُم لِقاءَ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ ، ولَقَدْ وَرَدَ فى إِنْجِيلِ مَتَّى ما يَفَصِّلُ ذَلِكَ : (حِينَئِذٍ ذَهَبَ واحِدٌ مِنَ الإِثْنَى عَشَرَ يُدْعَى يَهُوذا الأَسْخَرْيُوطي إِلَى رُؤَساءِ الكَهَنَةِ وقالَ ماذا تُرِيدُونَ أَنْ تُعْطُونِي وأَنا أُسَلِّمُهُ لَكُم فَجَعَلُوا لَهُ ثَلاثِينَ مِنَ الفِضَّة)[2].

وكانَ اليَهُودُ جَواسِيسَ الحُلَفاءِ فى أَلْمانْيا ، وكانُوا جَواسِيسَ الغَرْبِ فى رُوسيا ، وهُم لا يَزالُونَ يُمارِسُونَ حِرْفَةَ التَّجَسُّسِ فى كُلِّ مَكانٍ نَزَلُوا فيه ، ففى كَنَدا اكْتُشِفَتْ حَلَقَةُ تَجَسُّسٍ خَطِيرَةٌ ١٩٤٥ م ، كانَ اليَهودُ يَتَزَعَّمُونَها وكانَ مِنْ بَيْنِ الجَواسِيسِ عُضْوٌ فى البَرْلَمانِ الكَنَدِي وأُسْتاذٌ فى جامِعَة ماك دل[3].

---

(١) البروتوكولات ، لـ (التُّونسي) .

(٢) الكِتابُ المُقَدَّس ، إِنْجِيل مَتَّى ، الأَصْحاح ، ٢٦ جم ١٤ - ١٦

(٣) مقارنةُ الأَدْيانِ اليهوديَّة ، لـ (أَحمد شلبي) .

١١) الدُّخُولُ فى الأَدْيانِ الأُخْرَى ، والعَمَلُ الازْدِواجِي :

كانَ الهَدَفُ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ أَمْرَيْن :

الأَوَّلُ : حِمايَةُ أَنْفُسِهِم مِنْ بَطْشِ النَّصارَى وخاصَّةً فى أُوروبَّا ؛ ففى ١٣ يناير سنة ١٤٨٩ م كَتَبَ (شامور) حاخام يَهُود مَدينة (آرل)[١] مِنْ أَعْمالِ مُقاطَعَةِ بروفنس بِفَرنسا ، كَتَبَ إِلَى المُجْتَمَعِ اليَهُودي العالِي فى الآسْتانَة يَسْتَشِيرُهُ فى بَعْضِ المَسائِلِ الحَرِجَةِ ؛ ومِنْها أَنَّ الفَرَنْسِيِّينَ فى إِكْس[٢] وآرل ، ومَرْسِيلْيا ، يَتَهَدَّدُونَ مَعابدَ اليَهُودِ وأَنَّ مَلِكَ فَرَنْسا يُجْبِرُهُم عَلَى اعْتِناقِ النَّصْرانِيَّةِ فَجاءَهُم الرَّدُّ بِما يَلِي : (.... بِمُقْتَضَى قَوْلِكُم إِنَّ مَلِكَ فَرَنْسا يُجْبِرُكُم أَنْ تَعْتَنِقُوا الدِّينَ المَسِيحِيَّ ، فاعْتَنِقُوهُ لأَنَّهُ لا يَسَعُكُم أَنْ تُقاوِمُوا غَيْرَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْقُوا شَرِيعَةَ مُوسَى راسِخَةً فى قُلُوبِكُم ، وبِمُقْتَضَى قَوْلِكُم أَنَّهُم يَهْدِمُونَ مَعابِدَكُم فاجْعَلُوا أَوْلادَكُم كَهَنَةً وإِكْليريكِيِّينَ لِيَهْدِمُوا كَنائِسَهُم)[٣] .

الثَّاني : وَسِيلَةٌ لِلْوُصُولِ إِلَى مَآرِبِهِم وتَخْرِيبِ دِياناتِ الغَيْرِ عَنْ طَرِيقِ التَّشْكِيكِ والتَّغْيِير .

ومِنْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتى تَبَوَّأَتْ مَراكِزَ القِيادَةِ فى الدِّينِ النَّصْرانِي وغَيَّرَتْ فِيهِ (شاءُول بولس) اليَهُودىُّ الأَصْلُ الفَرَنْسِىُّ الَّذي دَخَلَ المَسِيحِيَّةَ وغَيَّرَ أُسُسَها بِالكامِلِ فَنَقَلَها مِنْ دِيانَةٍ خاصَّةٍ بِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَى دِيانَةٍ عالَمِيَّةٍ ونَقَلَها مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى التَّثْلِيثِ ، وقالَ بِأُلُوهِيَّةِ المَسِيحِ ، وأُلُوهِيَّةِ رُوحِ القُدُسِ ، واخْتَرَعَ قِصَّةَ العَذْراءِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ خَطِيئَةِ البَشَر)[٤] .

ومِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتى حَكَمَتْ بِريطانيا ١٨٧٤ م ، (دزرائيلي) الَّذى وُلِدَ عامَ ١٨٠٤ م مِنْ أَبَوَيْنِ يَهُودِيَّيْنِ وقَدْ تَعَمَّدَ فى كَنِيسَةِ انْجِلْتَرا عام ١٨١٧ م[٥] .

ومِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الهامَّةِ الَّتى دَخَلَتْ فى الإِسْلامِ مِنْ أَصْلٍ يَهُودِيٍّ وبَقِيَتْ عَلَى

---

(١) آرل : مَدينةٌ فَرَنْسِيَّةٌ تَقَعُ جُنوبَ البلاد عَلَى نَهْرِ الرُّونِ شمالِ غرْبِ ميناءِ مَرْسِيليا الواقع عَلَى البحر الأبيض المتوسط .

(٢) إِكس : مدينَة فرنسيَّةٌ تقع شمالي مَرْسِيلْيا . (٣) الأَفْضَى اليُهودِيَّة ، لـ (عبدالله التل) .

(٤) مقارنةُ الأَدْيانِ اليهوديَّة ، لـ (أحمد شلبي) . (٥) نَفْسُ المَرْجِعِ السَّابق .

خُبْثِها وأَخَذَت تَزْرَعُ الفِتَنَ وتَهْدِمُ صَرْحَ الإِسْلامِ (عَبْدُالله بنُ سَبَأٍ) اليَهُودِيُّ ، فى بِدايَةِ خِلافَةِ سَيِّدِنا (عُثْمانَ بنِ عَفَّان) رضي الله عنه ، إِذْ كانَ سَبَباً فى إِشْعالِ الفِتَنِ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، وطَرَحَ أَفْكاراً جَدِيدَةً تُخِلُّ بِالعَقِيدَةِ الإِسْلامِيَّة .

وكانَ أَكْثَرُ اليهُودِ تَأْثِيراً عَلَى الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ العُثْمانِيَّةِ (يَهُودُ الدُّونْمَة) فى تُرْكيا الَّذينَ هاجَروا مِنَ الأَنْدَلُسِ نَتِيجَةَ الاضْطِهادِ الَّذي لا قَوْهُ مِنْ قِبَلِ المَسِيحِيَّةِ فَيَمَّمُوا وُجُوهَهُم قِبَلَ تُرْكيا (مَرْكَزِ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ) حَيْثُ فَتَحَ المُسْلِمونَ لَهُم قُلُوبَهُم وبِلادَهُم ، ثُمَّ غَدَروا بِالمُسْلمينَ نِهايَةَ الأَمْرِ ، فَيَقُولُ عَنْهُم إِسْحاقُ زَقِّي رَئِيسُ إِسْرائيلَ الأَسْبَق : (هَؤُلاءِ الدُّونْمَة عاشوا فى تُركيا بوَجْهٍ ظاهِرِيٍّ مُسْلِمٍ ، وبِحَقيقَةٍ باطِنَةٍ يَهُودِيَّةٍ ، وكانَ مِنْهُم الوزراءُ ، والنُّوَّابُ ، والمُدَرِّسُونَ بِالجامِعَةِ ، وشُيُوخُ الفِقْهِ والتَّفْسِيرِ ، وكانَ هَؤُلاءِ الدُّونْمَةُ نُوَّابَ حِزْبِ الاتِّحادِ والتَّرَقِّي الَّذى صَنَعَ مُصْطَفَى كَمال أَتاتُورْك ودَفَعَ بِهِ إِلَى الثَّوْرَةِ الَّتي غَيَّرَتِ الوَجْهَ الإِسْلامِيَّ لِتُركيا)[1] .

١٢) اغْتِيالُ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتى تَقِفُ أَمامَ المُخَطَّطاتِ الماسُونِيَّة :

وحَيْثُ يَتَمَتَّعُ اللُّوبِي الصَّهْيونِى (الذِّراعُ الأَيْمَنُ للماسُونِيَّةِ) بِجِيناتٍ وِراثِيَّةٍ اكْتَسَبَها مِنْ جُذُورِهِ اليَهُودِيَّةِ ؛ فالاغْتِيالُ طبيعَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فى الذَّاتِ اليَهُودِيَّةِ فَهُم قَتَلَةُ الأَنْبِياءِ والمُرْسَلِينَ والصَّالِحينَ مِنْ أُمَّتِهِمْ ومِنَ الأُمَمِ الأُخْرَى وهُم أَوْلَى بِالجَرِيمَةِ والغَدْرِ ، قالَ تَعالَى :﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[2] ، فَهُم الَّذينَ نَشَرُوا (زَكَرِيَّا) بِالمِنْشارِ عليه السلام ، وذَبَحُوا (يَحْيَى) عليه السلام وتآمَرُوا عَلَى (عِيسَى بنِ مَرْيَمَ) عليه السلام وحاوَلُوا اغْتِيالَ (النَّبِيِّ) صلى الله عليه وسلم عِدَّةَ مَرَّاتٍ (مَرَّةً فى بَنِي النَّضِيرِ ، ومَرَّةً فى خَيْبَرَ بِدَسِّ السُّمِّ فى الشَّاةِ المَصْلِيَّةِ)[3] .

وقَدْ قامَتْ جَماعَةُ (ستيرن) بِاغْتِيالِ اللُّوْرْد (مُورين) الَّذى كانَ وَزِيراً

---

(١) قُوى الشَّرِّ المُتَحالِفَةِ ، لـ (الدَّهَّان) .

(٢) سُورَةُ البَقَرة مِنَ (الآيَة ٨٧) .

(٣) السِّيرَةُ النَّبوِيَّة (ابْن كثير) .

بريطانِيَّاً مُقِيماً بِالقاهِرَةِ ، لاعْتِقادِهم أَنَّهُ إِبَّانَ كانَ وَزيراً لِلْمُسْتَعْمَراتِ قامَ بِتَضْييقِ أَبْوابِ الهِجْرَةِ إِلَى فَلَسْطينَ فى وَجْهِ اليَهُود[١].

وفى سَنَة ١٩٤٨ م أَطْلَقَتِ اليَهُودُ عَلَى الكُونْت (برنادوت) وَسِيطِ هَيْئَةِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ اثْنَتَى عَشَرَةَ رَصاصَةً فى أَثْناءِ وُجُودِهِ بالسَّيَّارَةِ الَّتى كانَ يَسْتَقِلُّها بِالقُدْسِ فَماتَ عَلَى الفَوْرِ مَعَ أَحَدِ مُساعِديهِ الفَرَنْسِيِّينَ ، وكانَ كُلُّ ذَلِكَ لأَنَّهُ أَعْرَبَ عَنْ رَأْيِهِ بِأَنَّ العَدالَةَ تَقْتَضِي إِعادَةَ النَّقَبِ إِلَى العَرَبِ[٢].

وكَثِيرَةٌ هِىَ المُمارَساتُ الَّتى قامَ بِها اليَهُودُ عَبْرَ تارِيخِهِم المَلِيءِ بِالجَرائِمِ مِنْ هَذا القَبِيلِ وغَيْرِه .

١٣) تَشْكِيلُ الجَمْعِيَّاتِ السِّرِّيَّةِ الهَدَّامَةِ فى العالَمِ ، مِنْها :

أ - أَنْدِيَةُ الرُّوتارِي : وهِىَ مِنَ المُنَظَّماتِ الماسُونِيَّةِ الَّتى تَدْعُو إِلَى الإِلْحادِ والفَسادِ والإِباحِيَّةِ ، وتُمارِسُ أَنْشِطتَها تَحْتَ سِتارٍ مِنَ الأَنْشِطَةِ الإِجْتِماعِيَّةِ الخَيْرِيَّةِ ، بِمُؤَازَرَةٍ ومُساندَةٍ مِنْ أَنْظِمَةِ الحُكْم فى شَتَّى دُوَلِ العالَم[٣].

ب - اللُّيُونْز (إِخْوانُ الحُرِّيَّة - الأُسُود) : إِنَّها مَجْمُوعَةُ نَوادٍ ذاتُ طابَعٍ خَيْرِىٍّ فى الظاهِرِ ، وفى الحَقِيقَةِ هِىَ واحِدَةٌ مِنَ المُنَظَّماتِ العالَمِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْماسُونِيَّةِ والَّتى تُدِيرُها أَصابِعُ شَيْطانِيَّةٌ بُغْيَةَ إِفْسادِ العالَمِ وإِحْكامِ السَّيْطَرَةِ عَلَيْه[٤].

ج - اليُوجا : مُنَظَّمَةٌ تَخْضَعُ مُباشَرَةً لِلصَّهْيونِيَّةِ ، وتُباشِرُ أَلْواناً مِنَ الرِّياضَةِ البَدَنِيَّةِ والتَّدْرِيباتِ الرُّوحِيَّةِ ، ولِهَذهِ المُنَظَّمَةِ فُروعٌ فى أَكْثَرِ بِلادِ العالَمِ ، وأَهَمُّ ما تَعْنِي بِهِ مُحارَبَةُ الأَدْيان[٥].

اسْتِعْداد .. اسْتِبْداد .. اسْتِعْباد .. إِفْساد :

لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ الحَدِيثُ دَوْلَةً فى العالَمِ جَمَعَتْ مِنَ الأَسْلِحَةِ والمُعِدَّاتِ العَسْكَرِيَّةِ المُدَمِّرَةِ والمُتَطَوِّرَةِ مِثْلَ إِسْرائِيلَ قِياساً عَلَى مِساحَتِها وعَدَدِ سُكَّانِها

---

(١) مُقارَنَةُ الأَدْيانِ اليَهُودِيَّة ، لـ (أَحمد شلبى) .
(٢) المَرْجِعُ نَفْسهُ .
(٣) المَوْسُوعَةُ المُيَسَّرَةُ فى الأَديان والمَذاهِبِ المُعاصِرَة - بتَصَرُّف .
(٤) المَصْدَرُ نَفْسُه .
(٥) مُقارَنَةُ الأَدْيان اليهودِيَّة ، لـ (أَحمد شلبى) .

فالشَّعْبُ الإِسْرائِيلىُّ يُعْتَبَرُ كُلُّهُ جَيْشٌ مُنَظَّمٌ ذُكُوراً وإِناثاً ، وقادِرٌ عَلَى الالْتِحاقِ بِالقِطْعَةِ العَسْكَرِيَّةِ المُحَدَّدَةِ باخْتِصاصِها ومَكانِها خِلالَ ساعاتٍ قَليلَةٍ .

أَمَّا مِنْ حَيْثُ التَّسْليحُ فَقَد ضَمِنَتْ الماسُونيَّةُ لإِسْرائِيلَ التَّفَوُّقَ الكَمِّيَّ والنَّوْعِيَّ عَلَى الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ مُجْتَمِعَةً ، وذَلِكَ بالبَيانِ الثُّلاثِيِّ الصَّادِرِ فى سَنَةِ ١٩٥٠ م (مِنْ وَزارَةِ خارِجيَّةِ الولاياتِ المُتَّحِدَةِ الأَمريكيَّةِ ، وانْكِلترا ، وفَرَنسا) عَلَى قَدَمِ المُساواةِ ، مِنْ حَيْثُ التَّسْليحُ مَعَ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ مُجْتَمِعَةً .(١)

وتُعْتَبَرُ القُوَّاتُ الإِسْرائِيليَّةُ البَرِّيَّةُ اليَوْمَ كُلُّها مُجَوْقَلَةً تَسْتَطِيعُ الانْتِقالَ إِلَى أَىِّ جِهَةٍ مِنْ حُدودِها خِلالَ ساعاتٍ قَليلَةٍ (وتَمْتِلكُ آلافَ الطَّائِراتِ والدَّبَّاباتِ والعَرَباتِ المُصَفَّحَةِ بِالإِضافَةِ إِلى قِطَعٍ بَحْرِيَّةٍ مُتَطَوِّرَةٍ لِحِمايَةِ سَواحِلها والاعْتِداءِ عَلَى سَواحِلِ جيرانِها بِالإِضافَةِ إِلَى أَسْلِحَةِ التَّدْميرِ الشَّامِل .....) ، وكُلُّ هَذهِ الاسْتِعْداداتِ بُغْيَةَ المُحافَظَةِ عَلَى ما اكْتَسَبَتْهُ إِلَى الآن ، وطَمَعاً فى تَنْفيذِ مُخَطَّطاتِها الهادِفَةِ إِلَى إِقامَةِ مَمْلَكَتِها المَنْشُودَةِ وبِناءِ هَيْكَلِ سُلَيْمانَ ، انْطِلاقاً مِنَ العَقائِدِ التَّوْراتِيَّةِ الَّتى تُبَشِّرُهُم بِذَلِك ؛ وهِىَ الضَّمانَةُ العُظْمَى للإِفْسادَةِ الكُبْرَى .

١٤) الإِدْمانِ .. أَسْرَعُ وسائِلِهِمْ لِهَدْمِ كَيانِ الأَوْطان :

لَقَدِ ابْتَكَروا صُوَراً مُتَعَدِّدَةً ووَسائِلَ مُتَنَوِّعَةً لِلْمُخَدِّراتِ ، وجَعَلُوا تَعاطِيَها ظاهِرَةً مُنْتَشِرَةً بَيْنَ شَبابِ العالَم .. فِتْيانهِ وفَتَياتهِ عَلَى حَدٍّ سَواء .

والأَمْرُ الأَدْهَى والأَمَرُّ أَنَّهُم أَقْنَعُوا نُظُمَ الاسْتِحْكامِ فى العالَمِ أَنَّ ذَلِكَ ضَماناً لاسْتِقْرارِ نُظُمِهِمْ وعُرُوشِهِمْ ، فَأَقَرُّوها سِياسَةً لاسْتِقْرارِ الأَمْنِ القَوْمِي فى بِلادِهِمْ .

مَزيدُ بَيان .. عَنِ الإِدمانِ بَيْنَ فِطْرَةِ الإِنْسانِ وحَبائِلِ الشَّيْطان :(٢)

الإِنْسانُ مَخْلُوقٌ مُكَرَّمٌ فَضَّلَهُ اللّهُ بِالعَقْلِ الَّذي يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الحَسَنِ والقَبيحِ :

---

(١) دراساتٌ فى المُجْتَمَعِ العَرَبى ، صادرٌ عَنْ (جامِعَة دِمَشْق) .

(٢) مَقالَةٌ بـ (مجَلَّة التَّبيان) لـ . د . مُحَمَّد الصَّغير عبدالرَّحمن .

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1]

فإنْ حُرِمَ الآدَمِيُّ فَضِيلَةَ الرُّشْدِ والإدْراكِ الكُبْرَى وفَقَدَ عَقْلَهُ ، رُفِعَ عَنْهُ التَّكْليفُ بِالشَّرائِعِ وأُعْفِيَ مِنَ الواجِباتِ ، وحُجِرَ عَلَيْهِ فى تَصَرُّفاتِهِ حَتَّى لا يَضُرَّ نَفْسَهُ وأُمَّتَهُ .

وهُناكَ صَنْفٌ آخَرُ مِنْ أَصْحابِ العُقُولِ وَضَعُوا عَلَيْها الحُجُبَ ، وكَسَفُوا نُورَها عَنْ عَمْدٍ وآثَروا الضَّلالَةَ عَلَى الهُدَى ، والغِوايَةَ عَلَى الرَّشَد .. ومِنْ ثَمَّ عانَدوا نِداءَ الفِطْرَةِ والعَقْلِ وكِلاهُما بَعيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ ، والخُضُوعِ لَهُ والتَّسْلِيمِ لأَمْرِهِ ومِنْ هُنا كانَتْ رُتْبَتُهُم أَدْنَى مِنْ دَرَجَةِ البَهائِمِ والعَجْماوات :

﴿ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ .

يَقُولُ الحَسَنُ البَصْرِي رضي الله عنه : (لَوْ كانَ العَقْلُ يُشْتَرَى لَتَغالَى النَّاسُ فى ثَمَنِهِ ، فالعَجَبُ مِمَّنْ يَشْتَرِي بِمالِهِ ما يُفْسِدُهُ !! فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَشْتَرِيَ إِنْسانٌ بِمالِهِ ما يُذْهِبُ بِهِ بَصَرَهُ أَو يُثْقِبُ بِهِ أُذُنَهُ ؟! فَلِماذا يَرْضَى أَنْ يُتْلِفَ ما هُوَ أَفْضَلُ مِنَ السَّمْعِ والبَصَر ؟! وهُوَ العَقْلُ والإدْراك) .

ولِذا أَفْرَدَ الإسْلامُ العَقْلَ بِمَكانَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ عِنْدَما حَدَّدَ الكُلِّيَّاتِ الخَمْسِ الَّتى يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ حِفْظُها ، بِكُلِّ طُرُقِ الحِفْظِ وهِيَ : الدِّينُ ، والعَقْلُ ، والنَّفْسُ ، والعِرْضُ ، والمال .

ولا يَنْتَهِي العَجَبُ مِنْ أُناسٍ رَضَوا بِاللهِ رَبّاً وبِالإسْلامِ دِيناً وبِمُحَمَّدٍ ﷺ نبيّاً ورَسُولاً ، ويُصِرُّونَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى مُعاقَرَةِ الخَمْرِ وتَناوُلِ المُخَدِّراتِ والمُفْتِراتِ كالحَشيشِ والأَفْيُونِ والبانْجُو وما في مَعْناها مِنَ الخَبائِثِ الضَّارَّة .

إنَّ أَصْحابَ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ والأَذْواقِ الرَّفِيعَةِ مَنَعُوا أَنْفُسَهُم الخَمْرَ والسُّكْرَ حَتَّى وهُمَ فى زَمَنِ الجاهِلِيَّةِ كَأَمْثالِ ساداتِنا (أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وعُثْمانَ بنِ عَفَّانَ وعَبْدِالرَّحْمنِ بنِ عَوْفٍ وأَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ) رضي الله عنهم .

---

(١) سُورَةُ الإسْراء (الآيَة ٧٠) .

فَلَيْسَ مُسْتَغْرَباً إذا جاءَ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُعيدَ النَّاسَ إِلَى فِطْرَتِهِم السَّلِيمَةِ ، ويَضَعَ لَهُم مِنَ التَّشريعاتِ ما يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ نِعَمَ اللهِ ، فَنَزَلَ القُرْآنُ الكَرِيمُ بِالتَّحْرِيمِ القاطِعِ لِلْخَمْرِ بَعْدَ تَدَرُّجٍ مَقْصُودٍ لِيَتَخَلَّصَ النَّاسُ مِنْ إِدْمانِها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[1] .

والخَمْرُ : اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ كُلَّ ما خامَرَ العَقْلَ وغَطَّاهُ كالخَمْرِ وما في مَعْناها وكُلَّ ما أَدَّى مُؤَدَّاها .

وجاءَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ مُبَيِّنَةً لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ وشارِحَةً لَهُ : رَوَى الإِمامُ أَحْمَدُ وأَبو داوُدَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ : (نَهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ) . فَكُلُّ ما مِنْ شَأْنِهِ الإِسْكارُ والإِخْلالُ بِنِظامِ البَدَنِ كالفُتُورِ والخِدْرِ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ بِصَرِيحِ كَلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى لَوْ تَناوَلَ مِنْهُ شَيْئاً قَلِيلاً لَمْ يَصِلْ بِهِ إِلَى السُّكْرِ أَو الخِدْرِ : (فَما أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرام) .

وقَدْ تَخَطَّتْ دائِرَةُ الحُرْمَةِ السُّكْرانَ والنَّشْوانَ إِلَى كُلِّ مَنْ لَهُ صِلَةٌ بِالخَمْرِ أَو يَسَّرَ الحُصُولَ عَلَيْها ؛ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ ، وشارِبَها ، وساقِيها ، ومُبْتاعَها ، وبائِعَها ، وعاصِرَها ، ومُعْتَصِرَها ، وحامِلَها ، والمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ)[2] .

والتَّعْبِيرُ عَنْ مُعاقَرَةِ الخَمْرِ وأَخَواتِها بِالإِدْمانِ تَعْبِيرٌ نَبَوِيٌّ وَرَدَ فى أَكْثَرَ مِنْ مَوْطِنٍ مِنْها :

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (ثَلاثَةٌ حَرَّمَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى عَلَيْهِم الجَنَّةَ : مُدْمِنُ خَمْرٍ ، والعاقُّ ، والدَّيُّوثُ الَّذي يُقِرُّ الخَبَثَ فى أَهْلِهِ) .

ولَكِنَّ اللَّافِتَ لِلنَّظَرِ فى شَأْنِ الإِدْمانِ الآنَ شُيُوعُهُ فى جَمِيعِ الطَّبَقاتِ وفى جَمِيعِ

---

(١) سُورَةُ المائِدَة (الآيَة ٩٠) .

(٢) أَخْرَجَهُ أبو داود وابْنُ ماجه ، واللَّعْنُ : هُوَ الطرْدُ والإِبْعادُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى .

وقَدْ نَصَّ الفُقَهاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ زَرَعَ عِنَباً لِيبيعَهُ لِمَنْ يَعْتَصِرُهُ خَمْراً فَهُما فى الإِثْمِ سَواء (وكِلاهُما بائِعُ خَمْر) .

الأَعْمارِ والمُسْتَوَياتِ ، وقَدْ كانَ الإِدْمانُ قَدِيماً يَكادُ يَنْحَصِرُ فى مَجالِسِ المُتْرَفينَ والعابِثينَ .

أَمَّا الآنَ فَظاهِرَةُ (شُرْبِ البانْجو) فى المَدارِسِ ، وظاهِرَةُ (الشِّيشَة) عِنْدَ الفَتَياتِ فى المَدارِسِ أَصْبَحَتْ مُنْتَشِرَةً فى كُلِّ مَكان ، وإِذا كانَ قَيِّمُ المَدْرَسَةِ ومُعَلِّمُ الصَّفِّ مُدْمِناً فَهَلْ سَيُخَرِّجُ أُناساً صالِحِين ؟ .

إِنَّ غِيابَ الوازِعِ الدِّينِي وتَهْمِيشَ قِيَمِ التَّدَيُّنِ فى نُفُوسِ النَّاسِ يَجْعَلُهُم صَيْداً سَهْلاً لِحَبائِلِ الشَّيْطانِ الَّذي نَشَرَ شِباكَهُ في أَماكِنِ تَجَمُّعِ شَبابِ المُسْلِمينَ سَواءٌ المُتْرَفِينَ أَم الكادِحِين ..



حَتَّى المَشايِخ

شَيْخٌ شَيَّخَهُ الشَّيْطان .. وشَيْخٌ شَيَّخَهُ الزَّمان .. وشَيْخٌ شَيَّخَهُ الرَّحْمٰن

وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطانَ واعْصِهما

وإنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

• **وأمَّا مَنْ شَيَّخَهُ الشَّيْطان ، فَأَشْهَرُهُم :**

١) **القُرآنِيُّون** : ولَقَدْ أَلْبَسَهُم الشَّيْطانُ هَذا الزِّيَّ لِيُلَبِّسَ عَلَى العَوام .. ويَضْمَنَ لَهُم القَبُولَ والاسْتِحْسانَ بَيْنَ الأَنام .

وعَقِيدَةُ هَؤُلاءِ أَنَّ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ والأَحادِيثَ المَرْوِيَّةَ لا يُحْتَجُّ بِها ، وأَنَّ الحُجَّةَ فى القُرْآنِ وحَسْب .

وهَذهِ الأَفْكارُ لَيْسَتْ بِالجَدِيدَة .. فَقَد قالَ بِها أَوْلِياءُ الشَّيْطانِ مُنْذُ قُرونٍ عَدِيدَة .. ولَكِنَّ الشَّيْطانَ المُتَرَبِّصَ لِإغْواءِ الإِنْسانِ ؛ قَدْ وَجَدَ الفُرْصَةَ سانِحَةً هَذهِ الأَيَّامَ (حَيْثُ تَفَشَّى واسْتَشْرَى ضَعْفُ الإِيمانِ ، وعَمَّ الجَهْلُ والهَذَيانُ) فَقامَ (عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ) مُسْتَنْهِضاً أَوْلِياءَهُ مِنْ بَنِي الإِنْسانِ ، ومَكَّنَهُم مِنْ إِعادَةِ واسْتِزادَةِ هَذا الكَلامِ فى سَمَواتِهِ الفَضائِيَّةِ والَّتى تُبَثُّ إِلَى كُلِّ مَكانٍ ، ويُتْقِنُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْها بِإِحْكام .

وأَطْلَقَ عَلَى مَنْ يُرَدِّدُ هَذا ... مُفَكِّرو الإِسْلام .

وإِنْ تَعْجَبْ فَلا عَجَبَ ؛ فَلَقَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَ أَجْدادِهِمْ ، مِمَّنْ قالَ اللّهُ فى حَقِّهِمْ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١)

ولِدَحْضِ مَزاعِمِ أَوْلِياءِ الشَّيْطانِ ، إِلَيْكَ هَذا البَيان :

فَلَقَدْ بَيَّنَ العالِمُ العَلاَّمَةُ بِحَقٍّ وحُجَّةُ اللّهِ عَلَى الأَنام (جَلالُ الدِّين السُّيُوطي ،

---

(١) سُورَةُ التَّوْبَة (الآيَة ١٠٧) .

٨٤٩ – ٩١١ هـ) : أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ كانَ يُنْكِرُ حُجِيَّةَ السُّنَّةِ ؛ حَيْثُ قالَ فى صَدْرِ كِتابِهِ (مِفْتاحُ الجَنَّة) . – :

(اعْلَمُوا – يَرْحَمُكُم اللّه – : إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ الدَّواءِ ، ومِنَ الآراءِ كَهَيْئَةِ الخَلاءِ : لا تُذْكَرُ إِلاَّ عِنْدَ الضَّرُورَة .. وإِنَّ مِمَّا فاحَ رِيحُهُ فى هَذا الزَّمانِ (وكانَ دارِساً بِحَمْدِ اللّهِ تَعالَى مُنْذُ أَزْمان) ، هُوَ : أَنَّ قائِلاً رافِضِيّاً زَنْدِيقاً ، أَكْثَرَ فى كَلامِهِ : أَنَّ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ ، والأَحادِيثَ المَرْوِيَّةَ : (زادَها اللّهُ عُلُوّاً وشَرَفاً) لا يُحْتَجُّ بِها ، وأَنَّ الحُجَّةَ في القُرْآنِ خاصَّةً .

وأَوْرَدَ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثَ : (ما جاءَكُمْ عَنِّى – : مِنْ حَدِيث . – فاعْرِضُوهُ عَلَى القُرْآن : فإِنْ وَجَدْتُم لَهُ أَصْلاً فَخُذوا بِهِ ، وإِلاَّ فَرُدُّوه) .

هَكَذا سَمِعْتُ هَذا الكَلامَ بِجُمْلَتِهِ مِنْهُ ، وسَمِعَهُ مِنْهُ خَلائِقُ غَيْرِي ... فَمِنْهُم : مَنْ لا يُلْقِي لِذَلِكَ بالاً ، ومِنْهُم : مَنْ لا يَعْرِفُ أَصْلَ هَذا الكلامِ ، ولا مِنْ أَيْنَ جاءَ .

فَأَرَدْتُ : أَنْ أُوَضِّحَ لِلنَّاسِ أَصْلَ ذَلِكَ .. وأُبَيِّنُ بُطْلانَهُ وأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ المَهالِك .

فاعْلَمُوا (رَحِمَكُم اللّهُ) : أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ كَوْنَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلاً كانَ أَو فِعْلاً (بِشَرْطِهِ المَعْروفِ فى الأُصُولِ) حُجَّةً : كَفَرَ وخَرَجَ عَنْ دائِرَةِ الإِسْلامِ ، وحُشِرَ مَعَ اليَهُودِ والنَّصارَى أَو مَعَ مَنْ شاءَ اللّهُ مِنْ فِرَقِ الكَفَرَة .

رَوَى الإِمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه يَوْماً حَدِيثاً ، وقالَ : إِنَّهُ صَحِيحٌ ، فَقالَ لَهُ قائِلٌ : أَتَقُولُ بِهِ يا أَبا عَبْدِ اللّه ؟ ، فاضْطَرَبَ وقالَ : يا هَذا ... أَرَأَيْتَنِي نَصْرانِيّاً ؟ أَرَأَيْتَني خارِجاً مِنْ كَنِيسَة ؟ أَرَأَيْتَنِي فى وَسَطِي زِنّاراً ؟ أَرْوِي حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ اللّه ﷺ ولاأَقُولُ بِهِ ؟! .

وأَصْلُ هَذا الرَّأْيِ الفاسِدِ : أَنَّ الزَّنادِقَةَ ، وطائِفَةً مِنْ غُلاةِ الرَّافِضَةِ ذَهَبُوا : إِلَى إِنْكارِ الاحْتِجاجِ بالسُّنَّةِ ، والاقْتِصارِ عَلَى القُرْآنِ ، وهُم فى ذَلِكَ مُخْتَلِفُو المَقاصِد :

فَمِنْهُم : مَنْ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ النُّبُوَّةَ لـ (عَلِيٍّ) رضي الله عنه ، وأَنَّ (جِبْرِيلَ) عليه السلام أَخْطَأَ

فى نُزُولِهِ إِلَى (سَيِّدِ المُرْسَلِينَ) ﷺ - تَعالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرا - .

ومِنْهُم : مَنْ أَقَرَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالنُّبُوَّةِ ؛ ولَكِنْ قالَ : إِنَّ الخِلافَةَ كانَتْ حَقًّا لِعَلِيٍّ ؛ فَلَمَّا عَدَلَ بِها الصَّحابَةُ عَنْهُ إِلَى أَبِى بَكْرٍ ، قالَ هَؤُلاءِ المَخْذُولُونَ (لَعَنَهُم اللهُ) كَفَرَ الصَّحابَةُ حَيْثُ جاروا وعَدَلُوا بِالحَقِّ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ، وكَفَّروا (لَعَنَهُم اللهُ) عَلِيًّا رضي الله عنه أَيْضاً : لِعَدَمِ طَلَبِهِ حَقَّهُ ، فَبَنَوا عَلَى ذَلِكَ رَدَّ الأَحادِيثِ كُلِّها : لأَنَّها عِنْدَهُم (بِزَعْمِهِم) مِنْ رِوايَةِ قَوْمٍ كُفَّار .. فإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُون .

وهَذهِ آراءُ ما كُنْتُ أَسْتَحِلُّ حَكايَتَها لَوْلا مادَعَتْ إِلَيْهِ الضَّرورَةُ : مِنْ بَيانِ أَصْلِ هَذا المَذْهَبِ الفاسِدِ الَّذي كانَ النَّاسُ فى راحَةٍ مِنْهُ مِنْ أَعْصار .. وقَدْ كانَ أَهْلُ هَذا الرَّأْيِ مَوْجُودِينَ بِكَثْرَةٍ فى زَمَنِ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ فَمَنْ بَعْدَهُم ؛ وتَصَدَّى الأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ وأَصْحابُهُم - فى دُرُوسِهِم ومُناظَراتِهِم ، وتَصانِيفِهِم - لِلرَّدِّ عَلَيْهِم أ.هـ.

ولَنا إِضافَةٌ لِذَلِكَ مَزِيدُ بيان :

فَإِنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى لَمَّا تَكَفَّلَ بِحِفْظِ كِتابِهِ العَزِيزِ ، وَفَّرَ الدَّواعِىَ عَلَى نَقْلِ السُّنَّةِ وضَبْطِها وتَبْيِينِها ، إِذْ لا حِفْظَ لِلْكِتابِ بِدُونِها .

فَلَقَدِ اشْتَمَلَ (القُرْآنُ) عَلَى نُصُوصٍ مُجْمَلَةٍ ، وأُخْرى مُشْكَلَةٍ ، ولابُدَّ (لِلْعَمَلِ بِها) مِنْ شَرْحٍ يُبَيِّنُها ويُوَضِّحُها ويُفَسِّرُها ، ولابُدَّ لِهَذا الشَّرْحِ والبَيانِ أَنْ يُشاكِلَ المَشْروحَ والمُبَيَّنَ فى عِصْمَتِهِ وقُدْسِيَّتِهِ ، أَى أَنَّهُ لابُدَّ وأَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَذَلِكَ ، لأَنَّهُ هُوَ الَّذى كَلَّفَ العِبادَ ، فَهُوَ العَلِيمُ بِالمُرادِ ، ولا اطِّلاعَ لِغَيْرِهِ عَلَيْه .

وما مِنْ بَيانٍ أَوْلَى بِكِتابِ اللهِ مِنْ بَيانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ المُوحَى إِلَيْهِ ، هَذا البَيانُ الَّذى حَفِظَتْهُ لَنا (السُّنَّةُ المُشَرَّفَةُ) هُوَ وَحْىٌ كَذَلِكَ ، سَواءٌ ما تَلَقَّاهُ النَّبِىُّ عَنْ رَبِّهِ مِنْ مَعْنىً ، وما أُقِرَّ عَلَيْهِ مِنَ اجْتِهادٍ ، فَمُهِمَّةُ السُّنَّةِ هِىَ البَيانُ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1].

---

(١) سُورَةُ النَّحل(مِنَ الآيَة ٤٤) .

وعَلَى سَبيلِ الذِّكْرِ لا الحَصْرِ ، نُبَيِّنُ ذَلِكَ بِبَعْضِ الأَمْثِلَة :

قالَ اللّهُ تعالَى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ .(١)

فَهذا يُفْهَمُ مِنْهُ مُجَرَّدُ وُجُوبِ كُلٍّ مِنَ الصَّلاةِ والزَّكاة .

ولَكِنْ : ما هِيَ ماهِيَةُ هَذِهِ الصَّلاةِ الَّتى أَوْجَبَها اللّهُ ؟ وما كَيْفِيَّتُها ؟

وما وَقْتُها ؟ وما عَدَدُها ؟ وعَلَى مَنْ تَجِبُ ؟ وكَمْ مَرَّةً تَجِبُ فى العُمْر ؟

ثُمَّ ما هِيَ ماهِيَةُ الزَّكاةِ ؟ وعَلَى مَنْ تَجِبُ ؟ وفى أَيِّ مالٍ تَجِبُ ؟

وما مِقْدارُها ؟ وما شَرْطُ وُجُوبِها ؟

وقالَ تَعالَى : ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾(٢)، فَفَهِمْنا بِهَذا وُجُوبَ إِتْمامِهِما ، ولَكِنْ ما المُرادُ بِهِما ؟ أَهُوَ ما كانَ يَفْعَلُهُ العَرَبُ فى الجاهِلِيَّةِ؟ أَمْ شَيْءٌ آخَر؟ فَما هُوَ؟ وكَمْ مَرَّةً يَجِبُ فى العُمْرِ ؟ كُلُّ هَذه الأَسْئِلَةِ وما يُشاكِلُها لا يُسْعِفُنا فى الجَوابِ عَنْها سِوَى سُنَّةِ المُصْطَفى ﷺ، بَلْ لا يَسْتَقِيمُ دِينُنا إِلاَّ بِبَيانِها ولا بَيانَ لَها إِلاَّ فى سُنَّةِ الحَبِيبِ الأَعْظَم ﷺ .

وقَدْ وَرَدَتْ أَحادِيثُ وافِرَةٌ تَحُضُّ عَلَى الاعْتِصامِ بالسُّنَّةِ والتَّحْذِيرِ مِنْ هَجْرِها فَقَدْ أَخْرَجَ الدَّارِمِي واللاَّلْكائِي (فى السُّنَّةِ) عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(سَيَأْتِى ناسٌ يُجادِلُونَكُم بِشُبُهاتِ القُرْآنِ ، فَخُذُوهُم بِالسُّنَنِ ، فَإِنَّ أَصْحابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكتابِ اللّه) .

وأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ (فى الطَّبقاتِ) مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : (أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلِيًّا بنَ أَبى طالِبٍ رضي الله عنه أَرْسَلَهُ إِلَى الخوارِجِ وقالَ : اذْهَبْ إِلَيْهِم فَخاصِمْهُم ، ولا تُحاجَّهُم بِالقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ ذُو وُجُوهٍ ، ولَكِنْ خاصِمْهُم بِالسُّنَّة) وأَخْرَجَ مِنْ وَجْهٍ آخَر : (أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قالَ : يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فَأَنا أَعْلَمُ بِكتابِ اللّهِ مِنْهُم ، فى بُيُوتِنا نَزَلَ . قالَ : صَدَقْتَ

---

(١) سُورَةُ البَقَرَة (مِنَ الآيَة ٤٣ و ١١٠) وسُورَةُ النُّور (مِنَ الآيَة ٥٦).

(٢) سُورَةُ البَقَرَة (مِنَ الآيَة ١٩٦) .

ولَكِنَّ القُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ ، تَقُولُ ويَقُولُونَ ، ولَكِنْ حاجِجْهُم بِالسُّنَنِ ، فَإِنَّهُم لَنْ يَجِدوا عَنْها مَحِيصاً ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم ، فَحاجَّهُم بِالسُّنَنِ : فَلَمْ يَبْقَ بِأَيْدِيهِم حُجَّة) .

وقَدْ نَبَّهَ (الحَقُّ) جَلَّ في عُلاهُ عَلَى ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً فى القُرْآنِ المَجِيدِ ، فَقالَ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1] ، بَلْ تَوَعَّدَ (الحَقُّ) مَنْ صَدَّ عَنْ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ ، وأَلْحَقَ بِهِ وَصْفَ النِّفاقِ ، فَقالَ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[2] .

فَلْيَتَّقِ اللهَ كُلُّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الإِعْراضَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ والصَدَّ عَنْ سُنَّتِهِ ، ولَتَوْجَلْ نَفْسُهُ عِنْدَ قِراءَةِ هَذهِ الآيَةِ ، ولْيَشْتَدَّ إِشْفاقُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُخْتاراً لِلدُّخُولِ تَحْتَ هَذهِ الصِّفَةِ المَذْمُومَةِ المُوبِقَةِ ، المُوجِبَةِ لِلنَّارِ ، والعِياذُ بِاللهِ .

ولَقَدْ أَخْبَرَ (رَسُولُ اللهِ) ﷺ أَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ فَقالَ ﷺ :

(أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُم بِهَذا القُرْآنِ ، فَما وَجَدْتُم فِيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ ، وما وَجَدْتُم فِيهِ مِنْ حَرامٍ فَحَرِّمُوه ، وإِنَّ ما حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ كَما حَرَّمَ اللهُ .

أَلاَّ يَحِلَّ لَكُمُ الحِمارُ الأَهْلِيُّ ولا كُلُّ ذِي نابٍ مِنَ السِّباعِ ، ولا لُقْطَةُ مُعاهَدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْها صاحِبُها ، ومَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِم أَنْ يَقْرُوهُ ، ولَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِراه) .[3]

وخُلاصَةُ ما هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ عِنْدَ عُمُومِ المُسْلِمِينَ الَّذينَ لا يَجْتَمِعُونَ إِلاَّ عَلَى الحَقِّ المُبِين :

---

(١) سُورَةُ الحَشْر (مِنَ الآيَة ٧) . (٢) سُورَةُ النِّساء (الآيَة ٦١) .

(٣) أَخْرَجَهُ (أَبو داودَ) و (الحاكِمُ) و (التِّرْمِذِي) عَنِ المِقْدامِ بنِ مَعْدِ يكرِبَ رضي الله عنه .

(أَنَّ حُجِّيَّةَ السُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ ، وكَوْنَها طَرِيقاً لِمَعْرِفَةِ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ ضَروريَّاتِ هَذا الدِّينِ ، ومِنَ القَضايا المُسَلَّمَةِ عِنْدَ جَمِيعِ المُسْلِمينَ ، ولا يُشَكُّ فى ذَلِكَ إلاَّ جَهُولٌ مُتَعَصِّبٌ ، أَوْ مُلْحِدٌ مُكَذِّبٌ ، كَيْفَ لا .. واعْتِقادُ ذَلِكَ مِنْ لَوازِمِ الإيمانِ بِهِ ﷺ والإِذْعانِ لِما جاءَ بِهِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالَى كَما هُوَ واضِحٌ غايَةُ الوضُوح .

قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾(١) ، أَي عَنِ الرَّسُولِ ، وقالَ تَعالَى :﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾(٢) وقالَ تَعالَى :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾(٣).

وقالَ تَعالَى :﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(٤).

وفى الحَديثِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(مَنْ أَطاعَنِي فَقَد أَطاعَ اللهَ ، ومَنْ عَصانِي فَقَد عَصَى اللهَ) .

وعَنِ العِرْباضِ بنِ سارِيَةَ رضي الله عنه قال: وَعَظَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْها القُلُوبُ ، وذَرَفَتْ مِنْها العُيُونُ ، قالَ فِيها : (فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْها بِالنَّواجِذِ)وفى حَديثٍ أَخْرجَهُ أَبو الشَّيْخِ وأَبو نُعَيْم والدَّيْلَمِي : (فَمَنِ اسْتَمْسَكَ بِحَدِيثِي وفَهِمَهُ وحَفِظَهُ جاءَ مَعَ القُرْآنِ ، ومَنْ تَهاوَنَ بِالقُرْآنِ وحَدِيثِي فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ، أُمِرَتْ أُمَّتِي أَنْ يَأْخُذُوا بِقَوْلِي ويُطِيعُوا أَمْرِي ويَتَّبِعُوا سُنَّتِي فَمَنْ رَضِيَ بِقَوْلِي فَقَدْ رَضِيَ بِالقُرْآن) ، قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٥).

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ آل خالِدِ بنِ أُسَيْدٍ أَنَّهُ سَأَلَ (عَبْدَاللهِ بنَ عُمَرَ) رضي الله عنه فَقالَ : يا أَبا

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال (مِنَ الآيَة ٢٠) . (٢) سُورَةُ آل عِمْران (مِنَ الآيَة ٣١) . (٣) سُورَةُ النِّساء (الآيَة ٦٥) .
(٤) سُورَةُ النُّور (مِنَ الآيَة ٦٣) . (٥) سُورَةُ الحَشْر (مِنَ الآيَة ٧) .

عَبْدالرَّحْمٰن .. إِنَّا نَجِدُ صَلاةَ الخَوْفِ وصَلاةَ الحَضَرِ فى القُرْآنِ ولا نَجِدُ صَلاةَ السَّفَر ، فَقالَ (ابْنُ عُمَرَ) رضي الله عنه : يا ابْنَ أَخِي إِنَّ اللّٰهَ بَعَثَ إِلَيْنا مُحَمَّداً ﷺ ولا نَعْلَمُ شَيْئاً وإِنَّما نَفْعَلُ كَما رَأَيْناهُ يَفْعَلُ .

ورُوِىَ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَسَدٍ أَتَتْ (عَبْدَاللّٰهِ بنَ مَسْعُودٍ) رضي الله عنه فَقالَتْ لَهُ : بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ والواشِمَةَ والمُسْتَوْشِمَةَ ، وإِنِّى قَرَأْتُ ما بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَلَمْ أَجِدِ الَّذي تَقُولُ ، فَقالَ لَها : أَما قَرَأْتِ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (١) قالَت : بَلَى .. قالَ : فَهُو ذَاكَ .

وعَنْ (عُمَرَبنِ عَبْدِالعَزيز) رضي الله عنه ،أَنَّهُ قالَ : سَنَّ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ ووُلاةُ الأَمْرِ (يَعْنِي الخُلَفاءَ الرَّاشِدينَ) بَعْدَهُ سُنَناً الأَخْذُ بِها تَصْدِيقٌ لِكِتابِ اللّٰهِ ، واسْتِعْمالٌ لِطاعَةِ اللّٰهِ ، وقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللّٰهِ ، لَيْسَ لِأَحَدٍ تَغْيِيرُها ولا تَبْدِيلُها ، ولا النَّظَرُ فى رَأْيِ مَنْ خالَفَها ، مَنِ اقْتَدَى بِها مُهْتَدِي ، ومَنِ اسْتَنْصَرَ بِها مَنْصُورٌ ، ومَنْ خالَفَها واتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنينَ وَلاَّهُ اللّٰهُ ما تَوَلَّى وأَصْلاهُ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيرا .

ورُوِىَ (عَبْدُاللّٰهِ بنُ عُمَرَ) رضي الله عنه يُدِيرُ ناقَتَهُ أَى يُطِيفُها فِى مَكانٍ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ : لا أَدْرِي إِلاَّ أَنِّي رَأَيْتُ (رَسُولَ اللّٰهِ) ﷺ فَعَلَهُ فَفَعَلْتُهُ .

فَقَدْ بانَ لَكَ اتِّفاقُ كَلِمَةِ المُسْلِمينَ عَلَى اعْتِبارِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، وأَنَّها مِنْ حُجَجِ الدِّينِ القاطِعَةِ ، وأَدِلَّتِهِ السَّاطِعَةِ بَلْ لَمْ يَثْبُتْ مُعْظَمُ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ إِلاَّ بِها .

وأَمَّا الاقْتِصارُ عَلَى القُرْآنِ وَحْدَهُ فَإِنَّما هُوَ رَأْىُ قَوْمٍ لا خَلاقَ لَهُمْ ، خارِجِينَ عَلَى السُّنَّةِ ، قَدْ عَوَّلُوا عَلَى أَنَّ الكِتابَ فيهِ تِبْيانُ كُلِّ شَىْءٍ ، فَطَرَحُوا أَحْكامَ السُّنَّةِ ، فَأَدَّاهُم ذَلِكَ عَلَى الانْخِلاعِ مِنَ الجَماعةِ ، وتَأْوِيلِ القُرْآنِ عَلَى غَيْرِ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ ، كَما وَرَدَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (أَكْثَرُ ما أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي رَجُلٌ يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ ، يَضَعُهُ عَلَى غَيْرِ مَواضِعِهِ) (٢) ،وقالَ ﷺ : (مَنْ قالَ فِى القُرْآنِ

---

(١) سُورَةُ الحَشْر (مِنَ الآيَة ٧) .

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبَرانىُّ فى الأَوْسَطِ عَنْ (عُمر بنِ الخَطَّاب) رضي الله عنه .

بِرَأْيِهِ فَأَصابَ فَقَدْ أَخْطَأَ)[1].

ولِلّهِ دَرُّ القائِلِ :

وكَمْ مِنْ مُدَّعٍ فِقْهٍ خابِطٍ فِي ضَلالَةٍ ❋ وحُجَّتُهُ فِيها الكِتابُ المُنَزَّلُ

وأَمَّا حَدِيثُ (ما آتاكُمْ عَنِّي فاعْرِضُوهُ عَلَى كِتابِ اللّهِ فَإِنْ وافَقَ كِتابَ اللّهِ فَأَنا قُلْتُهُ ، وإِنْ خالَفَ كِتابَ اللّهِ فَلَمْ أَقُلْهُ أَنا ، وكَيْفَ أُخالِفُ كِتابَ اللّهِ وبِهِ هَدانِي اللّهُ) ، فَقَدْ قالَ عَبْدُالرَّحْمنِ بنُ مَهْدِي (كما فِي المُوافَقات) : إِنَّهُ وَضَعَهُ الزَّنادِقَةُ والخَوارِجُ ، وهَذِهِ الأَلْفاظُ لا تَصِحُّ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ بِصَحِيحِ النَّقْلِ وسَقِيمِهِ وقَدْ عارَضَ هَذا الحَدِيثَ قَوْمٌ فَقالُوا : نَحْنُ نَعْرِضُهُ عَلَى كِتابِ اللّهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وقَدْ عَرَضْناهُ عَلَى كِتابِ اللّهِ فَوَجَدْناهُ يُخالِفُهُ ، لِأَنَّا لَمْ نَجِدْ فِي كِتابِ اللّهِ أَنَّهُ لا يُقْبَلُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إِلاَّ ما وافَقَ كِتابَ اللّهِ ، بَلْ وَجَدْنا كِتابَ اللّهِ يُطْلِقُ التَّأَسِّيَ بِهِ ، والأَمْرَ بِطاعَتِهِ ، والتَّحْذِيرَ عَنْ مُخالَفَتِهِ جُمْلَةً عَلَى كُلِّ حالٍ ، وعَكَسَ بَعْضُهُم فَقالَ : قَدْ عَرَضْناهُ عَلَى كِتابِ اللّهِ فَوَجَدْناهُ لا يُخالِفُهُ لأَنَّ اللّهَ تَعالَى يَقُولُ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[2].

وعَلَى كُلِّ حالٍ فَهَذا الحَدِيثُ مُخْتَلَقٌ مَصْنُوع .

٢) الَّذِينَ ادَّعَوا سُقُوطَ التَّكْلِيفِ عَنْهُم بِدَعْوَى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[3] ، وفَسَّرُوا اليَقِينَ هُنا بِمَقامِ الحَقِيقَةِ ، فَهَؤُلاءِ مارِقُونَ مِنْ رِبْقَةِ الإِسْلامِ ، إِذِ (اليَقِينُ) هُنا المَوْتُ ، كَما قالَ جُمْهُورُ المُفَسِّرِينَ ، فَمَنِ اعْتَقَدَ بِذَلِكَ ولَمْ يُؤَدِّ جُمْلَةَ التَّكالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ فِي حَياتِهِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْها ، فَهُوَ خارِجٌ عَنِ الإِسْلامِ ، مَهْما زَيَّنَ لَهُ قُرَناءُ الشَّيْطانِ عَمَلَهُ ، أَو غَرُّوهُ بِسُمُوِّ مَكانَتِهِ .

لَقَدْ تَرَكَ قَوْمٌ العَمَلَ وقالُوا : نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللّهِ ، وكَذَبُوا كَما يَقُولُ

---

(١) أَخْرَجَهُ البَيْهَقِي عَنْ (جُنْدُب بن عَبْدِاللّه) رضي الله عنه.

(٢) سُورَةُ الحَشْر (مِنَ الآيَة ٧)

(٣) سُورَةُ الحِجْر (الآيَة ٩٩).

(رَسُولُ اللهِ)ﷺ: (لَوْ أَحْسَنُوا الظَنَّ لأَحْسَنُوا العَمَلَ) .

إِنَّ هَذهِ الفِئَةَ الضَّالَّةَ الَّتى نَسَبَتْ نَفْسَها زُوراً وبُهْتاناً إِلَى أَهْلِ التَّصَوُّفِ ، فإِنَّما دَسَّها الأَعْداءُ فى صُفُوفِ الأَصْفِياء .

لابُدَّ مِنْ أَداءِ الفَرائِضِ ، وإِلاَّ لَما كانَ لِمُهْمِلِها إِلَى القُرْبِ مِنَ (اللهِ تَعالَى) مِنْ سَبِيل .

ومَعَ أَداءِ الفَرائِض ، الإِكْثارُ مِنَ النَّوافِلِ ، فَتِلْكَ سِمَةُ أَهْلِ التَّصَوُّفِ مِنَ المُتَأَخِّرينَ ومِنَ الأَوائِل .

يَقُولُ الشَّيْخُ (مُحَمَّد خَلِيلُ الخَطِيب ، ت ١٩٨٦ م)في كتابِهِ (بِدايةُ التَّعَرُّف فِي شَرْحِ نُقايَةِ التَّصَوُّف) : وغايَةُ العِلْمِ العَمَلُ بِهِ فَلا يَنْفَعُ عِلْمٌ بِلاعَمَلٍ بَل يَضُرُّ ، قالَ ﷺ: (كُلُّ عِلْمٍ وَبالٌ عَلَى صاحِبِهِ يَوْمَ القِيامَةِ إِلاَّ مَنْ عَمِلَ بِهِ)[1].

وغايَةُ العِلْمِ بِهِ أَنْ تَعْمَلا ✻ ياخُسْرَ مَنْ لِعِلْمِهِ قَدْ أَهْمَلا

يَقُولُ أَبو يَزيد (طَيْفُور بنُ عِيسَى وهُوَ مِنْ رُوَّادِ الصُّوفِيَّة ، ت ٢٦١ هـ) : لَوْ نَظَرْتُم إِلَى رَجُلٍ أُعْطِىَ مِنَ الكَراماتِ حَتَّى يَرْتَقِىَ فى الهَواءِ فَلا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُروا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الأَمْرِ والنَّهْيِ وحِفْظِ الحُدودِ وأَداءِ الشَّرِيعَة .[2]

وهُوَ أَيْضاً (أَبُو يَزِيد) وقَدْ وُصِفَ لَهُ شَيْخٌ وسَمِعَ مِنْ أَحْوالِهِ ما أَعْجَبَهُ ، فَذَهَبَ لِزِيارَتِهِ ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْصُقُ فى اتِّجاهِ القِبْلَةِ ، قالَ : هَذا غَيْرُ مُؤْتَمَنٍ عَلَى أَدَبٍ مِنْ آدابِ النُّبُوَّةِ ، فَكَيْفَ يُؤْتَمَنُ عَلَى الدِّين ؟ وعادَ ولَمْ يُقابِلْهُ .

إِنَّهُ بَرْهَنَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الصَّادِقينَ ومَشايخَ التَّصَوُّفِ الحَقِيقِيِّينَ هُمْ أَغْيَرُ النَّاسِ عَلَى أَدَقِّ سُنَنِ النَّبِىِّ ﷺ فَما بالُكَ بِالفَرائِض ؟ ..

وكَم .. وكَم .. تَمْتَلِىءُ صَفَحاتُ التَّارِيخِ بِأَمْثالِ هَذهِ المَشاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ أَهْلِها وعُلُوِّ قَدْرِهِم عِنْدَ رَبِّهِم ، أُولَئِكَ هُمْ أَهْلُ التَّصَوُّفِ ومَشايخُهُ بِحَقٍّ

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبرَاني .

(٢) الرِّسالة القُشَيْرِيَّة .

ومِنْ عَجَبٍ أَنَّ أَعْداءَ الإِسْلامِ قَد نَجَحُوا إِلى حَدٍّ كَبيرٍ فى تَزْيِينِ الباطِلِ وحَجْبِ الحَقِّ فى أَذْهانِ الكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذا ذُكِرَ التَّصَوُّفُ عَلَى سَمْعِ أَحَدِهِم ، انْزَلَقَ خَيالُهُ إِلَى الأَفَّاقِينَ وَاللُّصُوصِ أَو مِمَّنْ يَنْسِبُونَ أَنْفُسَهُم إِلَيْهِ زُوراً وعُدْواناً ، فالَّذى يَفْعَلُ ذَلِكَ (تَماماً) مِثْلَ الَّذى إِذا ذُكِرَ الإِسْلامُ عِنْدَهُ ذَهَبَ خيالُهُ إِلَى (عَبْدِ اللّه بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُول) زَعِيمِ المُنافِقِينَ بِالمَدِينَةِ وفِرْقَتِهِ ، وتَرَكَ (أَبا بَكْرٍ وعُمَرَوعُثْمانَ وعَلِيّاً وسائِرَ الأَصْحاب) ﷺ ، بِرَبِّكَ ماذا تَقُولُ فِيمَنْ هَذا فِعْلُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ الدَّاءُ عِنْدَهُ فى قَلْبِهِ !! ..

لَقَدْ كانَ الشُّغلُ الشَّاغِلُ لِكَثيرٍ مِنْ مَشايخِ الصُّوفيَّة هُوَ تَنْقِيَةُ بُستانِ التَّصَوُّفِ البَدِيعِ ، المُزْهِرِ ، المُثْمِرِ ، الوارِفِ الظِّلالِ ، مِمَّا يَنْمُو فى جَوانِبِهِ ، مِنْ نَباتاتٍ طُفَيْلِيَّةٍ وحَشائِشَ ضارَّةٍ . ومَزِيدُ بَيانِ ذَلِكَ فى السُّطورِ القادِمَة :

فَهَذا رَجُلٌ جاءَ مُسْتَفْسِراً مِنَ الإِمامِ الجُنَيْد (وهُوَ مِنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ ، ت : ٢٩٧ هـ) قائِلاً لَهُ : إِنَّ جَماعَةً تَرَكُوا أَداءَ الصَّلاةِ بِدَعْوَى أَنَّهُم قَدْ وَصَلُوا ، فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ : نَعَم .. وَصَلُوا إِلَى سَقَر ، ثُمَّ انْبَرَى قائِلاً : (إِنَّ هَذا قَولُ قَوْمٍ تَكَلَّمُوا بِإِسْقاطِ الأَعْمالِ ، وهُوَ عِنْدِى عَظِيمٌ ، والَّذى يَسْرِقُ ويَزْنِي أَحْسَنُ حالاً مِنَ الَّذي يَقُولُ هَذا ، فَإِنَّ العارِفِينَ بِاللّهِ تَعالى أَخَذوا الأَعْمالَ عَنِ اللّهِ ، وإِلَيْهِ رَجَعُوا ولَوْ بَقِيتُ أَلْف عامٍ لَمْ أَنْقُصْ مِنْ أَعْمالِ البِرِّ ذَرَّةً إِلاَّ أَنْ يُحالَ بِي دُونَها) .

وقالَ الإِمامُ النَّوَوِيُّ (الفَقِيهُ المُحَدِّثُ الصُّوفِيُّ العَلَمُ ت : ٦٧٦ هـ) : (مَنْ رَأَيْتَهُ يَدَّعِي مَعَ اللّهِ حالاً تُخْرِجُهُ عَنْ حَدِّ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَلا تَقْرَبَنَّ مِنْهُ) .

ويَقُولُ أَبو طالِب المَكِيِّ (الإِمامُ الصُّوفِيُّ الشَّهِيرُ ، ت : ٣٨٦ هـ) :

(ومَقامُ اليَقينِ لا يُسْقِطُ فَرائِضَ الإِيمانِ ، ومُشاهَدَةُ التَّوْحِيدِ لاتُبْطِلُ شَرائِعَ الرُّسُومِ ، ولا تُسْقِطُ اتِّباعَهُ ، فَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدِ افْتَرى عَلَى اللّهِ ورَسُولِهِ

وكَذَبَ عَلَى المُوقِنِينَ والمُحِبِّين) .

وقالَ العَلاَّمَةُ الكَبِيرُ الأُسْتاذُ (أَبُو الأَعْلَى المَوْدُودِى) فى كِتابِهِ (مَبادِىء الإِسْلامِ) تَحْتَ عُنْوان التَّصَوُّف :

(إِنَّما التَّصَوُّفُ عِبارَةٌ فى حَقِيقَةِ الأَمْرِ عَنْ حُبِّ اللهِ ورَسُولِهِ الصَّادِق بَلِ الوُلُوعِ بِهِما والتَّفانِي فى سَبِيلِهِما ، والَّذى يَقْتَضِيهِ هَذا الوُلُوعُ والتَّفانِي أَلاَّ يَنْحَرِفَ المُسلِمُ قَيْدَ شَعْرَةٍ عَنِ اتِّباعِ أَحْكامِ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ، فَلَيْسَ التَّصَوُّفُ الإِسْلامِيُّ الخالِصُ بِشَىْءٍ مُسْتَقِلٍّ عَنِ الشَّرِيعَةِ ، وإِنَّما هُوَ القِيامُ بِأَحْكامِها بِغايَةٍ مِنَ الإِخْلاصِ ، وصَفاءِ النِّيَّة وطَهارَةِ القَلْبِ)[1].

٣) **الَّذينَ عَدَّدوا التَّوْحِيد : إِلَى تَوْحِيد أُلُوهِيَّة .. وتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّة**

فَقالوا : إِنَّ الرُّسُلَ لَمْ يُبْعَثُوا إِلاَّ لِتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّةِ وهُوَ إِفْرادُ اللهِ بِالعِبادَةِ ، وأَمَّا تَوْحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ وهُوَ اعْتِقادُ أَنَّ اللهَ رَبُّ العالَمِينَ المُتَصَرِّفُ فى أُمُورِهِمْ فَلَمْ يُخالِف فِيهِ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ والمُسْلِمينَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2] ، ثُمَّ قالوا : إِنَّ الَّذِينَ يَتَوَسَّلُونَ بِالأَنْبِياءِ ويَتَشَفَّعُونَ بِهِم ويُنادُونَهُم عِنْدَ الشَّدائِدِ هُمْ عابِدُونَ لَهُم وقَدْ كَفَروا بِما كَفَرَ بِهِ عُبَّادُ الأَوْثانِ والمَلائِكَةِ والمَسِيحِ سَواءً بِسَواءٍ ، فَإِنَّهُم لَمْ يَكْفُروا بِاعْتِقادِهم الرُّبُوبِيَّةَ فى تِلْكَ الأَوْثانِ وما مَعَها ، بَلْ بِتَرْكِهِمْ تَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ بِعِبادَتِها ، وهَذا يَنْطَبِقُ عَلَى زُوَّارِ القُبورِ المُتَوَسِّلِينَ بِالأَوْلِياءِ المُنادِينَ لَهُم ، المُسْتَغِيثِينَ بِهِم ، الطَّالِبِينَ مِنْهُم ما لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ اللهُ تَعالَى .

بَلْ قالَ الضَّالُّ المُضِلُّ المُجَدِّدُ لِمَزاعِمِ الشَّيْطان : إِنَّ كُفْرَهُم أَشْنَعُ مِنْ كُفْرِ عُبَّادِ الأَوْثان .

فَهَذا مُلَخَّصُ مَذْهَبِهِم مَعَ الإِيضاحِ ، وفِيهِ عِدَّةُ دَعاوَى ، فَلْنَعْرِضْ لَها عَلَى سَبِيلِ

---

(١) مبادىءُ الإِسْلام (أَبو الأَعْلَى المَوْدُودى) ص ١١٤ - ١١٧

(٢)سُورَةُ لُقْمان (مِنَ الآيَة ٢٥) ، سُورَةُ الزُّمَر (مِنَ الآيَة ٣٨) .

الاختِصار ، ولْنَجْعَلِ الكَلامَ فى مَقامَيْنِ ؛ فَنَتَحاكَم إِلَى العَقْلِ ثُمَّ نَتَحاكَم إِلَى النَّقْلِ ، فَنَقُولُ : قَوْلُهُم : إِنَّ التَّوْحِيدَ يَنْقَسِمُ إِلَى تَوْحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، تَقْسِيمٌ غَيْرُ مَعْروفٍ لأَحَدٍ قَبْلَ القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِي حَيْثُ اسْتَحْدَثَهُ عالِمُ الفِتْنَةِ الَّذى أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ، وغَيْرُ مَعْرُوفٍ أَيْضاً كَما سَنُبَيِّنُهُ ، وما كانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ دَخَلَ فى الإِسْلام : إِنَّ هُناكَ تَوْحِيدَيْنِ ، وإِنَّكَ لا تَكُونُ مُسْلِماً حَتَّى تُوَحِّدَ تَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ ، ولا أَشارَ ﷺ إِلَى ذَلِكَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، ولا سُمِعَ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ الَّذينَ يَتَبَجَّحُونَ بِادِّعاءِ اتِّباعِهِم فى كُلِّ شَىْءٍ ، ولا مَعْنَى لِهَذا التَّقْسِيمِ ، فَإِنَّ الإِلَهَ الحَقَّ هُوَ الرَّبُّ الحَقُّ ، والإِلَهَ الباطِلَ هُوَ الرَّبُّ الباطِلُ ، ولا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ والتَّأْلِيهَ إِلاَّ مَنْ كانَ رَبّاً .

ولا مَعْنَى لِأَنْ نَعْبُدَ مَنْ لا نَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّهُ رَبٌّ يَنْفَعُ ويَضُرُّ ، فَهَذا مُرَتَّبٌ عَلَى ذَلِكَ ، كَما قالَ تَعالَى :﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾(١) ، فَرَتَّبَ العِبادَةَ عَلَى الرُّبوبِيَّةِ ، فَإِنَّنا إِذا لَمْ نَعْتَقِدْ أَنَّهُ رَبٌّ يَنْفَعُ ويَضُرُّ ، فَلا مَعْنَى لِأَنْ نَعْبُدَهُ كَما قُلْنا ، ويَقُولُ تَعالَى :﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٢) ، يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لا يَنْبَغِي السُّجُودَ إِلاَّ لِمَنْ ثَبَتَ اقْتِدارُهُ التَّام ، ولا مَعْنَى لأَنْ يَسْجُدوا لِغَيْرِه .

هَذا هُوَ المَعْقُولُ ، ويَدُلُّ عَلَيْهِ القُرْآنُ والسُّنَّةُ :

أَمَّا القُرْآنُ فَقَدْ قالَ :﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾(٣) ، فَصَرَّحَ بِتَعَدُّدِ الأَرْبابِ عِنْدَهُم .

وعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَصْرِيحِ القُرْآنِ بِأَنَّهُم جَعَلُوا المَلائِكَةَ أَرْباباً ، يَقُولُ مَنِ اعْتَقَدَ هَذا الاعْتِقادَ الفاسِدَ : إِنَّهُم مُوَحِّدونَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ولَيْسَ عِنْدَهُم إِلاَّ رَبٌّ واحِدٌ وإِنَّما أَشْرَكُوا فى تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّة .

ويَقُولُ نَبِيُّ اللهِ (يُوسُفُ) عليه السلام لِصاحِبَي السِّجْنِ وهُوَ يَدْعُوهُما إِلَى التَّوْحيد :

---

(١) سُورَةُ مَرْيَم (مِنَ الآيَة ٦٥) . (٢) سُورَةُ النمل (مِنَ الآيَة ٢٥) . (٣) سُورَةُ آل عِمْران (مِنَ الآيَة ٨٠) .

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]

ويَقُولُ اللّهُ تعالَى أَيْضاً : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾[2]، وأَمَّا هُم فَلَمْ يَجْعَلُوهُ رَبّاً ، ومِثْلَ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾[3]، خِطاباً لِمَنْ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ تعالَى .

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِم يَوْمَ القِيامَةِ : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[4]، أَى : فى جَعْلِكُم أَرْباباً كَما هُوَ ظاهِر .

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تعالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾[5]، فَهَلْ تَرَى صاحِبَ هَذا الكَلامِ مُوَحِّداً أَو مُعْتَرِفاً ؟ .

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾[6]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وهُوَ كَثِيرٌ لا نُطِيلُ بِذِكْرِهِ .

فَإِذاً لَيْسَ عِنْدَ هَؤُلاءِ الكُفَّارِ تَوْحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ كَما زَعَمَ أَصْحابُ هَذا الاعْتِقادِ الفاسِدِ ، وما كانَ نَبِىُّ اللّهِ (يُوسُفُ) عليه السلام يَدْعُوهُم إِلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، لأَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ شَىْءٌ يُسَمَّى تَوْحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ وشَىْءٌ يُسَمَّى تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ عِنْدَ نَبِىِّ اللّهِ (يُوسُفَ) عليه السلام : فَهَلْ هُمْ أَعْرَفُ بِالتَّوْحِيدِ مِنْهُ ، أَم يَجْعَلُونَهُ مُخْطِئاً فى التَّعْبِيرِ بِالأَرْبابِ دُونَ الآلِهَة ؟ !

ويَقُولُ اللّهُ فى أَخْذِ المِيثاق : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[7] ، فَلَو كانَ الإِقْرارُ بِالرُّبوبِيَّةِ غَيْرَ كافٍ وكانَ مُتَحَقِّقاً عِنْدَ المُشْرِكِينَ ولَكِنَّهُ لا يَنْفَعُهُم كَما يَقُولُ أُولَئِكَ المُفْسِدُونَ ، ما صَحَّ أَنْ يُؤْخَذَ عَلَيْهِم المِيثاقُ بِهَذا ، ولا صَحَّ أَنْ يَقُولوا يَوْمَ القِيامَة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ .

وكانَ الواجِبُ أَنْ يُغَيِّرَ اللّهُ عِبارَةَ المِيثاقِ إِلَى ما يُوجِبُ اعْتِرافَهُم بِتَوْحِيدِ

---

(١) سُورَةُ يُوسُف (الآيَة ٣٩) .
(٢) سورَةُ الرَّعد (مِنَ الآيَة ٣٠) .
(٣) سُورَةُ الكَهْف (مِنَ الآيَة ٣٨) .
(٤) سُورَةُ الشُّعَراء (الآيَتان ٩٧ ، ٩٨) .
(٥) سُورَةُ الفُرْقان (مِنَ الآيَة ٦٠) .
(٦) سُورَةُ الرَّعْد (مِنَ الآيَة ١٣) .
(٧) سُورَةُ الأَعْراف (مِنَ الآيَة ١٧٢) .

الأُلُوهِيَّة حَيْثُ إِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبوبِيَّةِ غَيْرُ كافٍ كما يَزْعُمُ هَؤُلاءِ ، إِلَى آخِرِ ما يُمْكِنُنا أَنْ نَتَوَسَّعَ فِيهِ ، وهُوَ لا يَخْفَى عَلَى مَنْ هَداهُ اللّه .

وعَلَى كُلِّ حالٍ فَقَدِ اكْتَفَى مِنْهُم بِتَوْحِيدِ الرُّبوبِيَّةِ ، ولَوْ لَمْ يَكُونا مُتلازِمَيْنِ لَطَلَبَ إِقْرارَهُم بتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّةِ أَيْضاً ، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالَى :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾[1] ، فَإِنَّهُ إِلَهٌ فى الأَرْضِ ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِيها مَنْ يَعْبُدُهُ كَما فى آخِرِ الزَّمانِ فَإِنْ قالوا : إِنَّهُ مَعْبودٌ فِيها ، أَي مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ ، قُلْنا : إِذاً لا فَرْقَ بَيْنَ الإِلَهِ والرَّبِّ ، فَإِنَّ المُسْتَحِقَّ لِلْعِبادَةِ هُوَ الرَّبُّ لا غَيْر ، وما كانَتْ مُحاوَرَةُ فِرْعَوْنَ لِنَبِيِّ اللّهِ (مُوسَى) عليه السلام إِلَّا فى الرُّبوبِيَّة ، وقَدْ قالَ :

﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2] ، ثُمَّ قالَ :﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[3] ، ولا داعِي لِلتَّطْويلِ فى هَذا .

وأَمَّا السُّنَّةُ : فَسُؤالُ المَلَكَيْنِ لِلْمَيِّتِ عَنْ رَبِّهِ لا عَنْ إِلَهِهِ ، وكانَ الواجِبُ عَلَى مَذْهَبِ هَؤُلاءِ المُتَخَبِّطِينَ أَنْ يَقُولوا لِلْمَيِّتِ : مَنْ إِلَهُكَ ، لا مَنْ رَبُّكَ ، أَو يَسْأَلُوهُ عَنْ هَذا وذاك .

وأَمَّا قَوْلُهُ :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[4] ، فَهُم يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم ما لَيْسَ فى قُلُوبِهِم إِجابَةً لِحُكْمِ الوَقْتِ ، ومُضْطَرِّينَ لِذَلِكَ بِالحُجَجِ القاطِعاتِ والآياتِ البَيِّناتِ ، ولَعَلَّهُم نَطَقُوا بِما لا يَكادُ يَسْتَقِرُّ فى قُلُوبِهِم أَو يَصِلُ إِلَى نُفُوسِهِم ، بِدَلِيلِ أَنَّهُم يُقْرِنُونَ ذَلِكَ القَوْلَ بِما يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِم ، وأَنَّهُم يَنْسِبُونَ الضُّرَّ والنَّفْعَ إِلَى غَيْرِهِ ، وبِدَلِيلِ أَنَّهُم يَجْهَلُونَ اللّهَ تَمامَ الجَهْل ، ويُقَدِّمُونَ غَيْرَهُ عَلَيْهِ حَتَّى فى صَغائِرِ الأُمُور .

وإِنْ شِئْتَ فانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِم لِنَبِيِّ اللّهِ (هُود) عليه السلام :﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[5]

---

(١) سُورَةُ الزُّخْرُف (مِنَ الآيَة ٨٤) . (٢) سُورَةُ النَّازِعات (مِنَ الآيَة ٢٤) . (٣) سُورَةُ الشُّعَراء (مِنَ الآيَة ٢٩) .
(٤) سُورَةُ لُقْمان (مِنَ الآيَة ٢٥) ، سُورَةُ الزُّمَر (مِنَ الآيَة ٣٨) . (٥) سُورَةُ هُود (الآيَة ٥٤) .

فَكَيْفَ يَقُولُ هَؤُلاءِ المُتَخَبِّطُونَ : إِنَّهُم يَعْتَقِدونَ أَنَّ الأَصْنامَ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ إِلَى آخِرِ ما يَقُولُونَ ؟! ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِمْ فى زَرْعِهِمْ وأَنْعامِهِم :

﴿ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾[1]، فَقَدَّمُوا شُرَكاءَهُم عَلَى اللهِ تَعالَى فى أَصْغَرِ الأُمُورِ وأَحْقَرِها .

وقالَ تَعالَى فى بَيانِ اعْتِقادِهِمْ فى الأَصْنام : ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾[2]، فَذَكَرَ أَنَّهُم يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُم شُرَكاءُ فِيهِم .

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي سُفْيانَ يَوْمَ أُحُد : اعْلَ هُبَل ، فَأَجابَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ : اللهُ أَعْلَى وأَجَلّ .

فانْظُرْ إِلَى هَذا .. ثُمَّ قُل لِي ماذا تَرَى فى ذَلِكَ التَّوْحِيدِ الَّذِي يَنْسِبُهُ إِلَيْهِمْ هَؤُلاءِ المُتَخَبِّطُونَ ويَقُولُونَ : إِنَّهُم مِثْلَ المُسْلمينَ سَواءً بِسَواءٍ ، وإِنَّما افْتَرَقُوا بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّة ! .

ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾[3]، أَى : وأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَجْعَلُوهُ رَبّاً .

ومِثْلَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾[4] خِطاباً لِمَنْ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ تَعالَى .

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِمْ يَوْمَ القِيامَة : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[5]، أَى فى جَعْلِكُم أَرْباباً كَما هُوَ ظاهِرٌ لِغَيْرِ المُتَخَبِّط .

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾[6]، فَهَلْ تَرَى هَذا كَلامَ مُوَحِّدٍ أَو مُعْتَرِف ؟ .

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾[7]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، وهُوَ كَثِير .

---

(١) سُورَةُ الأنعام (مِنَ الآيَة ١٣٦) . (٢) سُورَةُ الأنعام (مِنَ الآيَة ٩٤) . (٣) سُورَةُ الرَّعْد (مِنَ الآيَة ٣٠) .
(٤) سُورَةُ الكَهْف (مِنَ الآيَة ٣٨) . (٥) سُورَةُ الشُّعَراء (الآيتان ٩٧، ٩٨). (٦) سورَةُ الفُرْقان (مِنَ الآيَة ٦٠) .
(٧) سُورَةُ الرَّعْد (مِنَ الآيَة ١٣) .

وأَدَلُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ تعالَى : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1] ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُه .

فَهَلْ تَرَى لَهُم تَوْحِيداً بَعْدَ ذَلِكَ يَصِحُّ أَنْ يُقالَ فِيهِ إِنَّهُ عَقِيدَةٌ ؟ أَمَّا المُتَخَبِّطُونَ فَيَقُولُونَ بَعْدَ هَذا كُلِّه : إِنَّهُم مَوَحِّدونَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وإِنَّ الرُّسُلَ لَمْ يُقاتِلُوهُم إِلاَّ عَلَى تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ الَّذي لَمْ يَكْفُروا إِلاَّ بِتَرْكِهِ !!

مَزيدُ بيان .. حَوْلَ مَنْ عَدَّدَ التَّوْحِيدَ مُوالاةً لِلشَّيْطان :

ولِذَلِكَ كانَ مِنَ الواضِحِ عِنْدَ أُولى الأَلْبابِ ، أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وتَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ مُتلازِمانِ لايَنْفَكُّ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ فى الوجُودِ وفي الاعْتِقادِ ، فَمَنِ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ لارَبَّ إِلاَّ اللهُ كانَ مُعْتَرِفاً بِأَنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ غَيْرُهُ ، وكانَ مُذْعِناً بِأَنَّهُ لا رَبَّ سِواهُ ، وهَذا الثَّانِي هُوَ مَعْنَى (لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه) فى قُلُوبِ جَمِيعِ المُسْلِمين .

ولِذَلِكَ نَرَى (القُرْآنَ) فى كَثيرٍ مِنَ المَواضِعِ يَكْتَفِي بِأَحَدِهِما عَنِ الآخَرِ ويُرَتِّبُ اللَّوازِمَ المُسْتَحِيلَةَ عَلَى انْتِفاءِ أَيِّ واحِدٍ مِنْهُما ، لِيَسْتَدِلَّ بانْتِفائِهِما عَلَى ثُبُوتِهِ ، فانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تعالَى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] وقَوْلِهِ تعالَى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[3] حَيْثُ عَبَّرَ بِالإِلَهِ ولَمْ يُعَبِّرْ بِالرَّبِ .

وفى آيةِ المِيثاقِ الأَوَّلِ ، اكْتَفَى سُبْحانَهُ بِذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ فقالَ : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[4] ولَمْ يَقُلْ (بِإِلَـهِكُم) اسْتِغْناءً بِذِكْرِ الرُّبوبِيَّة عَنْ ذِكْرِ الأُلُوهِيَّةِ لِتَلازُمِهما ، وفى مَوْضِعٍ آخَرَ يُذَكِّرُ النَّاسَ بِهَذا المِيثاقِ والعَهْدِ الأَزَلِيِّ ، فَيَسْتَغْنِي بِذِكْرِ العِبادَةِ التِّي هَىَ مَعْنَى تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ عَنْ ذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ (لِتَلازُمِهما كَذَلِكَ)

---

(١) سُورَةُ الأنعام (مِنَ الآيَة ١٠٨) .
(٢) سُورَةُ الأَنبياء (مِنَ الآية ٢٢) .
(٣) سُورَةُ المُؤْمِنون (مِنَ الآية ٩١) .
(٤) سُورَةُ الأَعْراف (مِنَ الآية ١٧٢) .

فَيَقُولُ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1] مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأَمْرَيْنِ وَجْهانِ لِحَقيقَةٍ واحِدَةٍ هِىَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيد .

واسْتَفاضَ عَنْ (رَسُول اللّٰهِ) ﷺ أَنَّ المَلَكَيْنِ يَقُولانِ لِلْمَيِّتِ فى قَبْرِهِ (مَنْ رَبُّكَ) ؟ ويَكْتَفِيانِ بِالسُّؤَالِ عَنْ تَوْحِيدِ الرُّبوبِيَّة ، فَيَكُونُ جَوابُهُ : (رَبِّىَ اللّٰهُ)[2] كافِياً ، ولا يَقُولانِ لَهُ : إِنَّما اعْتَرَفْتَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، ولَيْسَ تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ كافِياً فى الإيمان .

وهَذا خَلِيلُ اللّٰهِ (إِبْراهِيمُ) عليه السلام يَقُولُ لِذَلِكَ الجَبَّار :

﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾[3] ، فَيُجادِلُهُ بِأَنَّهُ كَذَلِكَ يُحْيي ويُمِيتُ ، إِلَى أَنْ حاجَّهُ (خَلِيلُ اللّٰهِ) بِما يُكَذِّبُ دَعْوَى رُبُوبِيَّتِهِ ، فَتَنْدَحِضُ دَعْوَى اسْتِحْقاقِهِ لِلْعِبادَة .

وفِيما حَكَى (اللّٰهُ) عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قالَ مَرَّةً : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[4] ، ومَرَّةً أُخْرَى : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[5] .

وبِالجُمْلَةِ فَقَدْ أَوْمَأَ القُرْآنُ العَظِيمُ والسُّنَّةُ المُسْتَفِيضَةُ إِلَى أَنَّ تَلازُمَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ مِمَّا قَرَّرَهُ رَبُّ العالَمِينَ ، واكْتَفَى سُبْحانَهُ مِنْ عَبْدِهِ بِأَحَدِهِما عَنْ صاحِبِهِ لِوجُودِ هَذا التَّلازُم ، وقَدْ فَهِمَ النَّاسُ هَذا التَّلازُمَ حَتَّى الفَراعِنَةُ الكافِرونَ ، فَمَّا الَّذي يَفْتَرِيهِ أُولَئِكَ المُبْتَدِعَةُ الخَرَّاصُونَ ، فَيَرْمُونَ المُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ قائِلُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ تَوْحِيدِ العِبادَةِ ، وأَنَّهُم لا يَكْفِيهِم ذَلِكَ لإِخْراجِهِم مِنَ الكُفْرِ وإِدْخالِهِمْ فى الإِسْلامِ حَتَّى تُحْقَنَ دِماؤُهُم ، بَلْ نَراهُم يَسْتَبِيحُونَ ذَبْحَ المُسْلِمِ المُسالِمِ لَهُم ، وهُوَ يَقُولُ

---

(١) سُورَةُ يس (الآية ٦٠، ٦١) .
(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فى صَحيحِهِ ، وغَيْرُهُ مِنْ أَصْحابِ السُّنَن .
(٣) سُورَةُ البَقَرَة (مِنَ الآية ٢٥٨) .
(٤) سُورَةُ القَصَص (مِنَ الآية ٣٨) .
(٥) سُورَةُ النَّازعات (مِنَ الآية ٢٤) .

(لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه) ، ويَقُولُونَ فيهِ إِنَّهُ ما اعْتَرَفَ بِتَوْحيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، وإِنَّما يَعْنِي تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وهُوَ غَيْرُ كافٍ ، فَلا يَقْبَلُونَ ما دَلَّ عَلَيْهِ صَرِيحُ كَلامِهِ ، ويَرْفُضُونَ الاكْتِفاءَ بِما اكْتَفَى بِهِ اللّهُ مِنْ عَبْدِهِ يَوْمَ المِيثاقِ الأَوَّلِ ، وبِما ارْتَضَتْهُ مَلائِكَتُهُ حِينَ تَسْأَلُ العَبْدَ فى قَبْرِهِ مِن إِقْرارِهِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، إِذْ كانَ مُسْتَلْزِماً لِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، وكانَ التَّصْرِيحُ بِما يُفِيدُ أَحَدُهُما تَصْرِيحاً بِما يَدُلُّ عَلَى الآخَرِ ، فالنَّاطِقُ بـ(لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ) مُعْتَرِفٌ بِكِلا التَّوْحِيدَيْنِ جَمِيعاً ، وأَلْفِتُ نَظَرَكَ مَعِي أَيُّها القارِيءُ المُتَدَبِّرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾[1]، وهِيَ فى مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتابِ اللّهِ تَعالَى ، ولَمْ يَقُلْ (إِلَهُنا) ، وانْظُرْ إِلَى قَوْلِ (رَسُولِ اللّهِ) ﷺ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ وَصِيَّةٍ جامِعَةٍ فَأَجابَهُ : (قُلْ : رَبِّيَ اللّهُ ثُمَّ اسْتَقِم)[2]، ولَمْ يَقُلْ (إِلَهِي) اكْتِفاءً بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فى النَّجاةِ والفَوْزِ لِتَلازُمِهِ الفِطْرِي مَعَ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ ، وهَذِهِ شَهادَةٌ مِنَ اللّهِ ورَسُولِهِ .

وتَذَكَّرْ مَعِي قَوْلَ اللّهِ تَعالَى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[3]، وقَوْلَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ : (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه) .

وتَدَبَّرْ مَقُولَتَهُ ﷺ لـ(أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ) حِينَ قَتَلَ مَنْ قالَ (لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ) إِذْ أَهْوَى إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ ، ظَنَّهُ قالَها مُتَعَوِّذاً ، والقَرائِنُ قَوِيَّةٌ عَلَى هَذا الظَّنِّ كَما يُعْلَمُ مِنْ تَفْصِيلِ القِصَّة : (يا أُسامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَما قالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَما قالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ ؟ قالَ أُسامَةُ : فَما زالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْم)[4] وفى رِوايَةٍ : (فَهَلاَّ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِه ؟)[5]،

---

(١) سُورَةُ فُصِّلَت من الآيَة ٣٠ ، وسورة الأَحْقاف من الآية ١٣ .

(٢) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذى) وقالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، و(ابْنُ ماجه) ، و(ابْنُ حِبَّان) فى صَحيحِهِ ، و(الحاكِمُ) وصَحَّحَهُ .

(٣) سُورَةُ البَقَرَة مِنَ الآيَة ١٦٣ .

(٤) أَخْرَجَهُ البُخارى ومُسْلِم ، وفى روايةٍ عِنْدَ (ابْن سَعْد) فى الطَّبقات : فقالَ : وَيْحَكَ يا أُسامَةُ ،فكيفَ لَكَ بلا إِلهَ إِلاَّ اللّه ؟ قالَ أُسامَةُ فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُها عَلَيَّ حَتَّى لَوَدِدْتُ أَنِّى انْسَلَخْتُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ عَمِلْتُهُ واسْتَقْبَلْتُ الإِسْلامَ يَوْمَئِذٍ جَديداً .

(٥) أَخْرَجَهُ البُخارى ومُسْلِم .

أَي لِتَعْلَمَ حَقِيقَةَ نِيَّتِهِ وما انْطَوَتْ عَنْهُ سَرِيرَتُه .

ولَمْ يَعْتَذِر (أُسامَةُ) بِأَنَّهُ إِنَّما عَنَى تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وهُوَ غَيْرُ كافٍ في الدُّخُولِ فى الإِسْلامِ وحَقْنِ الدَّمِ بِهِ ولَمْ يَعْنِ تَوْحِيدَ العِبادَةِ .

ولَعَلَّ فى ذَلِكَ كُلِّهِ وغَيْرِهِ مِمَّا لَمْ نَذْكُرْهُ أَبْيَنَ البَيانِ ، بِأَنَّ الْقَوْلَ بِأَحَدِ التَّوْحِيدَيْنِ قَوْلٌ بِالآخَرِ لِزاماً .

ولَمْ تَقِفْ هَذهِ الفِرْيَةُ فى دِينِ اللّهِ عِنْدَ هَذا الحَدِّ ، بَلِ اتَّخَذَها المُبْتَدِعَةُ بِأَباطِيلِهِم هَذهِ مَطِيَّةً إِلَى ضَلالَةٍ كُبْرَى فَشَرَّكُوا وفَسَّقُوا عامَّةَ المُسْلِمينَ مِمَّنْ تَوَسَّلَ بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ وسائِرِ الصَّالِحينَ واسْتَغاثَ بِهِمْ ، رَغْمَ اسْتِقْرارِ القَلْبِ ورُسُوخِ الاعْتِقادِ بِأَنَّهُم أَسْبابٌ لا اسْتِقْلالَ لَهُمْ بِنَفْعٍ ولا ضُرٍّ ، ولَيْسَ لَهُمْ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْءٌ ، ولَكِنَّ اللّهَ جَعَلَهُمْ مَفاتِيحَ لِفَضْلِهِ ومَنابِعَ لِبِرِّهِ ، وسُحُباً يُمْطِرُ بِها عَلَى عِبادِهِ أَنْواعَ خَيْرِهِ ، فَظَنَّ أُولَئِكَ الجاهِلُونَ أَنَّ ذَلِكَ وما إِلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ المُخْرِجِ عَنِ المِلَّة .

إِنَّ مَنْ رافَقَهُ التَّوْفِيقُ وفارَقَهُ الخُذْلانُ ، ونَظَرَ فِي المَسْأَلَةِ نَظَرَ الباحِثِ الأَمِينِ لَيَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ مُسَمَّى العِبادَةِ شَرْعاً لا يَدْخُلُ فيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّوَسُّلِ والاسْتِغاثَةِ وغَيْرِهِما بَلْ لا يَشْتَبِهُ بِالعِبادَةِ أَصْلاً .

فَإِنَّ كُلَّ ما يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ لاَ يَكُونُ مِنَ العِبادَةِ إِلاَّ إِذا اقْتَرَنَ بِهِ اعْتِقادُ الرُّبُوبِيَّةِ لِذَلِكَ المُعَظَّمِ أَو اعْتِقادُ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِها الخاصَّةِ فِيهِ .

أَلا تَرَى الجُنْدِيَّ يَقُومُ بَيْنَ يَدِي رَئِيسِهِ ساعةً وساعاتٍ احْتِراماً لَهُ وتَأَدُّباً مَعَهُ ويَقُومُ المُصَلِّى بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ فى صَلاةٍ بِضْعَ دَقائِقَ قَدْرَ ما يَقْرَأُ الفاتِحَةَ ، فَيَكُونُ هَذا القِيامُ عِبادَةً شَرْعاً ، وسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ هَذا القِيامَ وإِنْ قَلَّتْ مُدَّتُهُ مُقْتَرِنٌ بِاعْتِقادِ القائِمِ رُبُوبِيَّةَ مَنْ قامَ لَهُ ، أَمَّا الأَوَّلُ فَلا يُقارِنُ قِيامَهُ مِثْلُ

هَـذا الاعْتِقاد ، ويَأْبَى اللّهُ إلاَّ أَنْ يُبَيِّنَ عَوارَهُمْ ويَكْشِفَ انْحِرافَهُمْ ، إِذْ لَمْ يَكْتَفِ هَؤُلاءِ بِتَقْسيمِ التَّوْحِيدِ إِلَى قِسْمَيْنِ مُبْتَدَعَيْنِ بَلْ زادُوهُما قِسْماً ثالِثاً وأَسَمَوْهُ تَوْحِيدَ الأَسْماءِ والصِّفاتِ ، وكَأَنَّ الثَّالُوثَ أَو التَّثْلِيثَ المُقَدَّسَ عِنْدَ الضَّالِّينَ ، قَدْ وَجَدَ لَهُ صُورَةً بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمينَ ، نَعُوذُ باللّهِ مِنَ التَّشَبُّهِ بِاليَهُودِ والنَّصارَى .

ويَقْصِدُ هَؤُلاءِ بـ(تَوْحيدِ الأَسْماءِ والصِّفاتِ) : عَدَمَ تَأْوِيلِ الصِّفاتِ الوارِدَةِ لِلّهِ تَعالَى فى القُرْآنِ أَو السُّنَّةِ ، مِثْلَ : الاسْتِواءِ عَلَى العَرْشِ ، والوَجْهِ ، والعَيْنِ ، واليَدِ ، والجَنْبِ ، والنُّزُولِ ، والغَضَبِ ، والقُرْبِ ، والبُعْدِ ، وغَيْرِها مِنَ الصِّفاتِ الَّتى تُوهِمُ الجِسْمِيَّة ، بَلْ يَحْمِلُونَها عَلَى مَعانِيها الظَّاهِرَةِ الَّتى يَعْقِلُها البَشَرُ فى دُنْياهُم .

وباللّهِ عَلَيْكَ فَإِذا كانَ تَوْحِيدُ الأَسْماءِ والصِّفاتِ يُحَوِّلُ اسْتِواءَ الرَّحْمٰنِ عَلَى العَرْشِ إِلَى الاسْتِقْرارِ عَلَى العَرْشِ والتَّمَكُّنِ مِنْهُ ، فَأَيْنَ التَّنْزِيهُ هُنا ؟ ، وأَيْنَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1].

مَنِ الَّذِى قالَ بِهَذا التَّقْسِيمِ وما الهَدَفُ مِنْ تَقْسِيمِ التَّوْحِيد :

إِنَّ الواقِعَ والحَقائِقَ تَقُولُ : إِنَّ هَذا التَّقْسِيمَ أُحْدِثَ في القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِى بَعْدَ زَمَنِ النَّبِىِّ ﷺ بِسَبْعِمائَةِ عام ..

والَّذى اخْتَرَعَ هَذا التَّقْسِيمَ أَوَّلاً (عالِمُ الفِتْنَةِ الَّذى أَضَلَّهُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ) وَسَطَ مُعارَضَةِ جَمِيعِ عُلَماءِ المُسْلِمينَ فِى هَذا القَرْنِ والقُرونِ الَّتى تَلِيه .

وقَدْ تَلَقَّفَ هَذا التَّقْسِيمَ (ابْنُ أَبِي العِزِّ) وهُوَ يَشْرَحُ العَقِيدَةَ الطَّحاوِيَّةَ الصَّحِيحَةَ للإِمامِ أَبِى جَعْفَرٍ الطَّحاوِى ، حَيْثُ زَيَّفَ كَلامَ الإِمامِ الطَّحاوِي حَتَّى يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ السَّلَف[2].

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى(مِنَ الآيَة ١١) .

(٢) التَّنْدِيدُ بِمَنْ عَدَّدَ التَّوْحِيد ، للشَّيْخ (حَسَن بن عَلِى السَّقَّاف) .

وقَدْ قالَ عَنْهُ العَلاَّمَةُ عَلِي القارِي الحَنَفِي : إِنَّهُ صاحِبُ مَذْهَبٍ باطِلٍ تابِعٍ لِطائِفَةٍ مِنَ المُبْتَدِعَة .

ثُمَّ جاءَ مَنْ جانَبَ الصَّوابَ وبَرِيءَ مِنْ عِبادَتِهِ العَزيزُ الوَهَّابُ ، فَأَيْقَظَ هَذهِ الفِتْنَةَ فى القَرْنَيْنِ السَّابِقَيْنِ بِأَزٍّ ومُؤازَرَةٍ مِنْ عَدُوِّ الإِسْلامِ الأَكْبَرِ ، وبِدَعْمٍ وحِمايَةٍ مِنْ عُمَلائِهِم وأَوْلِيائِهِم ، فَقامَتِ الجِهاتُ المُرْتَزِقَةُ والفِرَقُ المُفْتَتِنَةُ بِتَحْرِيرِ هَذا الفِكْرِ المُبْتَدَعِ فى الكُتُبِ ، وإِذاعَتِهِ فى الخُطَبِ ، بَلْ أَخَذَهُ عُلَماؤُهُم (طُلاَّبُ الدُّنْيا) عَلَى أَنَّهُ مِنَ المُسَلَّماتِ الاعْتِقادِيَّةِ دُونَما تَفْكِيرٍ فِي فَحْواهُ ، وتَلَقَّفَتْهُ أَقْلامُ وأَفْواهُ المُتَسَمِّينَ بِالدُّعاةِ ، وجَعَلُوهُ مِحْوَرَ أَفْكارِهِم ومَوْضُوعَ جَلَساتِهِم الَّتى يُجَعْجِعُونَ بِها لَيْلاً ونَهاراً فَذاعَ الأَمْرُ وانْتَشَر .

أَمَّا هَدَفُهُم وغَرَضُهُم مِنْ هَذا التَّقْسِيمِ العَقَدِيِّ الباطِلِ فَبيانُهُ فى الآتِى :

١- إِخْراجُ كافَّةِ المُسْلِمينَ الَّذينَ لا يَسِيرُونَ عَلَى نَهْجِهِمْ مِنْ دَائِرَةِ التَّوْحِيد .

٢- إِثْباتُ الجِهَةِ والحَدِّ والجِسْمِيَّةِ لِلّهِ تَعالَى ،وإِثْباتُ قِدَمِ العالَمِ بِالنَّوْعِ ، وإِثْباتُ الحَرْفِ والصَّوْتِ لِكَلامِ اللّهِ ،وإِثْباتُ قِيامِ الحَوادِثِ بِذاتِ اللّهِ (تَعالَى اللّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) .

٣- إِطْلاقُ اسْمِ (المُعَطِّلَةِ) عَلَى جَماهِيرِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ والمُقْتَدِينَ بِمَذْهَبِ الأَشْعَرِيَّةِ ، بِما فى ذَلِكَ الأَزْهَرُ الشَّرِيفُ وفُرُوعُهُ وعُلَماؤُهُ وخَرِّيجُوهُ المُنْتَشِرونَ فى أَقْطارِ العالَمِ الإِسْلامِيِّ .

٤- إِشاعَةُ أَنَّ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ اليَوْمَ أَشَدُّ شِرْكاً مِنْ مُشْرِكي قُرَيْشٍ ، لِيَشْغَلُوا الأُمَّةَ بِدَعْوَى تَصْحِيحِ تَوْحِيدِهِم ، فَيُقْعِدوهُم عَنِ العَمَلِ والحَرَكَةِ الفاعِلَةِ ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ أَعْداءُ الإِسْلامِ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى المُسْلِمينَ وإِذْلالِهِم .

ومِنَ المُؤْسِفِ والمُحْزِنِ أَنَّهُمْ اسْتَقْطَبُوا عَدَداً غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ الشَّبابِ

الإِسْلامِيِّ السَّاذَج ، أَو المُعَقَّدِ المُتَأَزِّمِ ، أَو الطَّيِّبِ القَلْبِ ، أَو السَّطْحِيِّ الفِكْرِ ، أَو المَحْدودِ المَعْرِفَةِ ، فَفَتَنُوهُم عَنِ الجادَّةِ ، وأَوْحُوا إِلَيْهِمْ أَنَّهُم السَّادَةُ القادَةُ ، وأَنَّهُم الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ ، بِما قَدَّمُوا لَهُمْ مِنْ ثَقافَةِ الانْغِلاقِ والتَّحَجُّرِ ، والرَّجْعِيَّةِ والانْقِباضِ ، والتَّقْطِيبِ والعُبُوسِ والعَجْرَفَةِ ، وجَمْعِ الاهْتِمامِ في هَيْئاتِ البَدَنِ والمَلْبَسِ ، والتَّخَلُّقِ بِالكِبْرِ والحِقْدِ ولُؤْمِ التَّفْكِيرِ وسُوءِ الظَّنِّ بِخَلْقِ اللهِ ، والغِلِّ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِلا تَمْيِيزٍ مَعَ الإِكْراهِ و الإِرْهاب كَما اسْتَغَلُّوا حاجَةَ بَعْضِهِمْ إِلَى المالِ فَقَدَّمُوهُ إِلَيْهِمْ سَحّاً غَدَقاً ، وهُوَ سُحْتٌ حَرامٌ ، عَلَى مُخْتَلَفِ صُوَرِهِ وأَوْضاعِهِ ، وجَعَلُوا مِنْهُمْ خَمِيرَةَ (عَكْنَنَةٍ) لِلْمُجْتَمَعِ ، ومَثارَ قَلَقٍ لِلْحُكُوماتِ ، وسَوْطاً يُلْهِبُ ظُهُورَ جَماعَةِ المُسْلِمِينَ ، فَما تَجِدُ إِرْهابِيّاً ، ولا مُتَطَرِّفاً ، ولا مُخَرِّباً ، ولا فَتّاناً ، ولا مُفَرِّقاً بَيْنَ أَهْلِ القِبْلَةِ إِلا وهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى جَماعَتِهِمْ ، مُتَخَرِّجٌ في مَدارِسِها ، عَبْدٌ لِمَشِيئَتِها ، مُنْدَفِعٌ مُتَهَوِّرٌ ، سَمِجُ النَّفْسِ ، ثَقِيلُ الظِّلِّ ، يَسْتَحِلُّ دِماءَ المُسْلِمِينَ وأَعْراضَهُم ويُمَزِّقُ جُمُوعَهُم ، بِاسْمِ التَّوْحِيدِ المَظْلُومِ ، والسَّلَفِيَّةِ المَظْلُومَةِ ، والسُّنَّةِ المُفْتَرَى عَلَيْها .

حَتىَّ فَرَّقُوا الأُسْرَةَ الواحِدَةَ ، فاتَّهَمَ الوَلَدُ والِدَهُ بِالكُفْرِ والشِّرْكِ ، وعَصَتِ البِنْتُ أَباها بِدَعْوَى أَنَّهُ مُبْتَدِعٌ فاسِقٌ ، وتَرَكَتِ المَرْأَةُ زَوْجَها ، وتَزَوَّجَتْ مِنْ آخَرَ دُونَ أَنْ تُطَلَّقَ مِنَ الأَوَّلِ بِدَعْوَى أَنَّ زَواجَها الأَوَّلَ باطِلٌ ، لأَنَّهُ مِنْ كافِرٍ لا يَحِلُّ لَهُ زَواجُ مُسْلِمةٍ (تَأَمَّلْ !!) ، ولا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ .

ثُمَّ هَلْ هُناكَ فَوْقَ القَوْلِ بِأَنَّ كُلَّ أَهْلِ القِبْلَةِ (مَشْرِقاً ومَغْرِباً وشَمالاً وجَنُوباً) مُشْرِكُونَ كَفَرَةٌ بِسَبَبِ زِيارَةِ المَوْتَى ، أَو الدُّعاءِ بِالوَسِيلَةِ المَشْروعَةِ ، بِالنَّصِّ القُرْآنِي المُحْكَمِ ، أَو بِالصَّلاةِ في المَساجِدِ ذاتِ ما يُسَمَّى بِالمَحارِيبِ (خَطَأً) ، أَو المَساجِدِ المُلْحَقِ بِها بَعْضُ قُبُورِ الصَّالِحِينَ ، أَو بِدُعاءِ نِصْفِ

شَعْبان ، أَوْ بِقِراءَةِ البُرْدَةِ والدَّلائِلِ ، أَو الْتِزامِ حُبِّ أَهْلِ البَيْتِ النَّبَوِي ، أَو عَدَمِ تَوْفِيرِ اللِّحْيَةِ ، أَو التَّعَبُّدِ بِتَرْدِيدِ اسْمِ اللهِ ، أَو التَّعَبُّدِ بِالأَدْعِيَةِ والأَحْزابِ والأَوْرادِ المَأْثُورَةِ عَنْ كِبارِ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ والأَوْلِياءِ ، وبِخاصَّةً عِنْدَ العُلَماءِ الأَتْقِياءِ ، ثُمَّ بِقَضايا خِلافِيَّةٍ فُروعِيَّةٍ ، الأَمرُ فِيها سَهْلٌ ومُتَّسَعٌ بِحَيْثُ تَنْقَطِعُ لَها النِّياطُ ، كَمَسْأَلَةِ السَّدْلِ والْقَبْضِ ، وأَيْنَ وكَيْفَ تُوضَعُ اليَدَيْنِ عِنْدَ القَبْضِ ؟! ، وعَدَدِ دَرَجاتِ المِنْبَرِ ، وتَجْوِيفِ القِبْلَةِ ، وكالصَّلاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ الآذانِ ، أَوْ صلاةِ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الجُمُعَةِ ، أَوْ قِراءَةِ القُرْآنِ قَبْلَ الجُمُعةِ أَيْضاً ، أَوْ صَلاةِ العِيدِ في المَساجِدِ ، أَو المُصافَحَةِ عِنْدَ الانْصِرافِ ، أَو الأَكْلِ عَلَى المائِدَةِ ، أَوْ تَعْلِيمِ المَرْأَةِ ، أَو الشَّرابِ في الكُوبِ ، أَو تَبْرِيدِ الماءِ بِالثَّلْجِ ، أَوْ لِبْسِ النَّظَّارَةِ وساعَةِ اليَدِ ، وهَلْ تَكُونُ في اليَدِ اليُمْنَى أَواليُسْرَى ؟ ، وهَلْ يُؤْخَذُ في الصَّلاةِ بِالتَّقْوِيمِ الفَلَكِي ؟ ، أَوْ عَدَمِ لَعْقِ الأَصابِعِ ، أَوْ تَرْكِ السِّواكِ والطِّيبِ ، أَو الجَهْرِ بِخِتامِ الصَّلاةِ ، أَو القِيامِ لِلْقادِمِ ، أَو اكْتِفاءِ المَرْأَةِ بِالحِجابِ دُونَ النِّقابِ ، أَو القَوْلِ بِحَرَكَةِ الأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ ، أَو الرِّضا بِالتَّصْوِيرِ الفُوتُوغْرافِي ، أَوْ قُنُوتِ الفَجْرِ ، أَوْ حَمْلِ المَسْبَحَةِ ...

إِلَى أَكْوامٍ مِنَ الخِلافِيَّاتِ وصِغارِ الفُروعِ ، مِمَّاعَمَّ وغَمَّ وطَمَّ ، خُصُوصاً سُنَنَ العادات .

فَذَلِكَ جَمِيعاً عِنْدَهُمْ بِدَعٌ وشِرْكٌ وردَّةٌ ، وخُروجٌ مِنْ دِينِ اللهِ تَسْقُطُ بِهِ العَدالَةُ ، وتُطَلَّقُ بِهِ الزَّوْجَةُ ، ويُسْتَحَلُّ بِهِ الدَّمُ ، فَلا يَنْفَعُ مَعَهُ عِنْدَهُمْ صَلاةٌ ولا زَكاةٌ ولا حَجٌّ ولا عُمْرَةٌ ، بَيْنَما رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكَذِّبُهُم ، كما جاءَ في حَدِيثِ (عُقْبَةَ) رضي الله عنه في الصَّحِيحَيْنِ قالَ ﷺ :(لَسْتُ أَخافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ولَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُم الدُّنْيا أَنْ تَتَنافَسُوا فِيها فَتَهْلَكُوا كَما هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ)(١).

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخاري في صَحِيحِهِ ، ومُسْلِمٌ في صَحِيحِهِ ، وأَحْمَدُ في مُسْنَدِهِ ، وابْنُ حِبَّانَ ، وأَبُويَعْلي في مُسْنَدِهِ ، والبَيْهَقيُّ في سُنَنِهِ الكُبْرَى ، والطَّبرانيُّ في أَكْبرِ مَعاجِمِهِ ، وغَيْرُهُم .

• **وأمَّا مَنْ شَيَّخَهُ الزَّمانُ** : فَهُوَ مَنْ بَلَغَ أَرْبَعينَ سَنَةً .

وهَذا بِخِلافِ مَنْ شَيَّخَهُ المالُ ، أَو شَيَّخَتْهُ القَبِيلَةُ فَهُوَ لا يَرْتَبِطُ بِسِنٍّ مُعَيَّنَة .

• **وأَمَّا مَنْ شَيَّخَهُ الرَّحْمٰنُ** : فَهَذهِ هِيَ جَوْهَرُ صِفاتِهِ : طَهُرَ قَلْبُهُ مِنْ أَدْناسِ الرَّذائِلِ كُلِّها ، فَوَصَلَ إِلَى حَدِّ الكَمالِ فى مَحَبَّةِ اللّٰهِ تَعالَى ، ومَحَبَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، ومَحَبَّةِ آلِ بَيْتِهِ ﷺ وكانَ لَهُم مُتَقَرِّباً ومُتَوَدِّداً ، ومَحَبَّةِ الصَحابَةِ جَمِيعاً وكانَ عَلَيْهِم مُتَرَضِّياً ومُتَرَحِّماً ، وكانَ عَلَى أُمَّةِ الحَبِيبِ المُصْطَفَى ﷺ مُشْفِقاً ولَهُم ناصِحاً ولأَىِّ بابِ رَحْمَةٍ لَهُم فاتِحاً ومُوَسِّعاً .

وكَذلِكَ مَحَبَّةِ بَنِي الإِنْسانِ كُلِّهِم والرَّحْمَةِ بِهِم ، مُلاحِظاً مُعامَلَةَ اللّٰهِ لَهُم ورَحْمَتَهُ بِهِم وأَنَّهُم مَخْلُوقاتُهُ ، فَلا يَجْهَلُ نِسْبَتَهُم ولا يَظْلِمُ رُتْبَتَهُم ، ومَنْ أَحَبَّ الصَّانِعَ واعْتَقَدَ كَمالَه .. أَحَبَّ الصَّنْعَةَ لا مَحالَة .

ومِنْها أَيْضاً : أَنَّهُ لا يَحْسُدُ فَضْلَ اللّٰهِ عَلَى عِبادِهِ ، بَلْ يُقِرُّهُ ويَطْلُبُ لَهُم مِنَ اللّٰهِ المَزيدَ مِنْ أَفْضالِه .

وأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ المَيِّتَ حَيٌّ حَياةً بَرْزَخِيَّةً ولِلْمَيِّتِ عَلاقَةٌ أَكِيدَةٌ بِالحَيِّ ، وأَنَّ النَّفْعَ والانْتِفاعَ بَيْنَهُما آكِدٌ ودَلِيلُ صِحَّةِ إِيمان .



الشَّيْطانُ يَسْتَنفِرُ طاقاتِه .. ويُعَدِّدُ أَدَواتِه

لِتَفْريغِ مَواسِمِ الطَّاعات .. مِنَ الرُّوحانِيَّات

ولا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الإِعْلامِ الغالِبِ عَلَيْهِ الفَسادُ ، بِفَضَائِيَّاتِهِ عَلَى مَدارِ اللَّيْلِ والنَّهار ، والَّتى يُحَرِّكُها الشَّيْطانُ بِمُرونَةٍ واقْتِدار .

وفى تَقْرِيرٍ لِلَّذينَ تابَعُوا وأَحْصَوا الطَّفْرَةَ الإِعْلامِيَّةَ الإِعْجازِيَّةَ (عَلَى حَسَبِ تَعْبِيرِهِم) فى شَهْرِ رَمضانَ المُبارَكِ لِعامِ ١٤٢٨ هـ ، والَّتى حَقَّقَتْها الدِّراما التِّلِيفزيُونِيَّةِ عَلَى الشَّاشاتِ الفَضِيَّةِ ؛ أَنَّهُ تَمَّ إِنْتاجُ أَرْبَعٍ وخَمْسِين (٥٤) مُسَلْسَلاً خِصِّيصاً لِهذا الشَّهْرِ الكريمِ مُراعاةً لأَذْواقِ المُشاهِدِينَ فى الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ والإِسْلامِيَّة .

وآهٍ . وأَلْفُ آهٍ .. عَلَيْكَ يا إِنْسان .. إِنَّها حَقًّاً فِتَنٌ تَدَعُ الحَلِيمَ حَيْران .

إِنَّ مَنْ عِنْدَهُ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلِ إِنْسان .. لَيَتَساءَلُ : أَىُّ قُوَّةٍ تِلْكَ مَهْما عَظُمَتْ ؟ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْجِزَ هَذا الكَمَّ الهائِلَ مِنْ تِلْكَ الأَعْمال ؟ وأَىُّ مَرْدُودٍ عَلَيْها يُمْكِنُ أَنْ يُعَوِّضَها بِبَعْضِ ما أَنْفَقَتْهُ مِنْ أَمْوال ؟! ولا يُسْعِفُنا لِلْجَوابِ عَنْ ذَلِكَ : إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ الكَتائِبَ الَّتي أَنْجَزَت .. بَعْدَ أَنْ حُدِّدَ لَها هَدَفُها ومِيقاتُها وهُوَ شَهْرُ رَمَضان (شَهْرُ القُرْآن) ، فَكانَتْ مُهِمَّتُها أَنْ تُشِيعَ فى كُلِّ الأَجْواء ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (١) ، بَعْدَ أَنْ أَذْعَنَتْ وأَلْقَتْ قِيادَها لِقائِدِها الَّذى وَصَفَهُ أَحْكَمُ الحاكِمينَ بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢) .

وتَتِمَّةً لِهَذِهِ المُلِمَّة .. فَإِنَّ أَحَدَ المُتابِعينَ لِهَذِهِ الغُمَّة .. اكْتَشَفَ أَنَّ مِقْدارَ ما يَتَقاضاهُ واحِدٌ مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ والرَّذيلَة .. فى مُسَلْسَلٍ أَو سَبُّوبَة .. يَزِيدُ عَلَى راتِبِ

---

(١) سُورَةُ فُصِّلَت (مِنَ الآيَة ٢٦) . (٢) سُورَةُ الإِسْرَاء (الآيَة ٦٤) .

إمامٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والفَضِيلَة .. لِمُدَّةِ أَلْفِ سَنَة !!

الفَضائِيَّات .. واسْتِباحَتُها بَكارَةَ الإِنْسانِيَّات :

وإِنْ تَعْجَبْ فَلا عَجَب .. فَإِنَّهُم اسْتَطاعُوا أَنْ يَجْمَعُوا فى الإِنْسانِ النَّقِيضَيْنِ فى آنٍ واحِد .

فَخَدَّرُوهُ وهُوَ فى قِمَّةِ يَقَظَتِهِ ووَعْيِهِ .. ذَلِكَ لِأَنَّ المُشاهِدَ لِلْمَرْئِيَّاتِ والفَضائِيَّاتِ يَكُونُ مُقْبِلاً عَلَيْها بِكُلِّ حَواسِّهِ وقابِلِيَّتِهِ .. وما أَرادوهُ لَهُ مِنْ عَقائِدَ فاسِدَةٍ تَتَرَسَّخُ فى بُؤْرَةِ الشُّعُور واللاَّشعُورِ بِداخِلِهِ فَتُصْبِحُ مِنَ المُسَلَّماتِ فى بَدِيهِيَّتِهِ .. وخاصَّةً ما تَتَضَمَّنُهُ هَذِهِ المُسَلْسَلاتُ مِنْ تَشْوِيهٍ مُتَعَمَّدٍ لِحقائِقِ التَّارِيخِ الإِسْلامِي الناصِعِ وتَعْرِضُ قِصَصاً وأَحْداثاً لَيْسَ لَها أَىُّ نَصِيبٍ مِنَ الحَقِيقَةِ ، وتُرَكِّزُ خِلالَ ذَلِكَ عَلَى إِبْرازِ جَوانِبِ اللَّهْوِ والفَسادِ ، كَما تَتَعَمَّدُ إِلْحاقَ التَّحْرِيفِ والتَّزْيِيفِ بِمَقاصِدِ ومُنْجَزاتِ قادَةِ الفُتُوحاتِ الإِسْلامِيَّةِ العَظِيمَةِ ، مِمَّا يُعْطِي الفُرْصَةَ لِأَعْداءِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ المُتَرَبِّصِينَ بِها أَنْ يَجِدوا فى الأَحْداثِ التَّارِيخِيَّةِ المُشَوَّهَةِ مادَّةً جَدِيدَةً لِلْهُجُومِ عَلَى الإِسْلامِ ، وتَسْعِيرِ الحَمَلاتِ ضِدَّهُ ، والنَّيْلِ مِنْ حَضارَةِ المُسْلِمِينَ وتارِيخِهِم .

وبِهَذِهِ التِّقْنِيَةِ العالِيَة .. فى المُسَلْسَلاتِ الاجْتِماعِيَّة .. قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ الوَعْيِ والتَّخْدِير .. كَما أَحْدَثُوا التَّدْمِيرَ بِحُجَّةِ التَّنْوِير .

رَمَضانُ الفُلْكْلُورِي .. بَدِيلاً عَنْ رَمَضانَ الشَّرْعِي :

ومِنَ التَّفانِينِ الشَّيْطانِيَّةِ فى (رَمَضانَ) العامِ الماضِي ، ما عُرِفَ بـ (الخِيَمِ الرَّمَضانِيَّةِ) حَيْثُ اخْتِلاطُ الرِّجالِ والنِّساءِ والفِتْيانِ والفَتَياتِ ، مَعَ الغِناءِ الرَّاقِصِ لِلأَفْرادِ والجَماعاتِ ، بِحُضُورِ مَشاهِيرِ المُجْتَمَعِ مِنَ السَّاسَةِ والإِقْطاعِيِّينَ والفَنَّانِينَ والفَنَّانات .

والأَدْهَى والأَمَرُّ أَنَّهُم أَقامُوا بِها المَوائِدَ المَفْتُوحَةَ لِلإِفْطارِ والسُّحُورِ تَسْرِيَةً

لِلصَّائِمِينَ والصَّائِمات .. مَعَ تَناوُلِ أَشْهَى المَأْكُولاتِ عَلَى أَنْغامِ المُوسِيقَى المُصاحِبَةِ لِلرَّاقِصاتِ الكاشِفات .

وصَدَقَ الصَّادِقُ المَصْدوقُ ﷺ : (كَمْ مِنْ صائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيامِهِ إِلَّا الجُوعُ والعَطَشُ) .

(ومَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ فَلا صَلاةَ لَهُ) .

حَتَّى المُباحات .. أَدْخَلُوها دائِرَةَ المُحَرَّماتِ والمُهْلِكات :

ومِنْ ذَلِكَ العاداتُ والبِدَعُ المُتَرَسِّخَةُ لَدَى الصَّائِمينَ مِنَ ارْتِباطِ هَذا الشَّهْرِ بِالطَّعامِ لا بِالصِّيامِ ، فأَصْبَحَتْ قائِمَةٌ طَوِيلَةٌ مِنْ دَسَمِ الطَّعامِ لا تَظْهَرُ إِلَّا مَعَهُ وتَخْتَفِي طَوالَ العام .

وكَأَنَّنا نَسِينا هَدْيَ نَبِيِّنا :﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾[1] ، وكَذَلِكَ الغايَةَ مِنْ صِيامِنا وما تَقْتَضِيهِ عافِيَةُ أَبْدانِنا فى عَدَمِ الإِسْرافِ فى المَأْكَلِ والمَشْرَبِ ؛ لِدَرَجَةِ النَّهْيِ عَنْهُ بِطَرِيقَةٍ حاسِمَةٍ تَجْعَلُ المُسْرِفَ مَحَلَّ غَضَبِ اللهِ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ زَوالُ النِّعْمَةِ ، قالَ تَعالَى :﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[2] ، وقالَ تَعالَى :﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[3] .

والحِكْمَةُ العَرَبِيَّةُ تَقُولُ : المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاء .. والحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّواء .

كانَتْ خَرِيطَةُ رَمَضان .. عِنْدَ عِبادِ الرَّحْمٰن : تَبْدَأُ بِالسُّحُور ؛ يَجْتَمِعُ النَّاسُ بِالسَّحَر ، لِيَتَناوَلُوا بَعْضَ اللُّقَيْماتِ وبَعْضَ المَشْروباتِ دُونَ إِسْرافٍ .

فالسُّحُورُ بَرَكَةٌ شَرِيطَةُ أَنْ يَبْقَى فى مُسْتَوَى الاعْتِدالِ ، ثُمَّ يُصَلِّى المُسْلِمُ الفَجْرَ وقَدْ يَنْتَظِرُ فى المَسْجِدِ إِلَى الضُّحَى لِيَنالَ ثَوابَ حَجَّةٍ وعُمْرَةٍ تامَّةٍ تامَّة .

---

(١) سُورَةُ الكَهْف (مِنَ الآيَة ٦٣) .
(٢) سُورَةُ الأَعْراف (مِنَ الآيَة ٣١) .
(٣) سُورَةُ الإِسْراء (مِنَ الآيَة ٢٧) .

وبَعْدَها تَبْدَأُ رِحْلَةُ الصِّيامِ الَّتي تَعْتَمِدُ عَلَى العَمَلِ الدَّؤُبِ والجِهادِ فى سَبيلِ اللّهِ عَلَى مُسْتَوى تَحْقيقِ تَعْليمِ الأُمَّةِ وتَرْبِيَتِها ونَهْضَتِها ، والذَّوْدِ عَنْ دِينِها وأَرْضِها ضِدَّ أَعْدائِها ، وضِدَّ النَّفْسِ وشَهَواتِها ، وضِدَّ عوامِلِ الضَّعْفِ فى داخِلِ النُّفُوسِ وفى خارِجِها .

أَلَيْسَ عَجَباً أَنْ تكُونَ عَشَراتُ المَعارِكِ ، فَضْلاً عَن المَعارِكِ الكُبْرَى الحاسِمَةِ أَو الفاصِلَةِ ؛ مِثْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَى (فِى رَمضان مِنَ العام الثَّانِى - لِلْهِجْرَة) ، وفَتْحِ مَكَّةَ (فِى رَمضانَ مِنَ العامِ الثَّامِنِ لِلْهِجْرَة) ، وفَتْحِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ كانَ فى رَمَضانَ سَنَةَ ٩٢ هـ بِقيادَةِ طارِقِ بنِ زِيادٍ ، وعُبُور عَبْدالرَّحْمٰن الدَّاخِل (المَعروفِ بِاسْمِ : صَقْر قُرَيْش) البَحْرَ إِلَى الأَنْدَلُسِ لِيؤَسِّسَ دَوْلَةً إِسْلامِيَّةً قَوِيَّةً وهِىَ الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّةُ فى الأَنْدَلُسِ كانَ فى رَمَضانَ سَنَةَ ١٣٨ هـ ومَعْرَكَةِ الزَّلاقَة (وهِىَ فى جَنُوبِ دَوْلَةِ أَسْبانْيا حالِياً) كانَتْ فى رَمَضانَ سَنَةَ ٤٧٩ هـ ، ومَوْقِعَةِ حِطِّينَ كانَتْ فى رَمَضانَ سَنَةَ ٥٨٤ هـ بِقيادَةِ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِي (وقَبْلَ مَعْرَكَةِ حِطِّين : فالأُمَّةُ وَقْتَها كانَتْ فى حالَةِ التَّمَزُّقِ والتَّشَرْذُمِ الرَّهِيبِ ، شَبِيهَةً إِلَى حدٍّ كَبِيرٍ بِحالِها اليَوْمَ .. فالاحْتِلالُ كانَ مَوْجُوداً ، ومُوالاةُ أَعْداءِ اللّهِ وأَوْلِياءِ الشَّيْطانِ كانَتْ عَلَى أَشُدِّها ، والخِيانَةُ والعَمالَةُ كانَتْ صَرِيحَةً ومَصْدَرَ عِزَّةٍ وفَخْراً) ، ومَعْرَكَةِ عَيْنِ جالُوت كانَتْ فى رَمَضانَ سَنَةَ ٦٥٨ هـ بِقِيادَةِ السُّلْطانِ قُطُز (وهِىَ المَعْرَكَةُ الَّتى اسْتَطاعَتْ أَنْ تُغَيِّرَ وَجْهَ التَّارِيخِ بِإِيقافِ زَحْفِ التَّتارِ الغاصِبِينَ الَّذينَ دَمَّروا دَوْلَةَ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ وقَتَلُوا الخَلِيفَة) ، وغَيْرِها مِنَ المَعارِكِ الَّتى أَوْصَلَها المُؤَرِّخُونَ إِلَى عَشَراتٍ كانَتْ فى رَمَضان .

فَما بَالُنا اليَوْمَ فى تَعامُلِنا مَعَ رَمَضان .. ومَعَ الصَّلاةِ والحَجِّ وقِراءَةِ القُرْآن .. نُحافِظُ عَلَى الشَّكْلِيَّاتِ فَقَط ، ونَنْقادُ لِعاداتٍ أَرْضَتِ الشَّيْطان .. وما أَنْزَلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطان ؟![1]

---

(١) مِنْ مَقالِ (رَمَضانُ الَّذى كان) ، لـ د. عبدالحليم عويس ، بمجَلَّةِ التِّبْيان .

جَحَدوا بِالرَّحْمٰن .. فاسْتَعْبَدَهُم الشَّيْطان

الإِنْسانُ فى هَذهِ الحَياةِ الدُّنْيا لا يَقِفُ مَوْقِفاً سَلْبِيّاً ، ولا يَعيشُ بِغَيْرِ عَقِيدَةٍ وعَمَلٍ فَمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بِاللهِ تَعالَى آمَنَ بِالشَّيْطانِ الرَّجِيمِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُر ...

مَنْ لَمْ يَتَّخِذْهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَهاً اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواه .. ومَنْ لَمْ يَعْمَلْ لِلْآخِرَةِ عَمِلَ لِلدُّنْيا ولابُدَّ ؛ فَقَلْبُ الإِنْسانِ مَثَلُهُ مَثَلُ القَدَح ، والقَدَحُ إِنْ خَلا مِنَ الماءِ لَمْ يَخْلُ مِنَ الهَواءِ . فَكَذَلِكَ القَلْبُ إِنْ خَلا مِنَ الإِيمانِ وتَوْحِيدِ اللهِ تَعالَى لَمْ يَخْلُ مِنَ العَقائِدِ الفاسِدَةِ والأَفْكارِ الخَبِيثَةِ .. والنَّفْسُ كالرَّحا إِنْ قَدَّمْتَ لَها حَبّاً طَحَنَتْهُ ، وإِنْ قَدَّمْتَ لَها حَصاً طَحَنَتْهُ .

قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[1]

وقالَ ﷺ :(النَّاسُ غادِيان فَبائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها أَو مُوبِقُها) .

ومِنْ خُطْبَةٍ للإِمامِ عَلِيٍّ رضي الله عنه :(أَلا وإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ الحَقُّ يَضُرُّهُ الباطِلُ ، ومَنْ لَمْ يَسْتَقِمْ بِالهُدَى يَجْرِ بِهِ الضَّلالُ) .

وعَنِ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ رضي الله عنه : (النَّفْسُ إِنْ لَمْ تَشْغَلْها بِالحَقِّ شَغَلَتْكَ بِالباطِلِ) .

وقَدْ ثَبَتَ فى الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : (أَصْدَقُ الأَسْماءِ حارِثٌ وهَمَّام) ، والحارِثُ : الكاسِبُ الفاعِلُ ، والهَمَّامُ : فَعَّالٌ مِنَ الهَمِّ ، والهَمُّ أَوَّلُ الإِرادَة .

فالإِنْسانُ لَهُ إِرادَةٌ دائِماً ، وكُلُّ إِرادَةٍ فَلا بُدَّ لَها مِنْ مُرادٍ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، فَلا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ مُرادٍ مَحْبُوبٍ هُوَ مُنْتَهَى حُبِّهِ وإِرادَتِه .

مَنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَعْبُودَهُ ومُنْتَهَى حُبِّهِ وإِرادَتِهِ ، بَلِ اسْتَكْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُرادٌ مَحْبُوبٌ يَسْتَعْبِدُهُ غَيْرَ اللهِ تَعالَى ، فَيَكُونَ عَبْداً لِذَلِكَ المُرادِ المَحْبُوب .

وقَدْ وَرَدَ فى الأَثَر : (إِنَّ اللهَ تَعالَى يَبْغَضُ الشَّابَّ الفارِغَ) ، لأَنَّ الشَّابَّ إِذا

---

(١) سُورَةُ الزُّخْرُف ، الآيَة ٣٦ .

تَعَطَّلَ عَنْ عَمَلٍ يَشْغَلُ بِاطِنَهُ ولَوْ مُباحاً يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى دِينِهِ كانَ ظاهِرُهُ فارِغاً ، ولا يَبْقَى قَلْبُهُ فارِغاً أَبَداً ، بَلْ يَصُولُ الشَّيْطانُ فِيهِ ويَجُولُ ويُعَشِّشُ فِيهِ ويَبِيضُ ويُفَرِّخُ ثُمَّ تَتَزاوجُ أَفْراخُهُ وتَبِيضُ مَرَّةً أُخْرَى وتُفَرِّخُ وهَكذا يَتَوالَدُ نَسْلُ الشَّيْطانِ تَوالُداً أَسْرَعُ مِنْ تَوالُدِ سائِرِ الحَيوانات .

وقَدْ لَحِظَ هَذا مَنْ قالَ مِنَ المُسْتَشْرِقِينَ : ما مِنْ إِنْسانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَمُؤْمِنٍ ، فَقَدْ رُكِّبَ الإِنْسانُ مِنَ النَّاحِيَةِ النَّفْسانِيَّةِ بِحَيْثُ أَصْبَحَ مُضْطَّراً إِلَى الإِيمانِ بِاللهِ أَو بِغَيْرِهِ) .

فَسُبْحانَ مَنِ احْتَجَبَ عَنْ بَصائِرِ العُمْيان (كَما قالَ الإِمامُ الغَزالِي) ؛ غَيْرَةً عَلَى جَمالِهِ وجَلالِهِ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ إِلاَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ الحُسْنَى الَّذينَ هُمَ عَنْ نارِ الحِجابِ مُبْعَدُونَ وتَرَكَ الخاسِرينَ فى ظُلُماتِ العَمَى يَتِيهُونَ ، وفى مَسارِحِ المَحْسُوساتِ وشَهَواتِ البَهائِمِ يَتَرَدَّدُونَ :﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾(١) ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) . فَلا يَغُرَّنَّك جُحُودُ الجاحِدينَ ، وضَلالُ الضَّالِّينَ ، ولا يَهُولَنَّكَ ما عِنْدَهُمْ مِنَ الكِياسَةِ والحَذْقِ فى عُلُومِ الحِسابِ والهَنْدَسَةِ والطِّبِّ ولا ما وَضَعُوهُ مِنَ السِّياساتِ وأَظْهَروهُ مِنَ المُكْتَشَفاتِ والمُخْتَرَعاتِ فَلَيْسَ فى عُقُولِهِمْ مُتَّسَعٌ لِطَلَبِ الحَقِّ ، ولا فى قُلُوبِهِمْ رَغْبَةٌ لِمَعْرِفَتِهِ لأَنَّهُمْ سَخَّروا عُقُولَهُم لِخِدْمَةِ شَهَواتِهِمْ وحُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ ، واسْتَعْمَلُوها فى السَّيْطَرَةِ والتَّسَلُّطِ عَلَى النَّاسِ واغْتِصابِ الشُّعُوبِ ، عَلَى أَنَّ العُقُولَ مَهْما بَلَغَتْ مِنَ الذَّكاءِ والحَذْقِ فَإِنَّها لا تَسْتَغْني عَنْ هِدايَةِ اللهِ تَعالَى وتَوْفِيقِهِ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾(٣)

---

(١) سُورَةُ الرُّوم ، الآيَة ٧ . (٢) سُورَةُ لُقمان ، مِنَ الآيَة ٢٥ . (٣) سُورَةُ النُّور ، الآيَة ٢١ .

الإنْسانُ بِلا إيمان .. ذَلِكَ هُوَ الخُسْران

إنْسانُ العَصْر .. بَعْدَ أَنْ فَجَّرَ الذَّرَّةَ ، وأَنْطَقَ الصَّخْرَ ، وتَحَكَّمَ فى مَوْجاتِ الأَثِيرِ واقْتَحَمَ مَجاهِلَ الفَضاءِ ، وبَعَثَ رُوَّادَهُ إلى القَمَر.. ومازالَ يُتابِعُ جَوَلاتِهِ الظَّافِرَةِ لا يَهْدَأُ لَحْظَةً ولا يَفْتُر . . ومِنْ حَقِّ الإنْسانِيَّةِ وهىَ تَسْتَقْبِلُ عَصْرَ ما بَعْدَ الوصُولِ إلَى القَمَر ، أَنْ تَتَساءَلَ عَمَّا يُقَدِّمُ العَصْرُ لِسَلامِها النَّفْسِي بَعْدَ أَنْ أَرْهَقَتْها عُقْدَةُ الانْفِصامِ بَيْنَ المادِيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ ، وأَنْهَكَها الصِّراعُ العَقِيمُ بَيْنَ العِلْمِ والدِّين .

مِنْ حَقِّها أَنْ تَتَطَلَّعَ إلَى عَصْرٍ جَديدٍ ، يَنْسَخُ ذَلِكَ اللَّيْلَ الطَّوِيلَ الَّذى لَفَّها فى دَوَّامةِ الإعْصارِ ، وتَرَكَ فى كَيانِها صَدْعاً غائِراً لِطُولِ ما انْهالَتْ عَلَيْهِ المَعاوِلُ وأَوْغَلَتْ فِيهِ السِّهامُ ، بِحَيْثُ لَمْ تَعُدِ المَعْرَكَةُ بَيْنَ فَرِيقٍ مِنْ أَبْنائِها وفَرِيقٍ ، وإنَّما انْتَقَلَتْ إلَى صَمِيمِ الإنْسانِ فَرْداً ، فَإذا هُوَ مَضْغُوطٌ بَيْنَ المادِيَّةِ بِجَبَروتِها العاتِي ، وبَيْنَ مَعْنَوِيَّاتِهِ الَّتى تَحْتَكِمُ فِيهِ بِسُلْطانِها القاهِرِ ، وتَتَحَدَّى كُلَّ التَّفْسِيراتِ الَّتى يُقَدِّمُها المادِيُّونَ ، وتَعْصَى عَلَى كُلِّ الحُلُولِ الَّتى يَصِلُونَ إلَيْها ..

وإنَّ الإنْسانِيَّةَ لَتَرْفُضُ أَنْ يُظِلَّها عَصْرٌ يَدَّعِي جَدِيداً ، وفِيها هَذا الصَّدْعُ الغائِرُ يُمَزِّقُ أَبْناءَها شِيَعاً وأَحْزاباً بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، ويُمَزِّقُ كَيانَ الإنْسانِ بِالحَيْرَةِ المُضْنِيَةِ والشَّكِّ المُدَمِّرِ ، إذْ تَتَجاذَبُهُ التَّيَّاراتُ المُضادَّةُ ، فَبَعْضُهُ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ !

والعَصْرُ الَّذي يُقَدِّمُ لَها عَباقِرَةَ العُلَماءِ ومَهَرَةَ الأَطِبَّاءِ ونَوابِغَ المُفَكِّرِينَ ، ويُمَنِّيها بِالتَّعايُشِ السِّلْمِي والعَدالَةِ الاجْتِماعِيَّةِ ، ويَضْرِبُ لَها مَوْعِداً قَرِيباً مَعَ المَرِّيخ ..

لابُدَّ أَنْ يُقَدِّمَ لَها مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، إنْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، طِبَّ النَّفْسِ والرُّوحِ ، وبَعْدَها بِالبُرْءِ مِنْ عُقَدِ الانْفِصامِ فى الشَّخْصِيَّةِ مادِيَّةً ومَعْنَوِيَّةً ، ويَمْنَحَها الاتِّزانَ بَيْنَ جَاذِبِيَّةِ الأَرْضِ الَّتى تَمْتَدُّ فِيها جُذورُ الإنْسانِ مُوغِلَةً فى أَعْماقِ الزَّمانِ ، وبَيْنَ تِلْكَ الآفاقِ العُلْيا لِمَناطِقِ انْعِدامِ الجاذِبِيَّة !

وإنسانُ العَصْرِ قَدْ يُبْهِرُهُ الاقْتِحامَ الظَّافِرَ لِمَلَكُوتِ السَّماءِ ، وتُخايِلُهُ رُؤْيا التَّحَرُّرِ مِنْ جاذِبِيَّةِ الأَرْضِ ، فَيَحْسَبُ أَنَّ المَعْرَكَةَ الَّتى طالَت ، سَوْفَ يَحْسِمُها الغَدُ بِما يَحْمِلُ مِنْ جَدِيدِ انْتِصارٍ لِلْعِلْمِ ، ومِنْ ثَمَّ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الإيمانَ بِالْعِلْمِ هُوَ البَدِيلُ العَصْري للإيمانِ بِالدِّين .

بَلْ تَجاوَزَ الأَمْرُ هَذا ، وفاقَ حَدَّ الطُّغْيان ، . فالإِنْسانِيَّةُ تَشْهَدُ فى عَصْرِها الحالِي ، تَجْرِبَةَ إِحْلالِ بَدِيلٍ آخَرَ لِلدِّينِ ، عِنْدَما أَسْلَمَ سادَتُها وكُبَراؤُها قِيادَهُم لِلشَّيْطانِ ، عَنْ قَناعَةٍ أَنَّ ذَلِكَ يَضْمَنُ لَهُم ولِذُرِيَّاتِهِم دَوامَ السُّلْطان .

إِنَّ تَخْلِيصَ الإِنْسان - مِنْ رِبْقَةِ الذُّلِّ والهَوان .. لا يَتأَتَّى إِلَّا إِذا تَحَلَّى بِالإِيمان .

ولا سَبِيلَ إِلَى الخَلاصِ إِلَّا بِالإِذْعانِ لِما جاءَ فى آياتِ الرَّحْمٰنِ مِنْ أَطْواقِ نَجاةِ الإِنْسان :﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾[1]

وخُلاصَةُ القَوْل : إِنَّ النَّاجِينَ مِنْ هَذا النَّوْعِ الإِنْسانِي هُم الَّذينَ آمَنُوا بِشَرَفِ الفَضِيلَةِ وخِسَّةِ الرَّذِيلَةِ ، كَما يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ ﴾[2] ، وهُم الَّذينَ آمَنُوا بِالجَزاءِ وجَمِيعِ ما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ ثُمَّ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِأَنْ يَكُونَ كُلُّ إِنْسانٍ نافِعاً لِنَفْسِهِ وأَهْلِهِ ولِقَوْمِهِ ولِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، بَعِيداً مِنْ أَنْ يَضُرَّ أَحَداً (إِلَّا لِكَفِّ ضَرَرٍ أَعْظَمَ مِنْهُ) ، ثُمَّ يَدْأَبُ عَلَى التَّواصِي بِالحَقِّ والصَّبْرِ ، فإِنَّ التَّواصِيَ بِالحَقِّ والصَّبْرِ حِفاظُ كُلِّ خَيْرٍ ، ورَأْسُ كُلِّ أَمْرٍ .

فَشَرْطُ النَّجاةِ مِنَ الخُسْرانِ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ الحَقَّ ويُلْزِمُوهُ أَنْفُسَهُم ، ويُمَكِّنُوهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ يَحْمِلُ النَّاسُ بَعْضُهُم بَعْضاً عَلَيْهِ بِأَنْ يَدْعُوَ كُلُّ صاحِبَهُ إِلَى الاعْتِقادِ بِالحَقائِقِ الثَّابِتَةِ الَّتي لا يُنازِعُ فِيها العَقْلُ ولا يَخْتَلِفُ فِيها النَّقْلُ وأَنْ يَبْعُدوا بِأَنْفُسِهِم عَنِ الأَوْهامِ والخَيالاتِ الَّتى لا دَلِيلَ عَلَيْها ولا فِطْرَةَ تَهْدِي إِلَيْها.

ومَعْلُومٌ أَنَّ رَأْسَ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ هُوَ الأَمْرُ بِالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَر ؛ وقَدْ

---

(١) سُورَةُ العَصر .

(٢) سُورَةُ اللَّيْل (الآية ٦) .

قالَ ﷺ : (لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْروفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَو لَيُسَلِّطَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ شِرارَكُمْ فَيَدْعُو خِيارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجابُ لَهُم)[1]، ويَقُولُ اللّهُ تَعالَى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[2]، ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾[3]، ومِنَ الَّذينَ ظَلَمُوا : الَّذينَ لا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ كما هُوَ واضِحٌ مِنَ الآيَةِ ، فَإِنَّهُ ما نَجا إِلاَّ الَّذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوء .

تَنْويه .. وتَنْبيه :

ذَكَرَ اللّهُ تَعالَى التَّواصِيَ بِالصَّبْرِ بَعْدَ التَّواصِي بِالحَقِّ مَعَ كَوْنِهِ داخِلاً فِيهِ ، تَنْويهاً بِشَأْنِهِ ، وتَنْبِيهاً عَلَى رِفْعَةِ قَدْرِهِ ، أَو نَقُولُ : لَمَّا كانَتْ هَذِهِ الخِصالُ (قَوْلُ الحَقِّ ومُلازَمَةُ الحَقِّ والتَّواصِي بِالحَقِّ) فى الغالِبِ تَجْلِبُ لِصاحِبِها مِنَ الأَذَى ما قَدْ تَكْرَهُهُ نَفْسُهُ ، ذَكَرَ تَعالَى التَّواصِيَ بالصَّبْرِ وإِنْ كانَ ذَلِكَ مِنَ الحَقِّ ، اعْتِناءً بِهِ وحَثّاً عَلَيْهِ ، فَإِنْ لَمْ يَتَذَرَّعْ بِالصَّبْرِ قَلَّ أَنْ يَثْبُتَ فى مَقامِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللّهِ عَزَّ وجَلَّ ؛ وقَدْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ فى وَصِيَّتِهِ :﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[4]، يَعْني أَنَّ ذَلِكَ مِنْ خِصالِ ذَوِي العَزْمِ ، وقالَ تَعالَى حِكايَةً عَنِ الرُّسُلِ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[5]، وقالَ تَعالَى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾[6]، وقالَ تَعالَى : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[7] وكانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ : ما كُنَّا نَعُدُّ إِيمانَ الرَّجُلِ إِيماناً إِذا لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الأَذَى .

وبالجُمْلَةِ : فالدِّينُ الإِسْلامِيُّ لا يَرْضَى مِنْ بَنِيهِ إِلاَّ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الشَّجاعَةِ فى الذُّرْوَةِ العُلْيا ، ومِنَ الثَّباتِ بِالمَحَلِّ الأَقْصَى .

---

(١) أَخْرَجَهُ (الطَّبراني) فى الأَوْسَطِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ .
(٢) سُورَةُ الأَنْفال (مِنَ الآيَة ٢٥) .
(٣) سُورَةُ الأَعْراف (الآيَة ١٦٥) .
(٤) سُورَةُ لُقْمان (مِنَ الآيَة ١٧) .
(٥) سُورَةُ إِبْراهيم (مِنَ الآيَة ١٢) .
(٦) سُورَةُ المُزَّمِّل (الآيَة ١٠) .
(٧) سُورَةُ الأَحْزاب (مِنَ الآيَة ٤٨) .

وإنْ شِئْتَ فانْظُرْ إلَى تَشْجِيعِ المُسْلِمينَ بِمَدْحِ الخَيْلِ الَّتى تَعْدو ضَبْحاً ، فَتُورِى قَدْحاً ، فَتُغِيرُ صُبْحاً ، إلَى آخِرِهِ ، ولَيْسَ أَحَضُّ عَلَى الشَّجاعَةِ مِنْ هَذا .

فَلَيْتَ شِعْرِي ماذا أَصابَ المُسْلِمينَ حَتَّى أَصْبَحُوا أَجْبَنَ الجُبَناءِ ، وأَذَلَّ الأَذِلَّاءِ ، يُداهِنُونَ فى دِينِ اللّهِ ، ولا يُبالُونَ امْتِثالَ أَوامِرِ اللّهِ : يَنْفِرونَ مِنَ الذُّلِّ ويَمِدُّونَ أَيْدِيَهُم إلَى أَسْبابِهِ ، ويَفِرُّونَ مِنَ المَوْتِ وهُمْ يَتَدافَعُونَ عَلَى أَبْوابِهِ .

ولاغَرْوَ .. فَمَنْ فَرَّطَ فى تَعالِيمِ رَبِّهِ ، وجَهِلَ سُنَّتَهُ فى خَلْقِهِ ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلاً عَلِيلاً ، وكَيْفَ لا يَذِلُّونَ وقَدْ أَمَرَهُم اللّهُ أَنْ يَكُونوا كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً ، أَو كالجَسَدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَداعَى لَهُ سائِرُهُ ، فَأَصْبَحُوا مُتَفَرِّقِينَ لا يَلْوِى بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ ، بَلْ مُنْقَسِمينَ مُتَنازِعينَ ، فَما أَجْدَرَهُم بِالذُّلِّ والمَهانَة .

وإذا فَسَدَ الإنْسانُ فَلا تَسَلْ عَمَّا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ هَذيانٍ أَو عُدْوانٍ ، وما يُحِيطُ بِهِ مِنْ بَلاءٍ وشَقاء .

وإذا بَعُدَ الإنْسانُ عمَّا أَرادَ لَهُ الرَّحْمٰنُ كانَ أَجْدَرَ بِوَصْفِ رَبِّ العِزَّةِ لَهُ بِأَنَّهُ : ظَلُومٌ جَهُولٌ كَفَّارٌ ، وخَصِيمٌ مُبِينٌ ، وقَتُورٌ وهَلُوعٌ ، ومُجادِلٌ وكَنُود .

وإنْ شِئْتَ فانْظُرْ إلَى الأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ حِينَما كانَتْ مُتَمَسِّكَةً بِدِينِها عامِلَةً بِتَعالِيمِ نَبِيِّها ﷺ لَمْ تَتَفَرَّقْ بِها السُّبُلُ ، ولا زاغَتْ بِها الأَهْواءُ ؛ كَيْفَ امْتَدَّ مُلْكُها فى كُلِّ ناحِيَةٍ مِنْ نَواحِي المَعْمُورَةِ ، وكَيْفَ عَمَّروا البِلادَ وأَصْلَحُوا العِبادَ ، وكَيْفَ أَخْرجُوهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ بِاعْتِرافِ أَساتِذَةِ أُوروبَّا المُبَرَّزُونَ مِثْلَ :

جُوسْتاف لُوبُون الفَرنْسِي الَّذي يَقُولُ : (ما رَأَى التَّارِيخُ فاتِحاً أَعْدَلَ ولا أَعْظَمَ مِنَ العَرَبِ) ، ومِثْلَ تُوماس كرليل الانكليزي فى كِتابِ الأَبْطالِ ، ومِثْلَ دِرايَر الأَمْرِيكي وغَيْرِهِم .

وبِالجُمْلَةِ فَقَدْ كانَ المُسْلِمُونَ إذْ ذاكَ أَعَزَّ الأُمَمِ عَلَى الإطْلاقِ ، وأَرْفَعَها عَلَى الإطْلاقِ ، فَكانُوا مُلُوكاً فى الأَرْضِ مُلُوكاً فى السَّماءِ ، ثُمَّ انْظُرْ إلَى حالِهِم اليَوْمَ

وقَدْ أَصْبَحُوا بِحَيْثُ يَطْمَعُ فِيهم كُلُّ طامِعٍ ، ويَهْزَأُ بِهِم كُلُّ قَوِيٍّ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْروفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللّهُ عَلَيْكُم شِرارَكُمْ فَيَدْعُو خِيارُكُم فَلا يُسْتَجابُ لَهُم) ، ويَقُولُ ﷺ : (تُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَتَداعَى لِمُقاتَلَتِكُم وكَسْرِ شَوْكَتِكُم وسَلْبِ ما مَلَكْتُمُوهُ مِنَ الدِّيارِ والأَمْوالِ كَما تَتَداعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِها ، فَقالَ قائِلٌ : أَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قالَ : بَلْ أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ولَكِنَّكُم غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيْلِ [1]) أَى لِقِلَّةِ شَجاعَتِكُم ودَناءَةِ قَدْرِكُم وخِفَّةِ أَحْلامِكُم وعَدَمِ اتِّحادِكُم .

ثُمَّ قالَ ﷺ فى آخِرِ الحَدِيثِ : (ولَيَنْزَعَنَّ اللّهُ مِنْ صُدورِ عَدوِّكُم المَهابَةَ مِنْكُم ، ولَيَقْذِفَنَّ فى قُلُوبِكُم الوَهَن) [2] .

وذَلِكَ مِنْ مُعْجِزاتِهِ الباهِرَةِ ﷺ ، ويَقُولُ تَعالَى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [3] ، وأَىُّ ظُلْمٍ أَكْبَرُ مِنْ تَرْكِ التَّعاوُنِ بَيْنَ أَفْرادِ المُؤْمِنِينَ ، وقَدْ قالَ اللّهُ فِيهم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [4] .

أَىُّ ظُلْمٍ أَكْبَرُ مِنْ تَرْكِ الأَمْرِ بِالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ حَتَّى مِنَ العُلَماءِ والوزَراءِ والأُمَراءِ والمُلُوكِ والرُّؤساء .

وقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ رَسُولِ اللّه ﷺ : أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرائِيلَ فى المَعاصِي نَهاهُم عُلَماؤُهُم فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجالَسُوهُم فى مَجالِسِهِم وواكَلُوهُم وشارَبُوهُم ، فَضَرَبَ اللّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِم بِبَعْضٍ ، ولَعَنَهُم عَلَى لِسانِ (داوُدَ وعِيسَى بنِ مَرْيَمَ) عَلَيْهِما السَّلامُ ، ذَلِكَ بِما عَصَوا وكانُوا يَعْتَدون .

ويَقُولُ ﷺ : (إِذا هابَتْ أُمَّتِي أَنْ تَقُولَ لِلظَّالِمِ إِنَّكَ ظالِمٌ ، فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُم) [5] .

وقالَ (بِأَبِي هُوَ وأُمِّي) ﷺ : (لا تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لا تَقُولُ لِلظَّالِمِ إِنَّكَ ظالِم) أَو كَما وَرَدَ.

---

(١) أَخْرَجَهُ أبوداود والبيهقي فى دَلائِلِ النُّبُوَّة .
(٢) الوَهَن : حُبُّ الدُّنْيا وكراهِيَةُ المَوْت .
(٣) سُورَةُ الأَنْفال (مِنَ الآيَة ٢٥) .
(٤) سُورَةُ الحُجُرات (مِنَ الآيَة ١٠) .
(٥) أَخْرَجَهُ الإِمامُ (أَحْمَدُ) فى مُسْنَدِهِ عَنْ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

لَقَدْ أَصْبَحْنا واللهِ فى خُسْرٍ عَظيمٍ ، وشَرٍّ جَسِيمٍ ، وصِرْنا أَعْظَمَ تَفْسِيرٍ لِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾.

ولَيْسَ يَخْفَى عَلَى الإِنْسانِ العاقِلِ ما وَصَلْنا إِلَيْهِ مِنَ اخْتِلالِ الأَحْوالِ وضَياعِ الأَمْوالِ وانْتِهاكِ الحُرُماتِ واقْتِرافِ المُنْكَراتِ ، وإِصْلاحِ الظَّواهِرِ وفَسادِ البَواطِنِ ، وفَقْدِ الإِخْلاصِ ، وذُيُوعِ الأَغْراضِ ، واسْتِحْكامِ الأَمْراضِ ، والمُواطَأَةِ عَلَى القَبائِحِ ، وعَدَمِ انْفِعالِ النُّفُوسِ بِارْتِكابِ الرَّذائِلِ ، وضَياعِ الفَضائِلِ ، وكَثافَةِ الغِطاءِ عَلَى العُقُولِ حَتَّى أَصْبَحَتْ تُنْكِرُ اليَقِينِيَّاتِ ولا تَعْتَرِفُ بِالبَدِيهِيَّاتِ وكأَنَّما انْقَلَبَتِ الرُّؤوسُ وانْتَكَسَتِ النُّفُوسُ ، وانْطَمَسَتِ البَصائِرُ وفَسَدَتِ الفِطَرُ ، وعَمِيَتِ القُلُوبُ ، وأَعْضَلَ الدَّاءُ فَعَجَزَ الأَطِبَّاءُ ، وضاقَ عَنْهُ نِطاقُ التَّعْبِيرِ ولَمْ تَتَّسِعْ لَهُ أَوْدِيَةُ التَّحْذيرِ ، فَإِنَّنا فى عَصْرٍ أُولَئِكَ الَّذينَ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُم وإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، مِنْ ذَوي الأَلْسِنَةِ الثَّرْثارَةِ والقُلُوبِ الخَوَّارَةِ ، والشَّهَواتِ القاهِرَةِ ، والنُّفُوسِ الفاجِرَةِ ، والأَفْكارِ الخَيالِيَّةِ والنَّزغاتِ الشَّيْطانِيَّةِ ، وما أَجْدَرَهُم بِوَصْفِ العَلاَّمَةِ (يُوسُف الدِّجْوِي) حِينَ قالَ :

كُلُّ شَىْءٍ يُخافُ مِنْهُ الآنَ * قَدْ مَضَى مَنْ يُراقِبُ الدَّيَّانا

لَيْسَ إِلاَّ شقاشِقٌ وكَلامٌ * نَمَّقُوهُ كَى يُخْدَعَ الإِنْسانا

وأُمُورٌ شَكْلِيَّةٌ ونُبُوغٌ * فى رِياءٍ يا هَوْلَ ما قَدْ دَهانا

مَنْ دَرَى النَّاسَ شَكَّ فى كُلِّ شَىْءٍ * قَدْ بَدا مِنْهُم كائِناً ما كانا



مَعْرِفَةُ النَّفْسِ الإِنْسانيَّة .. وِقايَةٌ مِنَ المَزالقِ الشَّيْطانيَّة

فَمَعْرِفَةُ النَّفْسِ الإِنْسانيَّةِ والوقُوفُ عَلَى خَصائِصِها مِنْ أَلْزَمِ الأَشْياءِ وأَهَمِّ المُهِمَّاتِ[1]، قالَ الإِمامُ الحارث المُحاسِبي : مَجْمُوعُ المَعْرِفَةِ يَرْجِعُ إِلَى العِلْمِ بِأَرْبَعَةِ أَشْياء : اللّه تَعالَى ، والنَّفْس ، والدُّنْيا ، والشَّيْطان .

وقالَ الشَّيْخُ مُحْيى الدِّين بنُ العَرَبي : والَّذى نَقُولُ بِهِ إِنَّ المَعْرِفَةَ لَيْسَ لَها طَرِيقٌ إِلاَّ المَعْرِفَةَ بِالنَّفْس .. وهَذا حَقٌّ فَإِنَّ مَنْ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ لا يَعْرِفُ اللّهَ تَعالَى ولا يَعْرِفُ الدُّنْيا ولا الآخِرَةَ ولا يَعْرِفُ شَيْطاناً ولا مَلَكاً ولا نَبِيّاً ، ولا شَيْئاً مِنَ الأَشْياء .

قالَ اللّهُ تَعالَى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

وفى الأَثَرِ المَشْهُور : (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ) ، أَى مَنْ عَرَفَ مَعْنَى النَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ الحَقَّةِ وما تَتَطَلَّبُهُ وما تَشْتاقُ إِلَيْهِ وما هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ ، عَرَفَ رَبَّهُ وعَرَفَ كُلَّ شَيْء .

وأَمَّا مَنْ جَهِلَ نَفْسَهُ فَلا يَعْرِفُ شَيْئاً ، ولا يُمَيِّزُ بَيْنَ حَقٍّ وباطِلٍ ، ولا يُفَرِّقُ بَيْنَ حَسَنٍ وقَبيحٍ ، وإِنَّما يَعْرِفُ ما تُشارِكُهُ فيهِ البهائِمُ والحَيَواناتُ ؛ يَعْرِفُ كَيْفَ يَأْكُلُ وكَيْفَ يَشْرَبُ ، وكَيْفَ يُواقِعُ زَوْجَتَهُ ، وكَيْفَ يُقاتِلُ غَيْرَهُ ، وكَيْفَ يَجْمَعُ المالَ ، وكَيْفَ يَغْتَصِبُ حُقُوقَ النَّاس .

وقَد يَتَرَقَّى قَليلاً فَيَعْرِفُ كَيْفَ يَطِيرُ فى الهَواءِ ، وكَيْفَ يَسْبَحُ فى الماءِ ، وكَيْفَ يُحاوِلُ الوصُولَ إِلَى الكواكِبِ ومَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَهُوَ عَنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ ومَعْرِفَةِ رَبِّهِ تَعالَى بِمَعْزِلٍ ، فَلا تَخْدَعَنَّكَ أَيُّها الرَّجُلُ تِلْكَ القُشُورُ ، ولا تُعَوِّلْ عَلَى ظواهِرِ الأُمُور .

قالَ الإِمامُ (أَبو حامِد الغَزالي)[3] : اعْلَمْ أَنَّ مِفْتاحَ مَعْرِفَةِ اللّهِ تَعالَى هُوَ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ كَما قالَ سُبْحانَهُ وتَعالَى : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ

---

(١) الإِنْسان والإِسْلام ، لـ (محمد الطاهر الحامدى) .

(٢) سُورَةُ الذَّاريات ، الآيَة ٢١ .

(٣) كِيمْياءُ السَّعادَة ، لـ (أبى حامد الغزالي) .

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، وقالَ النَّبِىُّ ﷺ : (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) ، ولَيْسَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِذا لَمْ تَعْرِفْ نَفْسَكَ فَكَيْفَ تَعْرِفُ رَبَّكَ ، فَإِنْ قُلْتَ : إِنِّى أَعْرِفُ نَفْسِي فَإِنَّما تَعْرِفُ الجِسْمَ الظَّاهِرَ الَّذى هُوَ اليَدُ والرِّجْلُ والرَّأْسُ ولا تَعْرِفُ مِمَّا فى باطِنِكَ إِلاَّ الأَمْرَ الَّذى بِهِ إِذا غَضِبْتَ طَلَبْتَ الخُصُومَةَ وإِذا اشْتَهَيْتَ طَلَبْتَ النِّكاحَ ، وإِذا جُعْتَ طَلَبْتَ الأَكْلَ ، وإِذا عَطَشْتَ طَلَبْتَ الشُّرْبَ والدَّوابُّ تُشارِكُكَ فى هَذهِ الأُمُور .

فالواجِبُ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ بِالحَقيقَةِ حَتَّى يَدْرِىَ أَىَّ شَىْءٍ هُوَ ، ومِنْ أَيْنَ جاءَ إِلَى هَذا المَكانِ ، ولأَىِّ شَىْءٍ خُلِقَ ، وبِأَيِّ شَىْءٍ تَكُونُ سعادَتُهُ ، وبِأَيِّ شَىْءٍ شَقاؤُهُ .... ؟وقَد جُمِعَ فى باطِنهِ صِفاتٌ مِنْها صِفاتُ البَهائِمِ ، ومِنْها صِفاتُ السِّباعِ ، ومِنْها صِفاتُ المَلائِكَة .

فالرُّوحُ حَقِيقَةُ جَوْهَرِ الإِنْسانِ ، وغَيْرُها غَرِيبٌ مِنْهُ وعارِيَةٌ عِنْدَهُ ، فالواجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ هَذا ، ويَعْرِفَ أَنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ غِذاءٌ وسَعادَة .

إِنَّ سَعادَةَ البَهائِمِ فى الأَكْلِ والشُّرْبِ والنَّوْمِ والوِقاعِ ، فَمَنْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَلْيَجْتَهِدْ فى أَعْمالِ الجوْفِ والفَرْجِ .

وسَعادَةُ السِّباعِ فى الضَّرْبِ والفَتْكِ ، وسَعادَةُ الشَّياطِينِ فى المَكْرِ والشَّرِّ والحِيَلِ فَمَنْ يَكُنْ مِنْهُم فَلْيَشْتَغِلْ بِأَشْغالِهِمْ .

وسَعادَةُ المَلائِكَةِ فى مُشاهَدَةِ جَمالِ الحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ولَيْسَ لِلْغَضَبِ والشَّهْوَةِ إِلَيْهِمْ طَرِيقٌ ؛ فَمَنْ يَكُنْ جَوْهَرُهُ مِنْ جَوْهَرِ المَلائكةِ فَلْيَجْتَهِدْ فى مَعْرِفَةِ أَصْلِهِ حَتَّى يَعْرِفَ الطَّرِيقَ إِلَى الحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ ويَبْلُغَ مُشاهَدَةَ الجَمالِ والجَلالِ ، ويُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ والغَضَبِ ويَعْلَمَ أَنَّ هَذهِ الصِّفاتِ لأَىِّ شَىْءٍ رُكِّبَتْ فِيهِ ؟ ، فَما خَلَقَها اللهُ لِيَكُونَ أَسِيرَها ولَكِنْ خَلَقَها لِتَكُونَ هِىَ أَسِيرَةٌ لَهُ ويُسَخِّرُها لِلسَّفَرِ الَّذى قُدَّامَهُ ويَجْعَلُ إِحْداها مَرْكَبَهُ والأُخْرَى سِلاحَهُ حَتَّى يَصِيدَ بِها سَعادَتَهُ ، فإِذا بَلَغَ غَرَضَهُ فَلْيَرْمِ بِها تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، ولْيَرْجِعْ إِلَى مَكانِ سَعادَتِهِ

---

(١) سُورَةُ فُصِّلَت ، مِنَ الآيَة ٥٣ .

وذلِكَ المكانُ مُسْتَقَرُّ خَواصِّ الحَضْرَةِ الإلَهِيَّةِ ، فَيَحْتاجُ إلَى مَعْرِفَةِ هَذِهِ المَعانِي حَتَّى يَعْرِفَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً قَلِيلاً ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذه المَعانِي فَنَصِيبُهُ القُشُورُ لأَنَّ الحَقَّ يَكُونُ عَنْهُ مَحْجُوباً ...) .

ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

إنَّ نَفْساً لَمْ يُشْرِقِ الحُبُّ فِيها

هِيَ نَفْسٌ لَم تَدْرِ ما مَعْناها

أَنا بِالحُبِّ قَدْ عَرَفْتُ نَفْسِي

وبِنَفْسِي قَدْ عَرَفْتُ اللّهَ

ولَمَّا لَمْ يَعْرِفِ الطَّبِيعِيُّونَ والمادِيُّونَ النَّفْسَ الَّتى أَشارَ إلَيْها الإمامُ (الغَزالي)، وشُغِلُوا بِشَهَواتِ البَهائِم وتَحْصِيلِها ، وتَعَلَّقُوا بِالحَواسِّ ومَدارِكِها ، كانَ نَصِيبُهُم القُشُورَ ، وحُجِبُوا عَنْ مَعْرِفَةِ اللّهِ تَعالَى وكانوا فَرِيسَةً لِلشَّيْطانِ ، لِأَنَّ ذاتَهُ عَزَّ وجَلَّ لا تُعْرَفُ فى هَذا العالَمِ بِالحَواسِّ ، الَّتى طَلَبوهُ مِنْ طَرِيقِها فَلَم يَجِدوهُ ، ولو أَنَّهُم اسْتَعْمَلوا فى مَعْرِفَتِهِ عَزَّ وجَلَّ العُقُولَ الَّتى اخْتَصَّهُم سُبْحانَهُ بِها ، ورَفَعَهُم بِها مِنْ دَرَجَةِ الحَيواناتِ لَوَجَدُوهُ وعَرَفُوهُ ؛ فَكُفْرُهُم بِاللّه عَزَّ وجَلَّ ، وجُحُودُهُم بِآياتِهِ إنَّما نَشَأَ مِنْ جَهْلِهِمْ وكُفْرِهِمْ بِالعُقُولِ المُرَكَّبَةِ فِيهِم .



الإنْسانُ مَجْمَعُ العَجائِب

إنَّ حَقِيقَةَ الإنْسانِ أنَّهُ جُرْمٌ تام .. ذُو نَفْسٍ ناطِقَةٍ وحَيَوانيَّةٍ ونَباتيَّةٍ ومعادِنيَّةٍ ؛ تَفَرَّدَ بِالأَرْبَعَةِ دُونَ سائِرِ الحَيوانات.(١)

ومَعْنَى الناطِقَةِ : المُمَيِّزَةِ الَّتى تَكْتَسِبُ الصِّناعَةَ ، وتَسْتَحْضِرُ الغائِبَةَ بِالفِكْرِ ، وتَتَصَوَّرُ ما لَمْ تُشاهِدْ ، وتَسْتَحْضِرُ المَوْجُوداتِ والبُلْدانَ الغائِبَة .

وبِهَذهِ النَّفْسِ تَشَرَّفَ الإنْسانُ عَلَى سائِرِ المَخْلُوقاتِ ، وارْتَبَطَتِ المَسْمُوعاتُ فى قِواهُ وذاتِهِ ، وبِها يَرَى فى نَوْمِهِ ما لَمْ يَرَى فى يَوْمِهِ .

والإنْسانُ هُوَ العالَمُ الأَصْغَرُ المَحْصُورُ فى الأَكْبَر .. مَعانِي الأَشْياءِ مَوْجُودَةٌ بِأَجْمَعِها فِيهِ ؛ فَهُوَ مُشارِكٌ لِجَمِيعِ الحَيَواناتِ فى المَأْكُولاتِ والمَشْروباتِ والمَنْكُوحاتِ وغَيْرِ ذَلِكَ ، وهُوَ المُخالِفُ لَهُم بِالعُلُومِ والحِيَلِ والمَفاخِر ... وهُوَ ذو سِتِّ جِهاتٍ وسِتِّ حَرَكاتٍ ؛ يَجْرِي عَظْمُ صُلْبِهِ مَعَ فَخِذَيْهِ عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ ، مُتَماسِكُ الأَصابِعِ والكَفِّ مُسْتَدِيرُ الرَّأْسِ ، ذو أَظافِر .. وهُوَ قابِلٌ لِلْعُلُومِ والكِتابَةِ مُسْتَنْبِطٌ لِلصِّناعَةِ ، يَحْكِي الحَيَواناتِ ولا تُحاكِيه .

وهُوَ ضَحَّاكٌ بَكَّاءٌ ، فِيهِ قُوَّةٌ إلَهِيَّةٌ وسِيادِيَّةٌ ، وفى باطِنِهِ نُورٌ ، وجِسْمُهُ سِجْنُهُ .

وهُوَ مُسْتَقِيمُ التَّخْطِيطِ ، مُمَيِّزٌ لِما يَضُرُّهُ وما يَنْفَعُهُ ، يَفْعَلُ بِقَصْدٍ وإرادَةٍ ويَهْتَمُّ بِالقَصْدِ ، فَيَمْتَنِعُ امْتِناعاً قَهْرِيّاً فِكْرِيّاً ، ويَسْتَنْبِطُ الصَّنايِعَ العَجِيبَةَ العَدِيدَةَ والكَلِماتِ الدَّقِيقَةَ ، ويَحْفَظُ صُوَرَ العُلُومِ ، ويُنْبِيءُ عَنْ كُلِّ مَحْسُوس .

قَدْ جَعَلَهُ اللّهُ خازِنَ حِكْمَتِهِ وعُلُومِهِ ، ومُعَبِّراً عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقاتِهِ ، وقابِلَ وَحْيِهِ وإلْهامِهِ ، وواعِيَ مَعارِفِهِ وأَسْرارِه .

وهُوَ نَتِيجَةُ العالَمِ الأَكْبَرِ الجامِعِ لِمعانِيهِ فى خِلْقَتِهِ وتَرْكِيبِهِ ، والمَخْلُوقاتُ أَشْتاتاً وهُوَ يَجْمَعُهُم ولا يَجْمَعُونَهُ ، ويُسَخِّرُهُم ولا يُسَخِّرونَهُ ، ويَحْكِي أَصْواتَهُم ويُمَثِّلُ صُوَرَهُم بِيَدِهِ ، ويَصِفُها بِلِسانِهِ ، ويُنْبِيءُ عَنْ طَبايِعِها .

---

(١) نُورُ الحَياة ، لسيدى (عبدالله بن عَزُّوز) .

وهُوَ صاحِبُ الجِسْمِ الكَثِيفِ ، والرُّوحِ اللَّطِيفِ .. فَبَعْضُهُ كَثِيفٌ ، وبَعْضُهُ لَطِيفٌ ، وبَعْضُهُ لَطِيفٌ حَيٌّ ، وبَعْضُهُ كَثِيفٌ مَيِّتٌ .. نِصْفُهُ حَرَكَةٌ ونِصْفُهُ سُكُون .. نِصْفُهُ لَيْلٌ ، ونِصْفُهُ نَهارٌ ، نِصْفُهُ ظَلامٌ ظاهِرٌ ، ونِصْفُهُ نُورٌ باطِنٌ .. نِصْفُهُ مَحْسُوسٌ ونِصْفُهُ مَعْقُولٌ ، ونِصْفُهُ حامِلٌ ونِصْفُهُ مَحْمُولٌ .. يَسْتَحِي مِنَ القَبِيح . .

ويَسْتَحسِنُ المَلِيح .. ويَحْتَمِلُ ما يُرِيدُ ، ويَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَنْدَم .

فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ لَطِيفِ الجَوْهَرِ وغَلِيظِهِ ، ولِذَلِكَ صارَ مُعْتَدِلاً بِالحَرَكَةِ ، الَّتِى هِيَ رُوحُ الحَياةِ ، فَيَعْرِفُ حَرارَةَ النَّارِ بِما فيهِ مِنَ البُرُودَةِ ، ويَعْرِفُ بُرُودَةَ الماءِ بِما فِيهِ مِنْ حَرارَةٍ ، وكَذَلِكَ سائِرَ الاشْتِقاقات .

مُشابَهَةُ الإنْسانِ لِلْفَلَك :

إنَّ رَأْسَ الإنْسانِ تُشابِهُ كُرَةَ الفَلَكِ واسْتِدارَتَهُ ، وكَذَلِكَ اجْتِماعُ اللَّطائِفِ فِيهِ والأنْوار ؛ مِنْ بَصَرٍ وسَمْعٍ وشَمٍّ وذَوْقٍ وفَهْمٍ : فَعَيْناهُ كالنَّيِّرَيْنِ (الشَّمْسِ والقَمَر) ومِنْخَاراهُ كالرِّيحَيْنِ ، وأُذُناهُ كالمَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، وقُدَّامُهُ كالنَّهارِ وخَلْفُهُ كاللَّيْلِ ومَشْيُهُ كَسَيْرِ النُّجُوم السَّيَّارَةِ وقُعُودُهُ كَوقُوفِها ، وقَهْقَرَتُهُ كَرُجُوعِها ، ومَوْتُهُ كاحْتِراقِها .. وأعْضاؤهُ البَواطِنُ السَّبْعَةُ كالكَواكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَة .. وفى رَأْسِهِ سَبْعَةُ عِظامٍ عَدَدَ الأيَّامِ السَّبْعَةِ ، وفى ظَهْرِهِ أرْبَعَةٌ وعِشْرونَ فَقْرَةً بِعَدَدِ ساعاتِ اللَّيْلِ والنَّهار .. وفِيهِ ثمانِيَةٌ وعِشْرونَ مَفْصَلاً بِعَدَدِ مَنازِلِ القَمَرِ وحُروفِ الهِجاءِ وفى بَطْنِهِ مِنَ الأمْعاءِ اثنا عَشَرَ بِعَدَدِ أيَّامِ الأهِلَّة .. وفِيهِ ثَلاثُمائَةٍ وسِتُّونَ عِرْقاً ضَوارِبُ ، ومِثْلُها سَواكِنُ بِعَدَدِ أيَّامِ العامِ ولَيالِيهِ ، وبِعَدَدِ دَرَجِ الفَلَك .

وفِيهِ مِنَ الطَّبائِعِ أرْبَعَةٌ بِعَدَدِ فُصُولِ السَّنَةِ . . وعَيْناهُ حَواسُّ القُوَّةِ العاقِلَةِ الَّتِى هِيَ كالمَلِكِ ، وأُذُناهُ أصْحابُ أخْبارِهِ ، ولِسانُهُ تَرْجُمانُهُ ، والقَلْبُ دِيوانُ عُلُومِهِ ، والمَعِدَةُ بَيْتُ مالِهِ ، وكَبِدُهُ قِسْمَتُهُ ، والمَرارَةُ صَبْرُهُ ، وطُحالُهُ جَسَدُهُ حَتَّى لا يَنْتَنَ لَحْمُهُ ، وفِيها دَواؤُهُ .. والرِّئَةُ مَراوِحُ قَلْبِهِ ، واليَدانِ حُجَّابُهُ وصُنَّاعُهُ .. والرِّجْلانِ مَرْكُوبُهُ .. لَحْمُ جَسَدِهِ كالتُّرابِ ، وعِظامُهُ كالجَنادِلِ ، وشَعْرُهُ كالنَّباتِ

وعُروقُهُ كالأَوْدِيَةِ ، وأَعْضاؤُهُ البَاطِنَةُ كالمَعادِن .

وجِسْمُهُ مُرَكَّبٌ مِنْ تِسْعَةِ جَواهِرَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تِسْعَةِ دَوايِر ؛ مُرَكَّبٌ بَعْضُها فى جَوْفِ بَعْضٍ كالأَفْلاك .

والفَلَكُ المُحِيطُ بِها حامِلُها جَمِيعها وهِيَ : المُخُّ والعَظْمُ والمَفاصِلُ والأَعْصابُ والعُرُوقُ ، والدَّمُ الَّذي فى جَوْفِ العُروقِ ، واللَّحْمُ والجِلْدُ والشَّعْرُ والأَظافِر :

- فالمُخُّ حُوتُ العِظامِ ، وفِعْلُهُ حِفْظُ القُوَّةِ وتَلْيِينُ يَبَسِ العِظام .
- وفِعْلُ العِظامِ إِمْساكُ اللَّحْمِ وثَباتُهُ عَلَيْها .
- وفِعْلُ المَفْصَلِ والعَصَبِ رِباطُ المَفاصِلِ وتَحْرِيكُ الأَعْضاءِ .
- وفِعْلُ اللَّحْمِ سَدُّ خِلالِ الجُمْلَةِ ومُساواةُ البَدَن .
- وفِعْلُ العُروقِ جَمْعُ الدَّمِ فيها وسَرَيانُهُ إِلَى أَطْرافِ الجِسْم .
- وفِعْلُ الدَّمِ إِمْساكُ الحَرارَةِ ، وضَبْطُ الحَياةِ ، وتَعْدِيلُ المَزاجِ ، وتَوْلِيدُ الحَرَكَة .
- وفِعْلُ الجِلْدِ الإِحاطَةُ بِجميعِ الجِسْمِ وما فيهِ ، كالسُّتُور .
- وفِعْلُ الظُّفْرِ والشَّعْرِ ضَبْطُ الأَطْرافِ وإِمْساكُها .

وفى بُنْيَةِ الإِنْسانِ اثْنَى عَشَرَ ثُقْباً ، مُماثِلَةً لِلإِثْنَى عَشَرَ بُرْجاً مِنْ أَبْراجِ الفَلَك .. ولمَّا كانَتِ الأَبْراجُ مِنْها سِتَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ ، ومِنْها سِتَّةٌ شَمالِيَّةٌ .. كَذَلِكَ فى الإِنْسانِ سِتُّ ثُقُوبٍ في الجانِبِ الأَيْمَنِ وسِتُّ ثُقُوبٍ فى الجانِبِ الأَيْسَر ، مُماثِلَةً لَها فى الطَّبِيعَةِ والكَمِّيَّةِ والكَيْفِيَّةِ جَمِيعِها .

ولمَّا كانَتْ فى الفَلَكِ سَبْعَةُ كَواكِبَ سَيَّارَةٍ ، يَجْرِي بِها أَحْكامُ الفَلَكِ وأَحْكامُ الكائِناتِ ، وبِها يَكونُ نِظامُ المَوْجُوداتِ ، حَسْبَ ما قَدَّرَها وأَرادَها رَبُّ الأَرْضِ والسَّمَواتِ .. كَذَلِكَ فى جِسْمِ الإِنْسانِ سَبْعُ قُوَّاتٍ فَعَّالَةٌ ، مُنْبَعِثَةٌ مِنَ النَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ ؛ بِها يَكُونُ صَلاحُ الجَسَدِ أَو فَسادِه .

ولَمَّا كانَتْ لِهَذِهِ الكَواكِبِ نُفُوسٌ وأَجْسامٌ وأَفْعالٌ رُوحانِيَّةٌ تَفْعَلُ فِيما يَظْهَرُ مِنَ المَوْجُوداتِ ومِنَ الحَيَوانِ والمَعادِنِ والنَّبات .. كَذَلِكَ وُجِدَ فى الإِنْسانِ سَبْعُ

قُوَّاتٍ جِسْمانِيَّة ، تَفْعَلُ فى الجِسْمِ ما يَكُونُ بِهِ بَقاؤُهُ وصَلاحُهُ ، بَعْدَ سَبْعِ قُوَّاتٍ أُخْرَى نَفْسانِيَّةٍ وهِىَ : الماسِكَةُ والجاذِبَةُ والهاضِمَةُ والدَّافِعَةُ والقَوِيَّةُ والنَّامِيَةُ والمُصَوِّرَةُ ، وسَبْعُ قُوَّاتٍ رُوحانِيَّةٌ مُماثِلَةٌ لِروحانِيَّةِ الكَواكِبِ السَّبْعَةِ ، وهِىَ القُوَى السَّبْعَةُ المَذْكُورَةُ ، والجِسْمانِيَّةُ وبِها كَمالُ الإِنْسانِ وزِينَةُ أَفْعالِهِ ، كَما أَنَّ الكَواكِبَ السَّبْعَةَ زِينَةُ الفَلَكِ وقُوامُهُ واسْتِواءُ العالَمِ ونِظامُهُ ، وهِىَ : القُوَّةُ الباصِرَةُ والسَّامِيَةُ والذَّائِقَةُ واللاَّمِسَةُ والنَّاطِقَةُ والعاقِلَةُ .

مِنْها قُوَّاتٌ خَمْسٌ تُشْبِهُ الكَواكِبَ الخَمْسَ الخُنَّس .. وقُوَّتانِ تُشْبِهانِ الشَّمْسَ والقَمَرَ ، وهِىَ القُوَّةُ النَّاطِقَةُ والعاقِلة .

وكَما أَنَّ القَمَرَ يَأْخُذُ نُورَهُ مِنَ الشَّمْسِ فى مَنازِلِهِ الثَّمانِيَةِ والعِشْرِينَ ؛ كَذَلِكَ القُوَّةَ النَّاطِقَةَ فى الإِنْسانِ ، والَّتي تَسْتَمِدُّ عِلْمَها مِنَ الرَّحْمٰنِ ، تُعَبِّرُ عَنْ مَعانِي المَوْجُوداتِ فَتُمَيِّزُها بِثَمانِيَةٍ وعِشْرِينَ حَرْفاً .

ولَمَّا كانَتْ فى الفَلَكِ عُقْدَتانِ وهُما : الرَّأْسُ والذَّنَبُ ، وهُما خافِيَتا الذَّاتِ ، ظاهِرَتا الأَفْعالِ والتَّكاثُراتِ ؛ كَذلِكَ فى جِسْمِ الإِنْسانِ قُوَّتانِ مُتَجانِسَتانِ وهُما سُوءُ المَزاجِ وصَلاحُه .

وكذلِكَ النَّفْسُ إِذا تَعَقَّلَتْ بِمَصالِحِها ، صَحَّتْ أَفْعالُها ، وتَخَلَّصَتْ مِنْ كَدُوراتِ الطَّبِيعَةِ واهْتَدَت ، وإِذا مالَتْ إِلَى الطَّبِيعَةِ اضْطَرَبتْ أَفْعالُها ، وبَعُدَتْ عَنْ مَعانِيها .

وكَما يَكُونُ انْكِسافُ الشَّمْسِ والقَمَرِ بِعُقْدَةِ الذَّنَبِ ، كَذَلِكَ يَكُونُ مِنْ سُوءِ المَزاجِ ما يَكُونُ مِنَ الأُمُورِ الصَّعْبَةِ ، ويَظْهَرُ مِنَ الهَلاكِ ما يَظْهَرُ ، وبِصَلاحِ المَزاجِ يَكُونُ صَلاحُ القُوَّةِ العاقِلَةِ والنَّاطِقَةِ ، وهَذا يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَسْلَمَ بَقِيَّةُ الجَسَدِ وتَصْفُو النَّفْسُ مِنْ كَدَرِ الطَّبِيعَةِ ، ويُشْرِفُ عَلَيْها العَقْلُ ويُضِيئُها .

ولَمَّا كانَتِ الشَّمْسُ والقَمَرُ هُما سِراجا الفَلَك .. كَذَلِكَ وُجِدَ فى الجِسْمِ العَيْنانِ وهُما سِراجانِ وبِهما تُدْرِكُ النَّفْسُ صُوَرَ المَوْجُوداتِ والأَلْوانِ المُزَيَّنَةِ بِمادَّةِ

إشْراقِ ضَوْءِ الشَّمْسِ والقَمَر .

وكَما أَنَّهُ يَثْبُتُ فى قُوَى الفَلَكِ والكَواكِبِ والبُرُوجِ الاثْنَى عَشَرَ رُوحانِيَّةً لَها أَفْعالٌ يَخْتَصُّ بِها كُلُّ كَوْكَبٍ وكُلُّ بُرْج ، وأَنَّها تَنْحَطُّ إِلَى هَذا العالَمِ الدُّنْياوِي مَعَ كُلِّ لَحْظَةٍ ، وفى كُلِّ ساعَةٍ ودَقِيقَةٍ ، وكُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكاتِ الزَّمان .. كَذَلِكَ لِنَفْسِ الإِنْسانِ فى جَسَدِهِ ومَفاصِلِهِ أَعْمالٌ وأَفْعالٌ تَظْهَرُ مِنْها وتَبْرُزُ عَنْها ، مَعَ كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِهِ ، وكُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكاتِهِ ، وكُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفاسِهِ ، وهُوَ كَذَلِكَ مادامَ مَوْجُوداً بِذاتِهِ إِلَى وَقْتِ مُفارَقَةِ رُوحِهِ جَسَدَهُ ، وتِلْكَ الرُّوحُ الكُلِّيَّةُ مُتَّصِلَةٌ بِالأَرْواحِ الجُزْئِيَّةِ ، لِكَوْنِها مِنْ تِلْكَ المادَّاتِ المُقَدَّرَةِ ، والحِكْمَةِ المُدَبَّرَةِ .. صُنْعُ اللهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ صُنْعاً .

الإِنْسانُ جامِعٌ لِلمَوْجُودات :

إِنَّ الإِنْسانَ وِعاءٌ يَحْمِلُ كُلَّ شَىْءٍ ويَظْهَرُ فِيهِ آثارُ ما حَمَلَ بِما يَظْهَرُ عَلَى بَشَرَتِهِ ؛ ومِثالُ ذَلِكَ : العَوامِلُ الأَرْبَعَةُ الَّتي تَعْمَلُ فى الإِنْسانِ ، وكُلُّ عامِلٍ مِنْها لَهُ سِحْنَتُهُ الَّتى تَدُلُّ عَلَيْهِ إِذا كانَ غالِباً فى الإِنْسان :

• **فَأَوَّلُهُم طَبْعُ النَّار** : وما يَعْمَلُ فى الإِنْسانِ إِذا غَلَبَ فِيهِ ، تَكُونُ فى بَدَنِهِ سِمْنَةٌ لا تَخْفَى ، وهِىَ أَنَّ الذَّاتَ تَكُونُ مُصَغَّرَةً مَمْصُوصَةً ، وعُروقُها غِلاظٌ شِدادٌ واسِعَةٌ ضارِبَةٌ ، ولَحْمُها جافٌّ ، ومَزاجُها فِيهِ جَفاف .

• **وأَمَّا طَبْعُ الماء** : إِذا غَلَبَ فى ذاتِ الإِنْسانِ ، تَكُونُ سِحْنَتُهُ ناعِمَةً سَمينَةً شَدِيدَةَ البَيانِ ، وعُروقُها رِقاقٌ ضَيِّقَةٌ لا يَظْهَرونَ فى وَسَطِ اللَّحْم .

• **وأَمَّا طَبْعُ التُّراب** : إِذا غَلَبَ فى ذاتِ الإِنْسانِ ، تَكُونُ ذاتُهُ نَحِيفَةً ومَعَها خُضُورَةٌ وعُروقُها ضَعِيفَةُ الضَّرْبِ ، ثَقِيلَةُ الحَرَكَةِ ، ناشِفَةٌ .

• **وأَمَّا طَبْعُ الاعْتِدالِ** : إِذا كانَ فى ذاتِ الإِنْسانِ ، تَكُونُ ذاتُهُ مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ جَمِيعِ ما ذَكَرْنا .

وكَما أَنَّ الإِنْسانَ جامِعٌ لِلمَوْجُوداتِ فَإِنَّ أَثَرَها ومَعانِيها مَوْجُودَةٌ فِيهِ بِأَكْمَلِها ،

وفيهِ أُصُولُ أَعْضاءِ الجَسَدِ ، وهِيَ أَرْبَعَةٌ ، وهِيَ الَّتى تَمُدُّ سائِرَ أَجْزائِهِ ، وهِيَ : الدِّماغُ (مُخُّ الرَّأْس) ، والقَلْبُ ، والكَبِدُ والمَعِدَةُ .

اثْنانِ مِنْ هَذهِ الأَعْضاءِ عُلْوِيَّانِ واثْنانِ سُفْلِيَّان ؛ فالعُلْوِيَّانِ الدِّماغُ والقَلْبُ ، والسُّفْلِيَّانِ الكَبِدُ والمَعِدَةُ ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْ هَذهِ الأَرْبَعَةِ لَهُ مِدادُهُ :

• فالدِّماغُ يَمُدُّ العَصَبَ ، ويَحْفَظُ نارَ القَلْبِ أَلَّا تَلْتَهِبَ ، ويَمُدُّ حَركاتِ المَفاصِلِ ويُقَوِّيها عَلَى ذَلِكَ ، ويَمُدُّ الأُنْثَيَيْنِ الَّتى هِيَ دالَّاتُ التَّناسُل .

• والقَلْبُ يَمُدُّ الجَميعَ بِالحَياةِ ، ويَمُدُّ الجِسْمَ بِما تَبْقَى بِهِ الحَياةُ ، وإِذا صَلَحَ القَلْبُ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإِذا فَسَدَ فَسَدَ جَميعُ الجَسَد .

• والكَبِدُ يَمُدُّ الجِسْمَ بِما يَحْتاجُهُ مِنَ الحَرارَةِ الغَرِيزِيَّة .

• وأَمَّا المَعِدَةُ فَهِيَ أَساسُ الجُمْلَةِ ، ومَسْكَنُ القُوَّةِ الدَّافِعَةِ ، الَّتى تَدْفَعُ لِلْجَسَدِ ما فِيهِ صَلاحُهُ مِنَ الأَطْعِمَةِ والأَشْرِبَةِ ، وتَدْفَعُ عَنْهُ ما فِيهِ خُبْثُهُ وفَسادُهُ وضَرَرُهُ مِنَ الأَطْعِمَةِ والأَشْرِبَة .

عُمْرُ الإِنْسانِ وفُصُولُ السَّنَة :

إِنَّ الإِنْسانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، قَدْ قَسَّمَ اللّٰهُ بِحِكْمَتِهِ وبَدِيعِ صُنْعِهِ ، مُدَّةَ عُمْرِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ مَراحِل :

• **المَرْحَلَةُ الأُولَى** : يُسَمَّى فِيها الإِنْسانُ صَبِيًّا ؛ وهِيَ مِنْ يَوْمِ خُروجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ إِلى احْتِلامِهِ ، وخُروجِ الشَّعْرِ الأَوَّلِ فى وَجْهِه .

• **المَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ** : يُسَمَّى فِيها شابًّ ، وهِيَ احْتِلامُهُ إِلَى وَقْتِ ظُهُورِ الشَّيْبِ فى لِحْيَتِهِ ، وفى هَذهِ المَرْحَلَةِ يَبْلُغُ أُشُدَّهُ (عَقْلَهُ) ، ومِنْ وَقْتِ احْتِلامِهِ يُكَلَّفُ ، ويُعْرَضُ عَلَيْهِ ما فَرَضَ اللّٰهُ عَلَى عِبادِه .

• **المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ** : مِنْ يَوْمِ ظُهُورِ الشَّيْبِ فى لِحْيَتِهِ إِلَى وَقْتِ تَمامِ شَيْبِهِ وكَمالِهِ ، ويُسَمَّى فِي هَذهِ المَرْحَلَةِ كَهْلاً .

• **المَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ** : هِيَ مِنْ وَقْتِ اسْتِكْمالِ شَيْبِهِ ، إِلَى يَوْمِ خُرُوجِهِ مِنْ دارِ

الفَناءِ والغُرورِ ، إِلَى دارِ البَقاءِ والقَرارِ ، ويُسَمَّى شَيْخاً .

وكُلُّ مَرْحَلَةٍ مِنْ هَذهِ المَراحِلِ .. تَعْتَرِيهِ فِيها أَعْراضٌ وأَحْوال .. بِخِلافِ المَرْحَلَةِ الأُخْرَى ، وذَلِكَ قَدْ يُشابِهُ حالَ أَزْمِنَةِ السَّنَةِ وفُصُولِها :

• **فَفَصْلُ الرَّبِيعِ** : هُوَ حارٌّ رَطْبٌ ؛ وكذَلِكَ الإِنْسانُ أَوَّلُ مَرْحَلَةٍ مِنْ عُمْرِهِ الصِّبا ، وهُوَ هُناكَ حارٌّ رَطبٌ

• والزَّمانُ الثَّانِي مِنَ السَّنَةِ وهُوَ **زَمانُ الصَّيْف** : وهُوَ حارٌّ يابِسٌ ، وكَذَلِكَ الإِنْسانُ فى المَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ عُمْرِهِ وهِيَ الشَّبابُ ، وهُوَ هُناكَ حارٌّ يابِسٌ أَيْضاً .

• والزَّمانُ الثَّالِثُ مِنَ السَّنَةِ وهُوَ **زَمانُ الخَرِيف** : وهُوَ بارِدٌ يابِسٌ ، وكَذَلِكَ الإِنْسانُ فى المَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِهِ وهِيَ الكُهُولَة .

• والزَّمانُ الرَّابِعُ مِنَ السَّنَةِ وهُوَ **زَمانُ الشِّتاء** : وهُوَ بارِدٌ رَطبٌ ، وكَذَلِكَ الإِنْسانُ فى المَرْحَلَةِ الرَّابِعَةِ وهِيَ الشَّيْخُوخَة .

العَلاقَةُ بَيْنَ القَمَرِ وأَحْوالِ الإِنْسان :

إِنَّ الحالَ فى الشُّهُورِ والأَهِلَّةِ يُشابِهُ حالَ الإِنْسانِ فى مَراحِلِ عُمْرِهِ وحالَ السَّنَةِ فى فُصُولِها ، وذَلِكَ بِحَسَبِ بُعْدِ القَمَرِ وقُرْبِهِ مِنَ الشَّمْسِ ، فَإِنَّ القَمَرَ تَعْتَرِيهِ أَحْوالٌ مِنْ ذَلِكَ :

• فَأَوَّلُ دَلالَةٍ بَعْدَ انْفِصالِهِ عَنِ الاجْتِماعِ مَعَ الشَّمْسِ أَنْ يَقْطَعَ سَبْعَةَ مَنازِلَ فى سَبْعَةِ أَيَّامٍ ولَيالِيها الأُولَى مِنَ الشَّهْرِ ، فَيَكُونُ القَمَرُ فى تِلْكَ السَّبْعَةِ الأُولى حارّاً رَطْباً ، مُحَرِّكاً لِلرُّطُوبَةِ والحَرارَةِ ، ومُقَوِّيها فى أَبْدانِ الإِنْسانِ والحَيَوانِ ، وأَجْسادِ النَّباتِ ، وضُرُوبِ المَعادِنِ ، لَكِنْ تَحْرِيكُهُ لِلرُّطُوبَةِ أَكْثَرُ ، والحَرارَةِ أَقَلُّ .

• ومِنْ تَمامِ سَبْعَةِ أَيَّامِ الأُولَى ، إِلَى كَمالِ سَبْعَةِ أَيَّامِ الثَّانِيَةِ مِنَ الشَّهْرِ ، يَكُونُ فيها بِمَنْزِلَةِ الشُّبُوبِيَّةِ فى الإِنْسانِ حارّاً يابِساً ؛ مُحَرِّكاً لِلحَرارَةِ واليَبَسِ فى أَبْدانِ بَنِي آدَمَ ، وأَبْدانِ الحَيَوانِ ، وأَجْسادِ النَّباتِ ، وضُروبِ المعادِن .

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

• ومِنْ كَمالِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ الثَّانِيَةِ ، إِلَى وَقْتِ السَّبْعَةِ أَيَّامٍ الثَّالِثَةِ مِنَ الشَّهْرِ ، فَيَكُونُ القَمَرُ بارِداً يابِساً ، مُحَرِّكاً للبُرودَةِ واليَبَسِ فى أَبْدانِ بَنِي آدَمَ والحَيَوانِ ، وأَجْسادِ النَّباتِ وضُروبِ المَعادِن .

• ومِنْ كَمالِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ الثَّالِثَةِ ، إِلَى كَمالِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ الرَّابعَةِ مِنَ الشَّهْرِ ، فَيَكُونُ القَمَرُ فِيها بِمَنْزِلَةِ الشَّيْخُوخَةِ فى الإِنْسانِ ، وبِمَنْزِلَةِ الشِّتاءِ فى السَّنَةِ ، بارِداً رَطْباً ، مُحَرِّكاً لِلْبُرودَةِ والرُّطُوبَةِ فى أَبْدانِ بَنِي آدَمَ والحَيَوانِ ، وأَجْسادِ النَّباتِ ، وضُروبِ المَعادِنِ .

فَتكُونُ فى مُدَّةِ افْتِراقِهِ مَعَ الشَّمْسِ ، إِلَى وَقْتِ اسْتِنارَتِهِ (استنارَتِهِ بِشُعاعِها) ، ثَمانِيَةٌ وعِشْرونَ يَوْماً .

• فإذا اجْتَمَعَ فى دَقيقَةٍ مَعَ الشَّمْسِ ، فَهِيَ لِلْعُمْرِ حالَةٌ خامِسَةٌ ، وهِيَ عِنْدَ المُحَقِّقينَ أَفْضَلُ أَحْوالِهِ ، وأَكْثَرُها قُوَّةً لِفِعْلِهِ ، كَما أَنَّ الإِنْسانَ المُؤْمِنَ أَفْضَلُ أَوْقاتِهِ يَوْمَ لِقاءِ رَبِّهِ فى دارِ القَرارِ ، وانْصرافِهِ وخُروجِهِ مِنْ دارِ الغُرورِ الَّتى لا بَقاءَ لَها .

ولَقَد رَأَيْتُ لِلْيُونانِيِّينَ ولِلْمَصْرِّيينَ وحُكَماءِ الهِنْدِ كَلاماً فى هَذا الشَّأْنِ ؛ فَإِنَّهُم يَرَوْنَ أَنَّ اجْتِماعَ القَمَرِ مَعَ الشَّمْسِ ، أَقْوَى أَحْوالِ القَمَرِ ، ولا يَقُولُونَ كما ذَكَرْنا أَنَّهُ أَفْضَلُ أَحْوالِها وأَكْثَرُها قُوَّةً ، لأَنَّ عِنْدَهُم أَفْضَلَ أَحْوالِ القَمَرِ مِنَ الشَّمْسِ هُوَ امْتِلاؤُهُ مِنَ النُّورِ ، وأَمَّا إِذا اجْتَمَعَ مَعَ الشَّمْسِ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَقْوَى فَقَط .

وقَدْ أَجْمَعَ أَرْبابُ البصائِرِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ كُلِّهِمْ : أَنَّ أَفْضَلَ أَحْوالِ القَمَرِ ، فى شَكْلِهِ وبُعْدِهِ وقُرْبِهِ مِنَ الشَّمْسِ هُوَ إِذا اجْتَمَعَ مَعَها فى دَقيقَةٍ واحِدَةٍ ، وأَنَّ هَذِهِ الحالَةَ لَهُ مِنَ الشَّمْسِ هِيَ حالَةٌ خامِسَةٌ ، وحُكْمُها غَيْرُ حُكْمِ الأَرْبَعَةِ ، وأَنَّها أَجَلُّ أَحْوالِهِ وأَقْوالِهِ وأَفْعالِهِ ، وأَنَّهُ يَفْرَحُ بِاجْتِماعِهِ مَعَ الشَّمْسِ ، كَما يَفْرَحُ المُسافِرُ إِذا رَجَعَ مِنْ سَفَرِهِ سالِماً إِلَى وَطَنِهِ ، أَوْ كالإِنْسانِ المُؤْمِنِ البَصيرِ الفارِحِ بِلِقاءِ رَبِّهِ وقَرارِهِ عِنْدَ سَيِّدِهِ ، وخُروجِهِ مِنْ دارِ المَلاهِي والمَشاغِلِ .

وبِهَذهِ الأَحْوالِ الخَمْسِ الَّتى وَصَفْناها لِلْقَمَرِ مِنَ الشَّمْسِ ، تُشاكِلُها جَمِيعُ الحَيوانِ والنَّباتِ والمَعْدَنِ ، وكَذَلِكَ تُشاكِلُ حالَ القَمَرِ أَحْوالُ الحَيواناتِ فى أَسْنانِها مِنَ الصِّبا والشُّبُوبِيَّةِ والكُهُولِيَّةِ والشَّيْخُوخَةِ ، وكَذَلِكَ قَدْ تُشاكِلُهُ أَرْبَعُ جِهاتٍ الَّتى تُسَمَّى زَوايا العالَمِ وهِىَ : المَشْرِقُ والمَغْرِبُ ، والجَنُوبُ والشَّمالُ ، وقَدْ تَهبُّ مِنْ هَذهِ الجِهاتِ الأَرْبَعِ رِياحٌ أَرْبَعُ ، وقَدْ تُشاكِلُ هَذهِ الرِّياحَ أَرْبَعَةُ أَخْلاطٍ الَّتى فى بَدَنِ الإِنْسان .

فَهَذهِ هِىَ المَعانِي كُلُّها .. وهَذهِ هِىَ الوجُوهُ بِأَعْيانِها .

مَعْرِفَةُ الإِنْسانِ ضَرورَةٌ عَلَى طَرِيقِ مَعْرِفَةِ اللّه :

إِنَّ الإِنْسانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، جَعَلَ اللّهُ لَهُ خَمْسَ مَواطِنَ ، يَعْمُرُها ويُسافِرُ مِنْ بَعْضِها إِلَى بَعْضٍ ، حَتَّى يَبْلُغَ مَوْطِنَ اسْتِقْرارِهِ ، وهُوَ المَوْطِنُ الخامِس :

- **أَوَّلُ هَذهِ المَواطِن** : عالَمُ الغَيْبِ وهُوَ الأَصْلابُ ، إِلَى صُلْبِ الأَبِ ورَحِمِ الأُمِّ .
- **والثَّاني مِنَ المَواطِنِ** : دارُ الدُّنْيا .
- **والثَّالِثُ** : القَبْرُ والبَرْزَخُ .
- **والرَّابِعُ** : البَعْثُ والحَشْرُ والحِسابُ والمِيزانُ والصِراطُ .
- **والخامِسُ** : الجَنَّةُ والنَّار .

ولْنَعْلَمْ بِالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ أَنَّ اللّهَ تَعالَى جَعَلَ نَفْسَ كُلِّ إِنْسانٍ بَيْنَ أَرْبَعَةِ آفاق ؛ أُفُقانِ مِنْها نَيِّرانِ ، فاضِلانِ ، مَهْدِيَّانِ ، وهُما : الهَيُولِي الأُولَى ، والعَقْل (والمُرادُ بِلَفْظِ الهَيُولِي هُوَ الرُّوح) .

وأُفُقانِ تَحْتَهُما مُظْلِمانِ وهُما : الطَّبِيعَةُ والعُنْصُرُ الجُرْمِي الجِسْمانِي .

فالنَّفْسُ الَّتي يَغْلُبُ عَلَيْها الأَعْلَيانِ تُعْتَبَرُ نَفْسٌ نَيِّرَةٌ فاضِلَةٌ سَعِيدَةٌ ، ومَسِيرُها ومُسْتَقَرُّها الفِرْدَوسُ الأَعْلَى ، الَّذي فيهِ انْبَعَثَتْ ومِنْهُ اسْتَمَدَّت .

والنَّفْسُ الَّتى يَغْلُبُ عَلَيْها الأَسْفَلانِ تُعْتَبَرُ نَفْسٌ مُظْلِمَةٌ رَذِيلَةٌ ، مَسِيرُها

ومُسْتَقَرُّها النَّارُ السُّفْلَى الَّتى عَنْها انْبَعَثَتْ ومِنْها اسْتَمَدَّت .

والإنْسانُ المُؤْمِنُ يُوقِنُ بإخْبار رُسُلِ اللهِ : أَنَّ اللهَ خَلَقَ عَوالِمَ المَلائِكَةِ كُلَّها خَيْرٌ مَحْضٌ ، وخَلَقَ كَثِيراً مِنْ عَوالِمَ الجِنِّ ، وعَوالِمَ الشَّياطِينِ كُلَّها شَرٌّ مَحْضٌ ، وخَلَقَ الإنْسانَ جامِعٌ لِلْخَيْر والشَّرِّ .

فَمَنْ غَلَبَ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ اقْتَرَبَ مِنْ عالَمِ المَلائِكَةِ ، ومَنْ غَلَبَ شَرُّهُ عَلَى خَيْرِهِ كانَ شَرُّهُ أَقْوَى مِنَ الشَّرِّ المَحْضِ ، الَّذى هُوَ شَرُّ الجِنِّ والشَّياطِين .

ويَعْلَمُ كَذَلِكَ أَنَّ القُوَّةَ الَّتى هِىَ فى الإنْسانِ تِسْعَةٌ ؛ خَمْسَةٌ مِنْها فى ظاهِرِ جِسْمِهِ وأَرْبَعَةٌ فى باطِنِهِ ، (فالخَمْسَةُ الظاهِرَةُ) هِىَ : قُوَّةُ البَصَرِ ، وقُوَّةُ السَّمْعِ ، وقُوَّةُ الذَّوْقِ ، وقُوَّةُ الشَّمِّ ، وقُوَّةُ اللَّمْسِ .. وأَمَّا (الأَرْبَعَةُ الباطِنَةُ) فَهِىَ : قُوَّةُ حَرَكاتِ المَفاصِلِ والعَضَلِ والعَصَب ، وقُوَّةُ تَحَلُّلِ الأَشْياءِ وتَطَبُّعِها فِيهِ كَما تَنْطَبِعُ صُورَةُ الشَّمْسِ فى المِرْآةِ ، وقُوَّةٌ بِها يَتَفَكَّرُ فى مُهِمَّاتِهِ ، وقُوَّةٌ يَذْكُرُ بِها مَوْلاهُ أَنْ وَفَّقَهُ لِمَرْضاتِهِ .

وفِيهِ سَجِيَّتان .. بِهِما تَزْدادُ القُوىَ التِّسْعَةُ أَوْ يَعْتَرِيها النُّقْصان .. وهُما يَتَعاقَبانِ عَلَى كُلِّ إنْسان : الصِّحَّةُ والسَّقَمُ ، والحُبُّ فى الأَشْياءِ والكَراهَةُ لَها .

زيادة .. وإفادة :

وبِهَذا اسْتَوْعَبَتِ الأَذْهانُ بِأَنَّ الإنْسانَ كَما يَقُولُ الحُكَماء : مَجْمَعُ العَجائِب ومَحَلُّ الغَرائِب .

فَهُوَ مَعْدِنُ العَقْلِ والحِكْمَةِ والتَّدَبُّرِ والاعْتِبار ، كَما أَنَّهُ مَرْكَزُ الشَّهْوَةِ والحَمِيَّةِ والهَوَى .(١)

فِيهِ الرُّوحُ الصافِيةُ المُقِرَّةُ بِالرُّبوبِيَّةِ والتَّوْحيدِ ، الدَّاعِيَةُ إِلَى الحَقِّ والخَيْرِ ، وفِيهِ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ ، النَّزَّاعَةُ لِلباطِلِ والشَّرِّ .

رَوى ابْنُ عَبْدالبَرِّ فى التَّمْهِيد : (أَنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ آدمَ وجَعَلَ فِيهِ نَفْساً ورُوحاً

---

(١) الإنْسانُ والإسْلامُ لـ (محمد الطاهر الحامدي) .

فَمِنَ الرُّوحِ عَفافُهُ وفَهْمُهُ وحِلْمُهُ وسَخاؤُهُ ووَفاؤُهُ ، ومِنَ النَّفْسِ شَهْوَتُهُ وطَيْشُهُ) .

والمُرادُ (واللهُ أَعْلَمُ) أَنَّ النَّوْعَ الآدَمِيَّ فِيهِ جَميعُ ذَلِكَ ، ومَنِ اسْتَقْرَأَ أَحْوالَ النَّاسِ رَأَى العَجَبَ العُجابَ وشاهَدَ مِنْ تَفاوُتِهِم وتَبايُنِ أَحْوالِهِم ما يكادُ يَبْلُغُ حَدَّ التَّناقُضِ ؛ فَمِنْهُم مَنْ تَقْوَى رُوحُهُ وتَغْلُبُ مَلَكِيَّتُهُ فَيَرْتَقِى فى دَرَجاتِ الكَمالِ حَتَّى يَصِلَ أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، ومِنْهُم مَنْ تَقْوَى نَفْسُهُ وتَغْلُبُ عَلَيْهِ بَهِيمِيَّتُهُ فَيَنْحَدِرُ فى الضَّلالِ ويَرْتَطِمُ فى أَوْحالِ الرَّذائِلِ حَتَّى يَنْحَطَّ إِلَى أَسْفَلِ سافِلِينَ ويَكُونَ شَرًّا مِنَ الدَّوابِّ :﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١) وهَؤُلاءِ هُمْ قَبْضَةُ جَهَنَّمَ ، وسُكَّانُ الجَحِيمِ :﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾(٢)

ومِنْهُم مَنْ يكُونُ عَقْلُهُ القاهِرُ لِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ ؛ كالرَّجُلِ الَّذي تَمكَّنَت مِنْهُ عَقِيدَةٌ خاصَّةٌ حَتَّى فَنِيَتْ فِيها نَفْسُهُ ، وامْتَلأَ بِها قَلْبُهُ ، وكما هُوَ شَأْنُ المُؤْمِنِ حَقَّ الإِيمانِ ، الَّذي غَلَبَتْ لَذَّةُ اليَقينِ عَلَى عَقْلِهِ فانْقَلَبَ حُبُّهُ وبُغْضُهُ وشَهْوَتُهُ إِلَى ما يَأْمُرُ بِهِ الشَّرْعُ فَلا يَبْغِي عَنْ حُكْمِ الشَّرْعِ بَدِيلاً .

ومِنْهُم مَنْ إِذا أَصابَهُ غَضَبٌ ، أَو هاجَ فى قَلْبِهِ طَلَبُ مَنْصِبٍ عَظِيمٍ يَسْتَهِينُ فى جَنْبِهِ باللَّذَّاتِ (ورُبَّما تَعَرَّضَ لِمِثْلِ هَذا شَهْوَةً وتَدْعُوهُ إِلَيْها نَفْسُهُ أَشَدَّ دَعْوَةً) فَيُجاهِدُ نَفْسَهُ مُجاهَدَةً عَظِيمَةً ولا يُطِيعُها فِيما دَعْتُهُ إِلَيْهِ ، ورُبَّما يَصْبِرُ عَلَى الجُوعِ والعُرِي لا يَسْأَلُ أَحداً شَيْئاً لِما جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الأَنَفَةِ والعِزَّة .

ومِنْهُم مَنْ تَكُونُ نَفْسُهُ هِيَ القاهِرَةُ عَلَى عَقْلِهِ فإِذا عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ اقْتَحَمَ فِيها وإِنْ كانَ هُناكَ أَلْفُ عار ، ولا يَخْشَى ما يُصِيبُهُ مِنَ المَذَلَّةِ والعار .

ورُبَّما يَبْدو لِهذا الإِنْسانِ مَطْعَمٌ هَنِيٌّ أَو تَسْنَحُ لَهُ شَهْوَةٌ جِنْسِيَّةٌ يَعْلَمُ أَنَّ فِيها

---

(١) سُورَةُ الأَنْفال ، الآيَة ٢٢ .
(٢) سُورَةُ الأَعْرافِ ، الآيَة ١٧٩ .

مَضَرَّةٌ مِنْ جِهَةِ الطِّبِّ أَو مِنْ جِهَةِ سَطْوَةِ بَعْضِ النَّاسِ فَيخافُ ويَرْتَعِشُ ثُمَّ يَعْمِيَهِ الهَوَى فَيَقْتَحِمُ فى داعِيَةِ النَّفْسِ ويَنْسَى عَواقِبَ ما تَجْنِي يَداه .

بَلِ الشَّخْصُ الواحِدُ رُبَّما يَتَقَلَّبُ قَلْبُهُ وتَخْتَلِفُ أَحْوالُهُ بَيْنَ حِينٍ وحِينٍ كَما قالَ سَيِّدُنا (حُذَيْفَةُ) رضي الله عنه :(يَأْتِي عَلَى القَلْبِ ساعَةٌ يَمْتَلِىءُ بِالإِيمانِ حَتَّى لا يَكُونَ لِلنِّفاقِ فيهِ مَغْرَزُ إِبْرَةٍ ، ويَأْتِي عَلَيْهِ ساعَةٌ يَمْتَلِىءُ بِالنِّفاقِ حَتَّى لا يَكُونَ لِلإِيمانِ فِيهِ مَغْرَزُ إِبْرَة) .

ومِنْ كَلامِ مَوْلانا الإِمامِ (عَلِىٍّ) رضي الله عنه وكَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ : (لَقَد عَلِقَ بِنياطِ هَذا الإِنْسانِ بِضْعَةٌ هِىَ أَعْجَبُ مِنْهُ وذلِكَ القَلْبُ ، ولَهُ مَوادُّ مِنَ الحِكْمَةِ وأَضْدادٌ لَها مِنْ خِلافِها ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ ، وإِنْ هاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الحِرْصُ ، وإِنْ مَلَكَهُ اليَأْسُ قَتَلَهُ الأَسَفُ ، وإِنْ عَرَضَ لَهُ الغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الغَيْظُ ، وإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضا نَسِىَ التَّحَفُّظَ ، وإِنْ نالَهُ الخَوْفُ شَغَلَهُ الحَذَرُ ، وإِن اتَّسَعَ لَهُ الأَمْنُ اسْتَلَبَتْهُ العِزَّةُ ، وإِنْ أَفادَ مالاً أَطْغاهُ الغِنَى ، وإِنْ أَصابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الجَزَعُ ، وإِنْ عَضَّتْهُ الفاقَةُ شَغَلَهُ البَلاءُ ، وإِنْ جَهِدَهُ الجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ ، وإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ البِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ لَهُ مُضِرٌّ ، وكُلُّ إِفْراطٍ لَهُ مُفْسِدٌ) .

وقَدْ أَشارَ لِذلِكَ كُلِّهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ فِيما أَخْرَجَهُ البُخارِىُّ فى صَحِيحِهِ (النَّاسُ مَعادِنُ كَمعادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ خِيارُهُم فى الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُم فى الإِسْلامِ إِذا فَقُهُوا) .

قالَ القَرافِي فى الفُروقِ : يَعْنِي أَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فى سَجاياهُم وخَلْقِهِمْ ، وطبائِعِ نُفُوسِهِم وأَمْزِجَتِهِم .

فَمِنْهُم الجَبانُ لِلغايَةِ ، والشُّجاعُ لِلْغايَةِ ، ومِنْهُم بَيْنَ بَيْن .

وكَذلِكَ فى الشَّرِّ والخَيْرِ والكَرمِ والبُخْلِ والفَهْمِ وقِياسِ الغائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ ، والحَدْسِ والتَّخْمِينِ ، والتَّأْثِيرِ بالهِمَّةِ فى الغَيْرِ . كَما أَنَّ المعادِنَ كَذلِكَ مُخْتَلِفَةٌ فى جَواهِرِها وأَشْكالِها وخَواصِّها . فَأَهْلُ السَّجايا الكَرِيمَةِ والطِّباعِ الخَيْرِيَّةِ فى

الجاهِليَّةِ هُم كَذَلِكَ فى الإِسْلامِ إذا عَرَفُوا الحَقَّ وعَمِلُوا بِهِ .

ومِنْ هُنا قِيلَ إنَّ الإِنْسانَ أَنْمُوذَجُ الكَوْنِ ونُسْخَةُ الوجُودِ مِنْ عَرْشِهِ إلَى فَرْشِهِ ، قَدْ رَكَّبَهُ اللّهُ تَعالَى تَرْكِيباً مَحْسُوساً ومَعْقُولاً جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ ظُلْمانيٍّ كَثِيفٍ وهُوَ الجِسْمُ ، ونَوْرانِيٍّ لَطِيفٍ وهُوَ الرُّوحُ ، وأَوْدَعَ فِيهِ قُوَىً ظاهِرَةً وأُخْرَى باطِنَةً وخَلَطَ فِيهِ العَناصِرَ الأَرْبَعَةَ : الماءَ والتُّرابَ والنَّارَ والهَواء .. وجَعَلَ فِيهِ مِنْ صِفاتِ المَلائِكَةِ العَقْلَ والمَعْرِفَةَ والعِبادَةَ ، ومِنْ صِفاتِ الشَّياطِينِ الإِغْواءَ والتَّمَرُّدَ والطُّغْيانَ ، ومِنْ صِفاتِ الحَيواناتِ أَنَّهُ فى حالةِ الغَضَبِ يَكُونُ أَسَداً ، وفى حالةِ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ يَكُونُ خِنْزِيراً لا يُبالِى أَيْنَ يُلْقِى نَفْسَهُ ، وفى حالَةِ الحِرْصِ عَلَى الدُّنْيا والشَّرَهِ يَكُونُ كَلْباً ، وفى حالَةِ الاحْتِيالِ والخِداعِ يَكُونُ ذِئْباً .

ومِنْ صِفاتِ النَّباتِ والأَشْجارِ أَنَّهُ يَكونُ فى مَبْدَئِهِ غَضّاً طَرِيّاً مُتَرَعْرِعاً وفى آخِرِهِ يابِساً أَسْوَد ...

ومِنْ صِفاتِ السَّماءِ أَنَّهُ مَحَلُّ الأَنْوارِ ومَجْمَعُ المَلائِكَةِ ، ومِنْ صِفاتِ الأَرْضِ أَنَّهُ مَحَلٌّ لِنَباتِ الأَخْلاقِ والطِّباعِ ، ومِنْهُ اللِّينُ والخَشِنُ .

ويُقالُ إنَّ رَأْسَهُ كالعَرْشِ ، وصَدْرَهُ كالكُرْسِيِّ ورُوحَهُ كالشَّمْسِ ، وعَقْلَهُ كالقَمَرِ (يَبْدو فى أَوَّلِهِ صَغيراً ثُمَّ يَكْبُرُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى يَكْمُلَ ثُمَّ يَعُودُ صَغيراً ثُمَّ يَكْبُرُ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى يَكْمُلَ ثُمَّ يَعُودُ صَغيراً إذا بَلَغَ الإِنْسانُ أَرْذَلَ العُمُرِ) ، وحَواسُّهُ كالكَواكِبِ ، وعَضَلاتُهُ كالأَرْضِ ، وعِظامُهُ كالجِبالِ ، وعُرُوقُهُ المَمْلُوءَةُ بِالدَّمِ كالأَنْهارِ الجارِيَةِ بِالماءِ ، وسَوائِلُهُ المُخْتَلِفَةُ الطُّعومُ : (ماءُ فَمِهِ العَذْبُ ، وماءُ عَيْنِهِ المِلْحُ ، وماءُ أُذُنِهِ المُرُّ) : كالمِياهِ العَذْبَةِ والمِلْحَةِ فى الأَرْضِ .

وشَعْرُهُ كالنَّباتِ المُخْتَلِفِ الأَلْوان ، وقَلْبُهُ خَزانَةُ سِرِّهِ ، ولِسانُهُ تَرْجُمانُ عَقْلِهِ ، وعَيناهُ حارِسَتان ، وأُذُناهُ مُخْبِرَتان ، ورِجْلاهُ مَطِيَّتان ، ويَداهُ خادِمَتان .

فَكأَنَّ العالَمَ وجَمِيعَ ما فِيهِ عِلْوِيَّهُ وسُفلِيَّهُ شَرْحٌ لِمَتْنِ الإِنْسانِ ، وكُلَّ ما فى الإِنْسانِ يُمَثِّلُ جُزْءاً مِنَ العالَم .

ولِلّهِ دَرُّ القائِل :

يا سابِقاً فى مَوْكِبِ الإبْداعِ ❋ ولاحِقاً فى جَيْشِ الاخْتِراعِ

اعْقَلْ فَأَنْتَ نُسْخَةُ الوجُودِ ❋ لِلّهِ ما أَسْماكَ مِنْ مَوْجُودِ

أَلَيْسَ فِيكَ العَرْشُ والكُرْسِيُّ ❋ والعالَمُ العُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ

ما الكونُ إِلاَّ رَجُلٌ كَبِيرٌ ❋ وأَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرٌ



الإِسْلام .. دِينُ الفِطْرَةِ المُلائِمُ لِسائِرِ الأَنام

إِنَّ الإِسْلامَ جاءَ بِمَجامِعِ السَّعاداتِ كُلِّها لِجَميعِ أَفْرادِ النَّوْعِ الإِنْسانِي ، فَلَمْ يأْمُرْ مَنْ يَعْتَنِقُهُ بِالعَمَلِ لإِسْعادِ أُمَّتِهِ فَحَسْب ، بَلْ لإِسْعادِ الإِنْسانِيَّةِ عامَّةً والرَّحْمَةِ بِكُلِّ فَرْدٍ وبِكُلِّ مَخْلُوق .

أَمَّا الَّذينَ يَرْمُونَ الدِّينَ بِأَنَّ فِيهِ أَشْياءَ لا تُلائِمُ العَصْرَ ولا تَسيغُها المَدَنِيَّةُ الحاضِرَةُ فَهُم جُهَّالٌ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ وبُعْدِ نَظَرِهِ فى عِلاجِ النَّاسِ بِما يُقَوِّمُ اعْوِجاجَهُم ويُصْلِحُ أَوَدَهُمْ ، وما مَثَلُ ذَلِكَ عِنْدِي إِلاَّ كَمِثالِ مَرِيضٍ فَسَدَ مَزاجُهُ وضَعُفَتْ قابِلِيَّتُهُ فَأَصْبحَ غَيْرَ قابِلٍ لِلدَّواءِ ولا واثِقَ بِالأَطِبَّاءِ ، أَو كَمِثالِ طِفْلٍ لا يَعْرِفُ مِنَ الدُّنْيا غَيْرَ شَهَواتِهِ ولَوْ أَتَتْ عَلَى الأَخْضَرِ واليابِسِ فَهُوَ لا يَعْرِفُ لِلْحِكْمَةِ مَعْنًى ولا لِلْحُكَماءِ قَدْراً فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى ما يُشِيرونَ بِهِ نَظَرَ الهازِيءِ المُسْتَخِفِّ لأَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْرِكَ مَرامِيَهُم ولا بُعْدَ غاياتِهِمْ ولا أَسْرارَ حِكْمَتِهِمْ .

ولْنَهْجِمْ بِكَ عَلَى أَصْعَبِ شَيْءٍ فى الدِّينِ الإِسْلامِي عِنْدَ هَؤُلاءِ المُتَفَيْهِقِينَ مِنْ ذَوِي الحَضارَةِ الجَدِيدَة :

أَصْعَبُ شَيْءٍ جاءَ بِهِ الدِّينُ الإِسْلامِيُّ فِى نَظَرِ هَؤُلاءِ هُوَ الحُدودُ ، وأَشَدُّها رَجْمُ الزَّانِي المُحْصَنِ وقَطْعُ يَدِ السَّارِق .

ولْنُبَيِّنْ لَكَ مِنْ أَسْرارِهِما ما يَجْعَلُكَ تَنْطِقُ بِأَنَّ الدِّينَ الإِسْلامِيَّ ما جاءَ إِلاَّ بِالحِكْمَةِ البالِغَةِ الَّتي بِها رُقِيُّ العُمْرانِ ، وسَعادَةُ بَنِي الإِنْسان .

ولْنَشْرَحْ لَكَ شَيْئاً مِنْ مَضارِّ الزِّنَى ثُمَّ نُعْقِبُهُ بِبَيانِ الحِكْمَةِ فِى مَشْرُوعِيَّةِ رَجْمِ الزَّانِي المُحْصَنِ فَنَقُولُ : إِنَّ فِى الزِّنا مَضارَّاً كَثِيرَةً ورُبَّما أَدَّى إِلَى القَتْلِ وكَثِيراً ما كانَ ذَلِكَ لِمَزِيدِ الغَيْرَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ولِما يَلْحَقُ أَهْلَ المَرْأَةِ وزَوْجِها مِنَ العارِ وما يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إِفْسادِها عَلَى زَوْجِها وسُوءِ عِشْرَتِها لَهُ أَو فُراقِها وفُراقِ أَوْلادِها وما فِيهِ مِنْ إِفْسادِ هَذا الزَّانِي عَلَى زَوْجَتِهِ العَفِيفَةِ فَضْلاً عَمَّا وَراءَ ذَلِكَ

مِنْ ضَياعِ الأَنْسابِ المُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ التَّناصُرِ ، وما فِيهِ مِنْ غِشِّ الغَيْرِ فِى النَّسَبِ الكاذِبِ وتَمْليكِ الأَمْوالِ لِغَيْرِ مُسْتَحِقِّيها عِنْدَ التَّوْرِيثِ وضَياعِ الوَلَدِ لِعَدَمِ مَنْ يُرَبِّيهِ حَقَّ التَّرْبِيَةِ ولُصُوقِ العارِ بِهِ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ أَبِيهِ وسُوءِ القالَةِ فِيهِ طُولَ عُمْرِهِ ولُزومِ المَذَلَّةِ والانْكِسارِ لَهُ فِيما بَيْنَ النَّاسِ ، بَلِ انْتِشارِ الأَمْراضِ الخَطِرَةِ الَّتى تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وتُورَّثُ عَنْهُ فِى أَوْلادِهِ وأَوْلادِهِ وأَوْلادِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَفاسِدِ الَّتى يَطُولُ شَرْحُها .

وبَعْدُ : فَلَقَدْ عَلِمْنا ما يَتَرَتَّبُ عَلَى فَسادِ البَيْتِ عِنْدَ تَطَلُّعِ المَرْأَةِ لِغَيْرِ زَوْجِها ، واتِّخاذِها أَخْداناً فِى الخَفاءِ وما يَلْحَقُ الزَّوْجُ مِنَ الغَيْرَةِ الَّتي كَثِيراً ما تُؤَدِّي إِلَى قَتْلِ ذَلِكَ المُنْتَهِكِ لِحُرْمَتِهِ أَوْ قَتْلِهِ هُوَ فِى ذَلِكَ السَّبِيلِ وما يَلْحَقُ أَهْلَها مِنَ العارِ الَّذي كَثِيراً ما يُؤَدِّي إِلَى قَتْلِها .

وقَدْ كانَ هَذا مِنْ أَسْبابِ وَأْدِ البَناتِ فِى الجاهِلِيَّةِ ، والغَيْرَةُ فِى هَذا طَبِيعِيَّةٌ حَتَّى فِى الحَيَوانات .

فَإِذا قَضَيْنا عَلَى تِلْكَ الجَرِيمَةِ الَّتي تُؤَدِّي إِلَى هَذِهِ المَفاسِدِ كُلِّها بِقَتْلِ رَجُلٍ ثَبَتَ عَلَيْهِ الزِّنَى وهُوَ مُحْصَنٌ ، نَكُونُ قَدِ ارْتَكَبْنا أَخَفَّ الضَّرَرَيْنِ وسَلَكْنا طَرِيقَ ذَلِكَ المَثَلِ العَرَبِيِّ المَعْروفِ : (القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ) .

مَعَ أَنَّ ثُبُوتَ الجَرِيمَةِ الَّتي تُوجِبُ الرَّجْمَ يَكادُ يَكُونُ مُسْتَحِيلاً عادَةً ، ولَكِنَّ حُصُولَهُ مَرَّةً واحِدَةً فِى قُطْرٍ مِنَ الأَقْطارِ يُوجِبُ حِفْظَ نُفُوسٍ لا عَدَدَ لَها ، وصِيانَةَ أَعْراضٍ لا تَدْخُلُ تَحْتَ الحَصْرِ وشَرَفِ أُسَرٍ لا يَعْلَمُها إِلاَّ اللّهُ عَنْ أَنْ تَقَعَ فِى العارِ والفَضِيحَةِ فَضْلاً عَمَّا يُدَهْوِرُ المُجْتَمَعَ كُلَّهُ عِنْدَما تَفْشُو فِيهِ المُنْكَراتُ لأَنَّ الأُمَمَ بِأَخْلاقِها وآدابِها ، ولأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَفْشُو فِيها المَعاصِى تَسْقُطُ مِنْ عَيْنِ اللّهِ تَعالَى فَيَحِيقُ بِها البَلاءُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ ولا تَعْلَمُ : ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾(١) عَلَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ قَدْ أَتَتْ فِى هَذا بِالعَجَبِ العُجابِ فَمَلأَتْ قُلُوبَ المُجْرِمِينَ خَوْفاً ودُعْراً ، وفِى الوَقْتِ نَفْسِهِ شَرَطَتْ لِلْحَدِّ

---

(١) سُورَةُ الشُّورَى (مِنَ الآيَة ٣٠) .

شُروطاً لا تَكادُ تَتحقَّقُ إلا فِى النَّادِرِ الَّذي لا حُكْمَ لَهُ بَلْ لا يَكادُ يُوجَدُ إلاَّ فِى ظَرْفٍ غَيْرِ عادِيٍّ .

فَأَنْتَ تَراها ؛ **أَوَّلاً تَقُولُ** : (ادْرَءُوا الحُدودَ بِالشُّبُهاتِ) .

وثانِياً : تَشْتَرِطُ فِى ثُبُوتِ الزِّنَى أَرْبَعَةَ شُهُودٍ (مَعَ أَنَّها تَكْتَفِي فِى إثْباتِ القَتْلِ بِشاهِدَينِ) .

وثالِثاً : تُوجِبُ حَدَّ القَذْفِ عَلَى الشُّهُودِ إذا لَمْ يَكُونُوا أَرْبَعَةً أَوْ لَمْ تَتِمَّ شَهادَتُهُم بِأَىِّ وَجْهٍ مِنَ الوجُوه .

ورابِعاً : تَشْتَرِطُ عَلَيْهِم أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ كالمِرْوَدِ فِى المَكْحَلَةِ وأَنَّى لَهُم ذَلِكَ ، والحادِثَةُ مِمَّا لا يَكونُ إلاَّ فِى أَخْفَى الخَفاءِ حَتَّى فِى الحَلالِ فَضْلاً عَنِ الحَرامِ ؟.

وهَبْ أَنَّ واحِداً رَأَى ذَلِكَ أَو اثْنَيْنِ فَكَيْفَ يَتَيَسَّرُ رُؤيَةُ أَرْبَعَةٍ فِى وَقْتٍ واحِدٍ ؟

(اللهُمَّ إلاَّ إذا كانَ هَذا جِهاراً نَهاراً عَلَى قارِعَةِ الطَّرِيق) ، وهَبْ أَنَّهُم رَأَوْهُ مَعَها أَو رَأَوْهُما مُتَجَرِّدَيْنِ فِى فِراشٍ واحِدٍ ، فَكُلُّ ذَلِكَ غَيْرُ كافٍ ولا مُوجِبٍ لِلْحَدِّ بَلْ عَلَى الشُّهُودِ الَّذينَ شَهِدوا بِالزِّنَى حَدُّ القَذْف .

فَمَنْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِهَذا المَأْزَقِ الَّذي لا يَنْتَهي غالِباً إلاَّ بِحَدِّهِ هُوَ ؟ وإذا وَثَقَ مِنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَثِقُ بِالثَّلاثَةِ الباقِيَةِ مِنَ الشُّهُود ؟ وكَيْفَ يَتَأَتَّى لَهُم جَمِيعاً أَنْ يَضْبِطُوا هَذهِ الرُّؤْيَةَ ؟ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ غَنِىٌّ عَنِ الشَّرْح .

ومَعَ تِلْكَ العَقَباتِ كُلِّها فَضْلاً عَنْ دَرْءِ الحُدودِ بِالشُّبُهاتِ فَقَدِ اسْتَطاعَ الدِّينُ أَنْ يَقْضِىَ عَلَى تِلْكَ الجَرِيمَةِ الشَّنْعاء .

ومُنْصِفُو الأُوروبِيِّينَ يَعْتَرِفُونَ بِالفَرْقِ الشاسِعِ بَيْنَهُم وبَيْنَ المُسْلِمينَ فِى ذَلِكَ خُصُوصاً فِى عُهُودِهِم الأُولَى ؛ والإحْصائِيَّاتُ عِنْدَهُم فِى ذَلِكَ مُدْهِشَةٌ مُخْجِلَة .

ولَيْسَ بِبَعِيدٍ عَنَّا الآنَ ما تُنادِي بِهِ المُجْتَمَعاتُ الإباحِيَّةُ مِنْ ضَرورَةِ تَوَخِّي أَقْصَى دَرَجاتِ الحَذَرِ فِى العَلاقاتِ الجِنْسِيَّةِ الغَيْرِ شَرْعِيَّةٍ بَعْدَ ما قاسَتْهُ مِنَ انْتِشارِ مَرَضِ الإيدْز الَّذي أَوْدَى بِحَياةِ المَلايين مِنْ أَفْرادِها .

وقَدْ شَرَعَ الدِّينُ الإِسْلامِيُّ بِجانِبِ هَذهِ الشِّدَّةِ فِى عُقُوبَةِ الزِّنَى إباحَةَ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ وسَهَّلَ الأَمْرَ فِى ذَلِكَ لِما فِيهِ مِنَ الفَوائِدِ العَدِيدَةِ والحِكَمِ الرَّشِيدَة .

هَذا وقالَ بَعْضُ الأُوروبِيِّينَ : (إِنَّنا نُوجِبُ الاقْتِصارَ عَلَى الواحِدَةِ فِى الزَّواجِ الشَّرْعِي ولَكِنْ نَتَّخِذُ مِنَ الخَلِيلاتِ غَيْرِ الشَّرْعِيَّاتِ ما لايَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ فَنُضَيِّعُهُنَّ وأَوْلادَهُنَّ بِلا شَفَقَةٍ ولا رَحْمَةٍ) .

فَأَنْتَ تَرَى الإِسْلامَ مَنَعَ هَذهِ الجَرِيمَةَ بِالخَوْفِ مِنْ تِلْكَ العُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ وأَوْعَدَ عَلَيْها بِأَشَدِّ العِقابِ فِى الآخِرَةِ وشَرَعَ ما يُغْنِي عَنْها ، ومَعَ ذَلِكَ وَضَعَ مِنَ الشُّروطِ الَّتي تَحُولُ دُونَ إِثْباتِها ما يَجْعَلُ وُجُودَ الحَدِّ بَعْدَ تِلْكَ الشُّروطِ مُسْتَحيلاً أَو كالمُسْتَحِيل .

فَأَىُّ نَظَرٍ أَبْعَدُ مِنْ هَذا ؟ وأَىُّ حِكْمَةٍ أَبْلَغُ مِنْ تِلْكَ الحِكْمَةِ الَّتى صانَتِ الأَعْراضَ والنُّفُوسَ ولَمْ تُسْرِفْ فِى القَتْلِ ولا جَعَلَتِ الأَمْرَ جُزافاً ؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ أَسْمَى حِكْمَةٍ وأَبْلَغُ تَشْرِيعٍ ؟ .

أَمَّا قَطْعُ يَدِ السَّارِقِ فَأَمْرُهُ مِنْ أَوْضَحِ الواضِحاتِ : فَإِنَّ اللِّصَّ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ مُوَطِّناً نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ أَو يُقْتَلَ ، وكَثِيراً ما قَتَلَ وقُتِلَ .

ومِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَصَوَّرَ فَظاعَةَ الجَرِيمَةِ إِذا تَخَيَّلْتَ امْرَأَةً عَجُوزاً تَسْعَى عَلَى أَيْتامِها بِقَلِيلٍ مِنَ المالِ فَيَطَّلِعُ عَلَيْها ذَلِكَ اللِّصُّ فَيَسْلُبُها رَأْسَ مالِها الَّذي تَعِيشُ بِهِ هِىَ وأَوْلادُها المَساكِينُ ، فَهِىَ إِنْ لَمْ تَلْقَ المَوْتَ السَّرِيعَ مِنْ أَيْدِيهِم ، لَقِيَتِ المَوْتَ البَطِيءَ مِنْ جَرَّاءِ ما فَعَلُوهُ بِها وبِفَلَذاتِ كَبِدِها الَّذينَ أَصْبَحُوا فِى حالَةٍ تُذِيبُ القُلُوبَ وتُدْمِي العُيُونَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَعْرِفُونَ ولا تَجْهَلُونَ .

وقَدِ انْتَشَرَتْ تِلْكَ الحَوادِثُ فِى بِلادِ العالَمِ كُلِّهِ انْتِشاراً يُثِيرُ الأَسَفَ الشَّدِيدَ والحُزْنَ العَمِيق ، ولَوْ أَقَمْنا الحَدَّ الشَّرْعِيَّ مَرَّةً واحِدَةً لأَخَفْنا الجَمِيعَ خَوْفاً تُصْبِحُ بِهِ اقْتِصادِيَّاتُ البِلادِ مُنْتَعِشَةً وتَضاءَلَتْ مَعَهُ القِطَطُ السِّمانُ الَّتى نَهَبَتِ البِلادَ

وأَرْهَبَتِ العِبادَ واغْتَصَبَتِ الثَّرَواتِ ومَلأَتْ بِها خَزائِنَ سويسرا والَّتي أَحاطَها الشَّيْطانُ وأَعْوانُهُ بِسياجٍ ومَلاذٍ آمِنٍ مِنَ السِّرِّيَّةِ وعَدَمِ المُساءَلَةِ ، وعَلاوَةً عَلَى ذَلِكَ يَضَعُها تَحْتَ تَصَرُّفِ المَاسُونِيَّةِ لِخِدْمَةِ أَغْراضِهِ الإِجْرامِيَّة الهَدَّامَة .

هَذا عَلَى مُسْتَوى الرَّأْسِ الهَرَمِي ، أَمَّا عَلَى مُسْتَوى القاعِدَةِ العَرِيضَةِ فَلَوْ طُبِّقَ الحَدُّ الشَّرْعِيُّ مَرَّةً واحِدَةً لَخافَ الجَمِيعُ خَوْفاً تُصْبِحُ بِهِ السُّجُونُ خالِيَةً مِنْ أُولَئِكَ اللُّصُوصِ وتَسْتَرِيحُ بِهِ إِدارَةُ الأَمْنِ العامِ مِنْ تِلْكَ المُزْعِجاتِ المُقْلِقاتِ الَّتي فَشَلَتْ فِيها اللَّوائِحُ والقَوانِينُ وضَجَّتْ مِنْها رِجالُ الشُرْطَةِ وقُضاةُ المَحاكِم.

وإِيَّاكَ أَنْ تَصْغَى لأُولَئِكَ المُلْحِدينَ مِنَ المُتَفَيْهِقِينَ الَّذينَ لَمْ يَعْرِفُوا مِنَ العِلْمِ الصَّحِيحِ شَيْئاً ولا لَهُم مِنَ الوِجْدانِ الرَّفِيعِ ما يَذوقُونَ بِهِ أَسْرارَ الدِّينِ أَو يَتَعَرَّفُونَ بِهِ الحَقَّ ويَفْقَهونَ بُرْهانَهُ وإِنْ كانوا مِنْ ذَوِي الزُّخْرُفِ والتَّشَدُّقِ الَّذينَ يُخَيَّلُ لَكَ أَنَّهُم قَرَءُوا كَثِيراً ودَرَسُوا كَثِيراً ، فالعِلْمُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَى حَقائِقِهِ كُلُّ ناظِرٍ فيهِ أَو يَذُوقَ أَسْرارَهُ كُلُّ مَنْ يَدَّعِيه .

وقَدْ قَرَّرَ الفَلاسِفَةُ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَخَذَ مِنَ العِلْمِ ما لَيْسَ مُسْتَعِدّاً لَهُ كانَ ضَرَرُ ذَلِكَ العِلْمِ الَّذي أَخَذَهُ أَقْرَبَ مِنْ نَفْعِهِ ، وكانَ بِمَنْزِلَةِ ضَعِيفِ المَزاجِ الَّذي لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْضِمَ ما تَناوَلَهُ مِنَ الغِذاءِ ، فَلا غَرْوَ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى فَساد .

كَذَلِكَ أَدْعِياءُ العِلْمِ الَّذينَ لَمْ يُخْلَقوا لَهُ إِذا قَرَءُوا شَيْئاً مِنَ العِلْمِ لَمْ يُحْسِنُوا فَهْمَهُ فَأَوَّلُوهُ عَلَى ما يُناسِبُ اسْتِعدادَهُم ويُوافِقُ أَهْواءَهُم لأَنَّهُ لَمْ يَنْهَضِمْ عِنْدَهُم وكانَ خَيْراً لَهُمْ أَلاَّ يَأْخُذوه .

* * *

والخُلاصَةُ : أَنَّ القَوانِينَ الوَضْعِيَّةَ لا تَنْفَعُ بِلادِيْنٍ فَلَيْسَ فِى اسْتِطاعَةِ القَوانِينَ إِلاَّ أَنْ تُحِيلَ المُجْرِمينَ عَلَى المَحاكِمِ بَعْدَ تَحْقِيقِ النِّيابَةِ ورِجالِ الشُّرْطَةِ ، ولَكِنْ لَيْسَ فِى اسْتِطاعَتِها أَنْ تَهَبَ الشُّرْطِيَّ مَخافَةً مِنَ اللهِ ولا أَنْ تُعْطِيَ وُكَلاءَ النِّيابَةِ مُراقَبَةً للهِ ولا أَنْ تُطَهِّرَ القُضاةَ مِنَ الأَغْراضِ والغاياتِ ولا أَنْ تَمُنَّ عَلَى الأَطِبَّاءِ

بالإخْلاصِ والنَّزاهَةِ وإنْ كانَ فِي اسْتِطاعَتِها أَنْ تُوجِبَ الإحالَةَ عَلَى الطَّبيبِ لِتَحْديدِ سِنِّ الزَّواجِ مَثَلاً فَلَيْسَ فِي اسْتِطاعَتِها أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَى أَنْ يُقَرِّرَ الحَقيقَةَ ، إِلَى آخِرِ ما تَعْرِفُ ولا تُنْكِرُ ، وسَيَجِدُ اللِّصُّ والقاتِلُ وكُلُّ مُجْرِمٍ مِنَ المُجْرِمينَ مِنْ تِلْكَ الدَّوائِرِ الَّتي خَلَتْ فيها نُفُوسٌ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وأَقْفَرَتْ فيها قُلُوبٌ مِنْ مُراقَبَةِ اللهِ مَجالاً واسِعاً مِنَ التَّلاعُبِ بالقانُونِ (حَتَّى فِي الرَّسْمِيَّاتِ) لأَنَّ رِجالَها أَحْرارٌ فِيما يَقُولُونَ ويُقَرِّرون .

وكَيْفَ يَقْبَلُ الإِنْسانُ المُسْلِمُ تِلْكَ القَوانينَ الَّتى تُبيحُ الكُفْرَ العَلَنِيَّ وتَحْمِي مُعْتَنِقيهِ مُحافَظَةً عَلَى تِلْكَ الحُريَّةِ الَّتى تَفُوقُ حُرِّيَّةَ البَهائِمِ ، وما مَثَلُها عِنْدِي إِلاَّ كَمَثَلِ مَنْ يُريدُ أَنْ يَشْرَبَ السُّمَّ فَلا تَمْنَعُهُ مُحافَظَةً عَلَى حُرِّيَّتِهِ فِيما يُرِيدُ .

فَهَلْ تَراكَ أَحْسَنْتَ إِلَيْه ؟! .

لَمْ نَجِدْ أَحَداً مِنْ أُولَئِكَ المَهَرَةِ الَّذينَ مَلَأُوا الدُّنْيا كَلاماً أَمْكَنَهُ أَنْ يُصْلِحَ أَفْراداً مَعْدودَةً إِصْلاحاً حَقيقِيّاً .. بَلْ رُبَّما أَعْجَزَهُ إِصْلاحُ بَنيهِ وذَوِيهِ فَضْلاً عَنْ أُمَّةٍ أَو أُمَم .

فَما هَذِهِ الطَّنْطَنَةُ الفارِغَةُ وعَلامَ يَتَشَدَّقُ أَذْيالُهُم الجاهِلُونَ الَّذينَ يُعادُونَ الدِّينَ ويَعْتَقِدونَ أَنَّهُم أُوتُوا عِلْماً لَمْ يُؤْتَهُ أَحَدٌ مِنَ العالَمِينَ (إِنِّى أَسْمَعُ جَعْجَعَةً ولا أَرَى طَحْناً) وحَقَّاً مَنْ جَهِلَ شَيْئاً عاداهُ ، فَتَراهُم يَفِرُّونَ عِنْدَ ذِكْرِ اللهِ وكِتابِ اللهِ كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة :﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾[1] .

إِنَّ الإِسْلامَ هُوَ الدِّينُ القَيِّمُ حَقّاً ، دِينُ الإِنْسانِيَّةِ ، الدِّينُ المُلائِمُ لِلْفِطْرَةِ ، المُوافِقُ لِلْعَقْلِ المُطابِقُ لِلْواقِعِ ، المُسايِرُ لِسُنَنِ الكَوْنِ ونِظامِ الحَياةِ .. الدِّينُ الحَنيفُ الَّذي فَلْسَفَ الإِنْسانِيَّةَ فَلْسَفَةً كامِلةً شامِلةً ، فَلْسَفَةً حَقيقِيَّةً واقِعِيَّةً تَنْطَبِقُ عَلَى الإِنْسانِ جِسماً ورُوحاً ظاهِراً وباطِناً انْطِباقاً تامّاً لا زِيادَةَ فِيهِ ولا نَقْصَ فِيهِ ، كَثَوْبٍ مُفَصَّلٍ عَلَى الإِنْسانِ تَفْصِيلاً مُحْكَماً ، فَلا هُوَ بِالقَصيرِ الضَّيِّقِ

---

(١) سُورَةُ يُونُس (مِنَ الآيَة ٣٩) .

ولا هُوَ بالواسِعِ الفِضْفاضِ ، لا يَرْفَعُ الإِنْسانَ فَوْقَ طَوْرِهِ ، ولا يَهْبِطُ بِهِ دُونَ مُسْتَواه .

دِينٌ وَثِيقُ العُرَى ، ثَابِتُ الأَرْكانِ ، واضِحُ المَعالِمِ ، بَيِّنُ الحُدودِ ، لا إِشْكالَ فيهِ ولا غُمُوضَ ، ولا تَعْمِيَةَ ولا إِلْغازَ ، دَخَلَ عَلَى الإِنْسانِ مِنْ بَابِ نَفْسِهِ ، واحْتَجَّ عَلَيْهِ بِشَواهِدِ عَقْلِهِ وحِسِّهِ ، وقادَهُ إِلَى تَعالِيمِهِ بِزِمامِ طَبْعِهِ ، لا بِتَأْثِيرٍ ولا بِتَغْرِيرٍ ، ولا بِقُوَّةٍ ولا بَطْشٍ .

دِينٌ قَيِّمٌ يَقْبَلُهُ الأَصْفِياءُ الأَذْكياءُ ، بِشَهادَةِ قُلُوبِهِم ونُورِ بَصائِرِهِمْ لأَنَّهُم يَجِدونَهُ تَرْجَمَةً عَمَّا فِي صُدُورِهِم ، وتَفْصِيلاً لِما فِي ضَمائِرِهِمْ : ﴿ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾(١) ، ويَتَنَبَّهُ إِلَيْهِ الغافِلُونَ مَتَى رَجَعُوا إِلَى عُقُولِهِمْ واحْتَكَمُوا إِلَى الدَّلِيلِ والبُرْهانِ ، ولا يُنْكِرُهُ بَعْدَ البَيانِ والتَعْرِيفِ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وأَهْدَرَ عَقْلَهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾(٢) ، أَى الخارِجُونَ عَنِ الفِطْرَةِ المُنْسَلِخُونَ عَنِ الآدَمِيَّةِ ، المُجَرَّدُونَ عِنِ العُقُولِ الَّتى تَفْقَهُ وتُدْرِكُ .

ما خَلا الإِنْسانُ إِلَى نَفْسِهِ ، ورَجَعَ إِلَى عَقْلِهِ ، وفَكَّرَ فِي الإِسْلامِ تَفْكِيراً سَلِيماً إِلَّا ازْدادَ إِيماناً بِصِحَّتِهِ واقْتِناعاً بِفائِدَتِهِ ، ولا امْتَحَنَهُ بِالعَمَلِ والتَّطْبِيقِ إِلَّا بَهَرَهُ كَمالُهُ وجَمالُهُ ، واتِّفاقُهُ مَعَ الواقِعِ ، عَكْسُ المَذاهِبِ والنِّحَلِ الأُخْرَى ، فَما يَمْتَحِنُها الإِنْسانُ بِالعَقْلِ أَو بِالعَمَلِ والتَّطْبِيقِ إِلَّا ويَرَى فِيها الخَلَلَ والاضْطِرابَ ، والتَّناقُصَ ومُجافاةَ الواقِعِ : واقِعِ الإِنْسانِ ، وواقِعِ الحَياةِ الخارِجِيَّة .

الإِسْلامُ هُوَ الشَّرِيعَةُ البَيْضاءُ ، والمَحَجَّةُ الغَرَّاءُ ، والطَّرِيقَةُ الرَّشِيدَةُ والصِّراطُ المُسْتَقِيمُ ، نَوَّهَ اللهُ بِذِكْرِهِ فِي كُتُبِهِ السَّابِقَةِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾(٣) وبَشَّرَ الأَنْبِياءُ بِنَبِيِّهِ قَبْلَ ظُهُورِهِ عَلَيْهِ وعَلَيْهِم أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأَزْكَى السَّلامُ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا

---

(١) سُورَةُ المُجادلَة (مِنَ الآيَة ٢٢) .
(٢) سُورَةُ البَقَرَة (الآيَة ٩٩) .
(٣) سُورَةُ الشُّعَراء (الآيَة ١٩٦) .

عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[1]، ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[2].

لَوْلا ما غَلَبَ عَلَى بَعْضِ العُقُولِ مِنَ التَعَصُّبِ المَذمُومِ ، والتَّقْلِيدِ الأَعْمَى ، لَما أَرادَتْ بِهِ بَدِيلاً ولا اخْتارَتْ غَيْرَهُ دِيناً ... حَتَّى قالَ بَعْضُ أَحْبارِ اليَهُودِ وكانَ مِنْ أَذْكِيائِهِم فِي مُناظَرَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَحَدِ العُلَماءِ وقَدْ عَطَفَ عَلَى يَهُودِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ : نَحْنُ قَدْ جَرَى نَشْأَتُنا عَلَى اليَهُودِيَّةِ ،وتاللّهِ ما أَدْرِي كَيْفَ الخَلاصُ مِنْ أَمْرِ هَذا العَرَبِيِّ (يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ) .

الإِسْلامُ جاءَ بِمُعْجِزَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ :لَيْسَ لَهُما مَثِيلٌ فِيما عَرَفَتِ الدُّنْيا مِنَ المُعْجِزات ؛ **القُرْآنِ الكَرِيمِ** : الَّذي أَعجَزَ البُلَغاءَ ، ولَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مَنْهُم مِنْ وَقْتِ نُزُولِهِ إِلَى يَوْمِنا هَذا أَنْ يَأْتِيَ بِما يُحاكِيهِ أَو يُدانِيهِ ، **والشَّرِيعَةِ الواضِحَةِ** : الجامِعَةِ المُتَضَمِّنَةِ مِنْ مَصالِحِ العِبادِ ودَرْءِ المَفاسِدِ عَنْهُم ما يَعْجَزُ عَنْهُ الحُكَماءُ والعُلَماءُ ، حَتَّى قالَ بَعْضُ أَهْلِ الإِنْصافِ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ ، عِنْدَما وَقَفَ عَلَى مَحاسِنِها : لَوْ كُنْتُ مُتَدَيِّناً بِدِينٍ مِنَ الأَدْيانِ لَما اخْتَرْتُ إِلاَّ شَرِيعَةَ الإِسْلام .

وقالَ بَعْضُ المُسْتَشْرِقِينَ مِنْهُم : إِنَّ البَشَرِيَّةَ لَتَفْتَخِرُ بِانْتِسابِ رَجُلٍ كَمُحَمَّدٍ إِلَيْها إِذْ أَنَّهُ مَعَ أُمِّيَّتِهِ اسْتَطاعَ قَبْلَ بِضْعَةَ عَشَرَ قَرْناً أَنْ يَأْتِيَ بِتَشْرِيعٍ نَحْنُ - الأُوروبِيِّينَ أَسْعَدُ ما نَكُونُ لَوْ وَصَلْنا إِلَى قِمَّتِهِ بَعْدَ أَلْفَى سَنَة .

ولِلّهِ دَرُّ الشَّيْخِ (مُحَمَّد الطَّاهِر الحامِدي) فِي نَظْمِهِ :

يا أُمَّةَ المُخْتارِ أَحْيُوا شَرْعَهُ * تَجِدوا حَياةَ العِزِّ فِي إِحْيائِهِ

خَلُّوا الحَياةَ عَلَى أَساسِ نِظامِهِ * لا تَقْتَدوا بِالغَرْبِ فِي آرائِهِ

فَهُوَ الَّذي جَعَلَ السَّعادَةَ لِلْوَرَى * حِصْناً ولاذَبِهِم إِلَى أَفْيائِهِ

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف (مِنَ الآيَة ١٥٧) .

(٢) سُورَةُ الصَّف (مِنَ الآيَة ٦) .

الخَيْرُ يُنْشَرُ ظِلُّهُ فِى ظِلِّهِ * والأَمْنُ يَبْقَى سائِداً بِبَقائِهِ

لَوْ حاوَلَ الدَّهْرُ الْتِماسَ وَسِيلَةٍ * ودَعا لَها مَنْ شاءَ مِنْ حُصَفائِهِ

وأَرادَ أَنْ يَهْدِي الحَياةَ لِمَيْتِهِ * ويُعِيدَ بَعْثَ الرُّوحِ فِى أَعْضائِهِ

لَمْ يُلْفِ قانُوناً كَشَرْعِ مُحَمَّدٍ * كَلاَّ ولا عَدْلاً كَعَدْلِ قَضائِهِ

وَحْيٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ كَيْفَ يَنالُهُ * عَقْلٌ ، وتُذْكَرُ حِكْمَةٌ بِإِزائِهِ

لا تَنْهَلِ الأَلْبابُ مِثْلَ سُلافِهِ * راحاً ولا تَرْضَى بِغَيْرِ صَفائِهِ

ما فِيهِ مِنْ حِكَمٍ وفَيْضِ مَعارِفٍ * بَحْرٌ ، عُقُولُ الخَلْقِ بَعْضُ دِلائِهِ

فَعَقائِدُ الإِسْلامِ وعِباداتُهُ ، وأَحْكامُ مُعامَلاتِهِ هِىَ الَّتي تَجْلِبُ الرَّحْمَةَ وتُورِثُ العِزَّ والنَّصْرَ والخَيْرَ والبَرَكَةَ فِى الدَّارَيْنِ ؛ ولِهذا سَمَّاهُ اللّٰهُ تَعالَى حَياةً ورُوحاً حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[1] ، ويَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[2] ، لأَنَّ فِيهِ حَياةَ القُلُوبِ والأَبْدانِ ، وصَلاحَ الباطِنِ والظَّاهِرِ واسْتِقامَةَ أَمْرِ الدُّنْيا والآخِرَة .

وشَبَّهَهُ النَّبِىُّ ﷺ بِالغَيْثِ الكَثِيرِ فَقالَ ﷺ : (مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللّٰهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصابَ أَرْضاً فكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ ، وكانَ مِنْها أَجادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللّٰهُ بِها النَّاسَ فَشَرِبُوا وزَرَعُوا ، وأَصابَ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى إِنَّما هِىَ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذٰلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِى دِينِ اللّٰهِ ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللّٰهُ بِهِ فَعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذٰلِكَ رَأْساً ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّٰهِ الَّذي جِئْتُ بِهِ)[3] .

وبِذٰلِكَ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ نَصِيبَ النَّاسِ مِنَ العِلْمِ والدِّينِ مُخْتَلِفَةٌ مُتَفاوِتَةٌ :

---

(١) سُورَةُ الأَنعام (مِنَ الآية ١٢٢) . (٢) سُورَةُ الشُّورَى (مِنَ الآية ٥٢) .

(٣) أَخْرَجَهُ (البُخاري) فِى صَحِيحِه .

فَمِنْهُم مَنْ يَسِيغُهُ ويَفْهَمُهُ فَيَعْمَلُ بِهِ ويُعَلِّمُهُ لِغَيْرِهِ وهُوَ كالأَرْضِ الطَّيِّبَةِ النَّقِيَّةِ الَّتى تَشْرَبُ الماءَ فَتَنْتَفِعُ فِى نَفْسِها ، وتُنْبِتُ العُشْبَ والزَّرْعَ فَتَنْفَعُ غَيْرَها ، ومِنْهُم مَنْ يُنْفِقُ زَمانَهُ فِى حِفْظِهِ وتَعْلِيمِهِ لَكِنَّهُ لا يَعْمَلُ بِنَوافِلِهِ ولا يَتَذَوَّقُ طَعْمَهُ وحَلاوَتَهُ فَهُوَ كالأَرْضِ الجَدْباءِ الَّتى لا تَشْرَبُ ماءً ولا تُنْبِتُ زرْعاً ، وإِنَّما تُمْسِكُ الماءَ فَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ ، ومِنْهُم الجافِي المُتَكَبِّرُ الَّذي لَمْ يَدْخُلْ فِى الدِّينِ ولَمْ يَقْبَلْ هُداهُ أَصْلاً ، فَهُوَ كالأَرْضِ الصَّمَّاءِ المَلْساءِ الَّتى يَمُرُّ عَلَيْها الماءُ مَرَّاً ، فَلا تَشْرَبُ فَتَنْتَفِعُ ، ولا تُمْسِكُ الماءَ فَيَنْتَفِعُ بِهِ الغَيْرُ .

وبَعْدُ .. فَتَأَمَّلْ أَيُّها الإِنْسانُ المُتَعَطِّشُ لِطهارَةِ القُلُوبِ والأَبْدانِ بَعْدَ أَنْ رانَ عَلَيْها الرَّان .. وأَثْقَلَتْها الأَدْران .

تَأَمَّلْ .. دَعْوَةَ الإِسْلامِ هَلْ تَجِدُ فِيها إِلَّا تَطْهِيرَ القُلُوبِ مِنْ شَوائِبِ الشِّرْكِ جَلِيِّهِ وخَفِيِّهِ ، وتَزْيِينَها بِمَعْرِفَةِ اللّهِ تَعالَى ومَعْرِفَةِ أَسْمائِهِ وصِفاتِهِ وأَفْعالِهِ وأَحْكامِهِ فِى الدُّنْيا والآخِرَة ؛ وهَذا ما يُحَقِّقُهُ مَقامُ الإِيمانِ الَّذي فَسَّرَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : (الإِيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ) .

ثُمَّ تَشْرِيفُ الجَوارِحِ والأَبْدانِ بِطاعَةِ اللّهِ تَعالَى مِنْ طَهارَةٍ ، وصَلاةٍ ، وصِيامٍ ، وحَجٍّ ؛ وهَذا مَقامُ الإِسْلامِ وهُوَ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وتُؤْتِىَ الزَّكاةَ ، وتَصُومَ رَمَضانَ ، وتَحُجَّ البَيْتَ الحَرامَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلا .

ثُمَّ تَنْوِيرُ السَّرائِرِ بِمُراقَبَةِ اللّهِ تَعالَى واسْتِحْضارِ عَظَمَتِهِ وهَيْبَتِهِ وجَلالِ رُبوبِيَّتِه ؛ وهُوَ مَقامُ الإِحْسانِ ، الَّذي فَسَّرَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ :(أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَراكَ) .

ثُمَّ تَحْقِيقُ العَدالَةِ العامَّةِ بَيْنَ النَّاسِ وإِصْلاحُ الاجْتِماعِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ بِأَنْ يُعاوِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، ويَتِمَّ بَيْنَهُم التَّآلُفُ والتَّآذُرُ ، وتُمَهَّدَ لَهُم سُبُلُ أَرْزاقِهِمْ ،

وتُهَيَّأَ لَهُمْ مَرافِقُهُم العامَّة .

ومِنَ العَجِيبِ المُدْهِشِ أَنَّ اللّهَ تعالَى أَرادَ أَنْ يَكُونَ هَذا الدِّينُ بِهَذهِ المَثابَةِ دِيناً يُسْراً جامِعاً لِمصَالِحِ الدُّنْيا والآخِرَةِ وافِياً بِحَظِّ الجِسْمِ والرُّوحِ .. فَأَخْرَجَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الوجُودِ عَلَى هَذا الوَصْفِ وطَبَّقَهُ تَطْبِيقاً عَمَلِيّاً عَلَى مُرادِ اللّهِ تعالَى ومَحَبَّتِهِ ، حَتَّى شَهِدَ لَهُ عَزَّ وجَلَّ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] ، وقَدْ نَزَلَتْ هَذهِ الآيَةُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ ، وعاشَ بَعْدَها ﷺ زَمَناً يَسيراً ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى .

وفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (مَثَلِي ومَثَلُ الأَنْبِياءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى داراً فَأَكْمَلَها وأَحْسَنَها ، وتَرَكَ فِيها مَوْضِعَ لَبِنَةٍ ، فَصارَ يُقالُ ما أَحْسَنَها لَوْ تَمَّت ... فَأَنا اللَّبِنَةُ الَّتي تَمَّ بِها الأَنْبِياءُ) .

إِنَّهُ الإِسْلامُ دِينُ الكَمالِ والجَمال .. عَقائِدُهُ وعِباداتُهُ ، وأَخْلاقُهُ ، وأَحْكامُ مُعامَلاتِهِ كُلُّها فِي غايَةِ الكَمالِ والإِتْقان .. وكُلُّها مُتَساندَةٌ مُتَرابِطَةٌ ، يَتَّصِلُ بَعْضُها بِبَعْضٍ ، ويَشُدُّ بَعْضُها بَعْضاً ، وهِيَ الَّتي تُحَقِّقُ سَعادَةَ الإِنْسان .

الإِسْلامُ لا يَرْضَى بِالقُشُور ، ولا يُعَوِّلُ عَلَى ظَواهِرِ الأُمُور .

قالَ تعالَى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[2] .

وقالَ ﷺ : (إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ وإِنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى) .

وقالَ ﷺ : (إِنَّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وأَجْسامِكُم ولَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم) .

الإِسْلامُ لا يَرْضَى بِأَنْصافِ الأَشْياءِ .. ولا بِأَشْباحِ الأَعْمالِ دُونَ أَرْواحِها .. لا يَرْضَى أَنْ يَعيشَ الرَّجُلُ نِصْفَ إِنْسان .. ونِصْفُ الإِنْسانِ هُوَ الَّذي يَقْصُرُ نَظَرُهُ عَلَى الدُّنْيا ، ويَنْسَى الآخِرَةَ وحَياتَها .. وهُوَ الَّذي يَهْتَمُّ بِمَطالِبِ الجَسَدِ الَّتي يُشارِكُهُ فِيها الحَيواناتُ ، ويَنْسَى مَطالِبَ الرُّوحِ الَّتي تُلْحِقُهُ بِأُفُقِ المَلائِكَةِ المُقَرَّبين .

---

(١) سُورَةُ المائِدَة (مِنَ الآيَة ٣) .
(٢) سُورَةُ الحَجّ (مِنَ الآيَة ٣٧) .

ولا يَرْضَى بِنِصْفِ الإيمان .. ونِصْفُ الإيمانِ هُوَ الَّذي لا يُثْمِرُ الأَحْوالَ السَّنِيَّةَ والأَخْلاقَ الكَرِيمَةَ ؛ فَلا يَكُونُ مَعَهُ إِخْلاصٌ ولا تَوَكُّلٌ ولا زُهْدٌ ولا رِضاً ولا سَكِينَةٌ ولا خَوْفٌ مِنَ اللهِ تَعالَى ولا رَجاءٌ فِي رَحْمَتِهِ وثَوابِهِ ، ولا حِلْمٌ ولا بِرٌّ ، ولا كَرَمٌ ، ولا مُروءَةٌ ، ولا أَمانَةٌ ، ولا عَهْدٌ ، ولا وَفاءٌ .

قالَ ﷺ: (لا إِيمانَ لِمَنْ لا أَمانَةَ لَهُ ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ) .

و قالَ ﷺ: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ فَلا صَلاةَ لَهُ) ،(مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرابَهُ) ،.....(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ).

ورُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ:(إِنَّ مَثَلَ الإيمانِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ ثَابِتَةٍ ؛الإيمانُ - يَعْنِي هُنا خُصُوصَ التَّوْحِيد - عُروقُها ، والصَّلاةُ أَصْلُها ، والزَّكاةُ فُروعُها ، والصِّيامُ أَغْصانُها ، والتَّأَذِّي فِي اللهِ نَباتُها - أَي نُمُوُّها - ، وحُسْنُ الخُلُقِ وَرَقُها ، والكفُّ عَنْ مَحارِمِ اللهِ ثَمَرُها).

وقالَ بَعْضُ العارِفِينَ : (صِدْقُ الإيمانِ التَّعْظِيمُ لِلّهِ ، وثَمَرَتُهُ الحَياءُ مِنَ اللهِ) ، وقالَ بَعْضُهُم : (التَّوْحِيدُ : يَعْنِي اعْتِقادَأَنَّ اللهَ مَوْجُودٌ بِذاتِهِ واحِدٌ فِي مُلْكِهِ وذَلِكَ مُوجِبٌ يُوجِبُ الإيمانَ ، فَمَنْ لا شَرِيعَةَ لَهُ لا إِيمانَ لَهُ ولا تَوْحِيدَ لَهُ ، والشَّرِيعَةُ مُوجِبٌ يُوجِبُ الأَدَبَ ، فَمَنْ لا أَدَبَ لهُ لا شَرِيعَةَ لَهُ ولا إِيمانَ لَهُ ولا تَوْحِيدَ لَهُ ..).

وخُلاصَةُ القَوْلِ : إِنَّ الإِسْلامَ هُوَ الدِّينُ الرَّسْمِيُّ لِلْعالَمِ كُلِّهِ مُنْذُ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، لا يَسْمَعُ بِهِ أَحَدٌ إِلاَّ لَزِمَتْهُ دَعْوَتُهُ ، وتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ أَحْكامُهُ وتَكالِيفُه .

بَلْ لَوْ بُعِثَ آدَمُ ونُوحٌ وإِبْراهِيمُ ومُوسَى وداوُدُ وعِيسَى وغَيْرُهُم مِنْ رُسِلِ اللهِ تَعالَى عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وكانُوا أَحْياءً الآنَ لَما دَعُوا إِلَى اللهِ تَعالَى إِلاَّ بِهَذا الدِّينِ ، ولا جاهَدوا إِلاَّ فِي سَبِيلِ نَشْرِهِ ، وإِشاعَةِ أَمْرِهِ ، وكانوا فِي مُقَدِّمَةِ

أَنْصارِ نَبِيِّنا ﷺ وأَعْوانِهِ ، كَما قالَ ﷺ: (لَوْ كانَ مُوسَى وعِيسَى حَيَّيْنِ لَما وَسِعَهُما إلاَّ اتِّباعِى) ، وذلِكَ لأَنَّهُ ﷺ هُوَالَّذى أَكْمَلَ اللّهُ تَعالَى بِهِ الدِّينَ ، وشَيَّدَ قَواعِدَ اليَقِين : فَلَمْ يَبْقَ مَعْروفٌ تَعْرِفُ العُقُولُ أَنَّهُ مَعْروفٌ إلاَّ أَمَرَ بِهِ ، ولا مُنْكَرٌ تَعْرِفُ العُقُولُ أَنَّهُ مُنْكَرٌ إلاَّ نَهَى عَنْهُ ، لَم يَأْمُرْ بِشَىْءٍ فَقِيلَ لَيْتَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ ، ولا نَهَى عَنْ شَىْءٍ فَقِيلَ لَيْتَهُ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ ، وأَحَلَّ الطَّيِّباتِ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئاً مِنْها ، كَما حُرِّمَ فِى شَرْعِ غَيْرِهِ ، وحَرَّمَ الخَبائِثَ لَمْ يُحِلَّ مِنْها شَيْئاً كَما اسْتَحَلَّهُ غَيْرُهُ (يَعْنِى اسْتحلَّهُ بِرَأْيِهِ لا بتَشْرِيعٍ مِنَ اللّه) ، وجَمَعَ مَحاسِنَ ما عَلَيْهِ الأُمَمُ ؛ فَلا يُذْكَرُ فِى التَّوْراةِ والإِنْجِيلِ والزَّبُور أَمْرٌ مِنَ الخَبَرِ عَنِ اللّهِ وعَنِ المَلائِكَةِ وعَنِ اليَوْمِ الآخِرِ إلاَّ وقَدْ جاءَ بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، وأَخْبَرَ بِأَشْياءَ لَيْسَتْ فِى هَذهِ الكُتُبِ .. فَلَيْسَ فِى تِلْكَ الكُتُبِ إيجابٌ لِعَدْلٍ ، وقَضاءٌ بِفَصْلٍ ، ونَدْبٌ إلَى الفَضائِلِ ، وتَرْغِيبٌ فِى الحَسَناتِ إلاَّ قَدْ جاءَ بِما هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ .. وإذا نَظَرَ اللَّبِيبُ فِى العِباداتِ الَّتى شَرَعَها وعِباداتِ غَيْرِهِ مِنَ الأُمَمِ ظَهَرَ فَضْلُها ورَجاحَتُها ، وكَذَلِكَ فِى الحُدودِ والأَحْكامِ ، وسائِرِ الشَّرائِعِ .

وأُمَّتُهُ أَكْمَلُ الأُمَمِ فِى كُلِّ فَضِيلَةٍ ، فَإِنْ قِيسَ عِلْمُهُم بِعِلْمِ سائِرِ الأُمَمِ ظَهَرَ فَضْلُ عِلْمِهِم ، وإِنْ قِيسَ دِينُهُم وعِباداتُهُم وطاعاتُهُم لِلّهِ بِغَيْرِهِمْ ظَهَرَ أَنَّهُم أَدْيَنُ مِنَ غَيْرِهِمْ ، وإذا قِيسَ شَجاعَتُهُم وجِهادُهُم فِى سَبِيلِ اللّهِ وصَبْرِهِمْ عَلَى المَكارِهِ فِى ذاتِ اللّهِ ظَهَرَ أَنَّهُم أَعْظَمُ جِهاداً وأَشْجَعُ قُلُوباً ، وإذا قِيسَ سَخاؤُهُم وبَذْلُهُم وسَماحَةُ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِهِمْ تَبَيَّنَ أَنَّهُم أَسْخَى وأَكْرَمُ مِنْ غَيْرِهِم .

وهَذهِ الفَضائِلُ بِهِ ﷺ نالُوها ومِنْهُ تَعَلَّمُوها ، وهُوَ الَّذى أَمَرَهُم بِها ، لَمْ يَكُونُوا قَبْلَهُ مُتَّبِعِينَ لِكِتابٍ جاءَ هُوَ بِتَكْمِيلِهِ ، كَما جاءَ المَسِيحُ بِتَكْمِيلِ شَرِيعَةِ التَّوْراةِ ؛ فَكانَتْ فَضائِلُ أَتْباعِ المَسِيحِ عليه السلام وعُلُومُهُمْ : بَعْضُها مِنَ التَّوْراةِ ، وبَعْضُها مِنَ الزَّبُورِ ، وبَعْضُها مِنَ النُّبُوَّاتِ ، وبَعْضُها مِمَّنْ بَعْدَهُ كالحَوارِيِّينَ ومِنْ بَعْدِ الحَوارِيِّينَ ، قَدِ اسْتَعانُوا بِكَلامِ الفَلاسِفَةِ وغَيْرِهِمْ حَتَّى أَدْخَلُوا فِى دِينِ المَسِيحِ أُمُوراً لَيْسَتْ مِنْهُ ..

وأَمَّا أُمَّةُ (مُحَمَّدٍ) ﷺ فَلَمْ يَكُونوا قَبْلَهُ يَقْرَأُونَ كِتاباً ، بَلْ عامَّتُهُم ما آمَنُوا بـ(مُوسَى وعيسَى وداوُد) عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، و(التَّوْراةِ والإِنْجِيلِ والزَّبُور) إِلاَّ مِنْ جِهَتِهِ ﷺ، فَهُوَ الَّذي أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ الأَنْبِياءِ ويُقِرُّوا بِجَمِيعِ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، ونَهاهُمْ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُل) .

وفِي كِتاب (أَساسُ السَّعادَة) لِفَضِيلَةِ الشَّيْخ (مُحَمَّد الطَّاهِر الحامِدي) رضي الله عنه، ما نَصُّهُ : مَنْ تَأَمَّلَ فِي نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلامِيَّةِ الغَرَّاءِ وَجَدَ أَنَّها مَبْنِيَّةٌ عَلَى العَدْلِ والرِّفْقِ ومُراعاةِ المَصالِحِ والحُقُوقِ ، ومَنْعِ التَّعَدِّي وصِيانَةِ الآدابِ ، وتَأْسِيسِ النِّظام فِي كُلِّ شَيْءٍ ، كَما قالَ تَعالَى فِي كِتابِهِ العَزِيز :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾[1].

فَهِيَ شَرِيعَةٌ عادِلَةٌ حَكِيمَةٌ خالِيَةٌ مِنَ العُسْرِ والحَرَجِ ، بَعِيدَةٌ عَنِ التَّفْرِيطِ والإِفْراطِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، تَحُضُّ عَلَى طَلَبِ الآخِرَةِ ، ولَكِنَّها لا تُحَرِّمُ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ ، وتُعَظِّمُ حَقَّ اللهِ تَعالَى وتَجْعَلُهُ هُوَ الأَوْلَى بِالأَداءِ ، ولَكِنَّها لا تُهْمِلُ حُقُوقَ المَخْلُوقِين .

يَدُلُّنا عَلَى هَذا قَوْلُهُ تَعالَى :﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾[2]، وقَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[3].

وفِي (صَحِيح البُخارِي) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : (جاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْواجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُم تَقالُّوها - عَدُّوها قَلِيلَةً - فَقالُوا : وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ! قَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ ، فَقالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً ، وقالَ آخَرُ : أَنا أَصُومُ

---

(١) سُورَةُ النَّحْل (الآيَة ٩٠) .
(٢) سُورَةُ القَصَص (الآيَة ٧٧) .
(٣) سُورَةُ الأَعْراف (مِنَ الآيَة ٣٢) .

الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ ، وقالَ آخَرُ : أَنا أَعْتَزِلُ النِّساءَ فَلا أَتَزَوَّجُ ... فَجاءَ رَسُولُ اللّه ﷺ، فَقالَ : أَنْتُم الَّذينَ قُلْتُمْ كَذا وكَذا ... أَمَّا واللّهِ إِنِّي لأَخْشاكُم لِلّهِ وأَتْقاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ ، وأَتَزَوَّجُ النِّساءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) .

بَيَّنَ رَسُولُ اللّه ﷺ بِهَذا الحَديثِ الشَّريفِ :أَنَّ خَشْيَةَ اللّهِ تعالَى وتَقْواهُ لا تَدْعُوانِ إِلَى التَّبَتُّلِ بِمُواصَلَةِ الصِّيامِ والقِيامِ والإِعْراضِ عَنِ الدُّنْيا بِالكُلِّيَّةِ ، بَلْ مِنْ كَمالِ الخَشْيَةِ والتَّقْوَى أَنْ يَرْفُقَ المُؤْمِنُ بِنَفْسِهِ ، ويُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

ومِثْلُهُ ما أَخْرَجَهُ (البُخاريُّ) أَيْضاً عَنِ (ابْنِ عَبَّاسٍ) رضي الله عنه قالَ :(بَيْنَما النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ .. إِذْ هُوَ بِرَجُلٍ قائِمٍ فَسأَلَ عَنْهُ فَقالُوا : أَبو إِسْرائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ ولا يَقْعُدَ ولا يَسْتَظِلَّ ولا يَتَكَلَّمَ ويَصُوم .. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: مُروهُ فَلْيَتَكَلَّمْ ولْيَسْتَظِلَّ ولْيَقْعُدْ ولْيُتِمَّ صَوْمَهُ) .

فانْظُرْ كَيْفَ لَمْ يُقِرَّهُ ﷺ عَلَى القِيامِ وعَدَمِ الكَلامِ وتَرْكِ الاسْتِظْلالِ ، وإِنَّما أَمَرَهُ فَقَطْ بِإِتْمامِ الصِّيامِ ، لِعِلْمِهِ ﷺ أَنَّ الصَّوْمَ لا يَشُقُّ عَلَيْهِ ، ولِكَوْنِ الصَّوْمِ عِبادَةً مَشْروعَة .

وفِي (البُخارِي) أَيْضاً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ : آخَى بَيْنَ سَلْمانَ وأَبي الدَّرْداء رضي الله عنه ، فَزارَ سَلْمانُ أَبا الدَّرْداء ، . فَرَأَى أُمَّ الدَّرْداء (زَوْجَةَ أَبي الدَّرْداء) مُتَبَذِّلَةً فَقالَ لَها : ما شَأْنُكِ ؟ قالَتْ : أَخُوكَ أَبو الدَّرْداءِ لَيْسَ لَهُ حاجَةٌ فِي الدُّنْيا .. فَجاءَ أَبو الدَّرداءِ ، فَصَنَعَ لَهُ طَعاماً فَقالَ : كُلْ ، قالَ : إِنِّي صائِم .. قالَ ما آنا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ ، فَأَكَلَ .. فَلَمَّا كانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبو الدَّرْداء يَقُومُ ، فَقالَ : نَمْ .. فَنامَ .. ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقالَ : نَمْ .. فَلَمَّا كانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، قالَ سَلْمانُ : قُمِ الآنَ ، فَصَلَّيا فَقالَ لَهُ سَلْمانُ : إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، ولأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : صَدَقَ سَلْمان) .

فَصَوَّبَ ﷺ رأْيَ سَلْمانَ وهُوَ الأَخْذُ بِالرِّفْقِ ، ومُراعاةُ حُقُوقِ الغَيْر .

ومِنْ هَذا يُعْلَمُ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الإِسْلامِيَّةَ شَرِيعَةٌ سَمْحَةٌ كُلُّها نِظامٌ ، وعَدْلٌ ، ورِفْقٌ ، وإِحْسانٌ ، ولِلأَخْلاقِ والآدابِ فِيها مَكانَةٌ عُلْيا ؛ حَتَّى قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِى الأَمْرِ كُلِّهِ)[1].

وقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيماناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ، وخِيارُكُمْ خِيارُكُمْ لِنِسائِهِمْ)[2]، ولَمْ يَقُلْ ﷺ: أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيماناً أَكْثَرُهُم صِياماً وقِياماً ولا أَطْوَلُهُم عُكُوفاً فِى المَساجِدِ .. بَلْ قالَ : أَحْسَنُهُم أَخْلاقاً ..!

وعَنْ (أَبِي هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه قالَ : (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ ما يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ ، فَقالَ : تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُقِ ... وسُئِلَ ﷺ عِنْ أَكْثَرِ ما يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ : فَقالَ : الفَمُ والفَرْجُ)[3]، والحِكْمَةُ فِى تَخْصِيصِ (الفَمِ والفَرْجِ) أَنَّهُما أَعْظَمُ الأَعْضاءِ شَرَّاً وأَكْثَرُها أَذِيَّةً لِلْغَيْر .

وفِى الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (الإِيمانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً أَعْلاها قَوْلُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ .. ، وأَدْناها إِماطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، والحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمانِ) ، فانْظُرْ .. كَيْفَ حَكَمَ النَّبِىُّ ﷺ بِأَنَّ لِلإِيمانِ شُعَباً كَثِيرَةً مُتَنَوِّعَةً ،وجَعَلَ الحَياءَ (هُوَ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ التَّقْصِيرِ فِى حَقِّ ذِي الحَقِّ) مِنَ الإِيمانِ .. وهَذا يُؤَيِّدُ ما قُلْناهُ مِنْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ الإِسْلامِيَّةَ كُلَّها خُلُقٌ وأَدَبٌ ، وكُلَّها مَبْنِيَّةٌ عَلَى الحِكْمَةِ والعَدْلِ ومُراعاةِ المَصالِحِ والحُقُوقِ وتَأْسِيسِ النِّظامِ فِى كُلِّ شَىْء .

ولَقَدِ اعْتَنَى العُلَماءُ وخُصُوصاً المُحَدِّثِينَ مِنْهُم بِبَيانِ شُعَبِ الإِيمانِ وآدابِهِ المُشارِ إِلَيْها فِى الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ حَتَّى أَلَّفَ بَعْضُهُم (كالإِمامِ البَيْهَقِي) فِى ذَلِكَ كِتاباً خاصّاً سَمَّاهُ (شُعَبُ الإِيمان) ، ومِمَّا عَدُّوهُ مِنْ هَذِهِ الشُّعَبِ (وهُوَ أَهَمُّها وأَقْدَسُها) : شُكْرُ اللهِ تَعالى بِأَداءِ فَرائِضِهِ والجِهادُ فِى سَبِيلِهِ والإِخْلاصُ

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ عَنِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) رضي الله عنها .

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذي .

(٣) أَخْرَجَهُ أَيْضاً (التِّرْمِذي) .

لَهُ فِى جَمِيعِ الأَعْمال .. ومِنْها : أَداءُ الأَمانَةِ وحِفْظُ السِّرِّ وصِلَةُ الرَّحِمِ وبِرُّ الوالِدَيْنِ ونُصْرَةُ المَظْلُومِ ، وإِغاثَةُ اللَّهْفانِ ، والتَّعاونُ عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوَى والاتِّحادُ وقَضاءُ حَوائِجِ النَّاسِ والإِصْلاحُ بَيْنَهُم ؛ والصِّدْقُ والعَدْلُ والحَياءُ ، والشَّجاعَةُ والكَرَمُ والوَفاءُ بِالعَهْدِ ، وإِنْجازُ الوَعْدِ ، وإِكْرامُ الضَّيْفِ ، وحُسْنُ الجِوارِ ، والحِلْمُ والصَّبْرُ ، والعَفْوُ ، والعِفَّةُ ، والقَناعَةُ ، والتَّواضُعُ ، وصِيانَةُ اللِّسانِ عَنِ الكَذِبِ والغِيبَةِ والنَّمِيمَةِ والأَلْفاظِ الفاحِشَةِ والبَذِيئَةِ ، والتَّخَلِّي عَنِ الكِبْرِ والعُجْبِ والحَسَد .

ومِنْها : تَرْكُ جَمِيعِ الفَواحِشِ والمُنْكَراتِ كالسَّرِقَةِ والغَصْبِ والتَّعَدِّي والظُّلْمِ والخِيانَةِ والمَكْرِ والخِداعِ وقَتْلِ النَّفْسِ ولَعِبِ المَيْسِرِ وقَطْعِ الطَّرِيقِ وأَكْلِ الرِّبا وأَكْلِ مالِ اليَتِيمِ ، وقَبُولِ الرِّشْوَةِ وشَهادَةِ الزُّورِ ، ومُعانَدَةِ الحَقِّ ، ومَحَبَّةِ الظَّلَمَةِ والفاسِقِينَ والغِشِّ فِى البَيْعِ والشِّراءِ ، واحْتِقارِ الفَقِيرِ والاشْتِغالِ بِعُيُوبِ الخَلْقِ وتَتَبُّعِ عَوْراتِهِم ، وإِقْرارِ المُنْكَرِ والرِّضا بالفُجُورِ ، والسُّكُوتِ عَنِ الباطِلِ والخُروجِ عَنِ الجَماعَةِ ، وتَرْكِ الطاعَةِ لِوُلاةِ الأُمُور (فِيما يُوافِقُ طاعَةً لِلّهِ ورَسُولِهِ).. وغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ صَلاحُ العالَمِ ، وسَعادَةُ الأَفْرادِ والجَماعات .

إِضافَةً إِلَى ذَلِكَ ؛ ما وَضَعَتْهُ الشَّرِيعَةُ الإِسْلامِيَّةُ مِنْ قَواعِدِ النِّظامِ فِى المُعامَلاتِ نَحْوَ البَيْعِ والشِّراءِ والإِجارَةِ ، والشَّرِكَةِ ، والقَرْضِ ، والرَّهْنِ ، والوَقْفِ ، والوَصِيَّةِ ، والمِيراثِ ، والصُّلْحِ ، وما مَهَّدَتْهُ مِنَ القَضاءِ وكَيْفِيَّةِ الشَّهاداتِ ، وإِثْباتِ الجِناياتِ وتَحْدِيدِ أَنْواعِها ، والقِصاصِ الواجِبِ فِيها .. وما قَرَّرَتْهُ مِنَ الحُدودِ .. لِلزِّنا ، وشُرْبِ الخَمْرِ ، وقَطْعِ الطَّرِيقِ ، ومارَسَمَتْهُ مِنْ ضُروبِ الجِهادِ وكَيْفِيَّةِ المُعامَلَةِ مَعَ الأَسْرَى والمُحارِبِينَ وسائِرِ المُخالِفِينَ فِى الدِّين .

ثُمَّ ما وَضَعَتْهُ مِنْ نِظامِ الأُسْرَةِ ، ومُعاشَرَةِ الأَزْواجِ ، وتَرْبِيَةِ الأَوْلادِ ، وما يَنْبَغِى أَنْ يُلاحِظَهُ المُؤْمِنُ مِنَ الأَدَبِ فِى أَكْلِهِ وشُرْبِهِ ، ونَوْمِهِ ، وجُلُوسِهِ وحَدِيثِهِ ، . وبِالجُمْلَةِ كُلُّ ما يَعْمَلُهُ فِى نَهارِهِ ولَيْلِهِ ، لِمَعاشِهِ أَو لِمَعادِهِ ، مِمَّا لايُمْكِنُ لِلْقَوانِينِ

الوَضْعِيَّةِ والسِّياساتِ العَقْلِيَّةِ أَنْ تَفِىَ بِهِ .. أَو تَأْتِىَ عَلَيْه .

﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[1] والحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمِين .



(١) سُورَةُ الأَعْراف (مِنَ الآية ٤٣) .

شَرَفُ الإِنْسانِ واعْتِبارُهُ عَلَى حَسَبِ تَحَقُّقِهِ بِالتكاليفِ الشَّرْعِيَّة

فَلَقَدْ جاءَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يُبَيِّنُ للإِنْسانِ طَرِيقَ الخَيْرِ والسَّعادَةِ ، ويُبَيِّنُ لَهُ القُوَى المَجْمُوعَةَ فِيهِ ، وكَيْفَ يَتَحَكَّمُ فِيها ، وما هُوَ مِقْياسُ شَرَفِ الإِنْسانِ واعْتِبارِه .

فَمَنْ كانَ يَعْتَبِرُ أَنَّ شَرَفَهُ بِجَمْعِ المالِ ومَنْعِهِ ؛ فَإِنَّ جِبالَ الذَّهَبِ أَشْرَفُ مِنْهُ ، فَلْيَذْهَبْ إِلَيْها ويُقَبِّلُها ، ويَمْنَعُ الدَّوابَّ أَنْ تَطَأَها بِأَقْدامِها .

ومَنْ كانَ يَعْتَبِرُ أَنَّ الشَّرَفَ بِضَخامَةِ الجِسْمِ والهَيْئَةِ ؛ فَإِنَّ الفِيلَ والجَمَلَ أَشْرَفُ مِنْهُ ، لأَنَّهُما أَضْخَمُ مِنْهُ جِسْماً .

ومَنْ كانَ يَعْتَبِرُ أَنَّ الشَّرَفَ بِجَمالِ الهَيْئَةِ والزَّخْرَفَةِ ؛ فَإِنَّ الطَّاووسَ أَشْرَفُ مِنْهُ.

ومَنْ كانَ يَعْتَبِرُ أَنَّ الشَّرَفَ بِكَثْرَةِ إِتْيانِ النِّساءِ ؛ فَإِنَّ العُصْفُورَ أَسْرَعُ وأَقْوَى ..

فَما هُوَ إِذاً مِقْياسُ الشَّرَفِ والاعْتِبار ؟

نَعَم .. إِنَّ شَرَفَ الإِنْسانِ واعْتِبارَهُ يَكُونُ عَلَى حَسَبِ تَحَقُّقِهِ بِالتَّكاليفِ الشَّرْعِيَّةِ ، وتَمَسُّكِهِ بِما جاءَ عَنِ اللّهِ ورَسُولِهِ ﷺ ، إِذْ إِنَّ الشَّرِيعَةَ فِيها صَلاحُ الإِنسانِ وسَعادَتِهِ ، فَكُلَّما تَمَسَّكَ بِها كُلَّما ازْدادَ ارْتِقاءً فِي الكَمالِ الإِنْسانِي ، ونالَ شَرَفَ التَّقَرُّبِ والكَرامَةِ مِنَ اللّهِ تَعالَى :﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(١) ، ولَمْ يَقُلْ أَغْناكُمْ أَو أَقْواكُم أَو أَجْمَلَكُمْ ، وإِنَّما لِلإِنْسانِ مِنْ هَذِهِ الصِّفاتِ والقُوَى ما حَدَّدَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ، وبَيَّنَ لَهُ مَصارِفَها .

ولَقَدْ خَلَقَ اللّهُ تَعالَى الإِنْسانَ شَرِيفَ الأَصْلِ ، وشَرِيفَ الفَصْلِ ، وشَرِيفَ البِدايَةِ ، فَلْيَحْرِصْ عَلَى ذَلِكَ ، ولْيَرْجِعْ إِلَى رَبِّهِ كَرِيماً مُكَرَّماً كَما خَلَقَهُ .

أَمَّا شَرَفُ أَصْلِ الإِنْسانِ ، فَلَقَدْ خَلَقَ اللّهُ تَعالَى جِسْمَ آدَمَ بِيَدَيْهِ ، كَما قالَ لإِبْلِيسَ لَمَّا امْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ لآدَمَ :﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(٢) وقالَ تَعالَى :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٣) أَي سُجُودَ تَكْرِيمٍ وتَعْظِيم .

---

(١) سُورَةُ الحُجُرات (مِنَ الآيَة ١٣) . (٢) سُورَةُ ص (مِنَ الآيَة ٧٥) . (٣) سُورَةُ الحِجْر (الآيَة ٢٩) .

ولَقَدْ أَدْرَكَتِ المَلائِكَةُ سِرَّ قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ فَسَجَدوا كُلُّهُم لآدَمَ ، وأَمَّا إِبْلِيسُ فَقَدْ عَمِيَ عَنْ ذَلِكَ السِّرِّ وامْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ ، واعْتَرَضَ عَلَى حِكْمَةِ اللهِ تَعالَى ، وراحَ يَقْرِنُ النَّارَ بِالطِّينِ ، فَظَهَرَ لَهُ أَنَّ الشَّرَفَ لِمَنْ خَلَقَهُ اللهُ مِنْ نارٍ ، فَضَلَّ وكَفَرَ والعِياذُ بِاللهِ تَعالَى .

وقَوْلُهُ تَعالَى :﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، أَي رُوحاً بِدايَةً خَلَقْتُها مُشَرَّفَةً مُطَهَّرَةً ، وأَوْصَلْتُها إِلَى جِسْمِ آدَمَ ، ثُمَّ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ .

فَيَجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ شَرَفَ أَصْلِهِ أَنْ يُحافِظَ عَلَيْهِ ، ولا يُدَنِّسَ نَفْسَهُ ، بَلْ يُزَكِّيها بِما جاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَيَرْتَقِي فِي مَدارِجِ الكَمالِ حَتَّى يَحِلَّ ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ .(١)

ومَنْ أَعْرَضَ وبَقِيَ عَلَى دَنَسِهِ وخُبْثِهِ ، فَيَهْوَى أَسْفَلَ سافِلِينَ ، وصارَ فِي مُسْتَوَى البَهِيمَةِ الَّتي أَخْبَرَ عَنْها سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ :﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٢)

وقَدْ وَصَفَ سُبْحانَهُ بَلْعَمَ بنَ باعُوراءَ لَمَّا انْسَلَخَ عَنِ الأَوامِرِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتي جاءَ بِها سَيِّدُنا مُوسَى عليه السلام : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾(٣)

فَلا بُدَّ لِكُلِّ إِنْسانٍ أَنْ يَتَزَكَّى بِتَزْكِيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، حَتَّى تَتَحَقَّقَ لَهُ الإِنْسانِيَّةُ الكامِلَةُ العالِيَةُ ، ويَصِيرَ إِنْساناً كامِلاً بِالمَعْنَى كَما هُوَ إِنْسانٌ بِالصُّورَةِ والمَبْنَى.

ومَنْ أَعْرَضَ عَنْ تَزْكِيَةِ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وانْسَلَخَ مِنْ شَرِيعَتِهِ ﷺ ، فَقَدْ تَجَرَّدَ عَنْ حَقِيقَتِهِ الإِنْسانِيَّةِ ، وصارَ إِنْساناً بِالصُّورَةِ فَقَط ، ولَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ المَعْنَى والحَقِيقَةُ حَيَوانٌ بَهِيمِيٌّ شَهْوانِيٌّ ، لا يَعْرِفُ مِنَ الدُّنْيا إِلَّا الأَكْلَ والشُّرْبَ

---

(١) سُورَةُ القَمَر (الآيَة ٥٥) .
(٢) سُورَةُ الفُرْقان (مِنَ الآيَة ٤٤) .
(٣) سُورَةُ الأَعْراف (الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦) .

والشَّهْوَة ، قالَ تعالَى :﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾(١)

واعْلَمْ أَنَّ العِبْرَةَ مِنَ الأَشْياءِ لِلصِّفَةِ والحَقِيقَةِ ولَيْسَ لِلصُّوَرِ والشَّكْلِ ، فالسَّيَّارَةُ مَثلاً لَمْ تُسَمَّ سَيَّارَةً إلَّا لأَنَّها تَسِيرُ ، ولَوْ أُصِيبَتْ بِضَرَرٍ وعُطْلٍ ولَمْ تَعُدْ قادِرَةً عَلَى السَّيْرِ صارَتْ فِى صُورَتِها واسْمِها سَيَّارَةً ، ولَكِنَّها فِى مَعْناها وحَقِيقَتِها كُتْلَةَ حَدِيدٍ ومَعادِن .

وكَذَلِكَ الإِنْسانُ إنْ هُوَ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِالكَمالاتِ الإِنْسانِيَّةِ الَّتي جاءَ بِها سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَهُوَ فِى صُورَتِهِ إنْسانٌ لَكِنَّهُ حَيَوانٌ فِى الحَقِيقَةِ ، ومَنْ تَحَقَّقَ بِماجاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَدْ كَمُلَتْ لَهُ إنْسانِيَّتُهُ ، وصارَ إنْساناً فِى الصُّورَةِ وإنْساناً فِى المَعْنَى ، يَحْيا إنْساناً ويَمُوتُ إنْساناً ، ويُحْشَرُ إنْساناً ، ويَرْقَى فِى المَقاماتِ الإِنْسانِيَّةِ ، حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ عَلَى أَجْمَلِ صُورَةٍ إنْسانِيَّة .

ومِنْ وُجُوهِ الحاجَةِ إلَى تزْكِيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، أَنَّ التَّقَرُّبَ إلَى اللهِ تعالَى لا يَكُونُ إلَّا لِمَنْ طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ والرِّجْسِ ، وعالَجَ قَلْبَهُ مِنَ الأَمْراضِ والشُّبُهاتِ ، وإنَّ ذَرَّةَ فَسادٍ فِى نَفْسِ المُؤْمِنِ تَمْنَعُهُ عَنْ دُخُولِ الجَنَّةِ حَتَّى يَتَطَهَّرَ مِنْها ، وتَطِيبَ نَفْسُهُ ، ومَنْ لَمْ يُحَصِّلْ ذَلِكَ فِى الدُّنْيا ، ومات ولَمْ يَتُبْ ؛ فَسَيَمُرُّ عَلَى بَرازِخِ الآخِرَةِ لِيَطْهُرَ ويَطِيبَ ، ومَنْ كانَ الفَسادُ والخُبْثُ مُتَمَكِّناً فِيهِ ؛ فَلا بُدَّ لَهُ مِنْ غَمْسَةٍ فِى جَهَنَّم ، حَتَّى إذا تَطَهَّرَ وطابَ صارَ أَهْلاً لِدُخُولِ الجَنَّةِ ، لأَنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُها إلَّا طاهِرٌ طَيِّبٌ كَما قالَ تعالَى:﴿ طِبْتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾(٢) ، وقالَ :﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٣) .

وفِى الحَدِيثِ عَنْ عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْر)(٤) .

---

(١) سُورَةُ مُحَمَّد (مِنَ الآيَة ١٢) .
(٢) سُورَةُ الزُّمَر (مِنَ الآيَة ٧٣) .
(٣) سُورَةُ النَّحْل (الآيَة ٣٢) .
(٤) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فِى صَحِيحِهِ .

وقالَ ﷺ : (ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ : الدَّيُّوثُ ، والرَّجِلَةُ مِنَ النِّساءِ ، ومُدْمِنُ الخَمْرِ)[1] ، وفِي رِوايَةٍ : (والعاقُّ لِوالِدَيْهِ)[2] .

والدَّيُّوثُ : هُوَ الَّذي يَرْضَي السُّوءَ والعارَ ، ولا يُبالِي ولا تَأْخُذُهُ الغَيْرَةَ عَلَى أَهْلِهِ ؛ إِنْ نَظَرَ أَحَدٌ إِلَيْها أَو لامَسَها أَو شَمَّ رِيحَها .

والرَّجِلَةُ مِنَ النِّساءِ : هِيَ المَرْأَةُ الَّتي تَتَشَبَّهُ بِالرِّجالِ ، فِي كَلامِها وفِي أَفْعالِها.

كَما أَنَّ دَنَسَ النَّفْسِ يَحْجُبُ الإِنْسانَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعالَى ، ولِذَلِكَ أَخْبَرَ سُبْحانَهُ صِفَةَ أَهْلِ الفَلاحِ والفَوْزِ ، فَقالَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[3] ، وصِفَةَ أَهْلِ الجَنَّةِ : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾[4]

ولْيَعْلَمِ الإِنْسانُ العاقِلُ أَنَّ لِلذُّنُوبِ ظُلْمَةً تَحْجِبُ القَلْبَ عَنِ اللهِ تَعالَى ، فَلا يَرَى صاحِبُ القَلْبِ المُذْنِبُ حَلاوَةً فِي عِبادَتِهِ ، ولا يَجِدُ خُشُوعاً فِي قَلْبِهِ إِنْ هُوَ صَلَّى أَو قَرَأَ القُرْآنَ أَو ذَكَرَ اللهَ تَعالَى .

وقَدْ أَخْبَرَ سُبْحانَهُ عَنِ احْتِجابِ الكُفَّارِ عَنِ اللهِ تَعالَى بِسَبَبِ ظُلْمَةِ ذُنُوبِهِم ؛ حَتَّى يَنْتَبِهَ المُؤْمِنُونَ ويَتَجَنَّبُوا خَطَرَ الذُّنُوبِ ، قالَ تَعالَى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[5] ، أَي : خَيَّمَ وأَحاطَ بِقُلُوبِهِم ظُلْمَةُ ذُنُوبِهِم ، فَحَجَبَتْ قُلُوبَهُم عَنْ رَبِّهِم فِي الدُّنْيا ، وكانَتِ النَّتِيجَةُ فِي الآخِرَةِ : أَنِ احْتَجَبُوا عَنْ رُؤْيَةِ اللهِ تَعالَى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[6] ، ويَقُولُ ﷺ :

(إِنَّ العَبْدَ إِذا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْداءَ ، فَإِذا هُوَ نَزِعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ صَقُلَ قَلْبُهُ ، وإِنْ عادَ زِيدَ فِيها حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ....)[7] .

وفِي الحَدِيثِ أَيْضاً : (تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كالحَصَى عُوداً عُوداً ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبُها نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْداءَ ، وأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَها نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً بَيْضاءَ ،

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبراني .
(٢) أَخْرَجَهُ البَزَّار .
(٣) سُورَةُ الأَعْلَى (الآيتان ١٤ ، ١٥) .
(٤) سُورَةُ طه (الآيَة ٧٦) .
(٥) سُورَةُ المُطَفِّفِين (الآيَة ١٤) .
(٦) سُورَةُ المُطفِّفِينَ (الآيَة ١٥) .
(٧) أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ عَنْ سَيِّدِنا (أَبِي هُرَيْرَةَ) رضي الله عنه .

حَتَّى تَصيرَ قُلُوبُ النَّاسِ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفا ، لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مادامَتِ السَّماواتُ والأَرْضُ ، والآخَرُ أَسْوَدُ مِرْباداً كالكُوزِ مُجَخِيًّا ، لا يَعْرِفُ مَعْروفاً ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً ، إلاَّ ما أُشْرِبَ مِنْ هَواه) .[1]

عُوداً عُوداً : أَي تَعَوَّدَ مَرَّةً .. ، أُشْرِبُها : أَي شَرِبَها واسْتَحْلاها .

كالكُوزِ مُجَخِيًّا : كالكُوزِ المَقْلُوبِ رَأْساً عَلَى عَقِب .

فَلابُدَّ إذاً للإنْسانِ المُؤْمِنِ لِكَي يَحْفَظَ قَلْبَهُ مِنْ زَوالِ الإيمانِ ، أَو زَيْفِهِ ، لابُدَّ لَهُ أَنْ يُحاسِبَ نَفْسَهُ ، ويُبادِرَ إِلَى التَّوْبَةِ والاسْتِغْفارِ ، عَمَلاً بوَصِيَّةِ سَيِّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ وإِرْشادِهِ ، وقَدْ قالَ ﷺ : (الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِما بَعْدَ المَوْتِ ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها وتَمَنَّى عَلَى الله)[2] .

وقَوْلُهُ : (دانَ نَفْسَهُ) أَي : حاسَبَها ، و(الكَيِّسُ) هُوَ : الفَطِنُ اللَّبيب .

والمُحاسَبَةُ تَقْتَضِي التَّوْبَةَ ، والتَّوْبَةُ هِيَ أَوَّلُ مَقاماتِ الإيمانِ الكامِلِ ، كَما قالَ تَعالَى فِي أَوَّلِ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنين : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[3] ، أَي : وهَؤُلاءِ هُمْ أَهْلُ الإيمانِ الكامِلِ ، أَهْلُ البَشائِرِ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ ﷺ .



---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ سَيِّدِنا (حُذَيْفَة بن اليمان) رضي الله عنه .

(٢) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِي) ، و (ابْنُ ماجه) .

(٣) سُورَةُ التَّوْبَة (الآية ١١٢) .

إيضاحُ المَعانِي .. بتَعْرِيجٍ حَوْلَ الرُّوحِ الإنْسانِي

أَوَّلاً : أَمَّاحَقِيقَةُ الرُّوحِ الإنْسانِي ؛ فَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْها ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى عَلَيْهِ الجَوابَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.(١)

وذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ كانَ فِي مَكَّةَ ، سَأَلَتْهُ قُرَيْشٌ عَنِ الرُّوحِ ؛ كَما أَخْرَجَ الإمامُ (أَحْمَدُ) فِي مُسْنَدِهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : قالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُود : أَعْطَوْنا شَيْئاً نَسْأَلُ عَنْهُ هَذا الرَّجُلَ ، فَقالُوا : سَلُوهُ عَنِ الرُّوح ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

ثُمَّ وإنَّهُ ﷺ لَمَّا هاجَرَ إِلَى المَدينَةِ ، سَأَلَهُ اليَهُودُ عَنِ الرُّوحِ ، كما جاءَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) واللَّفْظُ لِلْبُخارِي ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ : (بَيْنا أَنا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ ، وهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ ، إِذْ مَرَّ اليَهُودُ ، فَقالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ : سَلُوهُ (أَي سَلُوا مُحَمَّداً ﷺ) عَنِ الرُّوح .

فَقالَ (أَي بَعْضُهُم) : ما رابَكُم إِلَيْه .. وقالَ بَعْضُهُم : لا (أَي لا تَسْأَلُوهُ) ، لا يُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ (أَي : وذَلِكَ يُغِيظُكُم بِمَعْرِفَتِهِ الجَوابَ) فَقالُوا : سَلُوهُ .. فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوح .

فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ شَيْئاً .. قالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، فَقُمْتُ مَقامِي ، فَلَمَّا نَزَلَ الوَحْيُ قالَ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ... الآيَة .

والمُرادُ بِالرُّوحِ هُنا الرُّوحُ الإنْسانِيُّ ، بِدَلِيلِ ما وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، أَنَّهُ قالَ إِنَّ اليَهُودَ قالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَخْبِرْنا عَنِ الرُّوحِ ، وكَيْفَ تُعَذَّبُ الرُّوحُ الَّتي فِي الجَسَدِ ، وإِنَّما الرُّوحُ مِنَ اللهِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ

---

(١) سُورَةُ الإسْراء (الآيَة ٨٥) .

مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ... الآيَة .

والمَعْنَى (واللهُ أَعْلَمُ) : أَنَّ الرُّوحَ مِنْ عَالَمِ الأَمْرِ الرَّبانيِّ اللَّطيفِ ، وذَلِكَ أَنَّ هُناكَ عالَماً يُسَمَّى عالَمُ الأَمْرِ ، وعالَماً يُسَمَّى عالَمُ الخَلْقِ ، وذَلِكَ ثابِتٌ بِالآياتِ القُرْآنِيَّةِ والأَحادِيثِ النَّبَوِيَّة .

فَعالَمُ الخَلْقِ هُوَ : ما خُلِقَ بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ تَعالَى لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ ، ولَكِنْ مِنْ مادَّةٍ ، ويَجْرِي عَلَيْها التَّركِيبُ والتَّطْوِيرُ والتَّوالُدُ ، وذَلِكَ كَجِسْمِ الإِنْسانِ المَخْلُوقِ مِنْ تُرابٍ .

وأَمَّا عالَمُ الأَمْرِ فَهُوَ : ما خُلِقَ بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى لَهُ : كُنْ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مادَّةٌ ولا تَطْوِيرٌ ولا تَوالُدٌ ، ومِنْ ذَلِكَ هَذا الرُّوحُ الإِنْسانِي .

فالإِنْسانُ فِيهِ مَجْمَعُ العالَمَيْنِ : فَجِسْمُهُ مِنْ عالَمِ الخَلْقِ الكَثِيفِ المادِيِّ ، ورُوحُهُ مِنْ عالَمِ الأَمْرِ اللَّطِيف .

ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى سَجَّلَ عَلَى العِبادِ قِلَّةَ العِلْمِ ، وكَثْرَةَ الجَهْلِ ، وأَنَّ ما عِنْدَهُم مِنَ العِلْمِ فَهُوَ مِمَّا آتاهُم وتَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ هُوَ سُبْحانَهُ ، وأَنَّ العِلْمَ المُحِيطَ بِكُلِّ شَيْءٍ للهِ تَعالَى وَحْدَهُ ؛ فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾.

وهَذِهِ القِلَّةُ فِي العِلْمِ الَّتي أُوْتُوها هِيَ فِي غايَةِ القِلَّةِ ، ومَهما تَصَوَّرَها الإِنْسانُ مِنْ قِلَّةٍ فَهِيَ أَقَلُّ وأَقَلُّ ، وقَدْ ضَرَبَ (سَيِّدُنا الخَضِرُ) عَلَى نَبِيِّنا وعَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مِثالاً لِهَذِهِ القِلَّةِ فِي العِلْمِ الَّتي أُعْطِيها سائِرُ المَخْلُوقاتِ بِالنِّسْبَةِ لِلْعِلْمِ الإِلَهِيِّ الَّذي لا يَتَناهَى ؛ حَيْثُ قالَ لِسَيِّدِنا (مُوسَى) عَلَى نَبِيِّنا وعَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، حِينَ اجْتَمَعا وجَلَسا عَلَى شاطِيءِ البَحْرِ ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَعالَى عُصْفُوراً ، فَوَقَفَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، ونَقَرَ فِي البَحْر .

فَقالَ لَهُ الخَضِرُ عليه السلام : يا مُوسَى ما عِلْمِي وعِلْمُكَ ، وعِلْمُ سائِرِ الخَلائِقِ مِنْ عِلْمِ اللهِ تَعالَى إِلَّا كَما نَقَرَ هَذا العُصْفُورُ مِنَ البَحْرِ .

كَما جاءَ هَذا في (الصَّحيحَيْنِ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، يَحْكِي ذَلِكَ عَنْ مُوسَى والخَضِرِ عَلَيْهِما السَّلامُ ، بِإِقْرارٍ مِنْهُ ﷺ لِذلِكَ .

وهَذا المِثالُ جاءَ لِبَيانِ سِعَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالَى الَّذي لا يَتَناهَى ، وقِلَّةِ عُلُومِ الخَلائِقِ المُتَلاشِيَةِ بِالنِّسْبَةِ لِعِلْمِ اللهِ تَعالَى ، ولَمْ يَجِيءْ هَذا المِثالُ لِتَحْدِيدِ النِّسْبَةِ ؛ وإلاَّ فَلا نِسْبَةَ ولا تَناسُب .

فَهُوَ سُبْحانَهُ العَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، عِلْماً ذاتِيّاً واجِباً ، وعِلْمُهُ قَدِيمٌ لا أَوَّلَ لَهُ ولا آخِرَ لَهُ ، وقَدْ أَوْجَدَ العالَمَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ سابِقٌ ، قالَ تَعالَى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (١)

فَعِلْمُهُ بِالمَخْلُوقاتِ سابِقٌ عَلَيْها ، وإلاَّ كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُكَوِّنَها ويُصَوِّرَها إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِها سابِقٌ ؟ كَما جاءَ التَّنْبِيهُ إلَيْهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَة .

هَذا .. وإنَّ عِلْمَهُ تَعالَى مُحِيطٌ بِما كانَ وبِما يَكُونُ ، فَهُوَ يَعْلَمُ ما كانَ وما يَكُونُ ، وما لا يَكُونُ ، ويَعْلَمُ ما لا كَيْفَ يَكُونُ لَوْ كانَ : قالَ تَعالَى فِي الكُفَّار :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

وقالَ تَعالَى فِي الكُفَّارِ حِينَ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ، وتَمَنَّوا أَنْ لَوْ عادوا إلَى الدُّنْيا لِيُصْلِحُوا أَمْرَهُم : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ (٣) الآيَة .

ثُمَّ إنَّ عالَمَ الأَمْرِ الَّذي أَلْمَحْنا إلَيْهِ هُوَ داخِلٌ فِي عالَمِ المَلَكُوتِ ؛ الَّذي جاءَ ذِكْرُهُ فِي الآياتِ القُرآنِيَّةِ ، والأَحادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ، كَما أَنَّ عالَمَ الخَلْقِ داخِلٌ فِي جُمْلَةِ عالَمِ المُلْكِ ، وكُلٌّ مِنَ العالَمَيْنِ المَذْكُورَيْنِ : المُلْكِ والمَلَكُوتِ بِيَدِ اللهِ تَعالَى ، يَتَصَرَّفُ فِيهِما كَما يَشاءُ ، كَما هُوَ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ المُوافِقَةِ لِعِلْمِهِ سُبْحانَهُ :

قالَ تَعالَى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ . (٤)

وقالَ تَعالَى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ . (٥)

---

(١) سُورَةُ المُلْك (الآيَة ١٤).
(٢) سُورَةُ الأَنْفال (الآيَة ٢٣).
(٣) سُورَةُ الأَنْعام (من الآيَة ٢٨)
(٤) سُورَةُ المُلْك (الآيَة ١).
(٥) سُورَةُ يس (الآيَة ٨٣).

فَكُلُّ شَيْءٍ كائِنٌ فِي عالَمِ الخَلْقِ ما قامَ إلاَّ بِالمَلَكُوتِ ، وهُوَ الأَمْرُ الرَّبانِيُّ الَّذي قامَتْ بِهِ الأَشْياءُ ، فَمَلَكُوتُ الأَجْسامِ الإِنْسانِيَّةِ هُوَ رُوحُها .

وفِي (السُّنَنِ) عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه ، أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي فِي اللَّيْلِ ، وكانَ ﷺ يَقُولُ : (اللهُ أَكْبَرُ - ثلاثاً - ، ذو المَلَكُوتِ والجَبَرُوتِ والكِبْرِياءِ والعَظَمَة) .

وفِي (سُنَنِ) أَبي داوُد ، عَنْ عَوْفِ بنِ مالِكٍ الأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه قالَ قامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ ، لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إلاَّ وَقَفَ وسَأَلَ ، ولا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذابٍ إلاَّ وَقَفَ وتَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيامِهِ ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ : (سُبْحانَ ذِي الجَبَروتِ والمَلَكُوتِ والكِبْرِياءِ والعَظَمَة) .

وفِي (مُسْنَدِ) الإِمامِ أَحْمَدَ ، عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه ، قالَ : قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَرَأَ السَّبْعَ الطُّوالَ فِي سَبْعِ رَكَعاتٍ ، وكانَ ﷺ إذا رَكَعَ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ ، وقالَ : (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) ، ثُمَّ قالَ : (الحَمْدُ لِلّهِ ذِي المَلَكُوتِ والجَبَروتِ والعَظَمَةِ والكِبْرِياء) .

وقَدْ كَثُرَتْ أَقْوالُ العُلَماءِ فِي الفَرْقِ بَيْنَ هَذِهِ العَوالِمِ الثَّلاثَةِ ، والحَقُّ ما قالَهُ مُحَقِّقُو العارِفِينَ نَفَعَنا اللهُ تَعالَى بِهِم أَجْمَعِينَ : أَنَّ عالَمَ الأَمْرِ ، ويُسَمَّى عالَمُ المَلَكُوت : هُوَ عالَمُ الأَرْواحِ والرُّوحانِيَّاتِ والنُّفُوسِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُوجَدُ بِأَمْرِ الحَقِّ سُبْحانَهُ بِلا واسِطَةِ مادَّةٍ ومُدَّة .

وأَنَّ عالَمَ المُلْكِ ، ويُسَمَّى عالَمُ الشَّهادَةِ : هُوَ عالَمُ الأَجْسامِ والجِسْمانِيَّاتِ ، وهُوَ ما يُوجَدُ بَعْدَ الأَمْرِ بِمادَّةٍ ومُدَّةٍ ، ويَجْرِي عَلَيْهِ التَّركِيبُ والتَّوالُدُ .

وأَمَّا عالَمُ الجَبَروتِ ، فاخْتَلَفَ فِيهِ العارِفُونَ :

فَقالَ بَعْضُهم : هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الجَبْرِ وهُوَ القَهْرُ ، فَيَشْمَلُ عالَمَ البَرْزَخِ بَعْدَ المَوْتِ وعالَمَ مَوْقِفِ الحَشْرِ ؛ لِأَنَّ فِيهِما يَظْهَرُ حُكْمُ القَهْرِ الإِلَهِي .

وقِيلَ : هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الإِجْبارِ بِمَعْنَى الاسْتِعلاءِ ، فَيَشْمَلُ عالَمَ العُقُولِ والنُّفُوسِ المُجَرَّدَةِ ، لاسْتِعْلاءِ هَذا العالَمِ عَنْ تَرَكُّبِهِ مِنَ العَناصِر .

وعِنْدَ الشَّيْخِ أَبِي طالِبٍ المَكِّي : هُوَ عالَمُ العَظَمَةِ ، فَيَشْمَلُ عالَمَ الآخِرَةِ ، وعالَمَ أَرْضِ الحَقِيقَةِ الَّتي تُرَى فِيها الأَشْياءُ عَلَى حَقائِقِها .

وقَدْ حَثَّ اللّهُ تَعالَى عِبادَهُ أَنْ يَنْظُروا فِي العالَمَيْنِ : عالَمِ المُلْكِ ، وعالَمِ المَلَكُوتِ ، ولَكِنْ فَرَّقَ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ لافْتِراقِ العالَمَيْنِ : فَقالَ تَعالَى فِي عالَمِ المُلْكِ :﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾[1].... الآيات .

وقالَ تَعالَى :﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾[2] فالنَّظَرُ فِي هَذهِ الآياتِ مُتَعَدٍّ لِما بَعْدَهُ بِإِلَى ، لِأَنَّ المَنْظُورَ إِلَيْهِ يُرَى بِحاسَّةِ البَصَرِ وهِيَ العَيْنُ ، ويُشْهَدُ حِسّاً .

وأَمَّا عالَمُ المَلَكُوتِ فَقالَ تَعالَى فِيهِ :﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ ﴾[3].

فَأَمَرَ سُبْحانَهُ بِالنَّظَرِ فِيهِ ، والمُرادُ بِذلِكَ نَظَرَ التَّفَكُّرِ والاعْتِبارِ والتَّعَقُّلِ ، والاسْتِبْصارِ فِي المَلَكُوتِ الَّذي أَقامَ اللّهُ تَعالَى بِهِ الأَشْياءَ ، وأَمْسَكَ بِهِ عَلَيْها قُواها وقِوامَها ، وهَذهِ مِنَ الأُمُورِ الغَيْبِيَّةِ الَّتي لا يَراها إِلاَّ مَنْ أَطْلَعَهُ اللّهُ تَعالَى عَلَى ما شاءَ مِنْها ، وأَشْهَدَهُ ذلِكَ ، قالَ تَعالَى :﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ ﴾[4].

وأَعْظَمُ مَنْ أَراهُ اللّهُ تَعالَى ذلِكَ وأَطْلَعَهُ عَلَى جَمِيعِ ما هُنالِكَ ؛ هُوَ السَّيِّدُ الأَكْرَمُ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ ، حَيْثُ قالَ مُخْبِراً عَنْ ذلِكَ المَشْهَدِ : (فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ ، وعَرَفْتُ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) سُورَةُ ق (الآيَة ٦) .
(٢) سُورَةُ الغاشِيَة (الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .
(٣) سُورَةُ الأَعْراف (الآيَة ١٨٥) .
(٤) سُورَةُ الأَنْعام (الآيَة ٧٥) .

وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾) .

كَما جاءَ فِى (سُنَنِ) التِّرْمِذي ، و(مُسْنَدِ) أَحْمَدَ ، وغَيْرِهِما .

وفِى رِوايَةِ التِّرْمِذِي : (فَعَلِمْتُ ما فِي السَّمَواتِ وما فِى الأَرْضِ) .

وفِى رِوايَةِ الطَّبَرانِي : (فَعَلَّمَنِي كُلَّ شَىْءٍ) .

ثانِياً : إِنَّ الرُّوحَ الإِنْسانِيَّةَ هِىَ : شَرِيفَةٌ كَرِيمَةٌ ، قُدُسِيَّةٌ عالِيَةٌ ، أَعْلَنَ اللّٰهُ تَعالَى شَرافَتَها وكَرامَتَها بِإِضافَتِها إِلَيْهِ حَيْثُ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾(١) .

فَأَخْبَرَ سُبْحانَهُ عَنْ شَرَفِ الإِنْسانِ : جِسْماً ورُوحاً :

أَمَّا شَرَفُ جِسْمِهِ : فَقَدْ سَوَّاهُ هُوَ سُبْحانَهُ ، وأَكْمَلَهُ وعَدَّلَهُ وأَحْسَنَهُ ، كَما أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ ، وهَذا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾(٢) .

فَجِسْمُ الإِنْسانِ لَيْسَ كَبَقِيَّةِ الأَجْسامِ البَهِيمِيَّةِ الحَيَوانِيَّةِ ، بَلْ هُوَ مُشَرَّفٌ بِتَسْوِيَةِ اللّٰهِ تَعالَى لَهُ ، وتَعْدِيلِهِ وإِحْسانِ تَقْوِيمِهِ .

وأَمَّا شَرَفُ رُوحِهِ : فَقَدْ أَضافَها اللّٰهُ تَعالَى إِلَيْهِ حَيْثُ قالَ :﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ والنَّفْخُ هُنا كِنايَةٌ عَنْ إِيصالِ الرُّوحِ بِالجِسْمِ ، وإِفاضَتِها عَلَى ذَرَّاتِهِ كُلِّها بِالحَياةِ بَعْدَ أَنْ صارَ مُسَوًّى ، ومُسْتَعِدّاً لِلرُّوحِ ، و ﴿ مِن ﴾ الَّتي فِى قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ مِن رُّوحِى ﴾ وهِىَ لِلابْتِداءِ ، أَي : مِنْ رُوحٍ بَدْءُ خَلْقِها وإِيجادِها مِنَ اللّٰهِ سُبْحانَهُ .

وفِى هَذا بَيانٌ أَنَّ الرُّوحَ الإِنْسانِيَّةَ لَيْسَتْ كَغَيْرِها مِنْ أَرْواحِ البَهائِمِ والحَيواناتِ ، بَلْ هِىَ فِى أَوْجِ الشَّرَفِ والكَرامَةِ ، والاسْتِعْدادِ لِلْفُيُوضاتِ والمَعارِفِ الإِلَهِيَّةِ ، والقَضايا الإِيمانِيَّةِ ، وفِيها الأَهْلِيَّةُ الكامِلَةُ لأَنْ تَكُونَ مَوْضِعَ الخِطاباتِ الإِلَهِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ : بِالأَوامِرِ والمَناهِي ، والآدابِ والأَخْلاقِ العالِيَةِ ، فَيُخاطِبُهُ اللّٰهُ تَعالَى بِقَوْلِهِ :﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ وبِقَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وبِقَوْلِهِ ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ ، ونَحْوَ ذَلِكَ .

---

(١) سُورَةُ صٓ (الآيَة ٧٢) .

(٢) سُورَةُ صٓ (مِنَ الآيَة ٧٥) .

والرُّوحُ هِيَ : مِنَ العالَمِ المَلَكُوتِي العُلْوِيِّ ، هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ ، وقُرِنَتْ بِهَذا الجِسْمِ الإِنْسانِيِّ :

فَإِذا أَجاعَ الإِنْسانُ بَدَنَهُ وشَغَلَهُ بِالعِبادَةِ ، وأَقامَهُ فِي خِدْمَةِ مَوْلاهُ تَعالَى بِالعَمَلِ فِيما أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ سُبْحانَهُ ، . وَجَدَتْ رُوحُهُ خِفَّةً ولَطافَةً ، وشَعَرَتْ بِاللَّذَّةِ والرَّاحَةِ فَتاقَتْ إِلَى المُسْتَوى الَّذي هَبَطَتْ مِنْهُ ، واشْتاقَتْ إِلَى عالَمِها العُلْوِيِّ المُقَدَّس .

وإِذا أَثْقَلَ الإِنْسانُ بَدَنَهُ بِالمَآكِلِ والمَشارِبِ ، وأَخْلَدَ إِلَى الشَّهَواتِ وكَثْرَةِ النَّوْمِ والرَّاحَةِ ، وانْهَمَكَ فِي اللَّذائِذِ الجِسْمِيَّةِ ، ثَقُلَتِ الرُّوحُ ، وهَبَطتْ مِنْ عالَمِها ، وصارَتْ أَرْضِيَّةً سُفْلِيَّةً .

ولِذَلِكَ تَرَى الرَّجُلَ الصَّالِحَ فِي العَمَلِ ، الصَّادِقَ فِي عِبادَتِهِ لِرَبِّهِ ، المُخْلِصَ لِلّهِ تَعالَى دِينَهُ ، تَرَى بَدَنَهُ فِي الأَرْضِ ، ولَكِنَّ رُوحَهُ وقَلْبَهُ فِي العالَمِ العُلْوِيِّ يَجُولُ ، كَما وَرَدَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ لِحارِثَةَ رضي الله عنه الَّذي عَزَفَتْ (زَهَدَتْ) نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيا : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارِثَةُ بنُ مالِك ؟ .. فَقالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً .

فَقالَ ﷺ : (إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَما حَقِيقَةُ إِيمانِكَ ؟).

فَقالَ : عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيا ، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي ، وأَظْمَأْتُ نَهارِي ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بارِزاً لِلْحِسابِ ، ولَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزاوَرونَ فِيها ، ولَكَأَنِّي أَسْمَعُ عِواءَ أَهْلِ النَّار .

فَقالَ ﷺ : (عَبْدٌ نَوَّرَ اللّهُ الإِيمانَ فِي قَلْبِهِ .. عَرَفْتَ فالْزَم)[1] .

ورَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي كِتابِ الإِيمانِ بِإِسْنادِهِ ، عَنْ مُحَمَّدِ بنِ صالِحٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ لَقِيَ عَوْفَ بنَ مالِكٍ ، فَقالَ : (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا عَوْفُ بنُ مالِك ؟) .. فَقالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً .

فَقالَ رَسُولُ اللّه ﷺ : (إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَما حَقِيقَةُ ذَلِكَ ؟) .

قالَ : يا رَسُولَ اللّه ، أَطْلَقْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيا ، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي ، وأَظْمَأْتُ

---

(١) أَوْرَدَهُ (ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبلي) فِي جامِعِ العُلُومِ والحِكَمِ ، والحافِظُ (ابْنُ حَجَر) فِي الإِصابَة .

هَواجِري (جَمْعُ هاجِرَةٍ وهِيَ الظَّهِيرَة) ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزاوَرونَ فِيها ، وكأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضاغُونَ فِيها (يَصِيحُونَ ويَسْتَصْرِخُونَ) .

فَقالَ ﷺ : (عَرَفَتْ (أَو لُقِّنْتَ) فالْزَم) .

وفِي رِوايَةٍ : (عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ) .

وعَلَى العَكْسِ ، فَإِنَّ الكُفَّارَ والفُجَّارَ لَمَّا أَخْلَدوا إِلَى الأَرْضِ ، وعَمُوا وصَمُّوا فِي شَهَواتِهِم البَهِيمِيَّةِ ، وأَهْوائِهِم السُّفْلِيَّةِ ، فَإِنَّ أَرْواحَهُم هَبَطَتْ مِنْ عَلْيائِها ، وصارَتْ أَرْضِيَّةً دَنِيَّةً .

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾[1] ، أَي : لَمْ يَتَحَقَّقْ بِمَواجِبِها ، ولَمْ يَتَلَبَّسْ بِمَعانِيها ، بَلِ انْخَلَعَ مِنْها ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ فاصْطادَهُ وافْتَرَسَهُ ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ بَعْدَ أَنْ كانَ مِنَ الرَّاشِدِينَ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ بِتِلْكَ الآياتِ الكَرِيمَةِ العالِيَةِ ، فَإِنَّها بِها يَعْلُو عالِي الهِمَّةِ ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَي : مالَ إِلَى مَلاذِّها وزَخارِفِها كُلَّ المَيْلِ ، حُبًّا فِيها ، وهُياماً بِها ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ وفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى دَناءَةِ هِمَّتِهِ ، وخِسَّةِ بُغْيَتِهِ ، حَيْثُ إِنَّهُ اخْتارَ الأَسْفَلَ الأَدْنَى عَلَى الأَشْرَفِ الأَعْلَى ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ .

أَي : شَأْنُ الكَلْبِ أَنْ يَلْهَثَ إِنْ تَرَكْتَهُ أَو حَمَلْتَ عَلَيْهِ وطَرَدْتَهُ ، وكَذلِكَ مَنْ كَفَرَ وأَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ فَهُوَ يَلْهَثُ عَلَى الدُّنْيا مُتَكالِباً عَلَيْها ، فَهُوَ إِنْ تَرَكْتَهُ يَلْهَثْ عَلَى الدُّنْيا ، ولا يَعْلُو عَنْها بِهِمَّتِهِ وعَزِيمَتِهِ ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثالِثاً : ذَهَبَ جُمْهُورُ العُلَماءِ إِلَى أَنَّ الأَرْواحَ الإِنْسانِيَّةَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ الأَجْسادِ ، واسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِما جاءَ فِي حَدِيثِ المِعْراجِ المَرْوِيِّ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَنَّ

---

(١) سُورَةُ الأَعْراف (الآيَةُ ١٧٥) .

النَّبىَّ ﷺ قالَ فِى حَدِيثِهِ عَنِ المِعْراجِ : (فَلَمَّا فُتِحَ (أَي فَتَحَ خازِنُ السَّماءِ الدُّنْيا البابَ لَنا) عَلَوْنا السَّماءَ الدُّنْيا ، فَإِذا رَجُلٌ قاعِدٌ ، عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ ، وعَلَى يَسارِهِ أَسْوِدَةٌ ، إِذا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وإِذا نَظَرَ قِبَلَ شِمالِهِ بَكَى .. فَقالَ : مَرْحَباً بِالنَّبِىِّ الصَّالِحِ والابْنِ الصَّالِحِ .

قالَ ﷺ : قُلْتُ لِجِبْرِيلَ : مَنْ هَذا ؟ .. قالَ هَذا آدَمُ ، وهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ (أَي : أَرْواحُ بَنِيهِ) فَأَهْلُ اليَمِينِ هُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ ، والأَسْوِدَةُ الَّتي عَنْ شِمالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فإِذا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وإِذا نَظَرَ عَنْ شِمالِهِ بَكَى) .. الحَدِيث .

فَهذا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَرْواحَ مَخْلُوقَةٌ ومُودَعَةٌ هُناكَ فِى السَّماءِ ، فَإِذا كَمُلَ لِلْجِسْمِ اسْتِعْدادُهُ لِتَقَبُّلِ هَذِهِ الرُّوحِ ، بِأَنْ مَضَى عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فِى رَحِمِ أُمِّهِ ، . أَمَرَ اللهُ تَعالَى المَلَكَ أَنْ يَأْتِىَ بِهَذِهِ الرُّوحِ ، فَيَنْفُخَها فِى الجَنِينِ ، فَيَحْيا حَياةً رُوحِيَّةً فَوْقَ الحَياةِ النَّامِيَةِ الَّتى كانَ عَلَيْها قَبْلَ أَنْ تَمْضِىَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وهُوَ فِى الرَّحِمِ ، فَما يَظْهَرُ لِلْجَنِينِ مِنْ حَرَكَةٍ قَبْلَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ؛ فَتِلْكَ حَرَكَةُ نُمُوٍّ كَما تَتَحَرَّكُ النَّامِياتُ مِنَ الزُّروعِ ونَحْوُها ، وأَمَّا الحَرَكَةُ الرُّوحِيَّةُ فَهِىَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ .

واسْتَدَلَّ العُلَماءُ عَلَى تَقَدُّمِ خَلْقِ الأَرْواحِ عَلَى الأَجْسامِ بِما ثَبُتَ مِنْ قَضِيَّةِ عالَمِ الذَّرِّ ، وذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالَى بَعْدَ أَنْ خَلَقَ آدَمَ عليه السلام ، اسْتَخْرَجَ مِنْهُ الذَّراريَ الَّتي سَيَخْلُقُها مِنْهُ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، وأَفاضَ عَلَيْها الأَرْواحَ ، وأَخَذَ عَلَيْهِم العَهْدَ ، وأَشْهَدَهُم عَلَى ذَلِكَ .

قالَ تَعالَى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[1] أَي: أَنْتَ رَبُّنا - ﴿ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾.[2]

جاءَ فِى (مُسْنَدِ) الإِمامِ أَحْمَد ، عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله عنه فِى هَذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ قالَ :

---

(١) ، (٢) سُورَةُ الأَعْراف (الآيَة ١٧٢) .

(جَمَعَهُم اللّهُ تعالَى فَجَعَلَهُم أَرْواحاً ، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فاسْتَنْطَقَهُم فَتَكَلَّمُوا ، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ والمِيثاقَ ، وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم ؟ قالوا : بَلَى .

قالَ : فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُم السَّمواتِ السَّبْعَ ، والأَرَضِينَ السَّبْعَ ، وأُشْهِدُ عَلَيْكُم أَباكُم آدَمَ عليه السلام : أَنْ تَقُولُوا لَمْ نَعْلَمْ بِذَلِكَ .

اعْلَمُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ غَيْرِي ، ولا رَبَّ غَيْرِي ، فَلا تُشْرِكُوا بِي شَيْئاً .

إِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُم رُسُلِي يُذَكِّرُونَكُم عَهْدِي ومِيثاقِي ؛ أَي : هَذا العَهْدَ والمِيثاقَ الَّذي أُخِذَ عَلَيْكُم الآنَ ، وأُنْزِلُ عَلَيْكُم كُتُبِي .

قالوا : شَهِدْنا بِأَنَّكَ رَبُّنا وإِلَهُنا ، لا رَبَّ غَيْرُكَ ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ) ا هـ .

وَرواهُ الحاكِمُ وصَحَّحَ إِسْنادَهُ وأَقَرَّهُ الذَّهَبِي ، ورَواهُ ابْنُ أَبِي حاتِمٍ ، وابْنُ جَرِيرٍ ، وابْنُ مَرْدُويه وغَيْرُهُم .

وقَدْ جاءَ ذَلِكَ المَعْنَى فِي عِدَّةِ أَحادِيثَ مَرْفُوعَةٍ ، ومِنْ ذَلِكَ ما أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي وغَيْرُهُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قالَ : (لَمَّا خَلَقَ اللّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خالِقُها إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، وجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَي كُلِّ إِنْسانٍ مِنْهُم وَبِيصاً مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى آدَمَ .. فَقالَ :

أَي رَبِّ مَنْ هَؤُلاءِ ؟ .

قالَ : هَؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ) .

ومِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى تَقَدُّمِ خَلْقِ الأَرْواحِ عَلَى الأَجْسامِ ، ما أَخْرَجَهُ الإِمامُ مُسْلِمٌ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: (الأَرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَما تَعارَفَ ائْتَلَفَ وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ) .

فالأَرْواحُ الَّتي تَقُومُ بِها الأَجْسادُ هِيَ جُمُوعٌ مُتَجَمِّعَةٌ ، وأَصْنافٌ مُصَنَّفَةٌ وهِيَ فِي عالَمِ الأَمْرِ قَبْلَ عالَمِ الخَلْقِ الجِسْمانِي ، فَما تَعارَفَ مِنْها فِي ذَلِكَ العالَمِ إِلَى بَعْضِها ائْتَلَفَ هَهُنا فِي هَذا العالَمِ الجِسْمانِي ، وما تَناكَرَ مِنْها هُناكَ اخْتَلَفَ هَهُنا .

قالَ العَلَّامَةُ المُناوِي .. حَوْلَ هَذا الحَدِيث :

(فالائْتِلافُ والاخْتِلافُ لِلْقُلُوبِ والأَرْواحِ البَشَرِيَّةِ ، الَّتي هِيَ النُّفُوسُ النَّاطِقَةُ ، مَجْبُولَةٌ عَلَى ضَرائِبَ مُخْتَلِفَةٍ ، وشَواكِلَ مُتَباينَةٍ ، فَكُلُّ ما تَشاكَلَ مِنْها فِي عالَمِ الأَمْرِ تَعارَفَ فِي عالَمِ الخَلْقِ ، وكُلُّ ما كانَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ فِي عالَمِ الأَمْرِ تَناكَرَ فِي عالَمِ الخَلْقِ) .

ومِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى تَقَدُّمِ خَلْقِ الأَرْواحِ ، ما رَواهُ ابْنُ مَنْدَهِ مَرْفُوعاً ، قالَ : (خَلَقَ اللهُ الأَرْواحَ قَبْلَ الأَجْسادِ بِأَلْفَي عام) .

وأَوَّلُ الأَرْواحِ البَشَرِيَّةِ خَلْقاً هُوَ رُوحُ السَّيِّدِ الأَعْظَمِ ﷺ ، كَما أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﷺ : (كُنْتُ أَوَّلَ النَّاسِ فِي الخَلْقِ وآخِرَهُم فِي البَعْثِ) رَواهُ ابْنُ سَعْدٍ مُرْسَلاً بِإِسْنادٍ صَحِيح .

ورَواهُ أَبو نُعَيْمٍ ، وابْنُ حاتِمٍ فِي (تَفْسِيرِهِ) وابْنُ لال ، والدَّيْلَمِي .. كُلُّهُم مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بنِ بَشيرٍ ، عَنْ قَتادَةَ ، عَنِ الحَسَنِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : (كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الخَلْقِ وآخِرَهُم فِي البَعْثِ) .

وهَذِهِ الرِّوايَةُ تُفَسِّرُ رِوايَةَ ابْنِ سَعْدٍ ، وأَنَّ المُرادَ مِنَ النَّاسِ الأَنْبِياءُ عَلَيْهِمْ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

فَهُوَ ﷺ أَوَّلُهُمْ فِي عالَمِ الأَرْواحِ ، وخاتَمُهُمْ فِي عالَمِ الأَشْباحِ ﷺ .

وقَدْ نَبَّأَهُ اللهُ تَعالَى فِي عالَمِ الأَرْواحِ قَبْلَ الأَنْبِياءِ كُلِّهِمْ ، فَبِهِ فُتِحَتِ النُّبُوَّةُ فِي عالَمِ الأَرْواحِ ، وبِهِ خُتِمَتْ فِي عالَمِ الأَشْباحِ ﷺ ... فَهُوَ الفاتِحُ وهُوَ الخاتِمُ ﷺ .

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قالَ : قالُوا : يا رَسُولَ اللهِ ، مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ ؟

قالَ : (وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ) .

وأَخْرَجَهُ أَبو نُعَيْمٍ ، والبَيْهَقِيُّ ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ ، والبَزَّارُ ، والطَّبَرانِيُّ مِنْ رِوايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه .

وعَنْ مَيْسَرَةَ الفَجْرِ رضي الله عنه قالَ قُلْتُ يارَسُولَ اللهِ مَتَى كُنْتَ نَبِيّاً ؟ قالَ ﷺ :
(كُنْتُ نَبِيّاً وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ) .
أَخْرَجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ ، والبُخارِيُّ فِى : (التَّاريخِ) ، والطَّبَرانِيُّ ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ ، وقالَ الحافِظُ الهَيْثَمِي فِى رِجالِ أَحْمَدَ والطَّبرانِي :
رِجالُهُما رِجالُ الصَّحِيح .



قِمَّةُ كَمالِ الإنْسان .. فِى نَبِّي آخِرِ الزَّمان ﷺ

الرَّحْمَةُ مُهْجَتُهُ والسِّلْمُ شَرِيعَتُهُ

(الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ) .. (ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّماء) .

هَكَذا قالَ نَبِىُّ الرَّحْمَةِ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ .

ولَكِنْ مَنْ هُم الرَّاحِمُون ؟ إنَّ فاقِدَ الشَّىْءِ لا يُعْطِيه .

والَّذي لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَرْحَمَ نَفْسَهُ لا يَسْتَطِيعُ أَبداً أَنْ يَرْحَمَ غَيْرَه .

ومِنْ هُنا يَبْدَأُ الحَدِيثُ عَنِ الرَّحْمَةِ ، ويَبْدَأُ الحَضُّ عَلَيْها ، وفِى بَراعَةِ الصِّدْقِ الَّذي يُضِيءُ شَخْصِيَّةَ الحَبيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ويَمْلَؤُها نُوراً ، يُواجِهُ ﷺ رَحْمَةَ النَّفْسِ والذَّاتِ مُواجَهَةً حاسِمَةً ، ويَخْتارُ لِهَذا زاوِيَةً ما كانَ يُظَنُّ أَبَداً أَنَّهُ يَخْتارُها .

فَمُحَمَّدٌ رَسُولٌ عابِدٌ ، جاءَ لِيَرْفَعَ رايَةَ العِبادَةِ ، ويَسُوقَ النَّاسَ إِلَيْها .

أَفَيَخْتارُ العِبادَةَ بِالذَّاتِ لِيُنْشِىءَ بَيْنَها وبَيْنَ الرَّحْمَةِ مُفاضَلَةً ؟؟

أَجَل ، لَقَدْ فَعَلَها الإنْسانُ العَظِيمُ ، وأَعْلَنَ أَنَّ الرَّحْمَةَ خَيْرٌ مِنَ الإفْراطِ فِى العِبادَةِ وأَزْكَى .

خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عامَ الفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِى رَمَضانَ حَتَّى بَلَغَ مَوْضِعاً يُدْعَى (كِراع الغَميم) فَصامَ ، وصامَ النَّاسُ .. ولَمَّا رَأَى بَعْضَ النَّاسِ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِم الصِّيامَ بِسَبَبِ وَعْثاءِ السَّفَرِ ، دَعا بِقَدَحٍ مِنْ ماءٍ ، فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ شَرِبَ .

ولَمَّا قِيلَ لَهُ : إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لا يَزالُ صائِماً ، قالَ : أُولَئِكَ العُصاة .. !!

* * *

ويُحَدِّثُنا جابِرٌ رضي الله عنه أَيْضاً :

كانَ النَّبِىُّ ﷺ فِى سَفَرٍ فَرَأَى رَجُلاً قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، وظُلِّلَ عَلَيْهِ .. فَقالَ

ما بالُهُ ؟ قالُوا : رَجُلٌ صائِمٌ .. فَقالَ ﷺ : (لَيْسَ مِنَ البِرِّ أَنْ تَصُوموا فِى السَّفَر ، وعَلَيْكُم بِرُخْصَةِ اللهِ الَّتى رَخَّصَ لَكُم ، فاقْبَلُوها) .

إِنَّ رَحْمَةَ النَّفْسِ تَفُوقُ فِى اعْتِبارِ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُلَّ شَىْءٍ .. فَهَؤُلاءِ الَّذينَ صامُوا فِى سَفَرٍ ، وأَدْرَكَهُم العَياءُ فَلَمْ يَتَخَلَّوا عَنْ صِيامِهِمْ ، يَدْمَغُهُم رَسُولُ اللهِ بِالعِصْيانِ ، لِأَنَّهُم حَوَّلُوا العِبادَةَ إِلَى تَعْذِيبٍ ، ولِأَنَّهُم تَخَلَّوا عَنْ أَعْظَمِ فَضائِلِ الإِنْسانِ ، أَلا وهِىَ الرَّحْمَة .. لاسِيَّما الرَّحْمَةُ بِالنَّفْسِ ، واسْتِبْقاءُ عافِيَتِهاوقُوَّتِها..

* * *

ولَقَدْ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ النَّبِىِّ ذاتَ يَوْمٍ نَفَرٌ مِنْ أَصْحابِهِ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبادَتِهِ ، فَلَمَّا أُخْبِروا ، بَدا عَلَيْهِم كَأَنَّهُم تَقالُّوها ، فَقالوا : وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِىِّ ﷺ، لَقَد غَفَرَ اللهُ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّر .

(قالَ أَحَدُهُم ، أَمَّا أَنا : فَإِنِّى أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبداً ، ولا أَنامُ مِنْهُ شَيْئاً ، وقالَ آخَرُ : وأَنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ أَبَداً ، وقالَ ثالِثٌ : وأَنا أَعْتَزِلُ النِّساءَ ، فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَداً) .

أَيْنَ حُقُوقُ النَّفْسِ البَشرِيَّةِ فِى كُلِّ هَذا ؟ وأَيْنَ واجِبُ الرَّحْمَةِ بِها ؟

إِنَّ الحَبِيبَ مُحَمَّداً ﷺ عِنْدَهُ كَلِمَةُ الفَصْلِ، وسَوْفَ يَحْمِي الرَّحْمَةَ مِنْ كُلِّ عُدْوانٍ ، حَتَّى لَوْ كانَ عُدْوانُ المُبالَغَةِ فِى العِبادَةِ والفَضِيلَة !

وهَكَذا ، لا يَكادُ نَبَأُ هَؤُلاءِ يَبْلُغُهُ حَتَّى يَسْأَلَهُم :

(أَنْتُم القَوْمُ الَّذينَ قُلْتُم كَذا ، وكَذا ؟ أَما واللهِ إِنِّي لأَخْشاكُم لِلهِ ، وأَتْقاكُم لَهُ ، لَكِنِّى أَصُومُ ، وأُفْطِرُ ، وأُصَلِّي ، وأَرْقُدُ فَمَنَ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) .

* * *

ويَبْلُغُهُ ﷺ ذاتَ مَرَّةٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرو بنِ العاصِ يَصُومُ دائِماً ويَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ ، فَيَقُولُ لَهُ :

(بَلَغَنِى أَنَّكَ تَصُومُ النَّهارَ ، وتَقُومُ اللَّيْلَ ، فَلا تَفْعَلْ ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ،

ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً ، ولِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً .. صُمْ ، وأَفْطِرْ .. صُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فَذَلِكَ صَوْمُ الدَّهْر) .

قالَ يا رَسُولَ اللّهِ إِنِّى أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ .. قالَ ﷺ (فَصُمْ يَوْماً ، وأَفْطِرْ يَوْماً ، وذَلِكَ صِيامُ داوُدَ .. وهُوَ أَعْدَلُ الصِّيام) ، قالَ : يا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ .. قالَ ﷺ (لا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ) .

* * *

ويَحْكِي الرَّسُولُ نَفْسُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَيَقُولُ ﷺ:

(إِنِّى لأَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ وأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيها ، فَأَسْمَعُ بُكاءَ الصَّبِىِّ ، فأَتَجاوَزُ فِى صَلاتِي ، كَراهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ) .

* * *

لا شَىْءَ يَكْشِفُ عَنْ قِيمَةِ الرَّحْمَةِ عِنْدَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِثْلَ وَضْعِها والعِبادَةِ فِى كَفَّتَى مِيزان .

عِنْدَئِذٍ تَرْجَحُ كَفَّةُ الرَّحْمَةِ رُجْحاناً ، أَيَّ رُجْحان .. انْظُروا : هَلْ تُبْصِرونَ هَذا الرَّجُلَ المُقْبِلَ ، مُهَرْوِلَ الخُطَى إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ ، يَغْشاهُ الفَرَحُ ، وتَغْمُرُهُ البَهْجَةُ .. إِنَّهُ قادِمٌ يُبايِعُ نَبِيَّهُ عَلَى الهِجْرَةِ مَعَهُ وعَلَى الجِهادِ فِى سَبِيلِ اللّهِ تَحْتَ رايَتِهِ .

فاسْمَعُوا حِوارَ نَبِىِّ الرَّحْمَةِ ﷺ لَهُ :

(هَلْ مِنْ والِدَيْكَ أَحَدٌ حِىٌّ ؟) ، قالَ الرَّجُلُ : نَعَم .. كِلاهُما حَىٌّ .

قالَ الرَّسُولُ ﷺ: (فارْجِعْ إِلَى والِدَيْكَ ، وأَحْسِنْ صُحْبَتَهُما) .

وهَذا رَجُلٌ آخَرُ ، جاءَ إِلَى الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَسْعَي ، ويَقُولُ : يا رَسُولَ اللّهِ جِئْتُ أُبايِعُكَ عَلَى الهِجْرَةِ ، وتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيان .

فَيُجِيبُهُ الرَّسُولُ ﷺ: ارْجِعْ إِلَيْهِما ، فَأَضْحِكْهُما كَما أَبْكَيْتَهُما) .

وثالِثٌ يَسْأَلُ : يا رَسُولَ اللّهِ ، إِنِّي أَشْتَهِي الجِهادَ ، ولا أَقْدِرُ عَلَيْه .

فَيَقُولُ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : (هَل بَقِىَ مِنْ والِدَيْكَ أَحَدٌ ؟) .

يَقُولُ الرَّجُلُ : نَعَم .. فَيَقُولُ نَبِىُّ الرَّحْمَةِ ﷺ :

(قابِلِ اللهَ فِى بِرِّهِما ، فَإذا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حاجٌّ ، ومُعْتَمِرٌ ، ومُجاهِدٌ) .

* * *

إِنَّ بَسْمَةً تَعْلُو شَفَتَىْ أَبٍ حَنُونٍ ، وتَكْسُو وَجْهَ أُمٍّ مُتَلَهِّفَةٍ ، لا تُباعُ عِنْدَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِثَمَنٍ ، حَتَّى حِينَ يَكُونُ الثَّمَنُ جِهاداً يُثَبِّتُ دَعْوَتَه ، وَيَنْشُرُ فِى الآفاقِ البَعِيدَةِ رايَتَه .

وهَكَذا رَأَيْناهُ يَرُدُّ إِلَى والِدَيْنِ دامِعَيْنِ ابْناً لَهُما جاءَ يُبايِعُهُ عَلَى الجِهادِ ، وسَمِعْناهُ يَقُولُ لَهُ تِلْكَ الآيَةَ الباهِرَة :

(ارْجَعْ إِلَيْهِما ، فَأَضْحِكْهُما .. كَما أَبْكَيْتَهُما) .

إِنَّ رَحْمَةَ النَّفْسِ تَتِمُّ عِنْدَ (نَبِىِّ الرَّحْمَةِ) ﷺ بِرَحْمَةِ الوالِدَيْنِ وبِرِّهِما ، لأَنَّهُما مَصْدَرُ هَذِهِ النَّفْسِ ووِعاؤُها .

وإِذا كانَتِ العِبادَةُ تَتَحَوَّلُ إِلَى تَعْذِيبٍ ، حِينَ تَجِىءُ عَلَى حِسابِ رَحْمَةِ النَّفْسِ .. فَإِنَّها (أَعْنِي العِبادَةَ) تَتَحَوَّلُ إِلَى عُقُوقٍ ، إِذا تَمَّتْ عَلَى حِسابِ رَحْمَةِ الوالِدَيْن.

* * *

ثُمَّ تَنْتَشِرُ الرَّحْمَةُ لَدَى الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى يُغَطِّىَ دِفْؤُها كُلَّ مَقْرور .. وحَتَّى تَشْمَلَ الأَحْياءَ جَمِيعاً مِنْ إِنْسانٍ وحَيوان .

وفِى المَواطِنِ الَّتي تَعْظُمُ فِيها الحاجَةُ إِلَيْها ، نَجِدُ الرَّسُولَ ﷺ يُرَكِّزُ إِلْحاحَهُ عَلَيْها ، فَهُوَ (مَثَلاً) إِذا حَثَّ عَلَى الرَّحْمَةِ بِالطِّفْلِ يُرَكِّزُ بِصُورَةٍ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَةِ بِالطِّفْلِ اليَتيم .

وإِذا حَثَّ عَلَى الرَّحْمَةِ بِالحَيَوانِ ، وهُوَ يَعْمَلُ ، يُرَكِّزُ بِصُورَةٍ أَوْفَى ، عَلَى الرَّحْمَةِ بِالحَيَوانِ وهُوَ يُذْبَحُ .

وهَكذا يَدورُ قَلْبُهُ الكَبِيرُ مَعَ دَواعِي الرَّحْمَةِ حَيْثُ تَدُور !

والرَّحْمَةُ عِنْدَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَتْ نافِلَةً مِنْ نَوافِلِ البِرِّ ، بَلْ واجِباً مِنْ واجِباتِ الرُّشْدِ ؛ وتَبِعَةً مِنْ تَبِعاتِ الحَياة .

وهِيَ لِهَذا تُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِها فِي عَدِيدٍ مِنْ صُوَرِ الخَيْرِ ، والمُشارَكَةِ ، والأَعْمالِ النَّافِعَة .

يَقُولُ أَبو ذَرٍّ رضي الله عنه: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: ماذا يُنْجِي العَبْدَ مِنَ النَّار ؟ قالَ الإِيمانُ بِاللهِ ، قُلْتُ يا نَبِيَّ اللهِ : مَعَ الإِيمانِ عَمَلٌ ؟ قالَ : أَنْ تُعْطِيَ مِمَّا رَزَقَكَ اللهُ .. قُلْتُ يا نَبِيَّ اللهِ ، فَإِنْ كانَ فَقِيراً لا يَجِدُ ما يُعْطِي ؟ قالَ : يَأْمُرُ بِالمَعْروفِ ، ويَنْهَى عَنِ المُنْكَر .. قُلْتُ : فَإِنْ كانَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْمُرَ بِالمَعْروفِ ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَى عَنِ المُنْكَر ؟ قالَ فَلْيُعِنِ الأَخْرَقَ .. قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ لا يُحْسِنُ أَنْ يَصْنَعَ ؟ قالَ : فَلْيُعِنْ مَظْلُوماً .. قُلْتُ : فَإِنْ كانَ ضَعِيفاً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِينَ مَظْلُوماً ؟ قالَ : ما تُرِيدُ أَنْ تَتْرُكَ لِصاحِبِكَ مِنْ خَيْرٍ ؟ لِيُمْسِكْ أَذاهُ عَنِ النَّاسِ .. قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ ، أَو إِنْ فَعَلَ هَذا يَدْخُلُ الجَنَّةَ ؟ قالَ ﷺ: ما مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُصِيبُ خَصْلَةً مِنْ هَذِهِ الخِصالِ إِلاَّ أَخَذَتْ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ الجَنَّةَ).

* * *

لَنا أَنْ نَتَصَوَّرَ النَّار ، عَلَى أَنَّها مُنْتَهَى ما يَنْزِلُ بِالشِّرِّيرِ مِنْ عَذابٍ نَفْسِيٍّ ومادِيٍّ ونَتَصَوَّرَ الجَنَّةَ عَلَى أَنَّها قِمَّةُ ما يَنالُهُ الخَيِّرُ مِنْ مَثُوبَةٍ نَفْسِيَّةٍ ومادِيَّةٍ .

وفِي هَذا الحَدِيثِ نَجِدُ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ ساقَ مِنْ أَعْمالِ الرَّحْمَةِ والخَيْرِ عَدَداً غَيْرَ قَلِيلٍ .. ولَمْ يَجْعَلْ قِمَّةَ الثَّوابِ وِفْقاً عَلَى مَنْ يَفْعَلُها جَمِيعاً ، بَلْ إِنَّ واحِدَةً مِنْها تَكْفِي .

أَجَلْ ، واحِدَةٌ لاغَيْر .. قادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَأْخُذَ بِيَدِ صاحِبِها إِلَى تِلْكَ القِمَّةِ ، وهَذا هُوَ مَعْنَى العِبارَةِ الجَلِيلَةِ الَّتِي جاءَتْ فِي خِتامِ الحَدِيث : (ما مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ ، يُصِيبُ خَصْلَةً مِنْ هَذِهِ الخِصالِ ، إِلاَّ أَخَذَتْ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ الجَنَّةَ) .

ومِثْلُ هَذا ، نَبَأُ الأَعْرابِى الَّذى جاءَهُ يَوْماً يَسْأَلُهُ عَمَلاً يُقَرِّبُهُ مِنَ الجَنَّةِ ويُباعِدُهُ مِنَ النَّار ، فَقالَ ﷺ : (تَقُولُ العَدْلَ ، وتُعْطِى الفَضْلَ .. قالَ : واللهِ لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ العَدْلَ كُلَّ ساعَةٍ ،وما أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعْطِىَ الفَضْلَ .

قالَ ﷺ : فَتُطْعِمُ الطَّعامَ ، وتُفْشِى السَّلامَ .. قالَ : هَذهِ أَيْضاً شَدِيدَةً ..قالﷺ : فَهَلْ لَكَ إِبِلٌ ؟ قالَ : نَعَم ..قالَ الرَّسُولُ ﷺ : فانْظُرْ إِلَى بَعِيرٍ مِنْ إِبِلِكَ وسِقاءٍ ثُمَّ اعْمَدْ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ لايَشْرَبُونَ الماءَ إِلاَّ غَبّاً (أَى نادِراً) فاسْقِهِمْ ، فَلَعَلَّكَ لا يَهْلَكُ بَعِيرُكَ ، ولا يَنْخَرِقُ سِقاؤُكَ حَتَّى تَجِبَ لَكَ الجَنَّة .

إِنَّ الرَّحْمَةَ فِى أَخَفِّ تَكالِيفِها ، وفِى أَيْسَرِ صُوَرِها تَكْنُسُ مِنْ طَرِيقِ المَجْهُولِ كُلَّ الكَوارِثِ المَخْبُوءَةِ ، وتَغْسِلُ عَنِ الإِنْسانِ كُلَّ أَوْزارِهِ ، وتَضَعُ عَنْهُ كُلَّ أَثْقالِهِ .

وإِنَّهُ ﷺ لَيَرْسُمُ هَذا المَعْنَى فِى لَوْحَةٍ مُبْهِرَةٍ ، ويُوجِزُهُ فِى قِصَّةٍ قَصِيرَةٍ ، تَتَجَلَّى فِيها مَعَ صِدْقِ الرَّسُولِ ، عَبْقَرِيَّةُ الإِنْسان .. فَلْنَسْمَعْهُ يَقُولُ : (تَعَبَّدَ عابِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ ، فَعَبَدَ اللّهَ فِى صَوْمَعَةٍ سِتِّينَ عاماً ، وفِى يَوْمٍ ، أَمْطَرَتِ الأَرْضُ ، فاخْضَرَّت .. فَأَشْرَفَ الرَّاهِبُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ ، وقالَ : لَوْ نَزَلْتُ ، فَذَكَرْتُ اللّهَ وازْدَدْتُ خَيْراً ، فَنَزَلَ ومَعَهُ رَغِيفٌ أَو رَغِيفان .. فَبَيْنَما هُوَ فِى الأَرْضِ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ : فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُها وتُكَلِّمُهُ حَتَّى غَشِيَها ثُمَّ أُغْمِىَ عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ الغَدِيرَ يَسْتَحِمَّ ، فَجاءَهُ سائِلٌ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ الرَّغِيفَيْنِ ، ثُمَّ ماتَ .. فَوُزِنَتْ عِبادَةُ سِتِّينَ سَنَةً بِتِلْكَ الزَّنْيَةِ ، فَرَجَحَتِ الزَّنْيَةُ بِحَسَناتِهِ ،ثُمَّ وُضِعَ الرَّغِيفانِ مَعَ حَسَناتِهِ ، فغُفِرَ لَهُ !) .

يا لَمُحَمَّدٍ مِنْ إِنْسانٍ شَغَفَتْهُ الرَّحْمَةُ حُبّاً ، فأَعْلَى مَكانَها عَلَى هَذا النَّحْوِ الجَلِيل!

إِنَّ هَذهِ اللَّوْحَةَ العَذْبَةَ شَبِيهَةٌ بِأُخْتِها الَّتى صَوَّرَ الرَّسُولُ ﷺ فِيها مَصِيرَ البَغِىِّ الَّتى ظَفِرَتْ مِنَ اللهِ بِالتَّوْبَةِ ، والشُّكْرانِ ، والجَنَّةِ ، لِمُجَرَّدِ كَوْنِها رَحِمَتْ كَلْباً ظَمْآن .. وهَيَّأَتْ لَهُ الشَّراب ..!!

فَهَلْ ثَمَّةَ فُتُونٌ بِالرَّحْمَةِ وإِيمان .. يَعْدِلُ هَذا الفُتُونَ وهَذا الإِيمان ..؟

إِنَّ اللّٰهَ يَزِنُ رَحْمَةَ النَّاسِ بَعْضَهُم بَعْضاً بِالرُّوحِ المُتَبَدِّى فِى الرَّحْمَةِ وليْسَ بِحَجْمِها .

وكُلُّ صَنِيعَةٍ مَهْما تَكُنْ يَسِيرَةً تَدْفَعُ عَنْ صاحِبِها وَبالاً كَبِيراً .. وكَما قالَ الرَّسُولُ ﷺ : (صَنائِعُ المَعْروفِ ، تَقِي مَصارِعَ السُّوءِ) .

ولْنَنْظُرِ الآنَ مَشْهَداً آخَرَ يُغْرِينا الرَّسُولُ ﷺ فِيهِ بِالرَّحْمَة :

أَتَى اللّٰهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبادِهِ : كانَ قَدْ آتاهُ مالاً ، فَقالَ لَهُ ماذا عَمِلْتَ فِى الدُّنْيا ؟ فَقالَ : يا رَبِّ آتَيْتَنِى مالاً ، فَكُنْتُ أُبايِعُ النَّاسَ ، وكانَ مِنْ خُلُقِى الجَوازُ (أَى التَّسامُحُ) فَكُنْتُ أُيَسِّرُ عَلَى المُوسِرِ ، وأُنْظِرُ المُعْسِرَ ، فَقالَ اللّٰهُ تَعالَى : أَنا أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكَ .. تَجاوَزوا عَنْ عَبْدِى .

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ فِى خِتامِ الحَدِيثِ : وأَدْخَلَهُ اللّٰهُ الجَنَّةَ .

ويُكَرِّرُ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﷺ النَّبَأَ نَفْسَهُ فِى صُورَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ : (إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ ، وكانَ يُدايِنُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ :خُذْ ما تَيَسَّرَ ، واتْرُكْ ما عَسُرَ ، وتَجاوَزْ ، لَعَلَّ اللّٰهَ يَتَجاوَزُ عَنَّا ، فَلَمَّا هَلَكَ .. قالَ اللّٰهُ لَهُ : هَلْ عَمِلْتَ خَيْراً قَطُّ ؟ قالَ : لا .. إِلاَّ أَنَّهُ : كانَ لِى غُلامٌ ، وكُنْتُ أُدايِنُ النَّاسَ ، فَإِذا بَعَثْتُهُ يَتَقاضَى ، قُلْتُ لَهُ : خُذْ ما تَيَسَّرَ ، واتْرُكْ ما عَسُرَ .. تَجاوَزْ لَعَلَّ اللّٰهَ يَتَجاوَزُ عَنَّا ، قالَ اللّٰهُ لَهُ : قَد تَجاوَزْتُ عَنْكَ !!) .

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنَّ هُيامَ (مُحَمَّدٍ) ﷺ بِالرَّحْمَةِ لا يَعْدِلُهُ هُيام ؟ها هُو ذا ﷺ يَتَصَوَّرُ إِنْساناً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ فِى حَياتِهِ إِلاَّ أَنَّهُ كانَ يَرْحَمُ المَدِينَ ، فَيَصْبِرُ عَلَيْهِ ولا يَتَعَجَّلُهُ الوَفاء .

وها هُوَ ذا يَجْعَلُ مَثُوبَةَ هَذا الرَّجُلِ المَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ ويَرْجُو لَهُ عِنْدَ اللّٰهِ الرَّحْمَةَ الواسِعَة .

ولَقَدْ ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يُرَكِّزُ عَلَى الرَّحْمَةِ تَرْكِيزاً شَدِيداً ، كُلَّما اشْتَدَّتِ الحاجَةُ إِلَيْها .

ونَحْنُ الآنَ فِى مَقامٍ ، الحاجَةُ فيهِ إِلَى الرَّحْمَةِ بالِغَةٌ .

مَقامُ أُولَئِكَ المَساكِينِ الَّذينَ تَسُوقُهُم ضَروراتُ العَيْشِ إِلَى الدَّيْنِ ، ثُمَّ تُعْجِزُهُم ضَحالَةُ الدَّخْلِ عَنِ السَّدادِ ، فَيُعانُونَ مِنْ أَجْلِ الدُّيُونِ هَمَّ اللَّيْلِ ، وذُلَّ النَّهار .

هَؤُلاءِ .. يَتَقَدَّمُ الحَنُونُ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيَأْسُوَ جِراحَهُم .

إِنَّهُ لا يَمْلِكُ أَنْ يَقُولَ لِلدَّائِنِ : تَنازَلْ عَنْ حَقِّكَ ، فَهُوَ ﷺ خَيْرُ مَنْ يَصُونُ الحُقُوق .

ولَكِنَّهُ يَمْلِكُ أَنْ يَهَبَ الدَّائِنَ شَفاعَتَهُ ، وقَلْبَهُ ، وحُبَّهُ .. إِذا هُوَ أَرْجَأَ مَدِينَهُ ، وصَبَرَ عَلَيْهِ حَتَّى تَحِينَ ساعَةُ فَرَجٍ قَرِيب .

وفِى هَذا ، قالَ ما تَلَوْنا مِنْ قَبْلُ ، وقالَ كَثِيراً :

(مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِى الدُّنْيا ، يَسَّرَ اللّهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيا والآخِرَةِ .. واللّهُ فِى عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ ، مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً ، أَو وَضَعَ لَهُ (أَي تَنازَلَ عَنْ جُزْءٍ مِنَ الدَّيْنِ) أَظَلَّهُ اللّهُ يَوْمَ القِيامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ) .

(مَنْ أَرادَ أَنْ تُسْتَجابَ دَعْوَتُهُ ، وأَنْ تُكْشَفَ كُرْبَتُهُ ، فَلْيُفَرِّجْ عَنْ مُعْسِر) .

* * *

أَيُّكُم يَسُرُّهُ أَنْ يَقِيَهُ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّم ؟ قُلْنا يا رَسُولَ اللّهِ ، كُلُّنا يَسُرُّهُ قالَ : مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَو وَضَعَ لَهُ وَقاهُ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّم ..) .

ويُفْلِسِفُ الرَّسُولُ العَظِيمُ ﷺ الرَّحْمَةَ فَلْسَفَةً تَسْمُو بِها فَوْقَ الفَضائِلِ الإِنْسانِيَّةِ كُلِّها ، وتَجْعَلُ كُلَّ عَمَلٍ رَحِيمٍ عِبادَةً مِنْ أَزْكَى العِبادات .

فَعِنْدَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ أَعْمالَنا الرَّحِيمَةَ الَّتِي نُسْدِيها لِلآخَرِينَ إِنَّما يَراها اللّهُ قُرُباتٍ تُوَجَّهُ إِلَيْهِ ذاتُهُ .. فَإِذا زُرْتَ مَرِيضاً ، فَأَنْتَ إِنَّما تَزورُ اللّهَ .. وإِذا أَطْعَمْتَ جائِعاً ، فَكَأَنَّكَ تُطْعِمُ اللّه .

يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ : (إِنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيامَةِ : يا ابْنَ آدَمَ : مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قالَ يا رَبِّ : كَيْفَ أَعُودُكَ ؛ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِين ؟

قَالَ : أَما عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَما عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ؟ .. يا ابْنَ آدَمَ : اسْتَطْعَمْتُكَ ؛ فَلَمْ تُطْعِمْنِى .. قَالَ يا رَبِّ : كَيْفَ أُطْعِمُكَ ؛ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ !! قَالَ : أَما عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَما عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟! يا ابْنَ آدَمَ : اسْتَسْقَيْتُكَ ، فَلَمْ تَسْقِنِي .. قَالَ يا رَبِّ : وكَيْفَ أَسْقِيكَ ، وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ ؟ قَالَ : اسْتَسْقاكَ عَبْدِي فُلانٌ ، فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَما إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي .. !!

* * *

والنَّاسُ يَخافُونَ .. وحَياتُهُم مَلأَى بِالمَخاوِفِ الَّتي لا تُؤْذَنُ بِانْتِهاء ..وأَعْظَمُ رَحْمَةٍ تُسْدَى إِلَيْهِمْ ، تَحْرِيرُهُم مِنَ الخَوْفِ قَدْرَ المُسْتَطاعِ ، إِنَّ الخَوْفَ غُولٌ يَلْتَهِمُ سَكِينَةَ النَّاسِ وأَمْنَهُم .

والفَزَعُ حِينَ يَخْلَعُ الأَفْئِدَةَ وتَصِيرُ هَواء .. لا يُبْقِي لِلنَّاسِ ما يُمْسِكُ عَلَيْهِمُ الإِيمانَ بِالحَياةِ ، وحِينَ يفْقِدُونَ إِيمانَهُم بِالحَياةِ يَسْتَسْلِمُونَ لِلضُّمُورِ ، والفُتُورِ واللاَّمُبالاة .

ومَمَّ يَخافُ النَّاسُ .. ؟؟

• إِنَّهُم يَخافُونَ اللّهَ . • ويَخافُونَ أَنْفُسَهُم - أَعْنِي ، يَخافُ بَعْضُهُم بَعْضاً .

أَمَّا الخَوْفُ مِنَ اللّهِ : فَما كانَ (مُحَمَّدٌ) ﷺ وهُوَ يَدْعُو إِلَى فَضائِلَ يَشُقُّ عَلَى الأَنْفُسِ فِعْلَها ، أَنْ يَسْتَبْعِدَهُ مِنْ بَيْنِ وَسائِلِ تَرْبِيَتِهِ ، لاسِيَّما فِى تِلْكَ الأَزْمانِ البَعِيدَةِ الَّتي كانَ الخَوْفُ فِيها مِنْ أَهَمِّ وَسائِلِ الزَّجْرِ والتَّرْبِيَةِ والتَّقْوِيم .

ولَكِنَّ الحَبِيبَ مُحَمَّداً اسْتَطاعَ أَنْ يُقِيمَ إِلَى جِوارِ التَّخْوِيفِ مِنْ عَذابِ اللّهِ ، الرَّجاءَ فِى رَحْمَتِهِ .

ولَو أَنَّنا أَحَطْنا بِكُلِّ الأَحادِيثِ الَّتي بَثَّ خِلالَها الأَمَلَ العَظِيمَ فِى رَحْمَةِ اللّهِ ، لَرَأَيْنا مُحاوَلَةً عُظْمَى وناجِحَةً لِتَنْحِيَةِ الخَوْفِ وقَهْرِهِ .

ولَقَد أَفاضَ الرَّسُولُ ﷺ فِى تَصْويرِ رَحْمَةِ اللّهِ وفِى الحَثِّ عَلَى أَنْ يَكُونَ الرَّجاءُ فِيهِ والحُبُّ لَهُ ، أَساسَ كُلِّ عَلاقَةٍ بَيْنَنا وبَيْنَهُ سُبْحانَهُ وتَعالَى .

والَّذي تَحَقَّقَ عِنْدِي ؛ أَنَّ الحَبِيبَ مُحَمَّداً ﷺ بِتَرْكيزِهِ عَلَى الرَّجاءِ فِى اللّهِ ، إِنَّما كانَ يَصْطَنِعُ مِنْهُ بَدِيلاً لِلْخَوْفِ .. بِحَيْثُ يَبْلُغُ النَّاسُ آخِرَ الأَمْرِ المَكانَةَ النَّفْسِيَّةَ والرُّوحِيَّةَ الَّتى يَتَفَوَّقُونَ فِيها عَلَى الخَوْفِ الدِّينِي ، وتَصِلُهُم بِاللّهِ عِنْدَها أَواصِرُ الحُبِّ ، والرَّجاءِ ، والإِخْلاص .

إِنَّ رَحْمَةَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَتَجَلَّى وهُوَ يَقُولُ لنا : لا تَخافُوا .. إِنَّ رَبَّكُم رَءُوفٌ رَحِيم .

وفِى تَبْشِيرِهِ بِالرَّجاءِ ، أَعْطانا بِكَلِماتِهِ الحُلْوَةِ ، الرَّطِيبَةِ ، المُضِيئَةِ كُلَّ وَسائِلِ الإِقْناعِ والطُّمَأْنِينَة .

فَهُوَ يَأْمُرُ بِالرَّجاءِ تارَةً ويَجْعَلُ الإِسْرافَ فِى الخَوْفِ مِنَ اللّهِ إِثْماً تارَةً أُخْرَى .. ويَضْرِبُ لَنا الأَمْثالَ بِعَبْقَرِيَّةِ إِنْسانٍ عَظِيم .

إِنَّ مِلْءَ الأَرْضِ آثاماً وخَطايا ؛ لَيَتَبَدَّدُ مِزَقاً ، ويَذْهَبُ هَباءً أَمامَ ذَرَّةٍ واحِدَةٍ مِنْ رَحْمَةِ اللّه .

اقْرَءُوا هَذا الحَدِيثَ : (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً ؛ فَقالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي .. فَقالَ اللّهُ تَبارَكَ وتَعالَى : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ ذَنْبَهُ ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ .. ثُمَّ عادَ فَأَذْنَبَ ، فَقالَ : أَي رَبِّ اغْفِرْ لي ذَنْبي ، فَقالَ اللّهُ تَبارَكَ وتَعالَى : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ ذَنْبَهُ ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ .. ثُمَّ عادَ فَأَذْنَبَ فَقالَ : أَي رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقالَ اللّهُ تَبارَكَ وتَعالَى : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ ذَنْبَهُ ؛ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، فَلْيَفْعَلْ ما شاءَ) .

إِنَّ الإِنْسانَ الَّذي صَوَّرَهُ الرَّسُولُ ﷺ فِى هَذا الحَدِيثِ لَمْ يَكُنْ فِى رَجْعِهِ المُكَرَّرِ لِلْخَطِيئَةِ سِوَى صُورَةٍ لَنا جَمِيعاً .. صُورَةٌ لِلضَّعْفِ البَشَرِي يُسْلِمُنا لِأَهْواءِ النَّفْس . وإِنَّهُ لَيَتَقَزَّزُ مِنَ الخَطَأ .. ويَقُولُ : رَبِّ اغْفِر لِي ، ثُمَّ يُعاوِدُ الهَوَى ، ثُمَّ يَعُودُ

لِلرُّشْدِ ، وهَكَذا .. حَياتُهُ رِحْلَةٌ دائِبَةٌ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، ومَعَ هَذا فَإِنَّ مُجَرَّدَ إِحْساسِهِ بِالخَطَأِ ، ومُجَرَّدَ إِيمانِهِ بِأَنَّ اللّهَ سَيَنالُهُ بِرَحْمَتِهِ ومَغْفِرَتِهِ .. أَعْنِي : أَنَّ رَجاءَهُ فِى اللّهِ ، أَظْفَرَهُ حَسَبَ سِياقِ الحَدِيثِ النَّبَوِي بِرَحْمَةِ اللّهِ الواسِعَةِ المُتَمَثِّلَةِ فِى هَذِهِ العِبارَة : قَد غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ ما شاءَ .

وعِبارَةُ (فَلْيَفْعَلْ ما شاءَ) : لَيْسَتْ إِذْناً بِالخَطِيئَةِ ولا إِلْغاءً لِمَسْئولِيَّةِ الإِنْسانِ عَنْها ، إِنَّما هِىَ صُورَةٌ لَفْظِيَّةٌ تَتِمُّ بِها الصُّورَةُ الَّتى يَرْسُمُها الرَّسُولُ ﷺ لِرَحْمَةِ اللّهِ بِعِبادِه .

وفِى حَديثٍ آخَرَ يُصَوِّرُ لَنا رَحْمَةَ اللّهِ الواسِعَةَ فَيَقُولُ ﷺ :

(جَعَلَ اللّهُ الرَّحْمَةَ مائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وتِسْعِينَ ، وأَنْزَلَ فِى الأَرْضِ جُزْءاً واحِداً ، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَراحَمُ الخَلائِقُ ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حافِرَها عَنْ وَلَدِها خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ) .

إِنَّ كُلَّ ما فِى الأَرْضِ مِنْ رَحْمَةٍ نَرَى مَظاهِرَها ، لَيْسَتْ سِوَى جُزْءٍ واحِدٍ مِنْ مائَةِ جُزْءٍ ، فَلْنَتَصَوَّرْ إِذَن الأَجْزاءَ التِّسْعَةَ والتِّسْعِينَ الَّتى اسْتَأْثَرَ اللّهُ بِها لِنَفْسِهِ كَى يَرْحَمَ بِها النَّاسَ ، يَوْمَ تَشْتَدُّ إِلَى رَحْمَتِهِ حاجَتُهُم .

هَذِهِ صُورَةٌ باهِرَةٌ لِرَحْمَةِ اللّهِ تَطْرُدُ عَنِ الأَفْئِدَةِ كُلَّ فَزَعٍ مِنْهُ .

ويُعَزِّزُها الرَّسُولُ ﷺ بِصُورَةٍ أُخْرَى : حِينَ رَأَى أُمّاً تَضُمُّ طِفْلَها إِلَى صَدْرِها فِى حَنانٍ بالِغٍ ، فالْتَفَتَ إِلَى أَصْحابِهِ وقالَ لَهُم : (أَتَرَوْنَ هَذِهِ طارِحَةً وَلَدَها فِى النَّار ؟ قالَ أَصْحابُهُ : لا ، واللّهِ يا رَسُولَ اللّه .. قالَ : لَلّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ ، مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِها) .

ويَقُولُ ﷺ : (إِنَّ اللّهَ تَعالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهار ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْل) .

ويَقُولُ ﷺ أَيْضاً : (يُدْنَى المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، فَيُقَرِّرَهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ

أَعْرِفُ .. فَيَقُولُ اللّهُ لَهُ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِى الدُّنْيا ، وأَنا أَغْفِرُها لَكَ اليَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةُ حَسناتِه) .

والآنَ ، تَنْبَلِجُ مِنْ قَلْبِ (مُحَمَّدٍ ﷺ) الكَبِيرِ الرَّحِيمِ ، لَوْحَةٌ تَناهَتْ فِى الإِبْداعِ ، تُصَوِّرُ رَحْمَةَ اللّهِ فِى بَهاءٍ عَظِيم .

إِنَّها قِصَّةٌ مُوجَزَةٌ يُقَرِّبُ فِيها مِنَ الأَذْهانِ .. عَلَى عادَتِهِ ﷺ الخُلاصَةَ النِّهائِيَّةَ لِرَأْيِهِ الذَّكِيِّ فِى رَحْمَةِ رَبِّهِ الكَبِير .

انْظُروا .. (كانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعاً وتِسْعِينَ نَفْساً ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى راهِبٍ فَأَتاهُ ، فَقالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْساً ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قالَ الرَّاهِبُ لا .. فَقَتَلَهُ الرَّجُلُ ، فَكَمَّلَ بِهِ مائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عالِمٍ ، فَقالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مائَةَ نَفْسٍ ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ .. فَقالَ لَهُ : نَعَم ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ التَّوْبَةِ .. انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذا ، وكَذا ؛ فَإِنَّ بِها أُناساً يَعْبُدونَ اللّهَ تَعالَى فاعْبُدِ اللّهَ مَعَهُم ، ولا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّها أَرْضُ سُوءٍ .. فانْطَلَقَ ، حَتَّى إِذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتاهُ المَوْتُ ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، ومَلائِكَةُ العَذابِ .. قالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جاءَ تائِباً ، مُقْبِلاً إِلَى اللّهِ تَعالَى .

وقالَتْ مَلائِكَةُ العَذابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ .. فَأَتاهُم مَلَكٌ فِى صُورَةِ آدَمِيٍّ ، فَجَعَلُوهُ بَينَهُم حَكَماً ، فَقالَ قِيسُوا ما بَيْنَ الأَرْضَيْنِ ، فَإِلَى أَيَّتِهُما كانَ أَدْنَى فَهُوَ لَها .. فَأَوْحَى اللّهُ إِلَى بَلَدِ المَعْصِيَةِ أَنْ تَباعَدِي ، وإِلَى بَلَدِ التَّوْبَةِ أَنِ اقْتَرِبِي .. فَقاسُوا بَيْنَ البَلَدَيْنِ ، فَوَجَدوهُ إِلَى بَلَدِ التَّوْبَةِ أَقْرَبُ بِشِبْرٍ ، فَغُفِرَ لَهُ ..

إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لا يَرْضَى القَتْلَ ، ولا يُشَجِّعُ عَلَيْهِ .. بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ جَرِيمَةً تُعادِلُ الشِّرْكَ بِاللّهِ ، سِوَى الإِضْرارِ بِالنَّاسِ .. مُجَرَّدُ الإِضْرارِ بِهِم ، فَما بالُكَ بِقَتْلِهِم ، وإِزْهاقِ حَياتِهِم .

وهُوَ ﷺ فِى الحَدِيثِ السَّالِفِ يَضَعُ رَحْمَةَ اللّهِ تِجاهَ أَكْبَرِ الكَبائِرِ وأَفْدَحِ الجَرائِمِ ،

لِيُرِيَنا كَيْفَ أَنَّ التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ مَحَتْ جَرائِمَ كُثُراً ، وأَفاءَتْ عَلَى صاحِبِها عَفْوَ اللهِ غَدَقاً !!

ولَقَدِ اخْتُتِمَتِ القِصَّةُ خِتاماً باهِراً ؛ فَجُعِلَ الرَّجُلُ قَرِيباً إِلَى بَلَدِ المَعْصِيَةِ ، لِنَرَى رَحْمَةَ اللهِ حينَ تَجِيءُ ، لا يَقِفُ فِي طَرِيقِها شَيْءٌ ، حَتَّى القَوانِينِ الطبِيعِيَّةِ والكَوْنِيَّةِ .. فَلَقَدْ نَقَصَ اللهُ الأَرْضَ مِنْ أَحَدِ أَطْرافِها ، حَتَّى إِذا قِيسَتِ المَسافَةُ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَلَدِ التَّوْبَةِ كانَ إِلَيْها أَقْرَبُ ، فَتَأْخُذُهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَة .

أَيُّ إِنْسانٍ صادِقٍ عَظِيمٍ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْسُمَ لِرَحْمَةِ اللهِ الواسِعَةِ لَوْحَةً أَزْهَى وأَجْمَعَ مِنْ هَذِهِ اللَّوْحَةِ الفاتِنَةِ الجَلِيلَة !؟!

إِنَّ التَّوْبَةَ بابٌ مَفْتُوحٌ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ عِبادِهِ ، يَصِلُهُم بِهِ بِاللَّيْلِ وبِالنَّهار .. وإِنَّ اللهَ لَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الإِنْسانِ ورُجُوعِهِ عَنِ الخَطَأِ ، أَشَدُّ مِنْ فَرَحِ أَبٍ حَنُونٍ فَقَدَ ابْنَهُ فِي فَلاةٍ مُوحِشَةٍ ، وفَجْأَةً يَلْقاهُ أَمامَهُ سَلِيماً مُعافَى !!!

والطَّاعاتُ تُمَثِّلُ عِنْدَ الرَّحِيمِ (مُحَمَّدٍ) ﷺ مَعْنًى أَسْمَى مِمَّا يَخْطُرُ بِبالِنا ، فَهِيَ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِذاتِها ، لا ، ولاهِيَ مَقْصُودَةً لِما تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ ارْتِقاءٍ نَفْسِيٍّ فَحَسْب ... بَلْ هِيَ قَبْلَ هَذا وبَعْدَ هَذا ، السَّبِيلُ الَّذي يُؤَهِّلُنا لِمُصافَحَةِ اللهِ ، والالْتِقاءِ بِهِ .

لِنَقْرَأَ مَعاً هَذا الحَدِيثَ الَّذي يَتَمَثَّلُهُ الحَبِيبُ (مُحَمَّدٌ) ﷺ حِكايَةً عَنْ رَبِّه :

(يَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ : مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها ، أَو أَزِيدُ .. ومَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ ، فَجَزاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُها ، أَو أَغْفِرُ .. ومَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِراعاً .. ومَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِراعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعاً .. ومَنْ أَتانِي يَمْشِي ، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً .. ومَنْ لَقِيَنِي بِقُرابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِي شَيْئاً ، لَقِيتُهُ بِمِثْلِها مَغْفِرَةً) .

لِنَنْظُرْ مَلِيّاً هَذِهِ الصُّورَةَ الحانِيَةَ المُشْتاقَةَ الَّتي يُظْهِرُ لنا بِها الحَبِيبُ (مُحَمَّدٌ) ﷺ حَنانَ اللهِ عَلَيْنا ، وشَوْقَهُ إِلَيْنا .

إِنَّهُ سُبْحانَهُ يُرِيدُنا .. يُرِيدُنا بجانِبِهِ عَلَى أَيَّةِ حالٍ ؛ طائِعينَ أَو آثِمينَ .. إِنَّ ذِراعَيْهِ مَفْتُوحَتانِ تتَلَقَّيانِ لَهْفَتَنا ورَجاءَنا بِحَنانٍ مُفِيض .

انْظُروا هَذهِ الكَلِماتِ : (مَنْ أَتاني يَمْشِي ، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة ...!!) أَيُّ تَصَوُّرٍ ذَكيٍّ مُشْرِقٍ عارِمِ النَّفَحاتِ ؛ هَذا الَّذي يَتَصَوَّرُ بِهِ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ وبارِئَهُ .. ورَبَّنا وبارِئَنا ؟ .

إِنَّ اللّهَ يُرِيدُنا أَنْ نُطِيعَهُ ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ تَجْعَلُنا فِى حالَةٍ فاضِلَةٍ تُؤَهِّلُنا لِلِقائِهِ ، والتَّلَقِّي عَنْهُ .

إِنَّ الطَّاعاتِ هِىَ الخُطُوطُ السَّاخِنَةُ الَّتي تَصِلُنا بِمَرْكَزِ وُجُودِنا ، بِاللّهِ رَبِّ العالَمِين .

وإِذا أَخْطَأْنا .. إِذا أَذْنَبْنا .. فَلا يَنْبَغِي أَنْ نَتَحَطَّمَ ونَنْسَحِقَ تَحْتَ وَطْأَةِ الشُّعُورِ بِالإِثْمِ ، بَلْ عَلَيْنا أَنْ نَنْهَضَ مِنْ جَدِيدٍ ، وأَلاَّ نَخافَ الخَطِيئَةَ أَبداً .. لِأَنَّنا أَكْبَرُ مِنْها ، ولأَنَّ عَفْوَ اللّهِ أَكْبَرُ مِنَّا ومِنْها جَمِيعاً .

هَذا ما نَفْهَمُهُ عَنْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ (مُحَمَّدٍ) ﷺ وهُوَ يُسْدِي إِلَيْنا أَفْسَحَ رَحْمَةٍ وحِينَ يُحَرِّرُنا مِنْ وَطْأَةِ الشُّعُورِ بِالذَّنْب .

انْظُروا .. (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُم ، ولَجاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرونَ ، فَيَغْفِرَ لَهُم) .

هَلْ كانَ الرَّسُولُ ﷺ بِهَذا يُشايِعُ الخَطايا ، ويُرَوِّجُ لَها .. ؟ كَلاَّ .. وإِنَّما هُوَ يُعالِجُها أَنْجَعَ عِلاجٍ ؛ حِينَ يَهَبُنا مِنَ الأَمَلِ فِى رَحْمَةِ اللّهِ ، ما نَتَفَوَّقُ بِهِ عَلَى الضَّعْفِ أَمامَها .

هَذا الضَّعْفُ الَّذي لا يُوَلِّدُهُ شَىْءٌ مِثْلَ دَوامِ اجْتِرارِها ، والإِحْساسِ الضَّاغِطِ بِها.

إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللّهِ ، هُوَ ما يُرِيدُهُ الحَبِيبُ (مُحَمَّدٌ) ﷺ مِنَ النَّاسِ حَتَّى يُحِبُّوا رَبَّهُم ، وحَتَّى يُنْشِئُوا عَلاقَتَهُم بِهِ سُبْحانَهُ عَلَى أَساسٍ رِضىً مَكينٍ مِنَ الأَمَلِ ، والرَّجاءِ ، والشَّوْق .

وهُوَ ﷺ لِهَذا يُوصِيهِم قائِلاً : (لا يَمُوتنَّ أَحَدُكُم إلاَّ وهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وجَلَّ) .

ويَقُولُ ﷺ : (قالَ اللهُ تَعالَى : أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وأَنا مَعَهُ إذا دَعانِي) .

ويَقُولُ ﷺ : (إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ تَعالَى مِنْ حُسْنِ العِبادَةِ) .

ويُكافِحُ (الرَّسُولُ الإنْسانُ) ﷺ جَمِيعَ أُولَئِكَ الَّذينَ يُقَنِّطُونَ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ ، ويَمْقُتُهُم مَقْتاً شَدِيداً ، ويَضْرِبُ لَهُم مَثَلاً فَيَقُولُ : (كانَ ثَمَّةَ أَخَوان : أَحَدُهُما يَعْبُدُ اللهَ ، والآخَرُ يَعْصِيهِ .. وذاتَ يَوْمٍ قالَ الَّذي يَعْبُدُ لِلْآخَر : أَما آنَ لَكَ أَنْ تَرْعَوِي ؟ واللهِ لَتَدْخُلَنَّ النَّارَ ، ولَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكَ .. ولَمَّا تَوَفاهُما اللهُ ، وَقَفا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقالَ لِلْعابِدِ : مَنِ الَّذي أَمَرَكَ أَنْ تَتَأَلَّى عَلَيَّ ؟ (أي : تَتَحَكَّمَ في رَحْمَتِي وتَحْلِفَ عَلَى مالا تَمْلِكُ) .. اذْهَبُوا بِهِ إلَى النَّارِ ، وقالَ لِلآخَر : ادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي) .

إنَّ رَحْمَةَ الحبيبِ (مُحَمَّدٍ) ﷺ هُنا ، لَتُجاوِزُ كُلَّ حُدودِ الإطْراءِ ، فَهُو مِنْ فَرْطِ رَحْمَتِهِ بالنَّاسِ ، يَضِنُّ بِها عَلَى المُتَجَبِّرِينَ الَّذينَ يُرَوِّجُونَ لِلْيَأْسِ ، وهُوَ يُدْرِكُ إدْراكاً سَديداً رَشِيداً أَنَّ الرَّحْمَةَ لَيْسَتْ تَرَفاً ، وإنَّما هِيَ ضَرُورَةٌ ، وأَحَقُّ النَّاسِ بِها ، أَكْثَرُهُم حاجَةً إلَيْها .. وفِي هَذا المَقامِ ، مَقامِ الخَطِيئَةِ والذَّنْبِ يَصِيرُ العُصاةُ أَحْوَجَ العالَمِينَ إلَى رَحْمَةِ اللهِ ، وإلَى الأَمَلِ فِي اللهِ .. ومِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَرْفُضُ أَيَّ تَقْنِيطٍ لَهُم مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِم ؛ ويَعْتَبِرُ مِثْلَ هَذا العَمَلِ ذَنْباً أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ ذَنْب .

وهُوَ ﷺ يُنَحِّي كُلَّ قُوَى التَّثْبِيطِ واليَأْسِ عَنْ عَلاقَةِ النَّاسِ بِاللهِ ،ويَرْسُمُ صُورَةً مِنْ أَعْذَبِ وأَمْتَعِ الصُّوَرِ الَّتي تَحْكِي بِرَّ اللهِ بِالنَّاسِ ، وأُبُوَّتَهُ الحانِيَةَ لَهُم جَمِيعاً .

يَقُولُ ﷺ : (ما مِنْ يَوْمٍ تَطْلُعُ شَمْسُهُ إلاَّ وتَقُولُ السَّماءُ : يارَبِّ ائْذَنْ لِي أَن أُسْقِطَ كِسَفاً عَلَى ابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرَكَ ، ومَنَعَ شُكْرَكَ .. وتَقُولُ الأَرْضُ : يارَبِّ ائْذَنْ لِي أَنْ أَبْتَلِعَ ابْنَ آدَمَ ؛ فَقَدْ أَكَلَ خَيْرَكَ ، ومَنَعَ شُكْرَكَ .. وتَقُولُ البِحارُ

يارَبِّ ائْذنْ لِي أَنْ أُغْرِقَ ابْنَ آدَمَ ، فَقَدْ أَكَلَ خَيْرَكَ ، ومَنَعَ شُكْرَكَ .. وتَقُولُ الجِبالُ : يارَبِّ ائْذَنْ لِي أَنْ أُطْبِقَ عَلَى ابْنِ آدَمَ ؛ فَقَد أَكَلَ خَيْرَكَ ، ومَنَعَ شُكْرَكَ .

فَيَقُولُ اللّهُ لَهُم جَمِيعاً : لَوْ خَلَقْتُمُوهُ لَرَحِمْتُمُوهُ ، دَعُونِي وعِبادِي .. إِنْ تابُوا إِلَيَّ فَأَنا حَبِيبُهُم ، وإِنْ لَمْ يَتُوبُوا ، فَأَنا طَبِيبُهُم) .

هَذهِ اللَّوْحَةُ المُبْهِجَةُ الَّتي يَرْسُمُها (مُحَمَّدٌ الإِنْسانُ الكامِلُ) ﷺ تَناهَتْ فِى الجَلالِ والمَغْزَى .

فَهُوَ ﷺ يَفْتَرِضُ حالَةً يُحاطُ فِيها الإِنْسانُ بِالأَخْطارِ والعَداواتِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ؛ مِنْ فَوْقِهِ ، ومِنْ تَحْتِهِ ، وعَنْ يَمِينِهِ ، وعَنْ شِمالِهِ .. ثُمَّ لا يَجِدُ إِلاَّ رَحِيماً وَدوداً واحِداً ، هُوَ رَبُّهُ ومَوْلاه .

ثُمَّ هُوَ ﷺ يَكْشِفُ فِى كَلِماتٍ أَخَّاذَةٍ عَنْ طَبِيعَةِ الرَّحْمَةِ الَّتي يُظَلِّلُ اللّهُ بِها عِبادَهُ إِنَّها رَحْمَةُ الخالِقِ بِخَلْقِهِ الَّذي بَرَأَهُ بِحِكْمَتِهِ ، واصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّها رَحْمَةُ الوالِدِ بِوَلَدِه .

انْظُروا هَذهِ العِبارَةَ المُشْرِقَةَ : (لَو خَلَقْتُمُوهُ لَرَحِمْتُمُوه) .

إِنَّ مَكانَ النَّاسِ مِنَ اللّهِ ، مَكانُ الرَّائِحِ الغادِي بَيْنَ حَبِيبٍ وطَبِيب .

هَكَذا رَسَمَ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ الصُّورَةَ حِينَ قالَ حاكِياً عَنِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ :

(دَعُونِي وعِبادِي .. إِنْ تابوا إِلَيَّ فَأَنا حَبِيبُهم .. وإِنْ لَمْ يَتُوبوا فَأَنا طَبِيبُهُم) .

وإِذا كانَ اللّهُ فِى حالِ رِضاهُ عَنَّا ، يَكُونُ الحَبِيبَ الَّذي لا مُنْتَهَى لِنَفَحاتِ حُبِّه .. وفِى حالِ أَسَفِهِ مِنَّا ، يَكُونُ الطَّبِيبُ الَّذي تَأْسُو الجِراحَ لَمَساتُ طِبِّه .

فَكَيْفَ إِذَنْ يَكُونُ مَصْدَرَ فَزَعٍ أَو خَوْفٍ ؟؟!!

حاشاهُ .. وسُبْحانَهُ .. وأَكْرِمْ بِهِ مِنْ حَبِيب .. وأَنْعِمْ بِهِ مِنْ طَبِيب .

* * *

والرَّحْمَةُ عِنْدَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَعْمَلُ عَمَلَها فِى إِيجابِيَّةٍ قَوِيمَةٍ ، ويَتَتَبَّعُ القَلْبُ الكَبِيرُ لَهُ ﷺ كُلَّ الأَسْبابِ الَّتي تَجْعَلُ الرَّحْمَةَ حَقِيقَةً واقِعَةً وسابِغَةً يَنْعَمُ بِها كُلُّ

إنْسان .

وفِى ضَوْءِ هَذا المَوْقِفِ ، يَنْبَغِي أَنْ تُفْهَمَ جَمِيعُ التَّوْجِيهاتِ والوَصايا الَّتي يَدْعُونا فِيها (الرَّسُولُ) ﷺ إِلَى الطَّاعَةِ وإِلَى الخَيْرِ ، فَهُوَ لا يُرِيدُ بِوَصاياهُ وتَوْجِيهاتِهِ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِينا ، أَو أَنْ يَسُوقَنا .

وإِنَّما تَمامُ رَحْمَتِهِ ﷺ بِالنَّاسِ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُم الأَخْطاءَ ، ويُجَنِّبَهُم مَهابَّ الرِّيحِ البارِدَةِ اللاَّفِحَة .

فَإِذا دَعا إِلَى خَيْرٍ وحَضَّ عَلَيْهِ ، فَبِدافِعٍ مِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ .

وإِذا نَهَى عَنْ شَرٍّ ، وحَذَّرَ مِنْهُ ، فَبِباعِثٍ مِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ .

فالرَّحْمَةُ بِالإِنْسانِيَّةِ ، هِيَ الَّتي تَشْحَذُ حِرْصَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى خَيْرِنا وعَلَى مَصِيرِنا ، وهِيَ الَّتي تَجْعَلُهُ يَأْمُرُ بِالحُسْنَى ، ويَنْهَى عَنِ السُّوءِ .

ومِنْ أَجْلِ هَذا ، كانَ يَخافُ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذُنُوبِهِم ، وكانَ يَرَى تِلْكَ الذُّنُوبَ كأَنَّها أَخْطارٌ داهِمَةٌ تَتَهَدَّدُ حَياتَهُم وسَلامَتَهُم .

يَقُولُ ﷺ : (إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْه)

والحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ رَسُولٌ مَسْئُولٌ عَنْ رِسالَتِهِ ، لا يَقِفُ مِنَ العُصاةِ مَوْقِفَ المُتَألِّي ، والمُسَيْطِر.. بَلْ مَوْقِفَ الرَّءُوفِ الرَّحِيم .. العَزِيزِ عَلَيْهِ عَنَتَهُم ، الحَرِيصِ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى نَجاتِهِم وسَلامَتِهِم .

وإِنَّهُ لَيُحَدِّدُ مَكانَتَهُ هَذِهِ ، فِى كَلِماتٍ جَلِيلَةٍ فَيَقُولُ ﷺ :

(مَثَلِي ومَثَلُكُم ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ ناراً ، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والفَراشُ يَقَعْنَ فِيها ، وهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْها .. وأَنا آخِذٌ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّار ، وأَنْتُم تُفْلِتُونَ مِنْ يَدَي) .

هَذا هُوَ مَوْقِفُ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَماماً مِنَ الَّذينَ يَقُودُهُم الهَوَى إِلَى الخَطَأِ .. لَيْسَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ، ولا هُوَ عَلَيْهِم بِجَبَّار .. إِنَّهُ الإِنْسانُ الكامِلُ الَّذي يَحْمِلُ تَبِعاتِ إِنْسانِيَّتِهِ ورُشْدِهِ تِجاهَهُم ، فَهُوَ ﷺ يَدْفَعُهُم عَنِ الخَطَأِ ، كَمَنْ يَدْفَعُ الفَراشَ عَنِ النَّار .. ما أَبْهَجَ رُوحَهُ ، وهُوَ يَقُولُ : (وأَنْتُم تُفْلِتُونَ مِنْ يَدَي) .

ويَرُدُّ الرَّسُولُ ﷺ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ ، لا إِلَى ما للنَّاسِ مِنْ أَعْمالٍ مَهْما تَكُنْ صالِحَة .. ذَلِكَ أَنَّ أَعْمالَنا الصَّالِحاتِ ، مَهْما تَكُنْ كَثْرَتُها ووَفْرَتُها ، لا تَفِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ واحِدَةٍ مِنْ أَنْعُمِ اللهِ الكُبْرَى .

يَقُولُ ﷺ : (قارِبُوا وسَدِّدوا .. واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُم بِعَمَلِهِ .. قالُوا : ولا أَنْتَ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ ولا أَنا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْل) .

هَذا هُوَ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ لا يَأْخُذُهُ الغُرُورُ بِما يُقَدِّمُ مِنْ عِبادَةٍ وطاعَةٍ ، وإِنَّها لَعِبادَةٌ تَثْقُلُ بِها المَوازِين .. لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النِّعْمَةَ كُلَّها مِنَ اللهِ ، وأَنَّهُ إِذا كانَ قَدْ هُدِيَ إِلَى الخَيْرِ ، فَبِفَضْلٍ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ .. وهَذا يَقْتَضِي أَنْ يَعْرِفَ ﷺ مَكانَهُ تَماماً مِنَ الآخَرِينَ الَّذينَ لَمْ يُسْعِفْهُم نَصِيبُهُم مِنَ الهُدَى، فَهُوَ لا يَتَأَلَّى عَلَيْهِم ، ولا يَسْتَخِفُّ بِهِم ، بَلْ يَدْعُو لَهُم ويُشْفِقُ عَلَيْهِم ، ويُصَلِّي مِنْ أَجْلِهِم ، ويَتَتَبَّعُ جانِبَ الخَيْرِ الَّذي فِيهِم مَهْما يَكُنْ ضَئِيلاً ، فَيُشِيدُ بِهِ ، ويَبْتَعِثُ مِنْهُ ثِقَتَهُم بِأَنْفُسِهِم .

انْظُروا .. (جِيءَ للرَّسُولِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْراً ، فَلَمَّا أَبْصَرَهُ أَصْحابُهُ ، قالُوا : لَعَنَهُ اللهُ ما أَكْثَرَ ما يُؤْتَى بِهِ شارِباً ..

فَصاحَ الرَّسُولُ ﷺ فِيهِم : لا تَلْعَنُوهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه) .

أَيُّ إِنْسانٍ مُشْرِقٍ كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ ؟

إِنَّهُ لا يَهْدِمُ أَقْدارَ النَّاسِ لِما فِيهِمْ مِنْ ضَعْفٍ ، بَلْ يَضَعُ عَيْنَهُ عَلَى الخَيْرِ الَّذي فِيهِمْ ، ويَهْتِفُ بِهِ !!! .

وها هُوَ ذا ﷺ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ الرَّسُولُ ، وصاحِبُ رِسالَةٍ دِينِيَّةٍ ، تُحَرِّمُ الخَمْرَ وتَراها إِحْدَى المُوبِقاتِ الكَبائِر .. يُكَرِّمُ فِي إِنْسانٍ يَشْرَبُ الخَمْرَ فَضِيلَةً قَدِ انْطَوَى عَلَيْها ، تِلْكَ هِيَ فَضِيلَةُ الحُبِّ !!! .

(لا تَلْعَنُوهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه) .. والحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِذَن ، وهُوَ يُرَكِّزُ عَلَى حُبِّ الخَيْرِ وفِعْلِهِ وبُغْضِ الرَّذِيلَةِ وتَرْكِها ، إِنَّما يَفْعَلُ هَذا بِدافِعٍ مِنْ رَحْمَتِهِ

بِالفَرْدِ وبِالجَماعَة :

بِالفَرْدِ ؛ حَتَّى لا يُفْضِي بِهِ السُّوءُ الَّذي يَقْتَرِفُهُ إِلَى بُؤْسٍ نَفْسِيٍّ يُكَدِّرُصَفْوَ حَياتِه .

وبِالمَجْمُوعِ ؛ لأَنَّ المُجْتَمَعَ ما لَمْ يَرْعَ الحُقُوقَ المَشْروعَةَ ، ويَتَواصَ بِالفَضائِلِ والخَيْرِ ، فَإِنَّهُ يُصِيبُ نَفْسَهُ بِشَرٍّ ما يُمَزِّقُها .

والحَبِيبُ مُحمَّدٌ ﷺ يُدْرِكُ هَذا ، ويَضْرِبُ لَهُ مَثَلاً بَلِيغاً :

(مَثَلُ القائِمِ عَلَى حُدودِ اللّهِ ، والواقِعِ فِيها ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَصارَ بَعْضُهُم أَعْلاها ، وبَعْضُهُم أَسْفَلَها ، فَكانَ الَّذينَ فِي أَسْفَلِها إِذا اسْتَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُم ، فَقالُوا : لَو أَنَّنا خَرَقْنا فِي نَصِيبِنا خَرْقاً ، ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنا .. فَإِنْ تَرَكُوهُم وما أَرادُوا .. هَلَكُوا جَمِيعاً ، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجَوا ، ونَجَوا جَمِيعاً) .

وهَذا الإِدْراكُ الإِنْسانِيُّ السَّدِيدُ ، يُحَدِّدُ الطَّرِيقَةَ الَّتي يَأْخُذُ بِها الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى أَيْدِي العُصاة .. إِنَّها الرَّحْمَةُ أَيْضاً ، والرَّحْمَةُ دائِماً .

ولَطالَما كانَ يَجِيئُهُ مُذْنِبُونَ ، يَعْتَرِفُونَ لَهُ ، فَيُحاوِلُ هُوَ ﷺ أَنْ يَرُدَّهُم عَنِ اعْتِرافاتِهِمْ ، حَتَّى لا يَضْطَرَّ إِلَى أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ ما شَرَعَ اللّهُ مِنْ عِقابٍ ، مُرْجِئاً أَمْرَهُمْ إِلَى رَحْمَةِ اللّهِ الواسِعَة .

وإِنَّهُ ﷺ لَيَنْأَى عَنِ الَّذينَ لا هَمَّ لَهُم إِلاَّ التَباؤُسَ بِأَخْطاءِ النَّاسِ ، واليَأْسِ مِنْ صَلاحِهِم .

يَقُولُ ﷺ فِي هَذا المَقام : (إِذا سَمِعْتُم الرَّجُلُ يَقُولُ : هَلَكَ النَّاسُ ، فَهُوَ أَهْلَكُهُم) ، أَي أَشَدُّهُم هَلاكاً .

هُنا إِنْسانٌ بارٌّ .. هُنا أَبٌ للإِنْسانِيَّةِ ومَلاذ .

هُنا قَلْبٌ كَبِيرٌ .. كَبِيرٌ جِدّاً .. لا يَعْرِفُ القَسْوَةَ ، ولا الغُرورَ ، ولا التَّشَفِيَّ ، ولا اليَأْسَ .

هُنا مُحَمَّدٌ وكَفَى .

بِهَذهِ الرَّحْمَةِ واجَهَ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ خَوْفَ النَّاسِ مِنَ اللهِ .. ذَلِكَ الخَوْفُ الَّذي زَحَمَ قُلُوبَهُم ورُؤَاهُم .

وانْتَهَى بِهِم إِلَى رَبٍّ رَءُوفٍ رَحِيمٍ يُقِيلُ العَثْرَةَ ويَقْبَلُ التَّوْبَ ، ويَغْفِرُ الذَّنْبَ ، ويَفْرَحُ بِعَوْدَةِ عِبادِهِ إِلَيْهِ ، فَرَحَ الوالدِ الحَنُونِ بِعَوْدَةِ ابْنِهِ المَفْقُود .

بَقِيَ أَنْ نَرَى كَيْفَ طارَدَ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ النَّوْعَ الآخَرَ مِنَ الخَوْفِ ، الخَوْفَ مِنَ النَّاس .

ماذا يَخافُ النَّاسُ مِنَ النَّاس ؟

إِنَّ الخَوْفَ هُوَ فُقْدانُ الشُّعُورِ بِالأَمْنِ .. فَكُلُّ ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُضْعِفَ هَذا الشُّعُورَ أَو يُزِيلَهُ ، فَهُوَ عَمَلٌ مِنْ أَعْمالِ الإِخافَةِ والإِرْهاب .

ووَراءَ كُلِّ الأَعْمالِ العُدْوانِيَّةِ الَّتي تَبْعَثُ عَلَى الخَوْفِ ، يَكْمُنُ دافِعٌ جَبَّارٌ ، هُوَ : قَسْوَةُ القَلْب .

قَسْوَةُ القَلْبِ ، أَو قَسْوَةُ الضَّمِير : هِيَ الَّتي تَفْرِزُ كافَّةَ الأَعْمالِ والتَّصَرُّفاتِ الَّتي تُسْلِمُ ضَحاياهُ لِلأَسَى والخَوْف .

والقَسْوَةُ ، حَتَّى حِينَما تَتَقَمَّصُ عَمَلاً مَشْروعاً ، أَو قِصاصاً عادِلاً ، تَجْعَلُ هَذا العَمَلَ ، وذاك القِصاصَ أَقْرَبُ ما يَكُونانِ إِلَى الظُّلْم .

ولِكَي يُعالِجَ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ دَواعِيَ الخَوْفِ .. راحَ يَبْدَأُ مِنْ أَبْعَدِ نِقاطِها ، ومَصْدَرِ انْطِلاقِها .. مِنْ قَسْوَةِ النَّفْسِ ، ثُمَّ يَتَتَبَّعُ الخَوْفَ فِي كُلِّ مَظاهِرِهِ ، وكُلِّ دَواعِيهِ ، حَتَّى تُهَيِّىءَ رَحْمَتُهُ الكَبِيرَةُ حَياةً بِلا مَخاوِف .

فالقَسْوَةُ عَدُوٌّ لَدودٌ لِلرَّحْمَةِ .. والرَّسُولُ ﷺ لِهَذا يُواجِهُها مُواجَهَةً فاصِلَةً : مِنْ أَبْسَطِ مَظاهِرِها ، حَتَّى أَكْبَرِ هَذهِ المَظاهِرِ خَطَراً .

تَقُولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها : (قَدِمَ ناسٌ مِنَ الأَعْرابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقالُوا : أَتُقَبِّلُونَ صِبْيانَكُم ؟ ، فَقالَ : نَعَم .. قالُوا : لَكِنَّنا واللهِ ما نُقَبِّلُ .. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كانَ اللهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُم الرَّحْمَة ؟ .

إِنَّ القُبْلَةَ الأَبَوِيَّةَ الحانِيَةَ الَّتي نُعْرِبُ بِها عَنْ حُبِّنا لأَطْفالِنا ، تُمَثِّلُ شَيْئاً جَلِيلاً عِنْدَ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ.. إِنَّها لَيْسَتْ عَمَلاً مِنْ أَعْمالِ التَّسْلِيَةِ ، أَو اللَّهْوِ .. إِنَّها الرَّحْمَةُ تَتَّخِذُ مَظْهَراً مَهْما يَبْدو عابِراً فَإِنَّ وَراءَهُ ذَلِكَ الرَّصِيدَ الضَّخْمَ الَّذي يُرِيدُهُ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﷺ لِجَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، والعَطْفِ ، والحَنان .

وهُوَ ﷺ لِهَذا يَدْمَغُ الَّذينَ يَنْصَرِفُونَ عَنْ هَذا المَظْهَرِ العابِرِ لِلرَّحْمَةِ بِقَسْوَةِ القَلْبِ ويُخْبِرُهُم أَنَّ الرَّحْمَةَ قَدْ نُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمْ .

وفِي مُسْتَوى أَعْلَى مِنْ مُسْتَوَى العَلاقَةِ بَيْنَ الكِبارِ وأَطْفالِهِمْ .. أَعْنِي حِينَما تَكُونُ العَلاقَةُ بَيْنَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً ، تَتَحَوَّلُ القُبْلَةُ إِلَى مَظاهِرَ كَثِيرَةٍ مُناسِبَةٍ ؛ فالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ رَحْمَةٌ ، والنَّظْرَةُ العاطِفَةُ رَحْمَةٌ ، والهَدِيَّةُ المُتَواضِعَةُ رَحْمَةٌ ، والصَّفْحُ الجَمِيلُ رَحْمَةٌ ، وعِيادَةُ المَرِيضِ رَحْمَةٌ ، بَلْ وتَشْمِيتُ العاطِسِ رَحْمَةٌ .

وكُلُّ هَذهِ الأَعْمالِ الَّتي تَبْدو بَسِيطَةً ، يُشَكِّلُ الرَّسُولُ ﷺ مِنْها ومِنْ نَظائِرِها نَهْجاً لِلسُّلُوكِ الاجْتِماعِي الَّذي تَنْمُو فِيهِ رَوابِطُ الوُدِّ ، وتَخْتَفِي بِالتَّالِي أَسْبابُ التَّسَلُّطِ والقَطِيعَةِ ، والخَوْف .

أَي أَنَّ الحَبِيبَ مُحَمَّداً ﷺ يُكافِحُ دَواعِيَ خَوْفِ النَّاسِ مِنَ النَّاسِ ، بِإِنْعاشِ دَواعِي الثِّقَةِ والمَوَدَّةِ بَيْنَهُم ، واتِّباعِ الَّتي هِيَ أَحْسَنُ فِي كُلِّ ما يُقالُ ، وما يُصْنَعُ فالإِنْسانُ لِلْإِنْسانِ أَخٌ : (لا يَظْلِمُهُ ، ولا يَخْذِلُهُ ، ولا يَحْقِرُهُ) .

إِنَّ التَّعْبِيراتِ اليَسِيرَةَ الَّتي تَعْكِسُ المَوَدَّةَ والعَطْفَ ، ذاتُ أَثَرٍ كَبِيرٍ فِي إِحْياءِ الإِخاءِ الإِنْسانِي ، ولِهَذا كانَ الرَّسُولُ ﷺ شَدِيدَ الاهْتِمامِ بِها ، وكَبِيرَ الاهْتِمامِ أَيْضاً بِأَنْ تَصْدُرَ عَنْ قُلُوبٍ سَلِيمَةٍ وعَنْ نَوايا طَيِّبَةٍ صادِقَة .

يَقُولُ البَراءُ بنُ عازِب رضي الله عنه : (أَمَرَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَبْعٍ ؛ أَمَرَنا بِعِيادَةِ المَرِيضِ ، واتِّباعِ الجَنازَةِ ، وتَشْمِيتِ العاطِسِ ، وإِبْرارِ المُقْسِمِ ، ونُصْرَةِ المَظْلُومِ ، وإِجابَةِ الدَّاعِي ، وإِفْشاءِ السَّلامِ) .

* * *

ولَـمَّا كانَتِ القَسْوَةُ فِى كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوالِ ثَمَرَةَ الغُرور ، ولَـمَّا كانَ الغُرورُ مَسْئُولاً عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الإهاناتِ الَّتي تَلْحَقُ بِبَعْضِ النَّاسِ ، لا لِذَنْبٍ جَنَوْهُ .. ولَكِنْ بِمُجَرَّدِ أَنَّهُم فِى الكادِرِ الاجْتِماعي يَأْخُذُونَ مَكانَهُم فِى الصُّفُوفِ الخَلْفِيَّة .

ولَـمَّا كانَ وَراءَ هَذا الغُرورِ غالِباً ، الزَّهْوُ بِالمالِ ، أَوِ الجاهِ ، أَو بِالمَنْصِبِ ، فَقَد ذَهَبَ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ يُسَوِّي بِكُلِّ هَذهِ المَظاهِرِ التُّرابَ ؛ حَتَّى يَرْعَوِي كُلُّ مَغْرورٍ صَلْفٍ ، وحَتَّى يَطْمَئِنَّ الضُّعَفاءُ والنَّاسُ العادِيُّون .

ويَضْرِبُ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ الأَمْثِلَةَ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ ، فَيَقُولُ :

(احْتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ ، فَقالَتِ النَّارُ : فِيَّ الجَبَّارُونَ والمُتَكَبِّرونَ .. وقالَتِ الجَنَّةُ : فِيَّ ضُعَفاءُ النَّاسِ ومَساكِينُهُم .. فَقَضَى اللّهُ بَيْنَهُما :

قالَ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتي ، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشاءُ ..

وقالَ لِلنَّارِ : أَنْتِ عَذابِي ، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشاءُ) .

مِنْ هَذا المِثالِ البَلِيغِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُدْرِكَ الطَّرِيقَةَ الَّتي يَهْدِمُ بِها الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ كُلَّ عَوامِلِ التَّمَزُّقِ النَّفْسِيِّ بَيْنَ النَّاس .

فالجَبَّارُونَ والمُتَكَبِّرونَ لَيْسُوا فِى مَكانٍ يُغْبَطُونَ عَلَيْهِ ، أَو يُؤَهِّلُهُم لِلتَّغَطْرُسِ عَلَى عِبادِ اللّهِ .. إِنَّهُم فِى نارِ الرَّذِيلَةِ الَّتي تَسَرْبَلُوا بِها ، وحَرَمَتْهُم حُبَّ النَّاسِ وصَلَواتِ قُلُوبِهِم ؛ رَذِيلَةُ الكِبْرِ ، والتَّجَبُّرِ ، والجُحُود .

وهَؤُلاءِ الَّذينَ يَبْدُونَ ضُعَفاءَ مَساكِينَ ، لأَنَّهُم نَضَوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُلَّ مَظاهِرِ الخُيَلاءِ ، والتَّرَفِ ، والتَجَبُّر .

هَؤُلاءِ هُم الَّذينَ ظَفِروا بِجَنَّاتِ الحُبِّ ، والطُّمَأْنِينَةِ والسَّلام .

ويَسْتَمِرُّ الرَّسُولُ ﷺ فِى نَهْنَهَةِ ضَراوَةِ المُتَجَبِّرِينَ ، فَيَقُولُ :

(إِنَّ الرَّجُلَ العَظِيمَ السَّمِينَ ، لَيَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللّهِ جَناحَ بَعُوضَة)

والعَظِيمُ السَّمِينُ هُنا ؛ كِنايَةٌ عَنِ المُتَعاظِمِ بِجاهِهِ المُتَبَذِّخِ بِثَرائِهِ ، ولْنَقْرَأْ مَعاً

هَذا النَّبَأَ :

(مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جالِسٌ : ما رَأْيُكَ فِى هَذا ؟ فَأَجابَ : إِنَّهُ مِنْ أَشْرافِ النَّاسِ ، وإِنَّهُ لَحَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ .. فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .. ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ ، فَقالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : ما رَأْيُكَ فِى هَذا ؟ فَقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، هَذا رَجُلٌ مِنْ فُقَراءِ المُسْلِمينَ ، حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَلاَّ يُنْكَحَ ، وإِنْ شَفَعَ أَلاَّ يُشَفَّعَ ، وإِنْ قالَ أَلاَّ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ .. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : هَذا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِنْ مِثْلِ ذاكَ) .

لَقَدْ أَرادَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى حَسَبِ هَذا النَّبَأِ المَرْوِيِّ أَنْ يَرْفَعَ فِى وَجْهِ غُرورِ الجاهِ شَرَفَ التَّواضُع .

والرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَنْبُذِ الرَّجُلَ الأَوَّلَ بِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ مِنْ أَشْرافِ النَّاسِ .. بَلْ لا بُدَّ أَنَّهُ كانَ مِنَ المَغْرورِينَ بِمَكانَتِهِم الاجْتِماعِيَّةِ ، ولَقَدْ جَعَلَ خَيْراً مِنْهُم النَّاسَ العادِيِّينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ فِى صَمْتٍ ، ويَحْيَوْنَ فِى تَواضُعٍ وسَلام .

والإِساءاتُ قَلَّما تَقَعُ بَيْنَ ناسٍ مُتَباعِدِينَ ، لأَنَّها نَتِيجَةُ الخُلْطَةِ الدَّانِيَةِ والاحْتِكاكِ الاجْتِماعِي ، فَأَنْتَ لا تَخْتَلِفُ مَعَ رَجُلٍ لا تَعْرِفُهُ ، إِنَّما يَكُونُ الخِلافُ حِينَ يَكُونُ بَيْنَكَ وبَيْنَ صَديقٍ أَو قَرِيب .

لِهَذا يُوصِي الرَّسُولُ ﷺ بِالجارِ ، ويُشَدِّدُ فِى الوَصِيَّةِ .. ذَلِكَ لأَنَّ الجِيرانَ تَجْمَعُهُم خُلْطَةٌ دائِمَةٌ ، وهَذهِ الخُلْطَةُ تَجْعَلُ احْتِمالَ الخِلافِ والنِّزاعِ بَيْنَهُم كَثيراً فَيَطْغَى القَوِيُّ عَلَى الضَّعِيفِ ، ويَتَقَطَّعُ بَيْنَهُم ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ .

وهُنا يُرَكِّزُ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِتَرْغِيبٍ وتَرْهِيبٍ عَلَى حَقِّ الجِوار :

- (مازالَ جِبْريلُ يُوصِيني بِالجارِ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ) .
- (واللهِ لا يُؤْمِنُ ، واللهِ لا يُؤْمِنُ ، واللهِ لا يُؤْمِنُ ، قِيلَ : مَنْ هُوَ يارَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : الَّذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ) .

هَذا هُوَ ما يُرِيدُهُ (مُحَمَّدٌ الإِنْسانُ الرَّحِيمُ) ﷺ : أَلاَّ يَخافَ جارٌ ضَعِيفٌ جارَهُ

القَوِيَّ .

وهُوَ لِهَذا ، يَنْفِي الإِيمانَ نَفْياً أَكِيداً عَنْ كُلِّ جارٍ يَخافُهُ جارُهُ ولا يَأْمَنُ غَوائِلَهُ وشُرورَهُ .

يا لَفِطْنَةُ هَذا النَّبِيِّ .. ويا لَرَحْمَتُهُ الحانِيَة ..!!

إِنَّهُ يَعْلَمُ حاجَةَ النَّاسِ إِلَى الأَمْنِ فِي جِوارِهِمْ .. فالجارُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَسْرارِ جارِهِ ، قادِرٌ عَلَى وَضْعِ الأَذَى فِي طَرِيقِهِ .

وهُنا يَتَقَدَّمُ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ رافِعاً لِحُقُوقِ الجِوارِ لِواءً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتَحَدَّاهُ فَإِنْ فَعَلَ ، فَقَد خَلَعَ رِبْقَةَ الإِيمان :

• (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ) .

• (خَيْرُ الأَصْحابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُم لِصاحِبِهِ ، وخَيْرُ الجِيرانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُم لِجارِه) .

ولَقَدْ قِيلَ لَهُ ﷺ يَوْماً : يارَسُولَ الله : إِنَّ فُلانَةً تُكْثِرُ مِنْ صَلاتِها ، وصَدَقَتِها ، وصِيامِها ، غَيْرَ أَنَّها تُؤْذِي جِيرانَها بِلِسانِها ، فَقالَ ﷺ : (هِيَ فِي النَّار) .

وإِنَّهُ ﷺ لَيُشِيرُ فِي رَحْمَةٍ دافِقَةٍ إِلَى أَهَمِّ حُقُوقِ الجار ، فَيَقُولُ :

(إِذا اسْتَعانَ بِكَ أَعَنْتَهُ ، وإِذا اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ ، وإِذا افْتَقَرَ عُدْتَ عَلَيْهِ ، وإِذا أَصابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ ، وإِذا أَصابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ ، وإِذا ماتَ اتَّبَعْتَ جَنازَتَهُ ، ولا تَسْتَطِلْ عَلَيْهِ بِالبُنْيانِ ، فَتَحْجِبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، ولا تُؤْذِهِ بِقِتارِ رِيحِ قِدْرِكَ إِلاَّ أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْها ، وإِنِ اشْتَرَيْتَ فاكِهَةً فاهْدِ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْها سِرًّا ، ولا يَخْرُجْ بِها وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِها وَلَدَهُ) .

أَيَّةُ إِنْسانِيَّةٍ شُحِنَتْ بِها هَذهِ الكَلِماتُ ؟ وأَيُّ قَلْبٍ كَبِيرٍ هَذا الَّذي وَهَبَهُ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ ؟

* * *

وما يَتَطَلَّبُهُ الجِوارُ مِنْ رِعايَةٍ ؛ تَتَطَلَّبُ مِثْلُهُ القَرابَةُ فِي الوَقْتِ ذاتِهِ ولِلسَّبَبِ نَفْسِهِ

وهُنا يُوصِي الرَّسُولُ ﷺ بِالرَّحِمِ :

• (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) .

ويَضْرِبُ ﷺ مَثَلاً رائِعاً لِأَهَمِّيَّةِ الرَّحِمِ وجَلالِها فَيَقُولُ :

• (إِنَّ اللّهَ تَعالَى خَلَقَ الخَلْقَ ، حَتَّى إِذا فَرِغَ مِنْهُم ، قامَتِ الرَّحِمُ فَقالَتْ : هَذا مَقامُ العائِذِ مِنَ القَطِيعَةِ ، قالَ اللّهُ : نَعَم .. أَما تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وأَقْطَعُ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قالَتْ : بَلَى .. قالَ : فَذَلِكَ لَكِ) .

* * *

واليَتِيمُ ، والأَرْمَلَةُ ، والمِسْكِينُ أَكْثَرُ النَّاسِ خَوْفاً مِنَ المَصِيرِ ، وأَكْثَرُهُم حاجَةً إِلَى الحَنانِ ، والأَمْنِ والرَّحْمَة .

وهُنا يَتَقَدَّمُ الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيَبْسِطُ عَلَيْهِم جَناحَهُ :

• (أَنا وكافِلُ اليَتِيمِ فِى الجَنَّةِ كَهاتَيْنِ - مُشِيراً بِأَصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ والْوُسْطَى) .

• (إِنَّ أَحَبَّ البُيُوتِ إِلَى اللّهِ ، بَيْتٌ فيهِ يَتيمٌ مُكْرَمٌ) .

• (والَّذي بَعَثَنِي بِالحَقِّ ، لا يُعَذِّبُ اللّهُ يَوْمَ القِيامَةِ مَنْ رَحِمَ اليَتِيمَ ، وأَلانَ لَهُ فِى الكَلامِ ، ورَحِمَ يُتْمَهُ وضَعْفَهُ) .

• (السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ والمِسْكِينِ كالمُجاهِدِ فِى سَبِيلِ اللّهِ ، وكالَّذي يَقُومُ اللَّيْلَ ويَصُومُ النَّهارَ) .

* * *

إِنَّ الحَبِيبَ مُحَمَّداً ﷺ يَتَعَقَّبُ قَسْوَةَ القَلْبِ فِى كُلِّ مَجالاتِها ، لِأَنَّهُ يُدْرِكُ مَسْئُولِيَّتَها عَنِ الخَوْفِ الَّذي يُسَلِّطُهُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، وعَنِ السُّوءِ الَّذي يُلْحِقُهُ بَعْضُ النَّاسِ بِبَعْضٍ .

وهُوَ ﷺ إِذْ يُوصِي بِالرَّحِمِ خَيْراً ، فَلأَنَّهُ يَعْلَمُ ما يُلْحِقُهُ الهَجْرُ ، والقَطِيعَةُ بِها مِنْ فَزَعٍ وأَسَى .. ولِهَذا صَوَّرَها لَنا وَجِلَةً مَفْزوعَةً ، آخِذَةً بِعَرْشِ اللّهِ تَقُولُ فِى

ضَراعَةٍ : (هَذا مَقامُ العائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَة) .

والحَبيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يُحَرِّرَ الأَحْياءَ مِنْ مَخاوِفِهِم ، ويَدْهَمُ دَواعِيَ الخَوْفِ فِى كُلِّ مَظانِّها .

وإِنَّهُ لَيَتَعَقَّبُ تِلْكَ المَظانَّ واحِدَةً تِلْوَ الأُخْرَى ، عَلَى النَّسَقِ الَّذي رَأَيْنا .

وبِعبارَةٍ واحِدَةٍ .. فالحَبيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذي أَمْلَتْ عَلَيْهِ رَحْمَتُهُ الوافِيَةُ تَحْرِيرَ النَّاسِ مِنْ الخَوْفِ ، يُنَظِّمُ حَمْلَةً واسِعَةَ النِّطاقِ ضِدَّ الشُّرورِ الضَّارِبَةِ فِى الحَياةِ الإِنْسانِيَّة .

فَتِلْكَ الشُّرورُ هِىَ ما يَخافُ النَّاسُ .. وإِنَّهُ ﷺ لَنْ يُغادِرَ مِنْها صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إِلَّا يُدْحِضُها ، ويُحَذِّرُ مِنْها ، ويُطارِدُها .

طارَدَ القَسْوَةَ ، طارَدَ القَطِيعَةَ ، طارَدَ الصَّلَفَ والغُرورَ ؛ كَما رَأَيْنا فِى أَحادِيثِهِ السَّالِفَة .. ثُمَّ هُوَ ﷺ يُطارِدُ الغَضَبَ قائِلاً :

•(شَرُّكُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ، بَطِيءُ الفَيْءِ ، وخَيْرُكُمْ بَطِيءُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْءِ) .

وحِينَ يَسْأَلُ أَحَدُ أَصْحابِهِ عَنِ العَمَلِ الَّذي يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ ، يُجِيبُهُ ﷺ :

•(لا تَغْضَب ، ولَكَ الجَنَّة) .

ويَقُولُ ﷺ :•(لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرْعَةِ ، إِنَّما الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ) .

•(أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ ؟ تَحْرُمُ عَلَى هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْل) .

ويَرْسُمُ ﷺ مَشْهَداً مِنَ المَشاهِدِ الفاتِنَةِ الَّتي تُبْهِرُ الأَبْصارَ بِجَمالِها وتُثْرِي الأَرْواحَ بِدَلالَتِها ، فَيَقُولُ :

•(إِذا جَمَعَ اللّهُ الخَلائِقَ ، نادَى مُنادٍ : أَيْنَ أَهْلُ الفَضْلِ ؟ فَيَقُومُ ناسٌ وهُمْ يَسِيرٌ ، فَيَنْطَلِقُونَ سِراعاً إِلَى الجَنَّةِ ، فَتَتَلَقَّاهُم المَلائِكَةُ ، فَيَقُولُونَ إِنَّا نَراكُم سِراعاً إِلَى الجَنَّةِ ، فَمَنْ أَنْتُم ؟ ، فَيَقُولُونَ : نَحْنُ أَهْلُ الفَضْلِ .. فَيَقُولُونَ : وما

فَضْلُكُم ، فَيَقُولُونَ : كُنَّا إذا ظُلِمْنا صَبَرْنا ، وإذا أُسِيءَ إلَيْنا حَلُمْنا ، فَيُقالُ لَهُم : ادْخُلُوا الجَنَّةَ فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلِين) .

ويُطارِدُ الحَسَدَ والبَغْضاءَ ، فَيَقُولُ ﷺ :

• (لا تَحاسَدوا ، ولا تَدابَروا ، ولا تَباغَضُوا ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْواناً) .

ويُطارِدُ ﷺ الفُضُولَ فِى شَتَّى صُوَرِهِ :

• (مَنِ اطَّلَعَ فِى بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إذْنِهِمْ ، فَقَدَ حَلَّ لَهُم أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ) .

• (مَنِ اسْتَمَعَ إلَى حَدِيثِ قَوْمٍ ، وهُم لَهُ كارِهُونَ ، صُبَّ فِى أُذُنِهِ الآنَكَ يَوْمَ القِيامَة) ، والآنَك : الرُّصاصُ المُذاب .

ويَنْهَى عنِ السُّبابِ والشَّتْمِ ، فَيَقُولُ ﷺ :

• (إنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ ، قِيلَ يا رَسُولَ الله : كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ ؟ ، قالَ : يَسُبُّ أَبا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَباهُ ، ويَسُبُّ أُمَّهُ ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ وتَرْوِي السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها هَذا النَّبَأَ الجَزل ، فَتَقُول :

• (مَرَّ النَّبِىُّ ﷺ بِأَبِي بَكْرٍ ، وهُوَ يَلْعَنُ بَعْضَ خَدَمِهِ ، فالْتَفَتَ النَّبِىُّ إلَيْهِ ، وقالَ لَعَّانِينَ ، وصِدِّيقِينَ ؟! كَلاَّ ورَبِّ الكَعْبَةِ .. فَسَرَّحَ أَبو بَكْرٍ خَدَمَهُ تَكْفِيراً عَنْ شَتْمِهِ لَهُم ، وجاءَ إلَى النَّبِىِّ ﷺ ، وقالَ : لا أَعُودُ) .

ويَنْهَى الرَّسُولُ ﷺ عَنْ تَرْوِيعِ الإنْسانِ أَخاهُ ولَوْ بِأَتْفَهِ مَظاهِرِ التَّرْوِيعِ ، انْظُروا :

• (لا يُشِرْ أَحَدُكُم إلَى أَخِيهِ بِالسِّلاحِ ، فَإنَّهُ لا يَدْرِي .. لَعَلَّ الشَّيْطانَ يَنْزِعُ فِى يَدِهِ (أَي يَرْمِي) فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّار)

وأَتْلُو هَذا الحَدِيثَ أَيْضاً :

• (مَنْ أَشارَ إلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ ، فَإنَّ الملائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَنْتَهِىَ وإنْ كانَ أَخاهُ لأَبِيهِ وأُمِّهِ) .

ويُطارِدُ النَّمِيمَةَ ، والغِيبَةَ ، والبُهْتانَ ، فَيَقُولُ ﷺ :

• (شِرارُ عِبادِ اللّهِ : المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ ، المُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ) .

• (الغِيبَةُ والنَّمِيمَةُ يَحِتَّانِ الإيمانَ ، كَما يَعَضُّدُ الرَّاعِي الشَّجَرَةَ) .

وَيَسْأَلُ ﷺ أَصْحابَهُ يَوْماً :

• (أَتَدْرُونَ مَنِ المُفْلِسُ ؟ قالُوا : المُفْلِسُ فِينا مَنْ لادِرْهَمَ لَهُ ولا مَتاعَ ، فَقالَ ﷺ : المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ بِصَلاةٍ وصِيامٍ وزَكاةٍ ، ويَأْتِي وقَدْ شَتَمَ هَذا .. وقَذَفَ هَذا .. وأَكَلَ مالَ هَذا . وسَفَكَ دَمَ هَذا .. وضَرَبَ هَذا فَيُعْطَى هَذا مِنْ حَسَناتِهِ ، وهَذا مِنْ حَسَناتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ ما عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطاياهُم فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ) .

* * *

إِنَّ الحَبِيبَ مُحَمَّداً ﷺ يَحْمِي أَعْراضَ النَّاسِ، ويَدْفَعُ عَنْها كُلَّ لِسانٍ ثَرْثارٍ.. وفِي خُطْبَةِ الوَداعِ ، يُجَلْجِلُ ﷺ بَيْنَ المَلأْ قائِلاً :

(إِنَّ دِماءَكُم ، وأَمْوالَكُم ، وأَعْراضَكُم ، حَرامٌ عَلَيْكُم ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هَذا .. فِي شَهْرِكُم هَذا .. فِي بَلَدِكُم هَذا .. أَلا هَلْ بَلَّغْت ؟ .. مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ ، رَدَّ اللّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ القِيامَة) .

أَيَّةُ رَحْمَةٍ ورَأْفَةٍ كَرَحْمَةِ هَذا (الرَّسُولِ الإِنْسانِ العَظِيم) ﷺ ، الَّذي لَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً ما يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرَ أَلَمٍ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ دَهَمَهُ ، ونَهَى عَنْهُ .

هَذا الَّذي يَجْعَلُ لِسِيرَةِ الإِنْسانِ مِنَ القَداسَةِ والحُرْمَةِ مِثْلَ ما لِبَيْتِ اللّهِ الحَرامِ . لِهَذا الإِنْسانِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ وفِي رِسالَتِهِ قِمَّةُ القَداسَةِ والتَّوْقِير .

يَسْأَلُ ﷺ أَصْحابَهُ يَوْماً لِيُعَلِّمَهُم :

• (أَتَدْرونَ ما الغِيبَةُ ؟ قالُوا : اللّهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ .. قالَ : ذِكْرُكَ أَخاكَ بِما يَكْرَهُ قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ فِي أَخِي ما أَقُولُ ؟ قالَ ﷺ : إِنْ كانَ فيهِ ما تَقُولُ ، فَقَدِ

اغْتَبْتَهُ .. وإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ ما تَقُولُ ، فَقَدْ بَهَتَهُ) .

* * *

تُرَى ، هَلْ وَقَفَت رَحْمَةُ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ عِنْدَ الإنْسانِ وَحْدَهُ ؟ كَلاَّ .. ولَقَد سَعَتْ إلَى كُلِّ كائِنٍ حَيٍّ ، لِتَدْفَعَ عَنْهُ الغَوائِلَ والشُّرور .

فَهَذِهِ الكائِناتُ المَهِيضَةُ مِنْ حَيَوانٍ ، وطَيْرٍ ، بَلْ حَشَرَةٍ .. يَنْبُضُ القَلْبُ الكَبِيرُ بِحَقِّها فِى الرَّحْمَةِ وحَقِّها فِى الرِّفْقِ ، وحَقِّها فِى المَلاذ .

فَالحَيَوانُ جَدِيرٌ بِالرَّحْمَةِ .. بَلْ لَعَلَّهُ أَحَقُّ بِها ، وأَكْثَرُ احْتِياجاً إلَيْها ؛ هَذا الَّذي لا يَمْلِكُ أَنْ يَشْكُوَ ، ويَتَوَجَّعَ ، ويَقُولَ : رُحْماكُم !

يَقُولُ ﷺ : • (عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِى هِرَّةٍ حَبَسَتْها حَتَّى ماتَت ، لا هِىَ أَطْعَمَتْها وسَقَتْها ولا هِىَ تَرَكَتْها تَأْكُلُ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ) .

ومِنْ فَرْطِ إحْساسِهِ ﷺ بِحاجَةِ الحَيَوانِ إلَى الرَّحْمَةِ ، كانَ كأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إلَى شِكايَةِ الحَيَوانِ المَعْنِيِّ ، وكَأَنَّما هُوَ نِداءُ النَّجْدَةِ لِكُلِّ طالِبِ رَحْمَةٍ حَتَّى لَوْ يَكُونُ حَيَواناً ، يَقُولُ عَبْدُ اللهِ بنُ جَعْفَر رضي الله عنه :

• (دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسْتاناً لِرجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ ، فَإذا فيهِ جَمَلٌ : فَما إنْ رَأَى النَّبِىَّ حَتَّى حَنَّ وذَرَفَتْ عَيْناهُ ؛ فَأَتاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَسَحَ ذَفْراهُ فَسَكَنَ .. وقالَ الرَّسُولُ ﷺ : مَنْ رَبُّ هَذا الجَمَل ؟ ، فَقالَ فَتًى مِنَ الأَنْصارِ : هُوَ لِي يا رَسُولَ اللهِ .

فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَلا تَتَّقِى اللهَ فِى هَذهِ البَهِيمَةِ الَّتي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاها ؛ فَإنَّهُ شَكا إلَىَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ) ، أَي تُتْعِبُهُ مِنْ كَثْرَةِ العَمَلِ عَلَيْهِ .

وحَتَّى إساءَةِ الحَيَوانِ ، أَو الحَشَراتِ ، يَنْبَغِي أَنْ تُقابَلَ بِالرَّحْمَةِ وتُعالَجُ بِالرِّفْقِ ويَضْرِبُ نَبِىُّ الرَّحْمَةِ ﷺ لِهَذا مَثَلاً جَمِيلاً ، فَيَقُولُ ﷺ :

• (قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِياءِ ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللهُ تَعالَى إلَيْهِ : أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ .. أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟!) .

انْظُروا .. كَيْفَ تَتَأَلَّقُ إِنْسانِيَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وتَسْمُو ، فَيُغْرِسُ فِى النُّفُوسِ تَسْمِيَةَ جَماعَةِ النَّمْلِ أُمَّةً ، . وأُمَّةٌ تَهْدِيها غَرِيزَتُها إِلَى أَنَّ لَها بارِئاً خَلاَّقاً ، فهِى تُسَبِّحُ بِحَمْدِه .

والَّذي يُؤاخِذُهُ اللهُ فِى هَذهِ القِصَّةِ عَلَى تَخَلِّيهِ عَنِ الرَّحْمَةِ تِجاهَ حِفْنَةٍ مِنَ النَّمْلِ لَيْسَ فَرْداً عادِيّاً .. بَلْ هُوَ نَبِىٌّ مِنَ الأَنْبِياء .

إِنَّ الصُّورَةَ عَلَى بَساطَتِها تَتَضَمَّنُ أَرْوَعَ نَماذِجِ الرَّحْمَةِ عَلَى الإِطْلاقِ وتَكْشِفُ عَنْ نَفْسِيَّةِ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ العَذْبَةِ ، كَما لا يَكْشِفُ شَىْءٌ مِثْلَها .

حِفْنَةٌ مِنَ النَّمْلِ لا يُدْرِكُ النَّاسُ لَها ، ولا لِآلافٍ مِثْلَها قَدْراً - أَيَّ قَدْر .. تَرْتَفِعُ فِى عَيْنِ نَبِىِّ الرَّحْمَةِ ﷺ إِلَى الحَدِّ الَّذي يُتَصَوَّرُ لَها عِنْدَهُ قَداسَةٌ وحُرْمَةٌ.وتُقَدَّسُ حُقُوقُها إِلَى الحَدِّ الَّذي يُؤاخَذُ عِنْدَهُ نَبِىٌّ مِنَ الأَنْبِياءِ ، لأَنَّهُ اعْتَدَى عَلَيْها وتَجَنَّى!! بَلْ إِنَّهُ ﷺ حِينَ يَأْمُرُ بِقَتْلِ حَشَرَةٍ سامَّةٍ تَفْتَرِسُ النَّاسَ بِلَدْغِها ، يَجْعَلُ المَهارَةَ فِى قَتْلِها مُرادِفَةً لِلرَّحْمَةِ بِها ، ويَرْجُو الثَّوابَ مِنْ رَبِّهِ لِمَنْ يُجْهِزُ عَلَيْها فِى غَيْرِ إِيلامٍ لَها .. انْظُروا :

• (مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فِى أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كُتِبَتْ لَهُ مائَةُ حَسَنَةٍ ، وفِى الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ ، وفِى الثَّالِثَةِ دُونَ ذَلِكَ) .

إِنَّ الوَزَغَةَ حَشَرَةٌ سامَّةٌ كالأَفْعَى .. والخَلاصَ مِنْ شَرِّها ضَرورِيٌّ .. ولَكِنْ حَتَّى هُنا ، لا يَنْسَى الحَبِيبُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيُنْشِىءُ مِنْ مَثُوبَةِ اللهِ سُبْحانَهُ جائِزَةً لِمَنْ يُجْهِزُ عَلَى تِلْكَ الحَشَراتِ القاتِلَةِ ، دُونَ أَنْ يُسَبِّبَ لَها أَلَماً - أَيَّ أَلَمْ !! .

أَجَل .. جائِزَةٌ لِمَنْ يُصِيبُ الهَدَفَ دُونَ أَنْ يُبْعَثَ مِنْهُ أَنِينٌ .. !! .

ذَلِكَ أَنَّ الرِّفْقَ عِنْدَ نَبِىِّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ جَوْهَرُ الحَياةِ وزِينَتِها.. يَقُولُ ﷺ

•(إِنَّ الرِّفْقَ ما كانَ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زانَهُ ولا نُزِعَ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شانَهُ) .

* * *

هَذهِ وَمَضَاتٌ مِنْ رَحْمَةِ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ.. رَحْمَتُهُ بِالنَّاسِ .. ورَحْمَتُهُ بِالأَحْياءِ

جَمِيعاً .. رَحْمَةُ الإِنْسانِ الَّذي أَرْسَلَهُ اللّٰهُ رَحْمَةً لِلْعالَمِين(١)

ولَقَد آثَرْنا أَنْ نَذْكُرَ جانِباً مِنْ كَمالِ إِنْسانِيَّتِهِ ﷺ،وهُوَ جانِبُ الرَّحْمَة .. ولَو أَرَدْنا أَنْ نَسْتَقْصِيَ عَدَداً مِنْ تِلْكُمُ الجَوانِبِ الَّتي تُكَوِّنُ مُحَمَّداً الإِنْسانَ ﷺ لاحْتَجْنا إِلَى مُجَلَّداتٍ مِنْ آلافِ الصَّفَحات .

فَعَلَى سَبيلِ المِثالِ لا الحَصْرِ .. مِنْ تِلْكُمُ اللَّبِناتِ الَّتي تُكَوِّنُ شَخْصَهُ السَّامِيَ المُتنامِيَ : كَمالُ لُطْفِهِ ولِينُ عَرِيكَتِهِ ﷺ ، انْبِساطُهُ ﷺ مَعَ الأَهْلِ وذَوِي القُرْبَى ، كَرِيمُ عِشْرَتِهِ وحُسْنُ مُعامَلَتِهِ ﷺ مَعَ زَوْجاتِهِ وسائِرِ أَهْلِهِ ، كَرِيمُ عِشْرَتِهِ ﷺ مَعَ النَّاسِ كُلِّهِم ، أَدَبُهُ الرَّفِيعُ مَعَ مَنْ يُحَدِّثُهُ ﷺ ، حُسْنُ لِقائِهِ وكَرِيمُ إِقْبالِهِ عَلَى جُلَسائِهِ ﷺ ،بَسامَتُهُ وطَلاقَةُ وَجْهِهِ مَعَ النَّاسِ ﷺ ،رَدُّهُ ﷺ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْها ، تَرْحِيبُهُ ﷺ بِالقادِمِ عَلَيْهِ ، سُؤَالُهُ ﷺ عَنْ حالِ أَصْحابِهِ بِقَوْلِهِ : كَيْفَ أَنْتَ ، وكَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ ، إِكْرامُهُ ﷺ كِرامَ القَوْمِ ، مِزاحُهُ ﷺ مَعَ جُلَسائِهِ وإِدْخالُ المَسَرَّةِ عَلَيْهِم ، تَبَسُّمُهُ ﷺ حِينَ يَلْقَى أَصْحابَهُ وحِينَ يُحَدِّثُهُم، مُلاطَفَتُهُ ﷺ لِلصِّبْيانِ ومُلاعَبَتُهُ لَهُم، مُكافَأَتُهُ ﷺ الإِكْرامَ بِأَفْضَلِ إِكْرامٍ ، مُقابَلَتُهُ ﷺ الإِحْسانَ بِأَجْمَلِ إِحْسانٍ ، حِفْظُهُ ﷺ لِلْوُدِّ واحْتِفاظُهُ بِالعَهْدِ ، صِدْقُهُ ﷺ لِلْوَعْدِ ، زِياراتُهُ الكَرِيمَةُ لِأَصْحابِهِ ،زِياراتُهُ ﷺ لِضُعَفاءِ المُسْلِمينَ عامَّةً ولأَهْلِ الصُّفَّةِ خاصَّةً ، مُلاطَفَتُهُ لِجُفاةِ الأَعْرابِ لِئَلاَّ يَفْتَتِنُوا ، عَظِيمُ تَواضُعِهِ ﷺ مَعَ أَصْحابِهِ ، مِشْيَتُهُ ﷺ مَعَ الأَرْمَلَةِ و المِسْكِينِ والأَمَةِ ، أَمْرُهُ ﷺ بِالتَّواضُعِ ، عَظِيمُ حِلْمِهِ وعَفْوِهِ ﷺ ، عَظِيمُ شَجاعَتِهِ ﷺ، صَبْرُهُ ﷺ عَلَى أَذَى المُشْرِكينَ وتَحَمُّلُهُ الشَّدائِدَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ تَعالَى، عَدْلُهُ ﷺ ، وأَنَّهُ ﷺ المَثَلُ الأَكْمَلُ فِي الخَلْقِ والخُلُق .

ولْنَخْتَرْ مِثالاً مِنْ ذَلِكَ نُفَصِّلُهُ اسْتِئْناساً واسْتِفادَةً ، ولْيَكُنْ : اسْتِماعُهُ ﷺ إِلَى حَدِيثِ الزَّوْجاتِ بِالمُلَحِ والفُكاهاتِ تَأْنِيساً لَهُنَّ ومُلاطَفَةً :

أَخْرَجَ الشَّيْخانِ والتِّرْمِذِيُّ عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، قالَتْ :

جَلَسَتْ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً ، فَتَعاهَدْنَ وتَعاقَدْنَ أَنْ لا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبارِ أَزْواجِهِنَّ

---

(١) إنسانيات محمد ﷺ، لـ/ خالد مُحَمَّد خالد .

شَيْئاً .(١)

فَقالَتِ الأُولَى : زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ ، لاسَهْلٍ فَيُرْتَقَى ، ولا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ.(٢)

قالَتِ الثَّانِيَةُ : زَوْجِي لا أَبُثُّ خَبَرَهُ ، إِنِّي أَخافُ أَنْ لا أَذَرَهُ ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ.(٣)

قالَتِ الثَّالِثَةُ : زَوْجِي العَشَنَّقُ ،(٤) إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ .

قالَتِ الرَّابِعَةُ : زَوْجِي كَلَيْلِ تِهامَةَ ، لاحَرٌّ ولاقَرٌّ ولا مَخافَةَ ولا سآمَةَ.(٥)

قالَتِ الخامِسَةُ : زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ ،وإِنْ خَرَجَ أَسِدَ ، ولا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ.(٦)

قالَتِ السَّادِسَةُ : زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ ، وإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ ، وإِنِّ اضْطَجَعَ الْتَفَّ ، ولا يُولِجُ الكَفَّ ، لِيَعْلَمَ الْبَثَّ.(٧)

قالَتِ السَّابِعَةُ : زَوْجِي غَياياءُ أَو عَياياءُ ، طَباقاءُ ، كُلُّ داءٍ لَهُ داءٌ ، شَجَّكِ ، أَو فَلَّكِ ، أَو جَمَعَ كُلاًّ لَكِ.(٨)

قالَتِ الثَّامِنَةُ : زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ ، والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ.(٩)

قالَتِ التَّاسِعَةُ : زَوْجِي رَفِيعُ العِمادِ ، طَوِيلُ النِّجادِ ، عَظِيمُ الرَّمادِ ، قَرِيبُ البَيْتِ

---

(١) أَي لا يُخْفِينَ شَيْئاً مِنْ أَخْبار أَزْواجِهِنَّ : مَدْحاً أَو ذَمّاً ، بَلْ يَذْكُرْنَ جَمِيعَ ذَلِكَ .

(٢) تَعْني : أَنَّها تُشَبِّهُ زَوْجَها فِي رَداءَتِهِ بِلَحْمِ جَمَلٍ غَثٍّ ، أَى : شديد الهُزال ، كائنٌ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ : أَي صَعْبُ الوصُولِ إِلَيْهِ ، والمَقْصُودُ : أَنَّ زَوْجَها مُتَكَبِّرٌ سَيِّءُ الخُلُقِ ، ولا يُوصَلُ إِلَيْهِ إِلاَّ بِمَشَقَّةٍ ، ولا يَنْفَعُ زَوْجَتَهُ فِي عِشْرَةٍ ولا فِي غَيْرِها .

(٣) أَي : لا أَنْشُرُ ولا أُظْهِرُ خَبَرَهُ ، ثُمَّ عَلَّلَتْ ذَلِكَ بِقَوْلِها : إِنِّي أَخافُ أَنْ لا أَذَرَهُ ، أَي : إِنِّي أَخاف أَنْ لا أَتْرُكَهُ .. يَعْني : أَنَّها تَخافُ مِنْ ذِكْرِهِ أَنْ يُطَلِّقَها ، ويَتَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الشِّقاقَ والفُراقَ وضَياعَ الأَطْفالِ ، وقِيلَ : المَعْنَى إِنِّى أَخافُ أَنْ لا أَذَرَهُ بَعْدَ الشُّرُوعِ فِي خَبَرِهِ ، والمُرادُ بِالعُجَرِ والبُجَرِ : عُيُوبُه الظَّاهِرَة والخَفِيَّة .

(٤) هُوَ السَّيِّءُ الخُلُقِ ، السَّفِيه .

(٥) تِهامَةُ : هِيَ مَكَّةُ المُكَرَّمَةُ وما حَوْلَها مِنَ الأَغْوارِ ، والمَقْصُودُ مِنْ هَذا التَّشْبِيهِ أَنْ تَصِفَ زَوْجَها بِكَمالِ الاعْتِدالِ فِي أُمُورِهِ ، وسُهُولَةِ أَخْلاقِهِ .

(٦) تَعْني : أَنَّهُ كالأَسَدِ فِي قُوَّتِهِ وشَجاعَتِهِ ، ولا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ ، أَي : عَمَّا عَلِمَ فِي بَيْتِهِ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وغَيْرِهِما ، لِجُودِهِ وكَرَمِهِ .

(٧) أَي : إِنْ أَكَلَ أَو شَرِبَ لَمْ يُبْقِ بَقِيَّةً لِعِيالِهِ ، ولا يَتَفَقَّد حالَ أَهْلِه إِذا مَرِضْنَ أَو اشْتَكَيْنَ .

(٨) غَياياءُ : ذو ضَلالَةٍ وغَيٍ ، عَياياء : عاجزٌ عَنْ إِحْكامِ أُمُورِهِ وتَدْبِيرِها ، طباقاءُ : أَحْمَقُ ، إِذا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمُورُ فَلا يَهْتَدِي لَها .. شَجَّكِ : إِنْ ضَرَبَكِ جَرَحَكِ ، فَلَّكِ : كَسَرَكِ ، أَو جَمَعَهُما لَكِ .

(٩) فَهِيَ تَمْدَحُهُ بِأَنَّ مَسَّهُ كَمَسِّ الأَرْنَبِ فِي اللِّينِ والنُّعُومَةِ ،و بِأَنَّهُ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ كَرِيحِ الزَّرْنَبِ : وَهُوَ نَوْعُ نَباتٍ رائِحَتُهُ طَيِّبَةٌ

مِنَ النَّادِ(١)

قالَتِ العاشِرَةُ :- زَوْجِي مالِكٌ ، وما مالِكٌ ؟ مالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِك : لَهُ إِبِلٌ كَثِيراتُ المَبارِكِ ، قَلِيلاتُ المَسارِحِ ،وإذا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوالِك.(٢)

قالَتِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ :- زَوْجِي أَبو زَرْعٍ ، فَما أَبو زَرْعٍ ؟ أَناسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ (٣) ، ومَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ(٤) ، وبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي(٥) ، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وأَطِيطٍ ودائِسٍ ومُنَقٍّ .(٦)

فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلا أُقَبَّحُ ، وأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ ، وأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ (٧) .

أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ، فَما أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ؟ عُكُومُها رَداحٌ(٨) ، وبَيْتُها فَساحٌ .

ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ، فَما ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ؟ مَضْجِعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ ، وتُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفْرَةِ(٩) .

بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ، فَما بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أَبِيها وطَوْعُ أُمِّها ، ومِلْءُ كِسائِها ، وغَيْظُ جارَتِها .

جارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ، فَما جارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ؟ لا تَبُثُّ حَدِيثَنا تَبْثِيثا(١٠) ، ولا تَنْقُثُ مِيرَتَنا(١١)

---

(١) تَصِفُهُ بطولِ القامَةِ ،والنِّجادُ : حَمائِلُ السَّيْفِ ،وعَظِيمُ الرَّمادِ : تَصِفُهُ بِالجُودِ وكَثْرَةِ الضِّيافَةِ مِنَ اللُّحُومِ والخُبْزِ ، فَيَكْثُرُ وَقُودُهُ فَيَكْثُرُ رَمادُهُ ،والنَّادي : مَجْلِسُ القَوْمِ ،فَهِيَ تَصِفُ زَوْجَها بِالكَرَمِ ،لأَنَّهُ لا يَقْرُبُ البَيْتُ مِنَ النَادي إلاَّ مَنْ صِفَتُهُ الكَرَمُ .

(٢) تَعْنِي أَنَّ لَهُ إِبلاً كثيراً ، فَهِيَ باركَةٌ بِفِنائِهِ ،لا يُوَجِّهُها تَسْرَحُ إلاَّ قَلِيلاً قَدْرَ الضَّرورَةِ ، فَإِذا نَزَلَ بِهِ الضِّيفانُ كانَتِ الإِبِلُ حاضِرَةً ، فَيُقْرِيهِم مِنْ أَلْبانِها ولُحُومِها ، ويَضْرِبُ لَهُم المِزْهَرَ والمَعازِفَ ،فَإِذا سَمِعَتِ الإِبِلُ أَصْواتَ المِزْهَرِ عَلِمَتْ أَنَّهُ قَدْ جاءَهُ الضِّيفانُ وأَنَّهُنَّ مَنْحُوراتٌ هَوالِكُ .

(٣) ومَعْناهُ : حَلاَّنِي قُرْطَةً وشُنُوفاً ، فَهِيَ تَنُوسُ ـ أَي تَتَحَرَّكُ ـ لِكَثْرَتِها .

(٤) المَعْنَى : أَنَّها سَمِنَتْ عِنْدَهُ وامْتَلأَتْ شَحْماً .

(٥) أَي : فَرَّحَنِي فَفَرِحْتُ ،وعَظَّمَنِي فَعَظُمَتْ عِنْدِي نَفْسِي .

(٦) الصَّهِيلُ : صَوْتُ الخَيْلِ ،والأَطِيطُ : صَوْتُ الإِبِلِ ، والمَعْنَى : أَنَّهُ وَجَدَها فِي أَهْلِ غَنَمٍ قَلِيلَةٍ ، فَهُم فِي ضِيقِ عَيْشٍ ، فَحَمَلَها إِلَى أَهْلِ خَيْلٍ وإِبِلٍ وبَقَرٍ ، تَدُوسُ الزَّرْعَ فِي بَيْدَرِهِ لِتُخْرِجَ الحَبَّ مِنَ السُّنْبُلِ ،ومُنَقٍّ : وهُوَ الذي يُنَقِّي الحَبَّ ويُنَظِّفُهُ مِنَ التِّبْنِ بَعْدَ الدَّوْسِ .

(٧) والمَعْنَى : تَشْرَبُ حَتَّى تُرْوَى ،وتَدَعُ الشَّرابَ مِنْ شِدَّةِ الرِّيِّ .

(٨) العُكُومِ : الأَعْدال ،جَمْعُ عِكْم ،والرَّداح : العَظِيمَة .. والمَعْنَى : أَنَّ أَعْدالَها وأَوْعِيَةَ طَعامِها عَظِيمَةٌ ثَقِيلَةٌ .

(٩) الجَفْرَة : الأُنْثَى مِنْ أَوْلادِ المَعْزِ ،وقِيلَ مِنَ الضَّأْنِ ؛ وهِيَ ما بَلَغَتْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وفَصَلَتْ عَنْ أُمِّها ،والمُرادُ : أَنَّهُ قَلِيلُ الأَكْلِ ،والعَرَبُ تَمْدَحُ بِهِ .

(١٠) أَي : لا تَشِيعُ حَدِيثَنا ، بلْ تَكْتُمُ سِرَّنا وحَدِيثَنا كُلَّهُ .

(١١) المِيرَةُ : هِيَ الطَّعامُ المَجْلُوب .. ومَعْناهُ : لا تُفْسِدُهُ وتُفَرِّقُهُ ،ولا تَذْهَبُ بِهِ ،فَهِيَ أَمِينَةٌ .

تَنْقِيئاً ، ولا تَمْلأُ بَيْتَنا تَعْشِيشاً .[١]

قالَتْ أُمُّ زَرْعٍ : خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ والأَوْطابُ تُمْخَضُ[٢] ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعها وَلَدانِ لَها كالفَهْدَيْنِ ، يَلْعَبانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِها بِرُمَّانَتَيْنِ ، فَطَّلَقَنِي ونَكَحَها .

فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلاً سَرِيّاً[٣] ، رَكِبَ شَرِيّاً[٤] ، وأَخَذَ خَطِّيّاً[٥] ، وأَراحَ عَلَيَّ نَعَماً ثَرِيّاً[٦] ، وأَعْطانِي مِنَ كُلِّ رائِحَةٍ زَوْجاً[٧] ، وقالَ : كُلِي أُمَّ زَرْعٍ ، وَمِيرِي أَهْلَكِ ، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطانِيهِ ما بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ .

قالَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ) .

وجاءَ فِي رِوايَةِ الهَيْثَمِ بنِ عَدِيٍّ : (كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ ، فِي الأُلْفَةِ والوَفاءِ ؛ لا فِي الفُرْقَةِ والجَلاءِ) .

وزادَ الطَّبرانِي فِي رِوايَتِهِ : (إِلاَّ أَنَّهُ طَلَّقَها ، وإِنِّي لا أُطَلِّقُكِ) .

وزادَ النَّسائِي والطَّبرانِي : قالَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها : (يا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَلْ أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي زَرْعٍ) .

فَلْنَنْظُرْ فِي تَدَبُّرٍ وَرَوِيَّةٍ .. فِي حُسْنِ عِشْرَتِهِ ﷺ ، وكَرِيمِ خُلُقِهِ مَعَ أَهْلِهِ ، حَيْثُ أَصْغَى إِلَى حَدِيثِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، وهِيَ تُحَدِّثُهُ عَنْ قِصَّةٍ وَقَعَتْ فِي الجاهِلِيَّةِ ، مِنْ نِساءٍ اجْتَمَعْنَ وتَعاقَدْنَ عَلَى أَنْ تُخْبِرَ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَنْ مَواقِفِ زَوْجِها مَعَها ، مِنْ حَيْثُ الأَخْلاقُ والمُعامَلَةُ والمُعاشَرَةُ .

وقَدْ قالَ العُلَماءُ : يُؤْخَذُ مِنْ هَذا الحَدِيثِ :

١) نَدْبُ حُسْنِ المُعاشَرَةِ للأَهْلِ .

٢) وحِلُّ السَّمَرِ فِي خَيْرٍ ، كَمُلاطَفَةِ زَوْجَتِهِ ، وإِيناسِ ضَيْفِهِ .

---

(١) والمَعْنَى : أَنَّها مُصْلِحَةٌ لِلْبَيْتِ مُعْتَنِيَةٌ بِتَنْظِيفِهِ .

(٢) الأَوطاب : أَسقِيَة اللبن ، وتُمْخَضُ : تُحَرَّكُ لاسْتِخْراجِ الزُّبْدِ مِنْها .

(٣) أَي : مِنْ سُراةِ النَّاسِ وأَشْرافِهِم .

(٤) أَي : فَرَساً يَسْتَشْرِي فِي سَيْرِهِ ، ويَمْضِي بِلا فُتُورٍ .

(٥) الخَطِّي ، الرُّمْحِ .

(٦) أَي : كَثِيرة ، مِنَ الثَّرْوَةِ فِي المالِ ، وهِيَ كَثْرَتُهُ .

(٧) أَي : مِنْ كُلِّ ما يَرُوحُ مِنَ الإِبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ ، أَعْطاها زَوْجاً : أَي اثْنَيْنِ ، أَوْ صِنْفاً كَثِيراً .

٣) وجَوازُ ذِكْرِ المَجْهُولِ عِنْدَ المُتَكَلِّمِ والسَّامِعِ بِما يَكْرَهُ (فَإِنَّهُ لَيْسَ غِيبَةً ، وغايَةُ الأَمْرِ أَنَّ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ رضي الله عنها ذَكَرَتْ نِساءً مَجْهُولاتٍ ، ذَكَرَ بَعْضُهُنَّ عُيُوبَ أَزْواجٍ مَجْهُولِينَ ، لا يُعْرَفُونَ بِأَعْيانِهِم ، ولا بِأَسْمائِهِم ، ومِثْلُ هَذا لا يُعَدُّ غِيبَةٌ .. كَما أَوْضَحَ ذَلِكَ الإِمامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ .

وفِي (التَّراتِيبِ الإِداريَّة) : أَخَذَ الأَئِمَّةُ مِنْ هَذا الحَدِيثِ جَوازَ التَّحَدُّثِ عَنِ الأُمَمِ الماضِيَةِ ، والأَجْيالِ البائِدَةِ ، وضَرْبِ الأَمْثالِ بِهِم ، لِأَنَّ فِي سِيَرِهِمْ اعْتِباراً لِلْمُعْتَبِرِ ، واسْتِبْصاراً لِلْمُسْتَبْصِرِ ، واسْتِخْراجَ الفائِدَةِ لِلْباحِثِ المُسْتَكْثِرِ فَإِنَّ فِي هَذا الحَدِيثِ خُصُوصاً إِذا حُدِّثَ بِهِ النِّساءُ مَنْفَعَةً فِي الحَضِّ عَلَى الوَفاءِ لِلْبُعُولَةِ .

قالَ القاضِي عِياضٌ : وفِيهِ (أَي فِي هَذا الحَدِيثِ مِنَ الفِقْهِ) التَّحَدُّثُ بِمُلَحِ الأَخْبارِ ، وطُرَفِ الحِكاياتِ ، تَسْلِيَةً لِلنَّفْسِ ، وجَلاءً لِلْقَلْبِ .



القَوْلُ الفَصْلُ المُيَسَّر ..

هَلِ الإِنْسانُ مُخَيَّرٌ أَم مُسَيَّر.

القَوْلُ بِكَوْنِ الإِنْسانِ مُجْبَراً لا مُخْتاراً قَوْلٌ بِإِسْقاطِ كُلِّ تَبِعَةٍ ومَزِيَّةٍ ، وجَراءَةٌ عَلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الخَبِيثِ والطَّيِّبِ ، وهُوَ أَمْرٌ يُناقِضُ العِلْمَ اليَقِينِيَّ ، ويُنافِي البَدِيهِيَّاتِ الأَوَّلِيَّةِ ، ويُعْجِبُنِي قَوْلَ مَنْ قالَ : كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ جَبْرِيٌّ مَعَ أَنَّكَ تَجْرِي لإِحْضارِ الطَّبِيبِ لِمَرِيضِكَ ، وتُدافِعُ عَنْ نَفْسِكَ ، وتَسْتَدْعِي رِجالَ المَطافِيءِ لإِطْفاءِ حَرِيقِ بَيْتِكَ ، وتَعْمَلُ عَلَى وقْفِ النَّارِ الَّتِي بَدَأَتْ تَشُبُّ مِنْ شَرارَةٍ أَصابَتْ أَوْراقَكَ فِي حُجْرَةِ عَمَلِكَ ، وأَنَّ لَدَيْكَ عَقْلاً وأَنَّكَ لَتَنْتَفِعُ بِهِ فِيما تُرِيدُ ، ولا سَبِيلَ إِلَى إِنْكارِ ذَلِك .

فالأَشْياءُ تَقَعُ بِأَسْبابِها ومِنْها الإِرادَةُ الإِنْسانِيَّةُ ، فَهِيَ بَعْضُ الأَسْبابِ العامِلَةِ فِي سَيْرِ الحَوادِثِ فِي هَذا الوجُود .

والنَّتِيجَةُ لِهَذا أَنْ لِلإِنْسانِ تَأْثِيراً فِي وُجُودِ الأَشْياءِ ، فَإِنَّهُ حَلَقَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ حَلَقاتِ سِلْسِلَةِ الوجُودِ بَلْ هُوَ أَهَمُّ حَلَقاتِها ، ولَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ اسْتِقْلالاً تامّاً فِي المَسْأَلَةِ ، فالواجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ المَسْئُولِيَّةِ بِقَدْرِ مالَهُ مِنَ الأَثَرِ فِي ذَلِكَ الفِعْلِ ، والتَّدَخُّلِ فِيهِ ، حَتَّى إِذا صارَ مُكْرَهاً أَو مُلْجَأً كانَ غَيْرَ مَسْئُولٍ بِالمَرَّةِ ، فَلَيْسَ العَبْدُ مُجْبَراً ولا آلَةً صَمَّاءَ ، كَما يُحِسُّ بِذَلِكَ إِحْساساً لا يُعارَضُ ، عِنْدَما يَعْرِضُ لَهُ أَمْرٌ خَطِيرٌ ، بَلْ عِنْدَما يَسْعَى لِرِزْقِهِ وجاهِهِ ووَظِيفَتِهِ وشَهادَتِهِ .

وعَلَيْهِ فَإِنَّهُ لا خِلافَ بَيْنَ عُلَماءِ أَهْلِ السُّنَّةِ : فِي ضَلالِ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الإِنْسانَ مَجْبُورٌ عَلَى أَعْمالِهِ ، ومَنْ قالَ مِنْ أَهْلِ الجَبْرِ إِنَّ الإِنْسانَ غَيْرُ مُكَلَّفٍ ، . فَقَدْ أَجْمَعَ عُلَماءُ المُسْلِمِينَ عَلَى كُفْرِهِ وأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ ، ومَنْ أَثْبَتَ التَّكْلِيفَ مَعَ الجَبْرِ فَهُوَ مِنَ الفِرَقِ الزَّائِغَةِ المُبْتَدِعَةِ ، وإِنْ كانَ لا يَكْفُرُ ، فَلَوْ كانَ الإِنْسانُ مَقْهُوراً فِي أَفْعالِهِ لَما كانَ هُناكَ فَرْقٌ بَيْنَ العاقِلِ وغَيْرِ العاقِلِ والعاجِزِ والقادِرِ فِي المَسْئُولِيَّةِ ، وقَدْ أَثْبَتَ اللهُ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةً بِقَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾. (١)

واللهُ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الَّذى شاءَ أَنْ يَكُونَ الإِنْسانُ ذا مَشِيئَةٍ ولَوْ لَمْ يُعْطِهِ الاخْتِيارَ والمَشِيئَةَ لاسْتَحالَ أَنْ يَنالَ ذَلِكَ لا بِنَفْسِهِ ولا بِغَيْرِهِ . ، فَما شاءَ اللهُ كانَ ومالَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ؛ فَهُوَ تَبارَكَ وتَعالَى الَّذى مَنَحَهُ المَشِيئَةَ كَما مَنَحَهُ السَّمْعَ والبَصَرَ ، ولَكِنَّها مَشِيئَةٌ مَحْدودَةٌ مُقَيَّدَةٌ بِحُدودٍ ، فَلا يَقْدِرُ إِلَّا عَلَى ما أَعْطاهُ اللهُ القُدْرَةَ عَلَيْهِ .

وهَذا الاخْتِيارُ الَّذى مَنَحَهُ اللهُ لِبَنِي الإِنْسانِ لا يَتَنافَى مَعَ سَبْقِ عِلْمِ اللهِ بِما يَفْعَلُهُ الإِنْسانُ ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَعْلَمُ بِعِلْمِهِ القَدِيمِ أَنَّ الإِنْسانَ سَيَفْعَلُ ما يَفْعَلُ غَيْرُ مَجْبُورٍ ولا مَقْهُورٍ ، وقَدْ عَلِمَ سُبْحانَهُ أَنَّ الإِنْسانَ يَأْتِي ما يَأْتِي مُخْتاراً ، ولِذَلِكَ كانَ القَدَرِيَّةُ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ لِأَنَّهُم نَفَوا عِلْمَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِما سَيَفْعَلُ الإِنْسانُ ، ومَنْ نَفَى عِلْمَ اللهِ فَهُوَ جاهِلٌ بِاللهِ كافِرٌ بِهِ ؛ قالَ تَعالَى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾. (٢)

والعِلْمُ القَدِيمُ مُحِيطٌ لا نِهايَةَ لَهُ يَشْمَلُ الكُلِّيَّاتِ والجُزْئِيَّاتِ لا يُشْبِهُ عِلْمَ الخَلْقِ ، والقَدَرُ السَّابِقُ والكِتابَةُ السَّابِقَةُ وما فِى أُمِّ الكِتابِ يَرْجِعُ مَعْناهُ إِلَى العِلْمِ بِما سَيَفْعَلُ الإِنْسانُ وبِناءً عَلَى ما مَنَحَهُ اللهُ وأَوْدَعَ فيهِ مِمَّا تَقُومُ بِهِ الحُجَّةُ مُخْتاراً غَيْرَ مَقْهُورٍ ولا مَجْبُور .

ويَسْتَحِيلُ أَنْ يُكَلِّفَ اللهُ إِنْساناً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ ما تَقُومُ بِهِ الحُجَّةُ عَلَيْهِ ، قالَ تَعالَى :﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ (٣) ،﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (٤) ،﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٦)

---

(١) سُورَةُ الإِنْسان (مِنَ الآيَة ٣٠) .
(٢) سُورَةُ الحَديد (مِنَ الآيَة ٢٢) .
(٣) سُورَةُ الأَنْعام (مِنَ الآيَة ١٤٩) .
(٤) سُورَةُ هُود (الآيَة ١١٧) .
(٥) سُورَةُ الأَنْعام (مِنَ الآيَة ٤٧) .
(٦) سُورَةُ التَّوْبَة (مِنَ الآيَة ٧٠) .

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[2]، ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمۡ ﴾[3]

وأَمَّا قَوْلُهُ تعالَى : ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾[4] ؛ فَمَعْناها : أَنَّ المُنافِقِينَ الَّذينَ دَخَلُوا فِى الإِسْلامِ ظاهِراً وهُمْ يُبْطِنُونَ الكُفْرَ ، كانوا إذا أَصابَتْهُمْ حَسَنَةٌ أَي نِعْمَةٌ فَتُنْتِجُ ناقَةُ أَحَدِهِمْ أُنْثَى وخُيُولُهُم ، وكَذَلِكَ تَلِدُ نِساؤهُمْ غِلْماناً ويَحْسُنُ حالُهُم ، قالُوا هَذهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ، وإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ مِنَ الجَدْبِ أَو الضَّرَرِ فِى أَمْوالِهِمْ تَشاءَمُوا بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ وقالُوا هَذِهِ لاتِّباعِنا مُحَمَّدٍ ، فَرَدَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾[5]، وسَفَّهَ عُقُولَهُم بِقَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾[6]، ومَثَلُهُم كالَّذينَ قالَ اللّهُ تَعالَى فِيهِم : ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾[7].

ثُمَّ بَيَّنَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ الحَقِيقَةَ فَقالَ عَزَّ شَأْنُهُ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[8].

وقالَ تَعالَى : ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾[9] ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾[10].

وفِى الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُصِيبُ المُؤْمِنَ هَمٌّ ولا حَزَنٌ ولا نَصَبٌ حَتَّى الشَّوْكَةِ يَشاكُها إِلَّا كَفَّرَ اللّهُ بِها مِنْ خَطاياه) .

---

(١) سُورَةُ الأنبياء (الآية ٦٤) .
(٢) سُورَةُ النَّحل (مِنَ الآية ٣٣) .
(٣) سُورَةُ هُود (مِنَ الآية ١٠١) .
(٤) سُورَةُ النِّساء (مِنَ الآية ٧٨) .
(٥) سُورَةُ النِّساء (مِنَ الآية ٧٨) .
(٦) سُورَةُ النِّساء (مِنَ الآية ٧٨) .
(٧) سُورَةُ الأعْراف (الآية ١٣١) .
(٨) سُورَةُ النِّساء (الآية ٧٩) .
(٩) سُورَةُ النِّساء (مِنَ الآية ١٦٠) .
(١٠) سُورَةُ الشُّورَى (مِنَ الآية ٣٠) .

وفِى الحَديثِ القُدْسِيِّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ فِيما يَرْوِي عَنِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالَى أَنَّهُ قالَ : (يا عِبادِي إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحَرَّماً فَلا تَظالَمُوا) ، وفِى هَذا الحَديثِ : (يا عِبادِي إِنَّما هِىَ أَعْمالُكُم أُحْصِيها لَكُم ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاها فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ)(١)

وخُلاصَةُ القَوْلِ : إِنَّهُ لا يَجْرِي فِى الكَوْنِ شَىْءٌ ، ولا يَكُونُ مِنَ العِبادِ قَوْلٌ ، ولا خاطِرٌ ، ولا حَرَكَةٌ ولا سُكُونٌ : إِلاَّ وقَدْ قَضاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وقَدَّرَهُ ، وسَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وإِرادَتُهُ ؛ خَيْراً كانَ أَو شَرّاً ، طاعَةً أَو مَعْصِيَةً .. فَمِنْهُ تَعالَى الخَيْرُ والشَّرُّ ، والنَّفْعُ والضُّرُّ ، والإِسْلامُ والكُفْرُ ، والفَوْزُ والخُسْرانُ ، والطَّاعَةُ والعِصْيانِ .. يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ بِعَدْلِهِ ؛ ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ بِفَضْلِه .

وكُلُّ إِنْسانٍ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِهِ سُبْحانَهُ إِلَى ما سَبَقَ فِى عِلْمِهِ ، تَنَزَّهَ أَنْ يَقَعَ فِى مُلْكِهِ مالا يُرِيدُ ، أَو يَكُونَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَى ، أَو يَكُونَ هُناك خالِقٌ لِشَىْءٍ ، جَلَّ أَو قَلَّ ، إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ ، خالِقُ العِبادِ وخالِقُ أَعْمالِهِمْ ، ومُقَدِّرُ أَرْزاقِهِمْ وآجالِهِمْ .. ولَيْسوا مَعَ ذَلِكَ مُكْرَهِينَ ولا مَجْبُورِينَ .. فَقَد خَلَقَ لَهُم عَزَّ وجَلَّ إِرادَةً واخْتِياراً ، وقُدْرَةً تَقْتَرِنُ بِالفِعْلِ ، وإِنْ كانَتْ لا تُؤَثِّرُ فِيهِ ؛ فَبَطَلَ مَذْهَبُ المُعْتَزِلَةِ القائِلِينَ أَنَّ الإِنْسانَ يَخْلُقُ أَفْعالَ نَفْسِهِ بِقُدْرَتِهِ ، وأَنَّ المَعاصِىَ والشُّرورَ الجارِيَةَ فِى الكَوْنِ لَيْسَتْ بِإِرادَةِ اللهِ تَعالَى وفِعْلِهِ .. كَما بَطَلَ مَذْهَبُ الجَبْرِيَّةِ القائِلِينَ بِأَنَّ الإِنْسانَ لا اخْتِيارَ لَهُ أَصْلاً ، وأَنَّهُ كالرِّيشَةِ المُعَلَّقَةِ فِى الهَواءِ تُمِيلُها الرِّيحُ يَميناً وشِمالاً.

فالحَقُّ بَيْنَ هَذَيْنِ المَذْهَبَيْنِ ، وهُوَ التَّوَسُّطُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ ؛ كَما قالَ السَّلَفُ :

(أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : لا جَبْرٌ ولا تَفْوِيضٌ) .

وقَدْ قِيلَ لِـ (الحَسَن البَصْرِي) رضي الله عنه : أَجَبَرَ اللهُ عِبادَهُ ؟ فَقالَ : اللهُ تَعالَى أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ ، قِيلَ : أَفَوَّضَ إِلَيْهِمْ ؟ فَقالَ : اللهُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ .. ثُمَّ قالَ : لَوْ جَبَرَهُمْ لَما عَذَّبَهُم ، ولَوْ فَوَّضَ إِلَيْهِمْ لَما كانَ لِلأَمْرِ مَعْنًى ، ولَكِنْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ كَبُعْدِ ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ، ولِلهِ فِيهِ سِرٌّ لا تَعْلَمُونَهُ .

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِى صَحِيحِهِ عَنْ (أَبِي ذَرٍّ) رضي الله عنه .

جَزاءُ انْتِسابِ الإِنْسانِ إِلَى غَيْرِ أَبيهِ وتَوَلِّيهِ غَيْرَ مَوالِيه

يَقُولُ الحَقُّ جَلَّ فِى عُلاه :﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾(١).

وعَنْ سَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قالَ :(مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فالجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرامٌ)(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قالَ : (لا تَرْغَبُوا عَنْ آبائِكُم ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ) (٣)

وعَنْ يَزِيد بنِ شَرِيكِ بنِ طارِقٍ قالَ :(رَأَيْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه عَلَى المِنْبَرِ يَخْطُبُ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : لا واللّهِ ما عِنْدَنا مِنْ كِتابٍ نَقْرَؤُهُ إِلاَّ كِتابَ اللّهِ ، وما فِى هَذهِ الصَّحِيفَةِ ، فَنَشَرَها فَإِذا فِيها أَسْنانُ الإِبلِ ، وأَشْياءُ مِنَ الجِراحاتِ ، وفِيها : قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ :(المَدِينَةُ حَرَمٌ ما بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ(٤) ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيها حَدَثاً ، أَوْ آوَى مُحْدِثاً ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللّهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً ، ذِمَّةُ المُسْلِمينَ واحِدَةٌ ، يَسْعَى بِها أَدْناهُمْ ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِماً ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللّهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً ، ومَنِ ادَّعى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ، أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوالِيهِ ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللّهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً) (٥)

ذِمَّةُ المُسْلِمينَ : عَهْدُهُم وأَمانَتُهُم . ، وأَخْفَرَهُ : نَقَضَ عَهْدَهُ . ، والصَّرْفُ : التَّوْبَةُ ، وقِيلَ : الحِيلَةُ . ، والعَدْلُ : الفِداء .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ : (لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وهُوَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ كَفَرَ ، ومَنِ ادَّعَى ما لَيْسَ لَهُ ، فَلَيْسَ مِنَّا ، ولْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، ومَنْ دَعا رَجُلاً بِالكُفْرِ ، أَوْ قالَ عَدُوَّ اللّهِ ، ولَيْسَ كَذَلِكَ إِلاَّ حارَ عَلَيْهِ)(٦).

---

(١) سُورَةُ الأَحْزاب (مِنَ الآيَة ٥) .
(٢)، (٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .
(٤) جَبَلان .
(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .
(٦) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وهَذا لَفْظُ رِوايَةِ مُسْلِم ، وحارَ عَلَيْهِ : رَجَعَ عَلَيْهِ قَوْلُه .

سُؤالُ الإِنْسانِ عَنْ أَهْلِهِ وعَمَّا اسْتَرعاهُ اللهُ تَعالَى

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ ﴾(١)

أَخْرَجَ ابْنُ حِبَّانَ فِى (صَحِيحِهِ) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ اللهَ سَائِلُ كُلَّ راعٍ عَمَّا اسْتَرْعاهُ : حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) .

أَي : هَلْ أَدَّى واجِبَهُ الدِّينِيَّ نَحْوَهُمْ ، وأَحْسَنَ رِعايَتَهُم وعِشْرَتَهُم أَم أَساءَ ؟ .

وفِى (الصَّحِيحَيْنِ) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ : (كُلُّكُم راعٍ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الإِمامُ راعٍ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والرَّجُلُ راعٍ فِى أَهْلِهِ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِها ومَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها ، والخادِمُ راعٍ فِى مالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وكُلُّكُمْ راعٍ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ومِنْ هُنا يَجِبُ عَلَى المَرْأَةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ عَلَيْها مَسْؤُولِيَّةً فِى رِعايَتِها لِبَيْتِ زَوْجِها ، وفِى تَرْبِيَتِها لِأَوْلادِها ، وفِى قِيامِها فِى خِدْمَةِ زَوْجِها وبَيْتِها ، فَلا يَجُوزُ لَها أَنْ تُقَصِّرَ ، ولا أَنْ تُسْرِفَ فِى مالِ زَوْجِها ؛ بَلْ ولا تَتَصَدَّقَ مِنْ مالِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، ولا تَخْرُجَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، لِما وَرَدَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ : (إِنَّ المَرْأَةَ إِذا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِها وزَوْجُها كارِهٌ : لَعَنَها كُلُّ مَلَكٍ فِى السَّماءِ وكُلُّ شَىْءٍ مَرَّتْ عَلَيْهِ غَيْرُ الجِنِّ والإِنْس)(٢)



---

(١) سُورَةُ التَّحْرِيم (الآيَة ٦) .

(٢) أَخْرَجَهُ (الطَّبرانِي) بِإِسْنادِ الثِّقات .

سُؤالُ الإِنْسانِ عَنِ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤاد

قالَ اللّهُ تَعالَى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

نَهَى اللّهُ الإِنْسانَ أَنْ يَتَّبِعَ ما لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ ، بِأَنْ يَتَّبِعَ الأَوْهامَ والظُّنُونَ مِمَّا لا دَلِيلَ فِيهِ يُثْبِتُ العِلْمَ .

فَمَعْنَى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ ﴾ ، أَي : لا تَتَّبِعْ مالَمْ تَعْلَمْ ، فَلا تَقُلْ رَأَيْتُ وما رَأَيْتَ ! ولا تَقُلْ سَمِعْتُ والحالُ أَنْتَ ما سَمِعْتَ ! ولا تَقُلْ عَلِمْتُ والحالُ أَنْتَ لَمْ تَعْلَمْ ! تَبْنِي ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى تَوَهُّمٍ وتَظَنُّن .

كَما أَنَّكَ لا تَرْمِ أَحَداً بِما لَيْسَ بِهِ عِلْمٌ : مِنْ دَلِيلٍ أَو بَيِّنَةٍ ، تُثْبِتُ ذَلِكَ :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

لَمَّا نَهَى سُبْحانَهُ عَنِ اتِّباعِ ما لَيْسَ للإِنْسانِ بِهِ عِلْمٌ مِنْ مَسْمُوعاتٍ ومُبْصِراتٍ ، أَو مَعْلُوماتٍ ، أَو تَصْدِيقاتٍ قَلْبِيَّةٍ ونَحْوَ ذَلِكَ : بَيَّنَ أَنَّ هُناكَ سُؤَالاً عَنِ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤاد .

وذَلِكَ أَنَّ الإِنْسانَ يُسْأَلُ عَنْ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ وفُؤادِهِ أَيْنَ صَرَفَ ذَلِكَ ، وإِلَى أَيِّ جِهَةٍ وَجَّهَها ؛ هَلْ تَصَرَّفَ بِسَمْعِهِ وفُؤادِهِ فِيما أَحَلَّ اللّهُ تَعالَى أَم فِيما حَرَّمَ اللّهُ ؟ فَيُقالُ للإِنْسانِ : لِمَ سَمِعْتَ ما لا يَحِلُّ لَكَ سَماعُهُ ؟ ولِمَ نَظَرْتَ إِلَى ما لا يَحِلُّ لَكَ النَّظَرُ إِلَيْهِ ؟ ولِمَ عَزَمْتَ بِقَلْبِكَ عَلَى ما لا يَحِلُّ لَكَ العَزْمُ عَلَيْهِ ؟ ولِمَ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِما لا يَحِلُّ لَكَ شَرْعاً ؟ ولِمَ أَحْبَبْتَ بِقَلْبِكَ ما كَرِهَهُ اللّهُ تَعالَى ؟ ولِمَ كَرِهْتَ بِقَلْبِكَ ما يُحِبُّهُ اللّهُ تَعالَى ؟ولِمْ أَبْغَضْتَ ما يَرْضاهُ اللّهُ تَعالَى ؟ ولِمَ رَضِيتَ بِما يُغْضِبُ اللّهُ تَعالَى ؟ .

وهَكَذا يُسْأَلُ الإِنْسانُ عَنْ جَمِيعِ تَصَرُّفاتِهِ وتَقَلُّباتِهِ : السَّمْعِيَّةِ والبَصَرِيَّةِ ، وعَنْ جَمِيعِ تَأَثُّراتِهِ القَلْبِيَّةِ : بِالتَّصْدِيقِ والإِنْكارِ ، بِالحُبِّ والبُغْضِ والرِّضَى والغَضَبِ ،

---

(١) سُورَةُ الإِسْراء (مِنَ الآيَة ٣٦) .

والاسْتِحْسانِ والكَراهِيَةِ ، والاسْتِكْبارِ ، والاسْتِصْغارِ ، وجَمِيعِ ما هُنالِكَ مِنْ أَعْمالِ القُلُوبِ وتَأَثُّراتِها ، ولِذَلِكَ جاءَ ذِكْرُ القَلْبِ هُنا بِالفُؤادِ بِاعْتِبارِ أَنَّهُ مَوْضِعُ الانْفِعالِ والتَّأَثُّرِ .

فَلْيَتَّقِ الإِنْسانُ رَبَّهُ فِي سَمْعِهِ وبَصَرِهِ وفُؤادِهِ ، ولْيَعْلَمْ أَنَّ كُلَّ ما يَمُرُّ عَلَيْهِ سَمْعُهُ وبَصَرُهُ وفُؤادُهُ ، ويَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ ، فَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ ، فَإِنْ كانَ فِي الخَيْرِ أُجِرَ ، وإِنْ كانَ فِي الشَّرِّ خَسِرَ .

أَخْرَجَ التِّرمِذي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وأَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنهما قالا :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعالَى : أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وبَصَراً ومالاً ووَلَداً ، وسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعامَ والحَرْثَ ، وتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ (وفِي رِوايَةٍ لِصَحِيحِ مُسْلِمٍ : تَرْتَعُ .. أَي : تَتَنَعَّمُ بِالمَأْكَلِ والمَشْرَب) ، أَفَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هَذا ؟ - أَي : هَلْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ سَوْفَ تَلْقانِي فِي اليَوْمِ يَوْمَ القِيامَةِ - قالَ : فَيَقُولُ العَبْدُ - أَي : الكافِرُ - : لا .

فَيَقُولُ اللهُ تَعالَى لَهُ : اليَوْمَ أَنْساكَ كَما نَسِيتَنِي) .

أَي : اليَوْمَ أَتْرُكُكَ فِي العَذابِ كَما تَرَكْتَ فِي الدُّنْيا شَرِيعَتِي ودِينِي ، ولَمْ تُؤْمِنْ بِلِقائِي .

ورَوَى أَصْحابُ السُّنَنِ عَنْ شَكَلِ بنِ حُمَيْدٍ رضي الله عنه قالَ :

أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : يا نَبِيَّ اللهِ عَلِّمْنِي تَعْوِيذاً أَتَعَوَّذُ بِهِ .

قالَ : فَأَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ قالَ ﷺ : (قُل : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وبَصَرِي ، وشَرِّ لِسانِي ، وشَرِّ قَلْبِي ، وشَرِّ مَنِيِّي) .

قالَ : فَحَفِظْتُها .



سُؤالُ الإِنْسانِ عَنِ العُمْرِ والعِلْمِ والمالِ والجِسْمِ والشَّباب

أَخْرَجَ الإِمامُ التِّرْمِذِي وغَيْرُهُ ، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِي رضي الله عنه قالَ :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لا تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ : عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وعَنْ عِلْمِهِ ما عَمِلَ بِهِ ، وعَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ؟) .

قالَ الحافِظُ المُنْذِرِي : رَواهُ التِّرْمِذِي وقالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، ورَواهُ البَيْهَقِي وغَيْرُهُ ، مِنْ حَدِيثِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (ما تَزُولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وعَنْ شَبابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ، وعَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وعَنْ عِلْمِهِ ماذا عَمِلَ بِهِ) .

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (لا تَزولُ قَدَما عَبْدٍ يَوْمَ القِيامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْناهُ ، وعَنْ شَبابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ، وعَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وما عَمِلَ فِيما عَلِمَ)[1] .

فَلا تَزولُ قَدَما العَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ عَنْ مَوْقِفِ السُّؤالِ ، ولا يَبْرَحُ مَكانَهُ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ : عُمْرِهِ المُقَدَّرِ لَهُ فِيمَ أَفْناهُ وصَرَفَهُ : أَفِي طاعَةِ اللهِ تَعالَى ورَسُولِهِ أَم فِي المَعْصِيَةِ ؟ وفِي الخَيْرِ أَم فِي الشَّرِّ ؟ وهَلْ رَبِحَ عُمْرَهُ فَشَغَلَهُ فِي الخَيْرِ والتُّقَى والبِرِّ ؟ أَمْ خَسِرَهُ فَأَضاعَهُ فِي الشَّرِّ والفَسادِ والبَغْيِ ؟

قالَ اللهُ تَعالَى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ .

فَلَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ تَعالَى بِالعَصْرِ أَي : الدَّهْرِ المُشْتَمِلِ عَلَى عُمْرِ كُلِّ ذِي عُمْرٍ ، أَقْسَمَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ - أَي : إِنَّ كُلَّ إِنْسانٍ لَفِي خُسْرٍ لِعُمْرِهِ الدَّاخِلِ فِي طَيِّ العَصْرِ ، ولَمْ يَخْرُجْ مِنْ تِلْكَ الخَسارَةِ لِرَأْسِ مالِهِ الَّذي هُوَ عُمْرُهُ ويَرْبَحِ الرِّبْحَ العَظِيمَ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أَي : اعْتَقَدوا وصَدَّقُوا بِما يَجِبُ

---

(١) أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِي) ، و(البَيْهَقِي) .

الإيمانُ بهِ ، وبَرْهَنُوا عَلَى صِدْقِ إيمانِهِمْ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ الَّتي أَمَرَ اللّٰهُ تَعالَى بِها .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَي : تَناصَحُوا فِيما بَيْنَهُم ، ونَهَضَ بَعْضُهُم بِهِمَّةِ الآخَرِ نَحْوَ فِعْلِ الحَقِّ واتِّباعِهِ ، والبُعْدِ عَنِ الباطِلِ وإغْوائِهِ .

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ عَلَى عِبادَةِ اللّٰهِ تَعالَى وأَمْرِه .

قالَ تَعالَى :﴿ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾[1] ، وقالَ تَعالَى :﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[2] الآيَة - أَي : أَنْتَ اصْطَبِرْ عَلَى الصَّلاةِ ، وأَمْسِكْ نَفْسَكَ عَلَيْها ، بِأَنْ تُؤَدِّيَها فِي أَوْقاتِها ، ومُطْمَئِنّاً فِي أَعْمالِها .

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾عَلَى تَرْكِ المَناهِي الَّتي نَهَى اللّٰهُ تَعالَى عَنْها ، فَإِنَّها تَحْتاجُ إِلَى إِمْساكِ النَّفْسِ عَنْها .

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ عَلَى البَلاءِ والمِحَنِ الَّتي تَعْتَرِي المُؤْمِنينَ .

فَما رَبِحَ عُمْرَهُ واسْتَثْمَرَهُ ونالَ خَيْرَ عُمْرِهِ وبِرَّهُ إِلاَّ الإِنْسانُ المُتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفاتِ الأَرْبَعَةِ : الإِيمانِ ، والعَمَلِ الصَّالِحِ ، والتَّواصِي بِالحَقِّ ، والتَّواصِي بِالصَّبْرِ .. فَهُوَ قائِمٌ بِحُقُوقِ اللّٰهِ تَعالَى ، وقائِمٌ بِحُقُوقِ خَلْقِ اللّٰهِ تَعالَى .

رَوَى الطَّبَرانِيُّ بِإِسْنادِهِ ، عَنْ عَبْدِاللّٰهِ بنِ حُصَيْنٍ قالَ كانَ الرَّجُلانِ مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذا الْتَقَيا لَمْ يَفْتَرِقا إِلاَّ عَلَى أَنْ يَقْرَأَ أَحَدُهُما عَلَى الآخَرِ سُورَةَ العَصْرِ إِلَى آخِرِها ، ثُمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُما عَلَى الآخَر .

وفِي هَذا تَذْكِيرُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ بِالنُّصْحِ والتَّواصِي بِالحَقِّ ، ولِذَلِكَ قالَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ رضي الله عنه : لَو تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَوَسِعَتْهُم .

وهَكَذا يُسْأَلُ عَنْ عِلْمِهِ ما عَمِلَ بِهِ ، والنَّاسُ فِي العِلْمِ عَلَى مَراتِبَ ، فَكُلٌّ يُسْأَلُ عَلَى حَسَبِ ما عِنْدَهُ .

ورَوَى البَيْهَقِيُّ ، عَنْ أَبِي الدَّرْداءِ رضي الله عنه أَنَّهُ كانَ يَقُولُ :

---

(١) سُورَةُ مَرْيم (مِنَ الآيَة ٦٥) .
(٢) سُورَةُ طه (مِنَ الآيَة ١٣٢) .

(إِنَّما أَخْشَى مِنْ رَبِّي يَوْمَ القِيامَةِ أَنْ يَدْعُوَنِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ فَيَقُولُ لِي : يا عُوَيْمِر .. فَأَقُولُ : لَبَّيْكَ رَبِّي .. فَيَقُولُ : ما عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ ؟) .

ورَوَى ابْنُ عَساكِرَ ، عَنْ أَبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لَهُ :

(كَيْفَ أَنْتَ يا عُوَيْمِرُ إِذا قِيلَ لَكَ يَوْمَ القِيامَةِ أَعَلِمْتَ أَمْ جَهِلْتَ ؟ فَإِنْ قُلْتَ : عَلِمْتُ ، قِيلَ لَكَ : فَما عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ ، وإِنْ قُلْتَ : جَهِلْتُ ، قِيلَ لَكَ : فَما كانَ عُذْرُكَ فِيما جَهِلْتَ أَلا تَعَلَّمْتَ) ! .

ويُسْأَلُ الإِنْسانُ عَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ أَي : حَصَلَ عَلَيْهِ وجَمَعَهُ ، أَكانَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقٍ شَرْعِيٍّ وبَيْعٍ وشِراءٍ ، وعُقُودٍ صَحِيحَةٍ ، أَمْ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ ؟ وفِيمَ أَنْفَقَهُ وصَرَفَهُ : هَلْ كانَ ذَلِكَ فِي مَصْرَفٍ شَرَعَهُ اللهُ تَعالَى أَم غَيْرِ مَشْروعٍ ؛ ولَو كانَ شَيْئاً قَلِيلاً ، فإِنَّهُ يُسْأَلُ عَنْهُ : هَلْ كانَ ما أَنْفَقَهُ فِي طَرِيقٍ شَرْعِيٍّ ؛ كالإِعْطاءِ لِلْفُقَراءِ ، والمُساعَدَةِ فِي الخَيْراتِ ، والمَبَرَّاتِ ، أَم فِي سَبِيلِ الشَّهَواتِ والمُحَرَّماتِ والمَلَذَّات ؟ .

ويُسْأَلُ الإِنْسانُ عَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ، فَهَذا الجِسْمُ وما أَوْدَعَ اللهُ تَعالَى فِيهِ مِنَ القُوَى فِيمَ صَرَفَها وأَتْعَبَها ، هَلْ صَرَفَ تِلْكَ العافِيَةَ والقُوَى الجِسْمِيَّةَ ، وتِلْكَ الأَعْضاءَ البَدَنِيَّةَ صَرَفَها وأَتْعَبَها فِيما يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ تَعالَى ، ويَنالُ بِها سَعادَةَ الدُّنْيا والآخِرَة ؟ أَم أَنَّهُ صَرَفَ ذَلِكَ فِي الشَّهَواتِ المُحَرَّمَةِ ، والأَهْواءِ النَّفْسِيَّةِ الباطِلَةِ ، حَتَّى تَعِبَ جِسْمُهُ ، ووَهَنَ عَظْمُهُ ، وخارَتْ قُواهُ بِسَبَبِ فِسْقِهِ وهَتْكِهِ ، وانْتِهاكِهِ لِما حَرَّمَ اللهُ تَعالَى عَلَيْهِ .



سُؤالُ الإِنْسانِ عَنِ النَّعِيم

قالَ اللهُ تَعالَى :﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ (١) .

إِنَّ اللهَ تَعالَى سَوْفَ يَسْأَلُ الإِنْسانَ عَنِ النَّعِيمِ الَّذي مَرَّ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيا ، ونَعِمَ بِهِ وتَلَذَّذَ مِنْ : صِحَّةِ البَدَنِ ، ولَذَّةِ الشَّرابِ ، والماءِ البارِدِ ، ولَذَّةِ المَطْعَمِ والمَأْكَلِ ولَذَّةِ الظِلالِ الباردَةِ ، ومُتْعَةِ النَّظَرِ إِلَى النَّضارِ والخَضارِ وغَيْرِ ذَلِكَ .

فَيُسْأَلُ الكافِرُ عَنْ ذَلِكَ سُؤالَ تَعْنِيفٍ وتَوْبِيخٍ وتَحْقِيرٍ .. لِأَنَّهُ كَفَرَ تِلْكَ النِّعَمَ .

ويُسْأَلُ المُؤْمِنُ عَنْ ذَلِكَ سُؤالَ تَلْطِيفٍ وتَشْرِيفٍ وتَذْكِيرٍ .. لِأَنَّهُ شَكَرَها .

رَوَى التِّرْمِذِي وحَسَّنَهُ ، عَنِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ ، قالَ الزُّبَيْرُ :

يا رَسُولَ اللهِ وأَيُّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ عَنْهُ ، وإِنَّما هُوَ الأَسْودانِ التَّمْرُ والماءُ ؟ .

فَقالَ ﷺ : (أَما إِنَّهُ سَيَكُونُ) - يَعْنِي : سَيَكُونُ السُّؤالُ عَنِ التَّمْرِ والماءِ ، وغَيْرِهِما مِنْ أَلْوانِ الأَطْعِمَةِ والأَشْرِبَة .

ورَوَى التِّرْمِذِي ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(إِنَّ أَوَّلَ ما يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ يَوْمَ القِيامَةِ أَنْ يُقالَ لَهُ : أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ، ونَرْوِيكَ مِنَ الماءِ البارِدِ ؟) .

ورَوَى الإِمامُ مُسْلِمٌ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ فَإِذا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما .

فَقالَ لَهُما ﷺ : (ما أَخْرَجَكُما مِنْ بُيُوتِكُما هَذِهِ السَّاعَةَ ؟)

فَقالا : الجَوعُ يا رَسُولَ اللهِ .

فَقالَ ﷺ : (وأَنا والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذي أَخْرَجَكُما .. فَقُومَا) .

فَقامَا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ فَإِذا هُوَ لَيْسَ فِى بَيْتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ قالَتْ : مَرْحَباً وأَهْلاً .

---

(١) سُورَةُ التَّكاثُر (الآيَة ٨) .

فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَيْنَ فُلانٌ ؟) .

قالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنا الماءَ .. إِذْ جاءَ الأَنْصارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وصاحِبَيْهِ ثُمَّ قالَ : الحَمْدُ لِلّهِ ما أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمُ أَضْيافاً مِنِّي .

قالَ : فانْطَلَقَ فَجاءَهُم بِعَذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطَبٌ ، فَقالَ : كُلُوا ، وأَخَذَ المُدْيَةَ (أَي : السِّكِّينَ) لِيَذْبَحَ شاةً .

فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(إِيَّاكَ والحَلُوبَ) .. أَي : لا تَذْبَحْ شاةً حَلُوباً .

فَذَبَحَ لَهُم شاةً غَيْرَ حَلُوبٍ ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ ، ومِنْ ذَلِكَ العَذْقِ وشَرِبُوا .

فَلَمَّا شَبِعُوا ورَوَوْا ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وعُمَر :

(والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيامَةِ ، أَخْرَجَكُم مِنْ بُيُوتِكُم الجُوعُ ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصابَكُم هَذا النَّعِيمُ) .

ورَوَى ابْنُ أَبِي حاتِمٍ بِإِسْنادِهِ ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعالَى :﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ قالَ : (الأَمْنُ والصِّحَّةُ) .

ورَوَى أَيْضاً بِإِسْنادِهِ ، عَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ رضي الله عنه ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ يَعْنِي : شِبَعَ البُطُونِ ، وبارِدَ الشَّرابِ ، وظِلالَ المَساكِنِ ، واعْتِدالَ الخَلْقِ ، ولَذَّةَ النَّوْمِ .

وفِي هَذا تَنْبِيهٌ لِلإِنْسانِ إِلَى الاهْتِمامِ بِشُكْرِ نِعَمِ اللهِ تَعالَى ، وأَنْ يَرْعَى نِعَمَ اللهِ تَعالَى ، ويَصْرِفَها فِيما يُرْضِيهِ سُبْحانَهُ ، ويَتَّخِذَها عَوْناً لَهُ عَلَى طاعَةِ رَبِّهِ ، ولا يَكْفُرَ نِعَمَ اللهِ تَعالَى ، ويَصْرِفَها فِي الشَّهَواتِ المُحَرَّمَةِ ، وفِي المَعاصِي الَّتي نَهَى اللهُ تَعالَى عَنْها ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَرِّضُها إِلَى الهَلاكِ والزَّوالِ ، وسَوْفَ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي السُّؤالِ عَنْها .

إِذا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فارْعَها ❊ فَإِنَّ المَعاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمْ

وحُطْها بِطاعَةِ رَبِّ العِبادِ ❊ فَرَبُّ العِبادِ سَرِيعُ النِّقَمْ

وإِيَّاكَ والظُّلْمَ مَهْما اسْتَطَعْـ ❊ ـتَ فَظُلْمُ العِبادِ شَدِيدُ الوَخَمْ

وسافِرْ بِقَلْبِكَ بَيْنَ الوَرَى ❋ لِتُبْصِرَ آثارَ مَنْ قَدْ ظَلَمْ
فَتِلْكَ مَساكِنُهُم بَعْدَهُم ❋ شُهُودٌ عَلَيْهِمْ ولا تُتَّهَمْ
فَكَمْ تَركُوا مِنْ جِنانٍ ومِنْ ❋ قُصُورٍ وأَجْرَى عَلَيْهِمْ أُطُمْ
صُلُوا بِالجَحِيمِ وفاتَ النَّعِيمُ ❋ وكانَ الَّذي نالَهُم كالحُلُمْ



سُؤالُ الإنْسانِ عَنْ بَقِيَّةِ الآلاءِ الماليَّةِ وغَيْرِها

إنَّ اللّهَ تَعالَى سَوْفَ يَسْأَلُ العَبْدَ يَوْمَ القِيامَةِ عَمَّا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ أَنْواعِ النِّعَمِ : السَّمْعِيَّةِ والبَصَرِيَّةِ ، والعَقْلِيَّةِ والبَدَنِيَّةِ ، والصِّحَّةِ والقُوَّةِ ، والمُتَعِ النَّفْسِيَّةِ ، واللَّذائِذِ الجِسْمِيَّةِ ، وغَيْرِ ذَلِكَ كَما تَقَدَّمَ .

كَذَلِكَ يُسْأَلُ عَمَّا خَوَّلَهُ اللّهُ تَعالَى مِنَ الأَمْوالِ ، عَلَى مُخْتَلَفِ أَنْواعِها .

رَوَى التِّرْمِذِي ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ :

(يُجاءُ بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ (١) .. فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَي اللّهِ تَعالَى ، فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى لَهُ : أَعْطَيْتُكَ وخَوَّلْتُكَ ، وأَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَماذا صَنَعْتَ ؟

فَيَقُولُ : يارَبِّ جَمَعْتُهُ وثَمَّرْتُهُ ، وتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ ما كانَ .. فارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ .

فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى : أَرِنِي ما قَدَّمْتَ .

فَيَقُولُ : رَبِّ جَمَعْتُهُ وثَمَّرْتُهُ ، وتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ ما كانَ .. فارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ ، فَإِذا عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّمْ خَيْراً ، فَيُمْضَى بِهِ إِلَى النَّار) .

كَما أَنَّهُ يَسْأَلُهُ عَنْ نِعْمَةِ الزَّواجِ ، والوَجاهَةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وجَمِيعِ ما خَوَّلَهُ مِنَ النِّعَمِ والأَسْبابِ ، والمَظاهِرِ والمَفاخِرِ .

رَوَى الإمامُ مُسْلِمٌ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالوا : يا رَسُولَ اللّهِ ﷺ هَلْ نَرَى رَبَّنا يَوْمَ القِيامَةِ ؟

قالَ : (هَلْ تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحابَةٍ ؟)

قالُوا : لا

قالَ : (فَوَ الَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُم إِلاَّ كَما تُضارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِما) .

قالَ ﷺ : (فَيَلْقَى العَبْدُ رَبَّهُ ، فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى : أَي فُلُ (أَي : يا فُلانُ) ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ وأُسَوِّدْكَ (أَي : أَلَمْ أَجْعَلْكَ سَيِّداً فِي أَهْلِكَ أَو قَوْمِكَ) ، وأُزَوِّجْكَ ،

---

(١) البَذَج : هُوَ أَضْعَفُ ما يَكُونُ مِنَ الحِمْلان .. أَي : الصِّغار مِنْ أَوْلادِ الضَّأْن .

وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ ، وأَتْرُكْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ ؟

فَيَقُولُ العَبْدُ : بَلَى .

فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى : أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ ؟ (أَي : هَلْ كُنْتَ فِى الدُّنْيا تَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَلْقانِي فِى يَوْمِكَ هَذا) .

فَيَقُولُ (أَي : العَبْدُ الكافِرُ) : لا .

فَيَقُولُ سُبحانَهُ : فاليَوْمَ أَنْساكَ (أَي : أَتْرُكَكَ فِى العَذابِ) ، كَما نَسِيتَنِي .

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ : أَي فُلُ (أَي : يا فُلانُ) ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ ، وأُسَوِّدْكَ ، وأُزَوِّجْكَ ، وأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ والإبِلَ ، وأَتْرُكْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ ؟

فَيَقُولُ : بَلَى يارَبِّ .

فَيَقُولُ (أَي : اللّهُ تَعالَى) : أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ ؟

فَيَقُولُ : لا

فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى : فَإِنِّى أَنْساكَ كَما نَسِيتَنِي .

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ ... فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِك .

فَيَقُولُ (أَي : والقائِلُ مُنافِقٌ) : يارَبِّ آمَنْتُ بِكَ ، وبِكِتابِكَ ، ورُسُلِكَ ، وصَلَّيْتُ ، وصُمْتُ ، وتَصَدَّقْتُ ، ويُثْنِي بِخَيْرٍ ما اسْتَطاعَ .

(أَي : ويَدَّعِي أَنَّهُ عَمِلَ بِما أَمَرَ اللّهُ تَعالَى بِهِ ، وأَدَّى حُقُوقَ تِلْكَ النِّعَمِ ، واسْتَعْمَلَها فِى مَرْضاةِ اللّهِ تَعالَى ؛ ولَكِنَّها دَعْوَى كاذِبَة) .

فَيَقُولُ : لا .

فَيَقُولُ سُبْحانَهُ وتَعالَى : الآنَ نَبْعَثُ عَلَيْكَ شاهِدَنا .

ويَتَفَكَّرُ فِى نَفْسِهِ : مَنِ الَّذي يَشْهَدُ عَلَيْهِ .. فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، ويُقالُ لِفَخِذِهِ ولَحْمِهِ وعِظامِهِ : انْطِقِي .

فَتَنْطِقُ : فَخِذُهُ ولَحْمُهُ وعِظامُهُ بِعَمَلِهِ ، وذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ ـ ، وذَلِكَ المُنافِقُ الَّذي سَخِطَ اللّهُ تَعالَى عَلَيْهِ) .

وفِى هَذا تَنْبِيهٌ لِلْمُسْلِمِ إِلَى أَنْ يَهْتَمَّ بِشُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ ، وأَنْ يَرْعاها حُقُوقَها ، وأَنْ يَصْرِفَها فِى طاعَتِهِ تَعالَى ومَرْضاتِهِ ، ويَتَّخِذَها عَوْناً لَهُ عَلَى دِينِهِ وعِبادَتِهِ وآخِرَتِهِ ، ولا يَكْفُرَ نِعَمَ اللهِ تَعالَى ، ولا يَنْشَغِلَ بِها عَنْ عِبادَةِ اللهِ تَعالَى ، ولا يَصْرِفَها فِى الشَّهَواتِ المُحَرَّمَةِ : بِأَنْ يَتَقَوَّى بِها عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ تَعالَى فَإِنَّهُ مَسْؤُولٌ عَنْها وعَنْ حُقُوقِها ، وعَنْ شُكْرِها ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

ولَقَدْ كانَ سَيِّدُ الشَّاكِرِينَ ، بَلْ سَيِّدُ كُلِّ شاكِرٍ وشَكُورٍ ، بَلِ الَّذي نالَ أَعْلَى وأَسْمَى مَقامٍ فِي الشُّكْرِ ، سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ ، يَدْعُو وَرَاءَ الصَّلَواتِ المَكْتُوبَةِ ، ويُسْمِعُ الصَّحابَةَ تَعْلِيماً لَهُم ، فَيَقُولُ : (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِى الأَمْرِ ، والعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وأَسْأَلُكَ لِساناً صادِقاً ، وقَلْباً سَلِيماً ، وأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وحُسْنَ عِبادَتِكَ ، وأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ ما تَعْلَمُ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما تَعْلَمُ ، وأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا تَعْلَمُ ، وأَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوب)[2].



(١) سُورَةُ آل عِمْران (مِنَ الآية ١٤٤) .

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي .

سُؤَالُ الإِنْسانِ عَنْ نِيَّتِهِ ومُرادِهِ مِنَ الأَعْمالِ الصَّالِحَة

إِنَّ فِى الآخِرَةِ مَوْقِفاً يُسْأَلُ فِيهِ الإِنْسانُ عَمَّا نَواهُ وأَرادَهُ مِنَ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ المَشْروعَة : هَلْ كانَ فِى ذَلِكَ العَمَلِ مُخْلِصاً لِلّهِ تَعالَى مُبْتَغِياً مَرْضاةَ اللّهِ تَعالَى ورِضْوانَهُ ، أَم كانَ مَقْصُودُهُ مِنْ ذَلِكَ العَمَلِ الرِّياءَ ، أَو أَنْ يُقالَ عَنْهُ : إِنَّهُ صالِحٌ ، أَو مُنْفِقٌ ، أَو عابِدٌ ، أَو نَحْوَ ذَلِك ؟

قالَ تَعالَى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١) .

قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِى الَّذِينَ يَعْمَلُونَ عَمَلَ الآخِرَةِ لِنَيْلِ الدُّنْيا) .

رَوَى مُسْلِمٌ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ : (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيامَةِ عَلَيْهِ : رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها .. قالَ فَما عَمِلْتَ فِيها ؟

قالَ : قاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ .

قالَ اللّهُ لَهُ : كَذَبْتَ ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لِأَنْ يُقالَ : هُوَ جَرِيءٌ ، فَقَد قِيلَ ..ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فِى النَّار .

ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ ، وقَرَأَ القُرْآنَ ، فأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها .

قالَ : فَما عَمِلْتَ فِيها ؟

قالَ : تَعَلَّمْتُ العِلْمَ ، وعَلَّمْتُهُ ، وقَرَأْتُ فِيكَ - يارَبِّ - القُرْآنَ .

قالَ : كَذَبْتَ ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقالَ عالِمٌ ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ هُوَ قارِيءٌ ، فَقَد قِيلَ .. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فِى النَّار .

ورَجُلٌ وَسَّعَ اللّهُ عَلَيْهِ ، وأَعْطاهُ مِنْ أَصْنافِ المالِ كُلِّهِ ، فَأُتِىَ بِهِ .. فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ

---

(١) سُورَةُ هُود (الآيَتان ١٥ ، ١٦) .

(سُبْحانَهُ) فَعَرَفَها .

قالَ : فَما عَمِلْتَ فِيها ؟

قالَ : ما تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيها إلاَّ أَنْفَقْتُ فِيها لَكَ .

قالَ اللّهُ تَعالَى لَهُ : كَذَبْتَ ، ولَكِنَّكَ أَنْفَقْتَ لِيُقالَ هُوَ جَوادٌ ، فَقَد قِيلَ .. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِى النَّار)[1].



(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) و(النَّسائي) و(التِّرْمِذِي) و(ابْنُ حِبَّان) .

انْتِفاعُ الإِنْسانِ بَعْدَ الانْتِقال ..

بِما يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ صالِحِ الأَعْمال .

إِنَّ ثَوابَ الأَعْمالِ الصَّالِحَةِ والأَقْوالِ الطَّيِّبَةِ الَّتي يُهْدِيها أَحْياءُ الدُّنْيا لِأَهْلِ البَرْزَخِ ، هِيَ واصِلَةٌ إِلَيْهِمْ لا مَحالَة ، وهِيَ تَنفَعُهُم ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الكِتابُ والسُّنَّةُ قالَ اللّهُ تَعالَى :﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١) .

فَلَقَدْ مَدَحَ اللّهُ تَعالَى الَّذين اسْتَغْفَروا لِلْمُؤْمِنينَ قَبْلَهُم ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مَقْبُولٌ عِنْدَ اللّهِ تَعالَى ، وهُوَ يَنْفَعُ الأَمْواتَ قَبْلَهُم .

وقَدْ أَمَرَ الشَّارِعُ بِالصَّلاةِ عَلَى المَيِّتِ والدُّعاءِ لَهُ ، وما ذَلِكَ إِلاَّ لأَنَّهُ يَنْفَعُهُ ويَزيدُ فِي ثَوابِهِ :

رَوَى أَصْحابُ السُّنَنِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قالَ :

(إِذا صَلَّيْتُم عَلَى المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعاء) .

كَما أَمَرَ الشَّارِعُ بِالدُّعاءِ لِلْأَمْواتِ عِنْدَ زِيارَةِ قُبُورِهِمْ :

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ رضي الله عنه قالَ كانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُم إِذا خَرَجُوا إِلَى المَقابِرِ أَنْ يَقُولُوا :

(السَّلامُ عَلَيْكُم أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ المُؤْمِنينَ والمُسْلِمينَ ، وإِنَّا إِنْ شاءَ اللّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ ، نَسْأَلُ اللّهَ لَنا ولَكُم العافِيَة) .

وقالَ اللّهُ تَعالَى :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) .

فَفِي هَذهِ دَلالَةٌ صَريحَةٌ عَلَى أَنَّ اللّهَ يَنْفَعُ الأَبْناءَ بِعَمَلِ الآباءِ ، فَيُلْحِقُ الأَبْناءَ المُقَصِّرينَ بِآبائِهِم المُقَرَّبينَ ؛ تَكْرِمَةً لإِيمانِهِم وصَلاحِهِم ، مِنْ غَيْرِ أَنْ

---

(١) سُورَةُ الحَشْر (الآيَة ١٠) .
(٢) سُورَةُ الطُّور (الآيَة ٢١) .

يُنْقِصَهُم مِنْ ثَوابِ أَعْمالِهِم شَيْئاً .

كَما أَخْرَجَ الطَّبَرانِي ، عَنْ سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، أَظُنُّهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ : (إذا دَخَلَ الرَّجُلُ الجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبَوَيْهِ وزَوْجَتِهِ وولَدِهِ .. فَيُقالُ : إِنَّهُم لَمْ يَبْلُغُوا دَرجَتَكَ ، فَيَقُولُ : يارَبِّ قَدْ عَمِلْتُ لِي ولَهُم .. فَيُؤْمَرُ بِإِلْحاقِهِم بِهِ وقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .. الآيَة .

وأَخْرَجَ الإِمامُ أَحْمَدُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِى الجَنَّةِ .. فَيَقُولُ : يارَبِّ أَنَّى لِي هَذا ؟ فَيَقُولُ : بِاسْتِغْفارِ وَلَدِكَ لَكَ) .

كَما أَنَّ ثَوابَ الصَّدَقاتِ مِنَ الأَحْياءِ يَصِلُ إِلَى الأَمْوات :

جاءَ فِى (الصَّحِيحَيْن) عَنِ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ رضي الله عنها ، أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ : يارَسُولَ اللهِ إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُها (أَي : أُخِذَتْ بَغْتَةً) ولَمْ تُوصِ ، وأَظُنُّها لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ ، أَفَلَها أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْها ؟ فَقالَ ﷺ : (نَعَم) .

وأَخْرَجَ البُخارِي ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ ابْنِها ماتَ ولَمْ يَحُجَّ ، قالَ ﷺ : (حُجِّي عَنِ ابْنِكِ) .

وكُلُّ عَمَلٍ صالِحٍ يُوهَبُ ثَوابُهُ لِلأَمْواتِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ ، ومِنْ ذَلِكَ إِهْداءُ ثَوابِ القِراءاتِ لِلأَمْواتِ ، فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَيْهِمْ ويَنْفَعُهُم :

جاءَ فِى الحَدِيثِ عَنْ مَعْقَلِ بنِ يَسارٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قالَ :

(قَلْبُ القُرْآنِ يَس ، لا يَقْرَؤُها رَجُلٌ يُرِيدُ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ ، اقْرَؤُوها عَلَى مَوْتاكُم) .

قالَ الحافِظُ المُنْذِرِي : أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ، وأَبوداوُد ، وابْنُ ماجَه ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ وبِهَذا الحَدِيثِ يُرْشِدُ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى تِلاوَةِ هَذِهِ السُّورَةِ الكَرِيمَةِ الَّتي هِيَ قَلْبُ القُرْآنِ ، لِيَنْتَفِعَ بِها الأَحْياءُ ويَنْتَفِعَ بِها الأَمْواتُ .

وعَنْ عَبْدِاللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ :
(إذا ماتَ أَحَدُكُم فَلا تَحْبِسُوهُ ، وأَسْرِعُوا بِهِ إِلَى قَبْرِهِ ، ولْيُقْرَأْ عِنْدَ رَأْسِهِ فاتِحَةَ البَقَرَة ، وعِنْدَ رِجْلَيْهِ بِخاتِمَةِ البَقَرَة) .
قالَ فِي (مِشْكاةِ المَصابِيحِ) : أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي (شُعَبِ الإِيمانِ) ، وقالَ : والصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما . اهـ .
وفِي الجُزْءِ الثَّاني مِنَ (المَرْقاةِ) : أَخْرَجَ أَبو القاسِمِ سَعْدُ بنُ عَلِيٍّ الزَّنْجانِي فِي (فَوائِدِهِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ :
(مَنْ دَخَلَ المَقابِرَ ، ثُمَّ قَرَأَ فاتِحَةَ الكِتابِ ، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ و ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾ ، ثُمَّ قالَ : إِنِّي جَعَلْتُ ثَوابَ ما قَرَأْتُ لأَهْلِ المَقابِرِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ : كانُوا شُفَعاءَ لَهُ إِلَى اللهِ تَعالَى) .
وفِي (المَرْقاةِ) : أَخْرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ السَّمَرْقَنْدِي فِي فَضائِلَ :
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ عَنْ عامِرٍ مَرْفُوعاً : (مَنْ مَرَّ عَلَى المَقابِرِ وقَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ إِحْدَى عَشَرَةَ مَرَّةً ، ثُمَّ وَهَبَ أَجْرَهُ لِلأَمْواتِ : أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ الأَمْواتِ) .
وفِي (المَرْقاةِ) نَقْلاً عَنْ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ المَروزِي : قالَ سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ رضي الله عنه يَقُولُ : (إِذا دَخَلْتُم المَقابِرَ فاقْرَؤُوا بِفاتِحَةِ الكِتابِ والمُعَوَّذَتَيْنِ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ واجْعَلُوا ثَوابَ ذَلِكَ لِأَهْلِ المَقابِرِ فَإِنَّهُ يَصِلُ إِلَيْهِم) .
وفِي (أَذْكارِ) النَّوَوِي ، قالَ : ويُسْتَحَبُّ لِلزَّائِرِ الإِكْثارَ مِنْ قِراءَةِ القُرْآنِ ، والذِّكْرِ ، والدُّعاءِ لِأَهْلِ تِلْكَ المَقْبَرَةِ ، وسائِرِ المَوْتَى والمُسْلِمِينَ أَجْمَعِين .
وقالَ الإِمامُ النَّوَوِي فِي (شَرْحِ المُهَذَّب) : يُسْتَحَبُّ لِزائِرِ القُبُورِ أَنْ يَقْرَأَ ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ ، ويَدْعُو لَهُم عَقِبَها ، نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ، واتَّفَقَ عَلَيْهِ الأَصْحابُ .
وقالَ فِي مَوْضِعٍ آخَر : وإِنْ خَتَمُوا القُرْآنَ عَلَى القَبْرِ كانَ أَفْضَل . اهـ .

فالأَمْواتُ يَنْتَفِعُونَ بِالقِراءاتِ تُهْدَى إِلَيْهِمْ ؛ كَما يَنْتَفِعُونَ بِالدَّعواتِ لَهُم .

وقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِي ، عَنْ أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهُ قالَ :

(يَقُولُ الرَّبُّ تَبارَكَ وتَعالَى : مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعْطِي السَّائِلِينَ) .

وأَخْرَجَ الطَّبرانِيُّ بِإِسْنادٍ جَيِّدٍ ، عَنْ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :(مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلمُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ : كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً) .

وأَخْرَجَ الطَّبَرانِي أَيْضاً ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قالَ :

(مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مالٌ يَتَصَدَّقُ : فَلْيَسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ فَإِنَّها صَدَقَةٌ)

وأَخْرَجَ أَبوداوُدَ وغَيْرُهُ ، عَنْ أَبي أُسَيْدٍ رضي الله عنه قالَ : بَيْنا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِذْ جاءَ رَجُلٌ فَقالَ : يارَسُولَ الله .. هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُما بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِما ؟

قالَ : (نَعَم .. الصَّلاةُ عَلَيْهِما ، والاسْتِغْفارُ لَهُما ، وإِنْفاذُ عَهْدِهِما مِنْ بَعْدِهِما ، وصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتي لا تُوصَلُ إِلاَّ بِهِما ، وإِكْرامُ صَدِيقِهِما) .

وقالَ الخَلاَّلُ فِي (جامِعِهِ) : كِتابُ القِراءَةِ عِنْدَ القُبُورِ :

ثُمَّ أَسْنَدَ إِلَى عَبْدِالرَّحْمنِ بنِ العَلاءِ بنِ اللَّجْلاجِ عَنْ أَبِيهِ قالَ :

(قالَ أَبِي : إِذا أَنا مِتُّ فَضَعْنِي فِي اللَّحْدِ وقُلْ : بِسْمِ اللهِ ، وعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وسُنَّ عَلَيَّ التُّرابَ سَنّاً ، واقْرَأْ عِنْدَ رَأْسِي بِفاتِحَةِ البَقَرَةِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ عَبْدَاللهِ بنَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ ذَلِكَ) .

وذَكَرَ الخَلاَّلُ عَنِ الشَّعْبِي قالَ : كانَتِ الأَنْصارُ إِذا ماتَ لَهُم المَيِّتُ اخْتَلَفُوا إِلَى قَبْرِهِ يَقْرَؤُونَ عِنْدَهُ القُرْآن .

هَذا وإِنَّ جَمِيعَ ما ذَكَرْناهُ مِنَ الأَدِلَّةِ القُرْآنِيَّةِ والأَحادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ؛ الدَّالَّةِ عَلَى ثَوابِ الأَعْمالِ المُهْداةِ إِلَى الأَمْواتِ ، ذَلِكَ كُلُّهُ لا يَخْتَلِفُ مَعَ قَوْلِهِ تَعالَى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، لِأَنَّ السَّعْيَ نَوْعان :

سَعْيٌ مُباشَرٌ : وذَلِكَ بِتعاطِي الإِنْسانِ الأَعْمالَ الصَّالِحَةَ ، والأَقْوالَ الطَّيِّبَةَ ، الَّتي رَسَمَها الشَّارِعُ لَهُ : مِنَ الصَّلَواتِ ، والصَّدَقاتِ ، والصِّيامِ ، وسائِرِ العِباداتِ ، والقُرُباتِ العَمَلِيَّةِ والقَوْلِيَّةِ ، المُتَنَوِّعَةِ الكَثِيرَة .

وسَعْيٌ تَسَبُّبٌ : فِي تَحْصِيلِ خَيْرٍ وثَوابٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ ، ويَجْرِي لَهُ مِنْ عَمَلٍ باشَرَهُ غَيْرُهُ ، فَذَلِكَ الغَيْرُ لَهُ أَجْرُ العَمَلِ بِالمُباشَرَةِ ؛ وهَذا لَهُ أَجْرُ العَمَلِ بِالتَّسَبُّبِ (وهَذا النَّوعُ الثَّانِي لَهُ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ ، وأَنْواعٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، بَيَّنَها الشَّارِعُ) فَمِنْ ذَلِكَ : ما أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِذا ماتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جارِيَةٍ ، أَو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَو وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُو لَهُ) .

فَإِنَّ هَذِهِ الأُمُورَ تَنْفَعُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، لِأَنَّهُ تَسَبَّبَ إِلَيْها وإِنْ كانَ هُوَ لَمْ يُباشِرْها بِنَفْسِهِ .

وفِي (سُنَنِ) ابْنِ ماجَه بِإِسْنادٍ حَسَنٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ :

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ المُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وحَسَناتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ : عِلْماً عَلَّمَهُ ونَشَرَهُ ، أَو وَلَداً صالِحاً تَرَكَهُ ، أَو مُصْحَفاً وَرَّثَهُ ، أَو مَسْجِداً بَناهُ ، أَو بَيْتاً لابْنِ السَّبِيلِ بَناهُ ، أَو نَهْراً أَكْراهُ) - وفِي رِوايَةٍ (أَجْراهُ) - (أَو صَدَقَةً أَخْرَجَها مِنْ مالِهِ فِي صِحَّتِهِ وحَياتِهِ : تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ) .

وفِي (صَحِيحِ) مُسْلِمٍ عَنْ جَرِيرِ بنِ عَبْدِاللهِ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً : فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، ومَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً : كانَ عَلَيْهِ وِزْرُها ، ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهِمْ شَيْءٌ) فَمَنْ آمَنَ بِما أَمَرَ اللهُ تَعالَى بِهِ ، وانْتَظَمَ فِي سِلْكِ المُؤْمِنِينَ ، كانَ ذَلِكَ مِنْهُ سَبباً فِي نَيْلِ حَظِّهِ مِنْ اسْتِغْفارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحانَهُ :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[1].

ومِنَ اسْتِغْفار سَيِّدِنا نُوحٍ عليه السلام ،حَيْثُ يَقُولُ سُبْحانَهُ مُخْبِراً عَنْهُ :

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

وأَنْ يَنالَ حَظَّهُ مِنَ اسْتِغْفارِ الخَلِيلِ سَيِّدِنا إبْراهِيمَ عَلَى نَبِيِّنا وعَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحانَهُ :﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[3].

وأَنْ يَنالَ حَظَّهُ مِنْ دَعَواتِ المُؤْمِنِينَ واسْتِغْفارِهِمْ ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[4].

وأَنْ يَنالَ حَظَّهُ مِنْ دُعاءِ حَمَلَةِ العَرْشِ ، واسْتِغْفارِهِمْ ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾[5].

وأَنْ يَنالَ حَظَّهُ مِنْ صَلَواتِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، ودُعائِهِمْ لَهُ ، وتَرَحُّمِهِمْ عَلَيْهِ .

وقَدْ قالَ ﷺ كما جاءَ فِى (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي رضي الله عنه :

(المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً) .

وهَذا مَطْلُوبٌ مِنْهُم فِى أُمُورِهِمْ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ ، وهُوَ فِى أُمُورِهِمْ الدِّينِيَّةِ أَهَمُّ

---

(١) سُورَةُ مُحَمَّد (مِنَ الآيَة ١٩) .
(٢) سُورَةُ نُوح (الآيَة ٢٨) .
(٣) سُورَةُ إبْراهِيم (الآيَة ٤١) .
(٤) سُورَةُ الحشر (مِنَ الآيَة ١٠) .
(٥) سُورَةُ غافِر (الآيَة ٧ ، ٨) .

وأَوْجَبُ ، فَدُخُولُ المُؤْمِنِ مَعَ جُمْلَةِ المُؤْمِنينَ فِى عَقائِدِهِمْ الإيمانِيَّةِ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبابِ فِى وُصُولِ نَفْعٍ مِنْ كُلِّ المُؤْمِنينَ إِلَيْهِ فِى حَياتِهِ وبَعْدَ مَماتِهِ ، وذَلِكَ أَنَّ اللّٰهَ تعالَى جَعَلَ الإيمانَ سَبباً لانْتِفاعِ صاحِبِهِ بِدُعاءِ إِخْوانِهِ المُؤْمِنينَ، واسْتِغْفارِهِمْ ، وأَعْمالِهِمْ الصَّالِحَةِ ، وأَقْوالِهِم الطَّيِّبَةِ الحَسَنَةِ ، فَإِذا آمَنَ الإِنْسانُ فَقَدْ سَعَى فِى السَّبَبِ الَّذي يُوصِلُ إِلَى جَمِيعِ تِلْكَ المَنافِعِ والفَوائِدِ ، فَهِىَ مِنْ سَعْيِهِ التَّسَبُّبِي .

ويَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ما جاءَ فِى (مُسْنَدِ) الإِمامِ أَحْمَدَ ، عَنْ عَبْدِاللّٰهِ بنِ عَمْرورضي الله عنه أَنَّ العاصَ بنَ وائِلٍ نَذَرَ فِى الجاهِلِيَّةِ أَنْ يَنْحَرَ مائَةَ بَدَنَةٍ (أَي ناقَةٍ) ، وأَنَّ هِشامَ بنَ العاصِ نَحَرَ خَمْسَةً وخَمْسِينَ ، وأَنَّ عَمْراً سَأَلَ النَّبِىَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقالَ (أَمَّا أَبُوكَ – أَي : العاص – فَلَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ فَصُمْتَ وتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ أَي : ولَكِنْ لَمْ يُقِرَّ بِالتَّوْحِيدِ ، بَلْ جَحَدَ وكَفَرَ ، فَلَمْ يَتعاطَ السَّبَبَ فِى أَنْ تَنْفَعَهُ صَدَقاتُكَ وصِيامُكَ) .

وهَكَذا مَنْ جَلَسَ إِلَى الصَّالِحينَ ؛ وكانَ مَعَ الصَّادِقينَ ؛ كانَ ذَلِكَ سَبَباً فِى أَنْ يَنالَهُ مِنَ الخَيْرِ والنُّورِ والبَرَكَةِ النَّازِلَةِ عَلَيْهِمْ :

كَما فِى (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قالَ :

(هُم القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِم جَلِيسُهُم) .



حَشْرُ كُلِّ إِنْسانٍ مَعَ مَحْبُوبِهِ

أَخْرَجَ الشَّيْخانِ ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ،أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَتَى السَّاعَةَ ؟ فَقَالَ ﷺ : (وما أَعْدَدْتَ لَها ؟) .

فَقَالَ : لا شَيْءَ ، إِلاَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ﷺ.

فَقَالَ ﷺ : (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) .

قالَ أَنسٌ رضي الله عنه: فَما فَرِحْنا بِشَيْءٍ فَرَحَنا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ :

(أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) .

قالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فأَنا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وأَبابكْرٍ وعُمَرَ وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُم بِحُبِّي إِيَّاهُم .

وعَنِ الإِمامِ (عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، قالَ ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(ثَلاثٌ هُنَّ حَقٌّ : لا يَجْعَلِ اللهُ مَنْ لَهُ سَهْمٌ فِي الإِسْلامِ كَمَنْ لا سَهْمَ لَهُ ، ولا يَتَوَلَّى اللهُ عَبْداً فَيُوَلِّيهِ غَيْرَهُ ، ولا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْماً إِلاَّ حُشِرَ مَعَهُم)[1].

أَخْرَجَهُ الطَّبَرانِي فِي : (الصَّغِيرِ) و(الكَبِيرِ) بِإِسْنادٍ جَيِّدٍ كَما فِي : (التَّرْغِيبِ) وغَيْرِه .

وعَنِ السَّيِّدَةِ (عائِشَةَ) رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ :

(ثَلاثَةٌ أَحْلِفُ عَلَيْهِنَّ : لا يَجْعَلِ اللهُ مَنْ لَهُ سَهْمٌ فِي الإِسْلامِ كَمَنْ لا سَهْمَ لَهُ ، وأَسْهُمُ الإِسْلامِ ثَلاثَةٌ : الصَّلاةُ والصَّوْمُ والزَّكاةُ ، ولا يَتَوَلَّى اللهُ عَبْداً فِي الدُّنْيا فَيُوَلِّيهِ غَيْرَهُ يَوْمَ القِيامَةِ ، ولا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْماً إِلاَّ جَعَلَهُ اللهُ مَعَهُم) .

وعَنْ جابِرِ بنِ عَبْدِاللهِ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ :

(كُلُّ نَفْسٍ تُحْشَرُ عَلَى هَواها ، فَمَنْ هَوَي (أَي : أَحَبَّ) الكَفَرَةَ فَهُوَ مَعَ الكَفَرَةِ ولا يَنْفَعُهُ عَمَلُهُ شَيْئاً)[2].

---

(١) قالَ الحافِظُ المُنْذِرِي : أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِإِسْنادٍ جَيِّدٍ .. وعَزاهُ فِي : (الفَتْحِ الكَبِير) إِلَى النَّسائِي ، وأَحْمَدَ ، والحاكِمِ ، والبَيْهَقِي .

(٢) عَزاهُ فِي (الفَتح الكَبِير) إِلَى الطَّبرانِي فِي (الأَوْسَط) .

مَهْدِيُّ آخِرِ الزَّمان .. حَقِيقَةٌ وبَيان

مُقَدِّمَةٌ مُهِمَّة : ما أَحْوَجَ بَنِي الإِنْسانِ إِلَى الحَقِيقَةِ العِلْمِيَّةِ المُوجَزَةِ المُرَكَّزَة .. بَعْدَ أَنْ سادَ الدَّجَلُ والشَّعْوَذَة .. وظَنَّ كُلُّ مُدَّعٍ أَنَّهُ المَهْدِيُّ ، أَو مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَي المَهْدِيِّ ، أَو يَعْرِفُ مَتَى ظُهُورُ المَهْدِي ؟!

وقَدْ بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأُمَّتِهِ بَياناً شافِياً وافِياً كافِياً ،فيهِ كُلُّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِها ، ومِنْ ذَلِكَ قَضِيَّةُ المَهْدِيِّ ؛ وما ذَلِكَ إِلاَّ لِتَأْخُذَ حِذْرَها ، ولِتَكُونَ عَلَى أُهْبَةِ أَمْرِها ، ولِتُحافِظَ عَلَى أَمانَةِ العِلْمِ والعَمَلِ والعَهْدِ الَّذي بَيْنَها وبَيْنَ رَبِّها .

فَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قالَ : (قامَ فِينا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقاماً ، فَما تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ مِنْ مَقامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ إِلاَّ حَدَّثَهُ ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ ، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ وقَدْ عَلِمَهُ أَصْحابِي هَؤُلاء ، وإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَراهُ فَأَذْكُرُ ، كَما يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذا غابَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِذا رَآهُ عَرَفَهُ)[1].

وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه ،قالَ : قامَ فِينا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقاماً ،فَأَخْبَرَنا عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنازِلَهُمْ ، وأَهْلُ النَّارِ مَنازِلَهُمْ ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ ، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ)[2].

وعَنْ عَمْرو بنِ أَخْطَبَ الأَنْصارِيِّ رضي الله عنه ،قالَ : (صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْماً الفَجْرَ وصَعِدَ عَلَى المِنْبَرِ ، فَخَطَبَنا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنا بِما كانَ وبِما هُوَ كائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، قالَ : فَأَعْلَمُنا أَحْفَظُنا)[3].

وقَدْ أَخْبَرَ ﷺ وهُوَ الصَّادِقُ المَصْدوقُ بِقُرْبِ قِيامِ السَّاعَةِ ، ولا شَكَّ أَنَّ كَثِيراً مِمَّا يَجْرِي فِي واقِعِنا مِنْ أَحْداثٍ يَنْطَبِقُ عَلَيْها ما أَخْبَرَ بِهِ ﷺ بِأَنَّهُ مِنْ عَلاماتِ السَّاعَةِ وأَشْراطِها .

ولْنَنْظُرْ مَثَلاً قَوْلَهُ ﷺ عَنِ العِراقِ فِيما أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وأَحْمَدُ عَنْ جابِرِ بنِ

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و (مُسْلِمٌ) في صَحِيحَيْهِما .
(٢) أَخْرَجَهُ (الطَّبَرانِيُّ) ،و (أَبو نُعَيْم) .
(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِم .

عَبْدِاللهِ رضي الله عنه : (يُوشِكُ أَهْلُ العِراقِ لا يَجِيءُ إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ ولا دِرْهَمٌ) قُلْنا : مِنْ أَيْنَ ذَلِكَ ؟ قالَ : (مِنْ قِبَلِ العَجَمِ ، يَمْنَعُونَ ذَلِكَ) ، ثُمَّ قالَ ﷺ : (يُوشِكُ أَهْلُ الشَّامِ أَنْ لا يَجِيءَ إِلَيْهِمْ دِينارٌ ولا مُدْيٌ) ، قُلْنا : مِنْ أَيْنَ ذَلِكَ ؟ قالَ : (مِنْ قِبَلِ الرُّومِ) ثُمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً .. ثُمَّ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :(يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي المالَ حَثْياً ، لا يَعُدُّهُ عَدّاً)[1].

والقَفِيزُ : مِكْيالٌ لِأَهْلِ العِراقِ ، والمُدْيُ : مِكْيالٌ لِأَهْلِ الشَّامِ .

والمَقْصُودُ بِالخَلِيفَةِ : الإِمامُ المَهْدِي .

وقَدْ أَخْبَرَ ﷺ بِظُهُورِ الدَّجَّالِينَ والمُشَعْوِذِينَ وأَدْعِياءِ النُّبُوَّةِ والمَهْدِيَّةِ ، فَفِي الحَدِيثِ : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ ، قَرِيباً مِنْ ثَلاثِينَ ، كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله)[2].

ومِمَّا جاءَ فِي مَنْظُومَةِ الشَّيْخِ الأَخضَرِي قَوْلُهُ :

وجاءَ فِي الحَدِيثِ عَنْ خَيْرِ الوَرَى * لَنْ يَخْرُجِ الدَّجَّالُ أَعْنِي الأَكْبَرا
حَتَّى تَقُومَ قَبْلَهُ دَجاجِلَهْ * كُلٌّ يَلُوذُ بِطَرِيقٍ باطِلَهْ
فَإِنْ رَأَيْتَ رَجُلاً يَطِيرُ * أَوْ فَوْقَ ماءِ البَحْرِ يَسِيرُ
ولَمْ يَقِفْ عِنْدِ حُدودِ الشَّرْعِ * فَإِنَّهُ مُسْتَدْرَجٌ ومِبْدِعِي

وعَلَى فَتَراتٍ مُتَقارِبَةِ الأَزْمانِ .. يَحْرِصُ الإِعْلامُ عَلَى إِظْهارِ أَخْبارِ هَؤُلاءِ الدَّجاجِلَةِ والأَدْعِياءِ بُغْيَةَ التَّرْسِيخِ فِي أَذْهانِ النَّاسِ ؛ أَنَّ المَهْدِيَّ دَرْبٌ مِنَ الخَيالِ ، أَو لَوْنٌ مِنَ الخَبالِ .

وسَواءٌ أَكانَ ظُهُورُ بَعْضِ هَؤُلاءِ الأَدْعِياءِ بِصُنْعِ أَيْدٍ مُغْرِضَةٍ تَعْبَثُ فِي الخَفاءِ ، أَمْ مُعْظَمُهُ إِفْرازٌ مَواكِبٌ لِقَضاءِ الأَقْدارِ .. فالواجِبُ عَلَيْنا أَلَّا نَغْتَرَّ بِثَقافَةِ بَعْضِ الأَدْعِياءِ أَو ادِّعائِهِمْ النُّسُكَ والعِبادَةَ والزُّهْدَ والوَرَعَ ، فَكَمْ مِنْ إِنْسانٍ أَضَلَّهُ اللهُ مِن بَعْدِ عِلْمٍ آتاهُ إِيَّاه :

---

(١) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) والإِمامُ (أَحْمَد) .
(٢) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) و (مُسْلِمٌ) وغَيْرُهُما .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١) .

وَمَسْأَلَةُ المَهْدِيِّ قَضِيَّةُ إيمانٍ بِغَيْبٍ ، وإنَّما يُسْتَنَدُ فِى الغَيْبِيَّاتِ إلَى النَّصِّ الشَّرْعِيِّ وَحْدَهُ ، دُونَ زِيادَةٍ عَلَيْهِ ، فَلا مَجالَ لِلاجْتِهادِ وإعْمالِ العَقْلِ إلَّا مِنْ حَيْثُ إثْباتُ النَّصِّ وفَهْمُ مَضْمُونِهِ ، وأُولَئِكَ الَّذينَ خاضُوا لُجَّةَ الأَمْرِ بِما لا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إنَّما يَتَجَرَّءُونَ عَلَى الغَيْبِ ، ويَتَأَلَّهُونَ عَلَى اللهِ .

تَراءَى لَهُم الشَّيْطانُ فَأَضَلَّهُم ، وشَغَلَهُم عَمَّا اسْتَخْلَفَهُم اللهُ فِيهِ ، وخُلِقُوا لَهُ ، وكُلِّفُوا بِهِ ، مِنْ إقامَةِ حُدودِ اللهِ وشَرْعِه .

وكَما لا يُعْذَرُ المُجْتَرِيءُ عَلَى الغَيْبِ بِجَهْلٍ ، فَإنَّهُ لا يَنْفَعُ فِى ذَلِكَ حُسْنُ النِّيَّةِ ولا سَلامَةُ الطَّوِيَّةِ ، فَكَمْ أُورِدَ النَّاسُ المَهالِكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

وأَوْلَى بِالمُسْلِمِ أَنْ يُؤْمِنَ بِـ (المَهْدِيِّ) عَلَى ما أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ يَصْرِفَ نَفْسَهُ إلَى ما يَهُمُّهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ ، مِنْ عِباداتٍ ومُعامَلاتٍ ، وأَخْلاقٍ وتَزْكِيَة .

أَمَّا عَنِ الخُطُورَةِ الكامِنَةِ فِى تِلْكَ الاعْتِقاداتِ الباطِلَةِ حَوْلَ (المَهْدِيِّ) فَهِىَ فِى مُخالَفَتِها لِصَرِيحِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، واعْتِمادِها عَلَى الدَّجَلِ والشَّعْوَذَةِ والادِّعاءِ الغَيْبِ ، كَما أَنَّها تُؤَدِّي إلَى التَّهاوُنِ فِى شَعائِرِ الإسْلامِ ، وقَدْ جَرَّتِ الأُمَّةَ الإسْلامِيَّةَ إلَى حَوادِثَ وفِتَنٍ ، وفُرْقَةٍ وتَمَزُّقٍ ، وتَخَلُّفٍ وجَهْلٍ ، وكانَتْ عامِلاً أَساسِيًّا فِى ضَعْفِ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ فِى كَثِيرٍ مِنْ مَراحِلِها عَبْرَ التَّارِيخ .. وأَضْرِبُ لَكَ مَثَلاً بِكَثِيرٍ مِنْ فِرَقِ الشِّيعَةِ الَّتى تَنْتَظِرُ إمامَها المَعْصُومَ المُخْتَفِىَ

---

(١) سُورَةُ الجاثية (الآية ٢٣) .
(٢) سُورَةُ الكَهْفُ (الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤) .
(٣) سُورَةُ القصص (الآية ٥) .

بزَعْمِهِمْ ، فَقَدْ بَدَّلَتْ هَذهِ الفِرَقُ وحَرَّفَتْ ، وتَرَكَتِ الجُمُعَةَ والجَماعَةَ فِي انْتِظارِ ذَلِكَ المَوْهُومِ الَّذي قالَ فِيهِ قائِلُهُم :

أَلا إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ * وُلاةَ الحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَواءُ
عَلِيٌّ والثَّلاثَةُ مِنْ بَنِيهِ * هُمُ الأَسْباطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمانٍ وبِرٍّ * وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وسِبْطٌ لا يَذوقُ المَوْتَ حَتَّى * يَقُودُ الخَيْلَ يَقْدُمُها اللِّواءُ
تَغَيَّبَ لا يُرَى فِيهِمْ زَماناً * بِـ (رَضْوَى) عِنْدَهُ عَسَلٌ وماءُ

وقَدِادَّعَى المَهْدِيَّةَ عَبْرَ التَّارِيخِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَما كانَ حَظُّهُم فِي الدُّنْيا إِلاَّ أَنْ أُدْرِجُوا فِي قَوائِمَ الكَذَبَةِ والدَّجَّالِينَ والمَرْضَى ، فَضْلاً عَمَّا سَيَلْقَوْنَ عِنْدَ اللهِ كَما ادُّعِيَتِ المَهْدِيَّةُ لِقَوْمٍ ما قالُوا بِها ، ولا ادَّعَوها لأَنْفُسِهِمْ .

فَمِنْ أَشْهَرِ مَنِ ادَّعَى المَهْدِيَّةَ : ابْنُ تومرت الغَوِيُّ المَذْمُومُ ، الَّذي سَمَّى نَفْسَهُ (المَهْدِيَّ المَعْصُومَ) ، وكانَ ظالِماً كَذَّاباً ، وعُبَيْدُاللهِ بنُ مَيْمُون القَدَّاحُ المُلْحِدُ ، ومُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِاللهِ القَحْطانِيُّ الَّذي اسْتَباحَ الحَرَمَ المَكِّيَّ ، وحَوَّلَهُ إِلَى ساحَةِ قِتالٍ فِي مُستَهَلِّ سَنَةَ ١٤٠٠ هـ ، وقَدْ قُتِلَ أَثْناءَ المَعْرَكَةِ .

ومِمَّنِ ادُّعِيَتْ لَهُ المَهْدِيَّةُ ، وهُوَ بَرِيءٌ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى :

الإِمامُ مُحَمَّد بنُ عَلِيِّ بن أَبِي طالِبٍ ، المَشْهُورُ بِابْنِ الحَنَفِيَّةِ ، وهُوَ أَخُو الإِمامَيْنِ الحَسَنِ والحُسَيْنِ رضي الله عنهم جَمِيعاً ، وكانَ وَرِعاً عالِماً فاضِلاً ، ادَّعَى لَهُ المَهْدِيَّةَ المُخْتارُ بنُ أَبِي عُبَيْد .. وقَد تَبَرَّأَ ابْنُ الحَنَفِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ ، وقَدْ زَعَمَتْ بَعْضُ فِرَقِ الشِّيعَةِ أَنَّهُ مازالَ حَيّاً بِجَبَلِ رَضْوَى ، عِنْدَهُ عَسَلٌ وماءٌ وأَنَّهُ سَيَرْجِعُ .

وكَذَلِكَ ادُّعِيَتِ المَهْدِيَّةُ لِمُحَمَّد بنِ عَبْدِاللهِ ابنِ الإِمامِ الحَسَنِ المَشْهُورِ بِـ (النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ) المَقْتُولِ ظُلْماً .

وادَّعَتِ الشِّيعَةُ الإِماميَّةُ أَنَّ المَهْدِيَّ هُوَ مُحَمَّد بنُ الحَسَنِ العَسْكَرِي ، وزَعَمُوا أَنَّهُ اخْتَفَى يَوْماً مِنْ أَعْوانِهِ فِي سِرْدابٍ فِي بَيْتِ أَبِيهِ بِـ (سامَرَّاء) ؛ وهَذا باطِلٌ لا

دَلِيلَ عَلَيْه .

وكَثِيرٌ غَيْرُ هَؤُلاءِ ادَّعوا المَهْدِيَّةَ أَو ادُّعِيَتْ لَهُم .

المَهْدِيُّ حَقٌّ . ، وقَدْ قَرُبَ زَمانُهُ وإِنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ :

إِنَّ المَهْدِيَّ يَخْتِمُ اللهُ تَعالَى بِهِ الدِّينَ كَما بَدَأَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، عَلَى ما ثَبُتَ فِي الأَحادِيثِ الكَثِيرَةِ الَّتي تَبْلُغُ حَدَّ التَّواتُر .

وإِنَّ المَهْدِيَّ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ ،وإِنَّهُ حَقٌّ ، وإِنْ لَمْ يأْتِ زَمانُهُ بَعْدُ ، وهَذا ما سَنَتَبَيَّنُهُ سَوِيًّا ،وبِهِ نَنْفِي عَنْ ذِكْرِهِ وقِصَّتِهِ ما لَحِقَ بِها مِنْ أَوْهامٍ وتَخْرِيفٍ ومَدْسُوساتٍ ، تَجْعَلُ حَقِيقَتَهُ الأَكِيدَةَ لَوْناً مِنْ خُزَعْبَلاتِ النَّاس .

والَّذي نَرْجُو أَنْ يكُونَ فِي الذِّهْنِ بادِئَ الأَمْرِ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ لا يَرَوْنَ أَنَّ قَضِيَّةَ الإِمامِ المَهْدِي (إِثْباتاً ، أَو نَفْياً ، أَو تَأْوِيلاً) مِنْ أُصُولِ العَقائِدِ ،وإِنْ كانَتْ مِنْ أَوْثَقِ أُمَّهاتِ الفُروعِ لا مَحالَة .

وهِيَ عِنْدَ إِخْوانِنا الشِّيعَةِ بِأَقْسامِهِمْ وطَوائِفِهِمْ أَصْلٌ لا يَتَجَزَّأُ مِنَ العَقِيدَةِ ، وهُوَ جانِبٌ لا يُصادِمُ الإِسْلامَ والتَّوْحِيدَ ، لا عَلَى العُمُومِ ولا عَلَى الخُصُوص .

والأَوْلَى أَنْ يُتْرَكَ الاخْتِيارُ فِيها لِما يُرَجَّحُ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ أَنَّهُ الصَّحِيحُ بِدَلِيلِهِ بِلا فِتْنَةٍ ، ولَكِنَّ الإِثْباتَ فِيما نَعْتَقِدُ زِيادَةُ يَقِينٍ ، وطَرِيقُ هُدًى واحْتِياطٍ ، ومَذْهَبُ شَرَفٍ ومَحَبَّةٍ ، وإِشْرافٌ وتَدْقِيقٌ ، وتَحَقُّقٌ وتَحْقِيقٌ ، وهُوَ أَدْنَى إِلَى الصَّوابِ قَطْعاً إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ عَيْنُ الصَّوابِ فِعْلاً ، كَما سَيَتَبَيَّنُ بَعْدُ إِنْ شاءَ اللهُ .

المَهْدِيُّ وبَعْضُ عَلاماتِ السَّاعَة :

وقَدِ اتَّفَقَتِ الأُمَّةُ عَلَى أَنَّ لِلسَّاعَةِ عَلاماتٌ صُغْرَى تَعْقِبُها عَلاماتٌ كُبْرَى .

فَمِنَ الصُّغْرَى : ما أَخْرَجَهُ (التِّرْمِذِيُّ) فِي سُنَنِهِ ، و(الطَّبَرانِيُّ) فِي الأَوْسَطِ والكَبِيرِ ؛ عَنِ الإِمامِ (عَلِيٍّ) كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، عَنْ (رَسُولِ اللهِ) ﷺ:

(إِذا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشَرَ خَصْلَةً حَلَّ بِها البَلاءُ) فَقِيلَ : وما هُنَّ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : (إِذا كانَ المَغْنَمُ دُوَلاً ، والأَمانَةُ مَغْنَماً ، والزَّكاةُ مَغْرَماً ، وأَطاعَ

الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ ، وعَقَّ أُمَّهُ ، وبَرَّ صَدِيقَهُ ، وجَفا أَباهُ ، وارْتَفَعَتِ الأَصْواتُ فِى المَساجِدِ ، وكانَ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْزَلَهُمْ ، وأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخافَةَ شَرِّهِ ، وشُرِبَتِ الخُمُورُ ، ولُبِسَ الحَرِيرُ ، واتُّخِذَتِ القِيناتُ(١) والمَعازِفُ ، ولَعَنَ آخِرُ الأُمَّةِ أَوَّلَها ، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحاً حَمْراءَ أَو خَسْفاً ومَسْخاً) .

ومِنْها : زِيادَةُ عَدَدِ النِّساءِ عَنِ الرِّجالِ ، وكَثْرَةُ الزَّلازِلِ ، وقِتالُ اليَهُودِ ... إلخ .

ومِنْها : ما فِى مُسْلِمٍ وغَيْرِهِ أَيْضاً : (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها ، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ فِى البُنْيانِ) (٢).

ومِنْها : أَنْ (يَتَحَدَّثَ الرُّوَيْبِضَةُ)(٣) أَي : الجاهِلُ التَّافِهُ ، ويُسْنَدُ الأَمْرُ لِغَيْرِ أَهلِهِ .. إلخ .

ومِنْها : ما رَواهُ أَبو العالِيَةِ : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمْشِي إِبْلِيسُ فِى الأَسْواقِ يَقُولُ : حَدَّثَنِى فُلانٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ بِكَذا وكَذا افْتِراءً وكَذِباً) (٤).

قُلْنا : وهُوَ شَأْنُ الوَضَّاعِينَ مِنْ قَبْلُ ، وتُجَّارِ الفَتاوَى وأَكْثَرِ دُعاةِ الفَضائِيَّاتِ ، والمُخَرِّبُونَ لِلأُمَّةِ بِأَنْواعِهِمْ اليَوْمَ .

ومِنْها : ما وَرَدَ ثابِتاً مِنَ انْتِشارِ الفَسادِ الخُلُقِي والانْحِلالِ ، حَتَّى لَيَرَى النَّاسُ الرَّجُلَ يُباضِعُ المَرْأَةَ عَلَى قارِعَةِ الطَّرِيقِ ، فَيَكُونُ أَشَدُّهُم تَدَيُّناً مَنْ يَقُولُ لَهُ : (هَلاَّ نَحَّيْتَها)(٥) ، وهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِما نَراهُ مِنَ المَواقِفِ الجِنْسِيَّةِ فِى السِّينِما والتِّلِيفْزِيون والمَسارِحِ ، وحَسْبُكَ ما يَحْدُثُ فِى مُزْدَحَمِ المُواصَلاتِ وأَماكِنِ التَّجَمُّعاتِ والمُنْتَزَهات .

ونَحْوُ ذَلِكَ مِنْ (عَلاماتِ السَّاعَةِ الصُّغْرى) إِلَى آخِرِ ما ذَكَرَهُ المُحَدِّثُونَ فِى هَذا الباب .

وها نَحْنُ أُولاءُ فِى عَصْرِنا هَذا ، نَكادُ نَرَى ذَلِكَ كُلَّهُ واقِعاً مَحْسُوساً بِالتَّفْصِيلِ ،

---

(١) القينات : المُغَنِّيات .

(٢) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) ، وهُوَ ثانِي الأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّة .

(٣) أَخْرَجَهُ الإِمامُ (أَحْمَدُ) فِى مُسْنَدِهِ ، وابْنُ ماجَه

(٤) أَي الرَّجُل الفاسِدُ المُضِلُّ .

(٥) أَخْرَجَهُ (الحاكِمُ) فِى المُسْتَدْرَك .

بَلْ وما هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وأَنْكَدُ ، بَلْ نَرَى مالَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لِمُسْلِمٍ عَلَى بال .

وقَدِ اعْتَبَرَ صاحِبُ (المَشارِقِ) شُرْبَ الدُّخانِ مِنْ عَلاماتِ القِيامَةِ ، وقَدْ أَثْبَتَ الطِّبُّ خُطُورَتَهُ المُدَمِّرَةَ لِلإِنْسان .

نَقُولُ : فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ (الشِّيشَةَ ، والجُوزَةَ ، والبايِبَ) ثُمَّ مَباذِلَ الرَّادْيو ، والتِّلِيفْزيونِ ، والسِّينِما ، والمَسْرَحِ ، وأَنْدِيَةَ الرَّقْصِ ، والكَبارِيهاتِ ، واللَّيالِيَ الحَمْراءَ ، والمَوائِدَ الخَضْراءَ ، ومَتالِفَ المَصايِفِ ، وخَبائِثَ المُواصَلاتِ ، ولُؤْمَ المُعامَلاتِ ، ونِساءَنا المُتْرَفاتِ ، وشَبابَنا المُخَنَّثَ ، وتَعاطِيَ الحَشِيشِ ، والمارْجِوانا ، والبانْجو ، والمَعاجِينَ ، والمَشْمُوماتِ ، والكُوكايِينَ ، والهُورِوينَ ، والحُقَنَ المُخَدِّرَةَ ، وكُلَّها مِنْ عَلاماتِ السَّاعَةِ الصُّغْرى .

وقَدِ اخْتُلِفَ فِي ظُهُورِ المَهْدِي ، هَلْ هُوَ مِنَ العَلاماتِ الصُّغْرَى أَوِ الكُبْرَى ؟ ، والأَمْثَلُ عِنْدَنا أَنَّهُ مِنَ العَلاماتِ الكُبْرَى ، واللهُ أَعْلَم .

تَبْيِين .. وتَعْيِين .. مِمَّا جاءَ عَنِ الإِمامِ المَهْدِي :

نَقَلَ المُناوِي فِي (الجَواهِرِ) : عَنْ مُقاتِلِ بنِ سُلَيْمانَ وغَيْرِهِ مِنَ المُفَسِّرِينَ : أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ، راجِعٌ إِلَى الإِمامِ المَهْدِي[1] وفِي حَدِيثِ التِّرْمِذِي ، وأَبِي داوُدَ ، وأَحْمَدَ : (يُواطِيءُ اسْمُهُ اسْمِي ، واسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي)[2] أَيْ أَنَّ اسْمَهُ مُحَمَّد ، وقِيلَ : أَحْمَد ، واسْمَ أَبِيهِ : عَبْدُاللهِ ، وكُنْيَتَهُ : أَبو عَبْدالله ، كَما رَواهُ أَبُو نُعَيْم .

قالَ الشَّيْخُ إِبرْاهِيمُ الخَلِيلُ بنُ عَلِي الشَّاذُلِي :

(لَيْسَ بِالضَّرورَةِ أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ مُحَمَّد ، واسْمُ أَبِيهِ عَبْدالله ، بَلْ يَكْفِي فِي تَحْقِيقِ الخَبَرِ أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ أَحَدَ أَسْماءِ النَّبِيِّ ﷺ ، وهِيَ كَثِيرَةٌ ، ويَكْفِي أَنْ يَكُونَ اسْمُ أَبِيهِ فِيهِ مَعْنَى العُبُودِيَّةِ لِلهِ عَزَّوجَلَّ) .

---

(١) وذَكَرَهُ الشِّبْلَنْجِي فِي (نُورِ الأَبْصارِ)

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِي ، وأَبوداوِد ، وأَحْمَدُ : مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ ، واسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي ، ووَرَدَ بِها فِي رِوايَةِ ابْنِ حَبَّان (بِتَرْتِيبِ ابْنِ بَلْبان) ، والطَّبَرانِي فِي الكبير .

وقالَ الشَّيْخُ (مُحَمَّد زَكي إبْراهِيم) مُعَقِّباً عَلَيْه :

(وهُوَ تَوْجِيهٌ فِيهِ مَعْقُولِيَّةٌ ، وطَلاقَةٌ ، واقْتِرابٌ مِنَ الواقِعِ ، وقَدْ ذَكَرَ القاضِي عِياضُ فِى الشِّفا أَنَّ كُنْيَتَهُ أَبو القاسِمْ ، ولَمْ يَذْكُرْ لِذَلِكَ سَنَداً ، ولَقَبُهُ المَشْهُورُ المَهْدِيُّ) .

وفِى مَجْمُوعِ رِواياتِ (أَحْمَد ، وأَبِي داوُد ، والتِّرْمِذِي ، وابْنِ ماجَه ، والحاكِم والطَّبَرانِي ، وغَيْرِهِمْ) : أَنَّ المَهْدِيَّ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، جَدُّهُ الحُسَيْنُ لأَبِيهِ ، قِيلَ والحَسَنُ لأُمِّهِ (أَو العَكْس) ، ويَكُونُ قَرِيبَ الشَّبَهِ مِنْ سَيِّدِنا الرَّسُولِ ﷺ صُورَةً وقَوْلاً ، وعَمَلاً وخُلُقاً ، كَما يُشْبِهُ اسْمُهُ اسْمَ مَوْلانا المُصْطَفَى ﷺ ، وكَذَلِكَ اسْمُ أَبِيهِ .

قالوا : وهُوَ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ ، ولا يَدْعُو إِلَى مَهْدِيَّتِهِ ، وإِنَّما يَخْتارُهُ اللّهُ ، فَتَخْتارُهُ النَّاسُ فَجْأَةً : لِشُعُورِهِمْ بِالحاجَةِ الحاكِمَةِ إِلَيْهِ ، فَقَدْ يَكُونُ مِنْ عامَّةِ النَّاسِ ، أَوْ يَكُونُ مِنَ الحُكَّامِ ، أَو مِنَ العُلَماءِ ، ويُتِمُّ اللّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةَ القِيادَةِ والسِّيادَةِ ، مَعَ الوِلايَةِ والكِفايَةِ المُطْلَقَةِ ، ولِذَلِكَ جاءَ أَنَّهُم يُبايِعُونَهُ وهُوَ كارِهٌ ، يَهْرَبُ مِنْهُم مَرَّةً ومَرَّةً ، خِلافاً للإِمامِيَّةِ فِى هَذا الوَجْهِ فَشَخْصِيَّةُ المَهْدِيِّ عِنْدَهُمْ مَعْروفَة .

وفِى الحَدِيثِ : (المَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ يُصْلِحُهُ اللّهُ فِى لَيْلَة)[1] ، فَرُبَّما كانَ كَما قَدَّمْنا رَجُلاً مَجْهُولاً أَو مَعْلُوماً ، لا يُرْجَى لِهَذِهِ الرُّتْبَةِ ؛ فَإِذا بِهِ هُوَ هُوَ !!

قالوا : ويَكُونُ خُروجُهُ فِى وِتْرٍ مِنَ السِّنِينَ (أَي العَرَبِيَّة) .

وقالوا : رُبَّما ظَهَرَ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ هِجْرِيٍّ ، أَو فِى يَوْمِ عاشُوراء ، ويَكُونُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَعِنْدَ أَبِي نُعَيْم مِنْ حَدِيثِ أَبي أُمامَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً :

(المَهْدِيُّ مِنْ وَلَدي ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً) .

ثُمَّ يَكادُ يُجْمِعُ النَّاسُ عَلَى تَبَعِيَّتِهِ يَوْمَئِذٍ ، ويُؤَيِّدُهُ اللّهُ تَعالَى بِالأَوْلِياءِ الصَّالِحِينَ مِنَ الحُكَّامِ والمَحْكُومِينَ ، كَما يُؤَيِّدُهُ اللّهُ مَعْنَوِيّاً بِالمَلائِكَةِ ، وِراثَةً

---

(١) أَخْرَجَهُ (أَحْمَدُ) ، و(ابْنُ ماجَه) ، و(ابْنُ أَبي شَيْبَة) ، و(نَعِيمُ بنُ حَمَّاد) ، وغَيْرُهُم ...ومَعْنَى إِصْلاحِ اللّهِ لَهُ : أَي تَهْيِئَتُهُ لِلْقِيامِ بِأَعْمالِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَة .

عَنْ جَدِّهِ المُصْطَفى ﷺ ، وأَكْثَرُ ما تَكُونُ مَلاحِمُهُ وحُروبُهُ مَعَ اليَهُودِ بِالقُدْسِ ، حَتَّى إذا ماتَ عليه السلام دُفِنَ هُناك .

هَذا هُوَ مُلَخَّصُ أَهَمِّ ما فِى قَضِيَّةِ الإمامِ المَهْدِيِّ عِنْدَ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ ، عَلَى خِلافٍ يَسِيرٍ مَعَ الإمامِيَّةِ ، عَلَى عَكْسِ غُلاةِ الشِّيعَةِ والمُتَعَصِّبِينَ مِنْ فِرَقِهِمْ المُخْتَلِفَةِ ، وسَنُفَصِّلُ بَعْضَ ذَلِكَ فِيما يَأْتِي إنْ شاءَ الله .

تَنْوِيه .. وتَنْبِيه :

وقَدْ أَوْرَدَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ أَخْباراً عَنِ (المَهْدِيِّ) كُلُّها مَوْضِعَ نَظَر .. وقَدْ حَكَمَ بَعْضُهُم عَلَيْها بِالوَضْعِ والكَذِبِ ، أَو الإنْكارِ والوَهاءِ ، وكُلُّها أَخْبارٌ هامِشِيَّةٌ ، لا تَرْتَبِطُ بِصُلْبِ القَضِيَّةِ ، كالقَوْلِ بِأَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ مِنْ بَعْضِ جِبالِ الشَّامِ التَّوْراةَ الصَّحِيحَةَ ، أَو أَنَّ مَوْلِدَهُ فِى كَذا ، ومَهْجَرَهُ فِى كَذا ، ومَلْبَسَهُ كَذا ، ومُدَّةَ حُكْمِهِ كَذا ، وصاحِبَ رايَتِهِ ، واسْمَهُ ، وصِفَتَهُ ؛ فَفِي ذَلِكَ جَمِيعاً تَنْظِيرٌ ، وتَحْقِيقٌ ، وسَطْحِيَّةٌ ، وتَعْرِيفٌ بِمَنْ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ ، لِأَنَّ المُؤَكَّدَ مِنَ الحَدِيثِ الثَّابِتِ أَنَّ اللهَ يُدَبِّرُهُ أَو (يُصْلِحُهُ فِى لَيْلَة) أَي : لَيْسَتْ لَهُ سَوابِقُ إرْهاصاتٍ ، ولا دَلائِلَ ، ولا مُقَدِّماتٍ شَخْصِيَّةٍ ، إنَّما هِىَ مُقَدِّماتٌ وعَلاماتٌ زَمَنِيَّةٌ وأَخْلاقِيَّةٌ ، لا غَيْر .

ومِنْ هَذا القَبِيل : قَصَصُ القَبائِلِ والبُعُوثِ الَّتي تَأْتِيهِ ، فِى صُوَرٍ خَيالِيَّةٍ بِدائِيَّةٍ ، لا تَرْتَبِطُ (عَلَى الإطْلاقِ) بِواقِعِ العَصْرِ المُقْبِلِ ، بِكُلِّ ما فيهِ مِنْ حَضاراتٍ وعُلُومٍ وتَقَدُّمٍ أَكْثَرَ مِنْ هائِلٍ وعَظِيم .

ومِنَ الهامِشِيَّاتِ والسَّطْحِيَّاتِ والمُبالَغاتِ الَّتى أُضِيفَتْ إلَى قَضِيَّةِ (المَهْدِي) أَنْ يَكُونَ مَعَهُ قَمِيصُ الرَّسُولِ ﷺ ورايَتُهُ ، ونُزُولُ (إيلْياء) ، وشُعَيْبَ بنَ صالِحٍ التَّمِيمي ، مِمَّا جَعَلَ بَعْضُ السَّلَفِ يَرْفُضُونَ الخَبَرَ كُلَّهُ ، رَغْمَ ما فِى مَوْضُوعِهِ مِنْ صِحَّةٍ أَكِيدَةٍ ، بِسَبَبِ هَذِهِ المَدْسُوسات .

أَمَّا الاحْتِجاجُ بِأَنَّ بَعْضَ كِبارِ المُحَدِّثِينَ ذَكَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ أَهْلَ الفَنِّ والتَّحْقِيقِ تَتَبَّعُوهُ ، وكَشَفُوا ما بِهِ مِنْ عِلَلٍ فَنِيَّةٍ وعِلْمِيَّةٍ ، لَمْ يَأْبَهْ لَها الرُّواةُ ، أَو

فاتَتْهُمْ مِنْ قَبْلُ ، لِسببٍ أو لآخَر .

الإمامُ المَهْدِيُّ عليه السلام حَقٌّ ثابت :

والَّذي نَعْتَقِدُهُ أنَّ (المَهْدِيَّ) حَقٌّ ، وأنَّهُ سَيأْتِي لِيُصْلِحَ ما أفْسَدَ المُسْلِمُونَ خاصَّةً ، والنَّاسُ عامَّةً ، والعَرَبُ بِصِفَةٍ أخَصَّ ، وأنَّ هذا يَقْتَضِي أنْ يكُونَ مُسْتَوْعِباً لِلْحَياةِ ، وتَقَدُّمِ الحَضاراتِ ، والعُلُومِ المُخْتَلِفاتِ ، والمُخْتَرَعاتِ والمُبْتَكَراتِ ، وغَيْرِ ذلِكَ مِنْ ضَرورِيَّاتِ الحاكِمِ الواعِي المُتَفَتِّحِ فِي عَصْرِ الفَضاءِ والذَّرَّةِ والتِّكْنُولُوجْيا المُذْهِلَة .

أمَّا أنْ يكُونَ (المَهْدِيُّ) بَدَوِيّاً مُتْرَفاً ، يَخْرُجُ بِقَبِيلَتِهِ مِنْ جَوْفِ الصَّحَراءِ ، لِيُغَيِّروا فَسادَ الأرْضِ بِالرُّمْحِ والنَّشَّابِ ، والقَوْسِ وسِهامِ الخَشَبِ والخِنْجَرِ اليَمَنِي فَذلِكَ مالا يَقُولُ بِهِ عاقِلٌ فِي المَشارِقِ والمَغارِبِ ، وهَلْ بِهذا تُدْفَعُ الأَلْغامُ والصَّواريخُ وأَسْلِحَةُ الكِيمْياءِ والأَوْبِئَةُ الذَّرِيَّة ؟!! .

خُروجُ المَهْدِي .. حَتْمٌ عَقْلِي :

وخُروجُ المَهْدِيِّ أمْرٌ يَقْبَلُهُ العَقْلُ بِالإضافَةِ إلَى النَّقْلِ ، فَنَحْنُ نَرَى ما وَصَلَ إلَيْهِ العَرَبُ والمُسْلِمُونَ مِنْ ذِلَّةٍ وهَوانٍ واسْتِعمارٍ عَصْرِيٍّ ورُخْصٍ ، حَتَّى لَقَدِ اسْتَدْعَوا الأُوروبِيِّينَ لِيَحْتَلُّوا أراضِيهِمْ ، بَلْ نُعْطِيهِمْ القَواعِدَ العَسْكَرِيَّةَ فِي أرْضِنا ، ونَتَحَمَّلُ مَصارِيفَها وتَبِعاتِها المادِيَّةَ والأَدَبِيَّةَ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِاللّه .

هَذهِ المَهانَةُ والإذْلالُ ، والتَّعادِي والتَّمَزُّقُ والتَّواكبُ عَلَى السِّيادَةِ ، والغَلَبَةُ والتَّحَكُّمُ فِي الآخَرِينَ ، سَوْفَ يُحْيِي فِيهِمْ يَوْماً نَخْوَةَ العُروبَةِ وغَيْرَةَ الإسْلامِ ؛ فَيَجْتَمِعُونَ لِيُدافِعُوا عَنِ البَقِيَّةِ الباقِيَةِ لَهُمْ مِنَ الكَرامَةِ ، وسَوْفَ لا يَرْضَوْنَ بِإمارَةِ أحَدِهِمْ عَلَيْهِمْ كَعادَتِهِمْ ، فَيَخْتارونَ رَجُلاً بَعِيداً عَنْ مَجالاتِهِمْ ، تَتَجَمَّعُ فِيهِ مَعالِمُ القِيادَةِ والسِّيادَةِ ومَطالِبُ المُعاصَرَة .

وسَيَكُونُ هُوَ (المَهْدِيُّ) إنْ شاءَ اللّهُ ، ولَكِنْ لَمْ يَأْتِ زَمانُهُ بَعْدُ ، وهُوَ يَوْمٌ يَغْلِبُ الإحْباطَ واليَأْسَ ، والذُّلَّ والهَوانَ ، والتَّعاسَةَ والعُبُودِيَّةَ ، والانْحِلالَ الدَّائِمَ فِي

أَرْضِ العُروبَةِ والإِسْلام .

المَهْدِيُّ عَلَى الحَقِيقَة :

نُرَجِّحُ هَذا ، ونَراهُ أَمْراً طَبِيعِيّاً جِدّاً ، وحَقِيقَةً حَتْمِيَّةً مِنْ حَقائِقِ الحَياةِ المَوْضُوعِيَّةِ ، وكُلُّ ذَلِكَ لا يَمْنَعُ هَذا القائِدَ المُتَفَتِّحَ ، والمَوْعُودَ المُنْتَظَرَ ، المُثَقَّفَ ، العَلِيمَ ، الإِدارِيَّ ، المُحارِبَ ، السِّياسِيَّ ، المُعَظَّمَ ، أَنْ يَكُونَ قِمَّةَ (أَوْلِياءِ اللّهِ) ، وصاحِبَ لِوائِهِمْ ، وأَنْ يُؤَيِّدَهُ اللّهُ بِالكَراماتِ العَظِيمَةِ ، والخَوارِقِ الَّتي تُبْهِرُ العُقُولَ ، جَمْعاً بَيْنَ واقِعِ الغَيْبِ والشَّهادَة .

فَلَيْسَ الوَلِيُّ هُوَ الأَبْلَهُ المَأْخُوذُ البَعِيدُ عَنْ مُسْتَجَدَّاتِ الحَياةِ ، ومُتَغَيِّراتِ الأَزْمانِ إِنَّما الوَلِيُّ هُوَ وارِثُ الحَضْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، بِكُلِّ خَصائِصِها البَشَرِيَّةِ والرُّوحِيَّةِ ، وبِكُلِّ أَلْوانِها ومُلابَساتِها ، ومُقْتَضَياتِ عَصْرِها ، خُصُوصاً وعُمُوماً ، وحِسّاً ومَعْنًى ، وظاهِراً وباطِناً ، واللّهُ يُعَلِّمُهُ مالَمْ يَكُنْ يَعْلَم .

العِصابَةُ المُقاتِلَةُ عَلَى أَبْوابِ بَيْتِ المَقْدِس :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ :(لا تَزالُ عِصابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقاتِلُونَ عَلَى أَبْوابِ دِمَشْقَ ، وما حَوْلَهُ ، وعَلَى أَبْوابِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وما حَوْلَهُ ، لا يُضُرُّهُمْ خُذْلانَ مَنْ خَذَلَهُمْ ، ظاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَة)[1] .

وعَنْ أَبِي أُمامَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ :(لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظاهِرِينَ ، لِعَدُوِّهِمْ قاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خالَفَهُمْ ، إِلاَّ ما أَصابَهُم مِنْ لأْواءٍ ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللّهِ وهُمْ كَذَلِكَ) ، قالُوا : يارَسُولَ اللّه ! وأَيْنَ هُمْ ؟ قالَ ﷺ : (بِبَيْتِ المَقْدِسِ ، وأَكْنافِ بَيْتِ المَقْدِس)[2] .

وفِي الأَحادِيثِ الثَّابِتَةِ ورِواياتِ هَذهِ العِصابَةِ ، أَو الطَّائِفَةِ المُؤْمِنَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الحَقِّ وأَوْصافِها جاءَتْ أَلْفاظٌ شَتَّى ، ولَكِنَّ المَعْنَى واحِدٌ ، وهِيَ مَبْثُوثَةٌ فِي كُلِّ كُتُبِ الحَدِيثِ الشَّرِيف .

---

(١) أَخْرَجَهُ (الطَّبراني) فِي الأَوْسَطِ ، وقالَ (الهَيْثَمِي) فِي مَجْمَعِ الزَّوائِد : رَواهُ أَبو يَعْلَى ورِجالُهُ ثِقات .

(٢) أَخْرَجَهُ (أَحْمَد) ، وعِنْدَ (البُخاري) : قالَ مُعاذُ : وهُمْ بِالشَّام .

وقَدْ بَشَّرَنا النَّبِيُّ ﷺ بِإبادَةِ اليَهُودِ يَوْمَ نَكُونُ أَهْلاً لِذَلِكَ :

(لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقاتِلُوا اليَهُودَ ، حَتَّى يَقُولَ الحَجَرُ وَراءَهُ اليَهُودِي : يا مُسْلِمُ ! هَذا يَهُودِيٌّ وَرائِي فاقْتُلْهُ)[1] ....

ولَعَلَّها فِي مَلاحِمِ الإمامِ (المَهْدِي) إِنْ شاءَ اللّٰهُ ، أَو هِيَ قَبْلَهُ أَو بَعْدَهُ ، تُمَهِّدُ لَهُ أَو تَلْحَقُ بِهِ ، ولَعَلَّ ما يَجْرِي الآنَ هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى هَذا عَلَى ما يَعْلَمُ اللّٰه .

ونُطْقُ الحَجَرِ مَعْناهُ : أَنَّ اللّٰهَ سَيَكْشِفُ اليَهُودَ فَلا يَسْتُرُهُم شَيْءٌ ، ويَهْزِمُهُمْ فَلا يَنْصُرُهُمْ شَيْءٌ ، ولا قَنابِلُهُمْ الذَّرِيَّة .

ولَعَلَّ نُطْقَ الحَجَرِ إِشارَةٌ إِلَى أَجْهِزَةِ التَّنَصُّتِ الحَدِيثَةِ ، والَّتي تُخَبَّأُ فِي كُلِّ الأَماكِنِ لِصِغَرِ حَجْمِها ، وإِلَى أَجْهِزَةِ الاسْتِشْعارِ مِنْ بُعْدٍ ، ونَحْوِها مِنْ غَرائِبِ المُخْتَرَعاتِ ، ولَيْسَ هُناكَ ما يَمْنَعُ (عَقْلاً وشَرْعاً) أَنْ يَكُونَ نُطْقُ الحَجَرِ عَلَى حقِيقَتِهِ ؛ فاللّٰهُ تَعالَى قادِرٌ ؛ وقَدْ فَجَّرَ سُبْحانَهُ الماءَ مِنَ الأَحْجارِ ، وأَخْرَجَ ناقَةَ صالِحٍ عليه السلام مِنْ صَخْرَة !! .

إِمارَةُ المُؤْمِنِينَ ظاهِراً وباطِناً :

ويَقُولُ بَعْضُ العُلَماءِ مِنَ العارِفِينَ بِاللّٰه : إِنَّ سَيِّدَنا الإِمامَ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ رضي الله عنهما لَمَّا تَرَكَ الخِلافَةَ حَقْناً لِدِماءِ المُسْلِمِينَ ، وإِنَّ سَيِّدَنا الإِمامَ الحُسَيْنَ رضي الله عنه لَمَّا اسْتُشْهِدَ فِي هَذا السَّبِيلِ جَزاهُما اللّٰهُ بِأَنْ جَعَلَ مِنْ نَسْلِهِما مَعاً مَوْعُوداً مُبارَكاً يَحْكُمُ المُسْلِمِينَ فِي آخِرِ الزَّمان .

وهَكذا يَقُولُ الرَّبَّانِيُّونَ : إِنَّ الإِمامَ الحَسَنَ وَرِثَ الغَوْثِيَّةَ الرُّوحِيَّةَ العُظْمَى بَعْدَ أَبِيهِ كَرَّمَ اللّٰهُ وَجْهَهُ ، وأَبُوهُ وَرِثَها عَنْ مَوْلانا المُصْطَفَى ﷺ ، ثُمَّ وَرِثَها الإِمامُ الحُسَيْنُ مِنْ بَعْدِ الإِمامِ الحَسَنِ ، لِقاءَ ما لَقِيا مِنَ العَسْفِ ، وهَضْمِ حَقِّهِما فِي إِمارَةِ المُؤْمِنِينَ الظَّاهِرِيَّةِ ، وقَدْ بَقِيَتْ هَذِهِ فِي نَسْلِهِما تَدورُ فِيهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، فَهِيَ إِمارَةُ المُؤْمِنِينَ الرُّوحِيَّةُ ، والخِلافَةُ الباطِنِيَّةُ الخالِدَةُ ، الَّتي لا تَنْبَغِي لِأَحَدٍ

---

(١) أَخْرَجَهُ (البُخاري) ، و(مُسْلِمٌ) ، و(التِّرْمِذي) .

غَيْرُهُم ، جَزاءَ تَرْكِهِمْ الإمارَةَ الظَّاهِرِيَّةَ المُغْتَصَبَةَ مِنْهُم وإنْ كانَ هَذا الكَلامُ لا يُعْجِبُ بَعْضُ أَدْعِياءِ السَّلَفِيَّةِ ، فَهُوَ قَطْعِيٌّ مَعْقُولٌ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وأَوْلِياءِ اللّهِ ، وخُصُوصاً فِي مَقاماتِ الكَشْفِ والشُّهُودِ ولحَظاتِ التَّجَلِّي الأَعْظَم .

أَمَّا القُطْبانِيَّةُ بِمَراتِبِها فَإنَّها فِيهم وفِي أَتْقِياءِ المُسْلِمينَ جَمِيعاً ، بِاعْتِبارِهِمْ جُنُودُهُمْ ودُعاتُهُم والمُمَهِّدونَ لَهُمْ ، والعامِلُونَ مَعَهُم ، وهُمْ السَّادَةُ النُّورانِيُّونَ المُمَهِّدونَ لِلْمَهْدِي عليه السلام .

بَعْضُ أَحادِيثِ ظُهُورِ المَهْدِي :

• أَخْرَجَ الحاكِمُ فِي المُسْتَدْرَك (٤ / ٤٥٦) قالَ ﷺ : (يَحِلُّ بِأُمَّتِي بَلاءٌ شَديدٌ مِنْ سُلْطانِهِمْ ،[1] لَمْ يُسْمَعْ بِبلاءٍ أَشَدَّ مِنْهُ ، حَتَّى لا يَجِدَ الرَّجُلُ مَلْجَأً ، فَيَبْعَثُ اللّهُ رَجُلاً مِنْ عِتْرَتِي ـ أَهْلِ بَيْتِي ـ يَمْلَأُ الأَرْضَ قِسْطاً وعَدْلاً ، كَما مُلِئَتْ ظُلْماً وجَوْراً ، يُحِبُّهُ ساكِنُ الأَرْضِ ، وساكِنُ السَّماءِ ، وتُرْسِلُ السَّماءُ قَطْرَها ، وتُخْرِجُ الأَرْضُ نَباتَها ، لا يُمْسِكْنَ شَيْئاً ، يَعِيشُ فِيهم سَبْعَ سِنينَ ، أَو ثَمانِيةً ، أَو تِسْعاً) .

• وأَخْرَجَ أَحْمَدُ ، وأَبو داوُدَ ، والتِّرْمِذِيُّ ، وابْنُ ماجَه ، قالَ ﷺ : (لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ يَوْمٌ لَبَعَثَ اللّهُ فِيهِ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، .. يَمْلَؤُها عَدْلاً كَما مُلِئَتْ جَوْراً)[2] .

• وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ ، والبَزَّارُ عَنْ قُرَّةَ بنِ إياسٍ المُزْنِي رضي الله عنه : (لَتُمْلأَنَّ الأَرْضُ جَوْراً وظُلْماً ، فَإذا مُلِئَتْ جَوْراً وظُلْماً يَبْعَثُ اللّهُ رَجُلاً مِنِّي ، اسْمُهُ اسْمِي ، واسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي ، فَيَمْلَؤُها عَدْلاً وقِسْطاً كَما مُلِئَتْ جَوْراً وظُلْماً ، فَلا تَمْنَعُ السَّماءُ شَيْئاً مِنْ قَطْرِها ، ولا الأَرْضُ شَيْئاً مِنْ نَباتِها ، يَمْكُثُ فِيكُم سَبْعاً أَو ثَمانِيَةً ، فَإنْ أَكْثَرَ فَتِسْعاً) ، أَي : أَنَّ أَيَّامَهُ سَتَكُونُ بَرَكَةً ورَخاءً ، وأَمْناً ومَحَبَّةً .

---

(١) سُلْطانُ هُنا اسْمٌ لِجِنْسِ الحُكَّام ، أَي رُؤَساءِ الدُّوَلِ الإسْلامِيَّةِ سَواءٌ أَخَذوا اسْمَ السُّلْطانِ أَو لَمْ يَأْخُذُوه .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَد (١/ ٩٩) ، وأَبوداود (٤ / ١٠٧) والتِّرْمِذِي (٤ / ٥٠٥) ، وابْنُ ماجَه (٢ / ٩٢٨) .

• وأَخْرَجَ (ابْنُ ماجه) فِى سُنَنِهِ (٢ / ٢٦٩) حَدِيثاً طَوِيلاً عَنْهُ ﷺ يَقُولُ فِيهِ : (إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلاءً شَدِيداً وتَطْرِيداً ...) إِلَى أَنْ قالَ ﷺ (يُبْعَثُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَؤُها قِسْطاً كَما مُلِئَتْ جَوْراً ...) إلخ .

• وفى الرَّابعِ مِنْ أَرْبَعِينَ (أَبِي نُعَيْم) ، كَما فِى (كَشْفِ الغُمَّةِ) ، قالَ ﷺ لِفاطِمَةَ : (المَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِكِ) ، ولا يَمْنَعُ هَذا أَنْ يَكُونَ فيهِ دَمٌ مِنْ بَنِي العَبَّاس .

• ورَوَى (الحارِثُ بنُ سَعْدٍ) بِسَنَدٍ حَسَنٍ ، عَنْ (أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ) رضي الله عنه ، عَنْهُ ﷺ : (لَتُمْلأَنَّ الأَرْضُ ظُلْماً وعُدْواناً ، ثُمَّ لَيَخْرُجَنَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مَنْ يَمْلَؤُها قِسْطاً وعَدْلاً ، كَما مُلِئَتْ ظُلْماً وعُدْواناً) .

• وأَخْرَجَ الطَّبَرانِيُّ عَنْهُ ﷺ :

(المَهْدِيُّ مِنَّا آلَ البَيْتِ ، يُخْتَمُ بِهِ الدِّينُ كَما فُتِحَ بِنا)[1] .

• وفِى رِوايَةِ (أَحْمَد) ، و(الماوَرْدِي) أَنَّهُ : (يُقَسِّمُ المالَ بِالسَّوِيَّةِ ، حَتَّى يَأْمُرَ مُنادِياً فَيُنادِي : مَنْ لَهُ حاجةٌ فَإِلَىَّ ، فَما يَأْتِيهِ إِلاَّ رَجُلٌ واحِدٌ فَيُعْطِيهِ حَثْواً بِقَدْرِ ما يَحْمِلُ) ، ثُمَّ يَنْدَمُ الرَّجُلُ عَلَى أَنَّهُ كانَ أَجْشَعَ الأُمَّةِ فَيُحِبُّ أَنْ يُرْجِعَ ما أَخَذَ ، فَيَأْبَى المَهْدِيُّ عَلَيْهِ ذَلِك .

• وفِى مُسْنَدِ أَبِي داوُد (٢ / ٢٧٠) مِنْ كِتابِ المَهْدِي : (المَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فاطِمَة) ، وأَخْرَجَهُ ابْنُ ماجَه (٢ / ٥١١) ، والحاكِمُ (٤ / ٥٥٧) والعَقِيلي (١٣٩ / ٣٠٠) ، مِنْ طَرِيق زِيادِ بنِ بَيانٍ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ ، كُلُّ رِجالِهِ ثِقات .

• وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ ، وأَبو داوُدَ ، وأَحْمَدُ ، عَنْ عَبْدِاللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لا تَنْقَضِي الأَيَّامُ ، ولا يَذْهَبُ الدَّهْرُ ، حَتَّى يَمْلُكَ العَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُواطِئُ اسْمُهُ اسْمِي) .

---

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبَراني فِى مُعْجَمِهِ الكَبير .

• وعِنْدَ أَبي داوُد (المَلاحِمُ والفِتَنُ / ٤٩) قالَ قَتادَةُ : قُلْتُ لِسَعِيدِ بنِ المُسَيِّب : (المَهْدِيُّ حَقٌّ هُوَ؟ قالَ : حَقٌّ) .

• وفِي صَحِيحِ التِّرْمِذِي (٢ / ٣٦) : (لا تَذْهَبِ الدُّنْيا حَتَّى يَمْلُكَ العَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، يُواطِيءُ اسْمُهُ اسْمِي) .

• وفِي فَيْضِ القَدِير شَرْحِ الجامِعِ الصَّغير (٦ / ١٧) قالَ الشَّيْخ المُناوِي فِي شَرْحِ الحَديث : (مِنَّا الَّذي يُصَلِّي عِيسَى بنُ مَرْيمَ خَلْفَهُ) : (مِنَّا) أَهْلُ البَيْتِ (الَّذي) أَي الرَّجُلُ الَّذي (يُصَلِّي عِيسَى بنُ مَرْيَمَ) ابْنُ مَرْيَمُ رُوحُ اللهِ عِنْدَ نُزولِهِ عليه السلام مِنَ السَّماءِ فِي آخِرِ الزَّمانِ عِنْدَ ظُهُورِ الدَّجَّالِ (خَلْفَهُ) فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عِنْدَ صَلاةِ الصُّبْحِ ، عَلَى المَنارَةِ البَيْضاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، فَيَجِدُ الإِمامَ المَهْدِيَّ يُريدُ الصَّلاةَ ، فَيُحِسُّ بِهِ فَيَتَأَخَّرُ لِيَتَقَدَّمَ ، فَيُقَدِّمُهُ سَيِّدُنا عِيسَى عليه السلام ،ويُصَلِّي خَلْفَهُ) .

• وهُوَ المَقصُودُ مِنْ رِوايَةِ أَحْمَد ومُسْلِم : (فَيَنْزِلُ عيسَى بنُ مَرْيمَ والطَّائِفَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى الحَقِّ تُصَلِّي ، فَيَقُولُ أَميرُهُم لِعيسَى : تَعالَ صَلِّ بِنا ، فَيَقُولُ : لا ، إِنَّ بَعْضَكُم عَلَى بعْضٍ أُمَراء) .

قالُوا : والأَمِيرُ هُنا هُوَ الإِمامُ المَهْدِيُّ كَما سَيَأْتِي بَعْدُ ، فَإِنَّ المَسِيحَ سَيَحْكُمُ بِالإِسْلامِ ولِذا يَأْتَمُّ بِالمَهْدِي .

• قالَ الإِمامُ القَسْطَلاَّنِي فِي إِرْشادِ السَّارِي (٥ / ٤٢٩) عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنْ صَلاةِ عِيسَى عليه السلام خَلْفَ المَهْدِي : (قالَ ابْنُ الجَوْزِي : لَوْ تَقَدَّمَ عِيسَى إِماماً لَوَقَعَ فِي النَّفْسِ إِشْكالٌ ، ولَقِيلَ : أَتَراهُ نائِباً أَو مُبْتَدِأً شَرْعاً ، فَصَلَّى مَأْمُوماً لِئَلاَّ يَتَدَنَّسَ بِغُبارِ الشُّبْهَة)[1] وهِيَ خَوْفٌ أَنْ يُقالَ : إِنَّهُ جاءَ لِيَحْكُمَ بِالمَسِيحِيَّةِ ، وإِنَّما هُوَ جاءَ لِيَحْكُمَ بِالإِسْلامِ الَّذي هُوَ دِينُ كافَّةِ الأَنْبِياء .

---

(١) وانْظُر : إِرْشادَ السَّاري لِشَرْحِ صَحِيحِ البُخاري للإِمام القَسْطَلاَّني ، ط دار الفِكْر (٧ / ٤٥٩) حَديث (٣٤٤٩) .

دَفْعُ بَعْضِ الشُّبُهات :

نَقُولُ : ولَيْسَ كُلُّ مالَمْ يَرِدْ فِى الصَّحِيحَيْنِ مِنَ الأَحادِيثِ بِمَرْدُودٍ ؛ فالأَحادِيثُ الصَّحِيحَةُ (بِشَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وغَيْرِ شَرْطِهِما) مِلْءُ مَوْسُوعاتِ الأَحادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وهِىَ كَثْرَةٌ لا تَكادُ تُحْصَرُ ، وأَصْحابُ الكُتُبِ الصِّحاحِ مِنَ المُحَدِّثِينَ عَدَدٌ كَبِيرٌ غَيْرُ البُخارِي ومُسْلِمٍ ، وهَذا ما أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ واعْتَمَدَهُ رِجالُ الحَدِيثِ جَمِيعاً أَمَّا عَلَى القَوْلِ بِأَنَّها أَحادِيثُ آحادٍ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةِ أَعْشارِ السُّنَّةِ أَحادِيثُ آحادٍ ، والمُتَواتِرُ مِنْها عَشَراتٌ مُحَدَّدَةٌ ، والعِباداتُ والمُعامَلاتُ والأَخْلاقُ كُلُّها مِنْ أَحادِيثِ الآحادِ ، مَعَ أَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ أَحادِيثَ المَهْدِيِّ بَلَغَتْ حَدَّ التَواتُر .

• أَمَّا حَدِيثُ : (لا مَهْدِيَّ بَعْدِي) فَمَحْمُولٌ عَلَى المَهْدِيَّةِ التَّامَّةِ المُطْلَقَةِ ، أَي النُّبُوَّةِ المَعْصُومَةِ ، وهَذا صَحِيحٌ ، فَلا إِشْكال .

• وأَمَّا حَدِيثُ : (لا مَهْدِيَّ إِلاَّ عِيسَى) أَي لا مَهْدِيَّ مِنَ الأَنْبِياءِ بَعْدِي إِلاَّ عِيسَى حِينَ يَنْزِلُ ، فَلا تَناقُضَ بَيْنَ الخَبَرَيْنِ ، وهَذا عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ الحَدِيثِ ، وإِلاَّ فَإِنَّهُ لا يَثْبُتُ ، قالَ الإِمامُ السُّيُوطِي فِى العَرْفِ الوَرْدِي : (قالَ القُرْطُبِي فِى التَّذْكِرَة : إِسْنادُهُ ضَعِيفٌ ، والأَحادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِى التَّنْصِيصِ عَلَى خُروجِ المَهْدِيِّ مِنْ عِتْرَتِهِ مِنْ وَلَدِ فاطِمَةَ ثابِتَةٌ أَصَحُّ مِنَ هَذا الحَدِيثِ ، فالحُكْمُ بِها دُونَهُ) أ . هـ .

ويُفَسِّرُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَدِيثُ النَّسائِي ، عَنْهُ ﷺ : (لَنْ تَهْلَكَ أُمَّةٌ أَنا أَوَّلُها ، ومَهْدِيُّها وَسَطُها ، والمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ آخِرُها) .

• وأَمَّا ما وَرَدَ مِنْ أَنَّ المَهْدِيَّ مِنْ وَلَدِ العَبَّاسِ ، فَهِىَ أَحادِيثُ ضَعِيفَةٌ لا تَبْلُغُ ما تَواتَرَ عَنْهُ ﷺ مِنْ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ فاطِمَةَ والحَسَنِ والحُسَيْنِ رضي الله عنهم ، فَقَد قالَ ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي : (ويُمْكِنُ الجَمْعُ بِأَنَّهُ لا مانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِيَّتِهِ ﷺ ، ولِلْعَبَّاسِ فِيهِ وِلادَةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّ أُمَّهاتِهِ عَبَّاسِيَّةً ؛ فالوِلادَةُ العُظْمَى لِلْحَسَنِ ، كَما

أَنَّ لِلْحُسَيْنِ فيهِ وِلادَةٌ أَيْضاً ، وِلِلْعَبَّاسِ فِيهِ وِلادَةٌ أَيْضاً ، ولا مانِعَ مِنِ اجْتِماعِ وِلاداتِ المُتَعَدِّدِينَ فِى شَخْصٍ واحِدٍ ، مِنْ جِهاتٍ مُخْتَلِفَة) .ا هـ

فَهُوَ عَلَى هَذا القَوْلِ عَبَّاسِيٌّ فاطِمِيٌّ عَلَوِيٌّ ، جَمَعَ بَيْنَ أَطْرافِ الشَّرَفِ الرَّفِيع .

المَهْدِيُّ عِنْدَ الشِّيعَةِ والأَدْيانِ الأُخْرَى :

أَمَّا المَهْدِيُّ عليه السلام عِنْدَ إِخْوانِنا الشِّيعَةِ بِفِرَقِهِمْ المُخْتَلِفَةِ فَلَهُ حَدِيثٌ طَوِيلٌ ،فَهُم بِفِرَقِهِمْ يَخْتَلِفُونَ مَعَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِى أَنَّ المَهْدِيَّ مَعْروفٌ لَهُمْ ، وبِحَسَبِ اعْتِقادِ كُلِّ طائِفَةٍ مِنْهُم كُلٌّ فِى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، وأَمَّا المَجْهُولُ فَهُوَ وَقْتُ خُروجِهِ .

وهُمْ يَعْتَبِرونَ ذَلِكَ مِنَ العَقائِدِ الأَساسِيَّةِ عِنْدَهُم ، إِلاَّ أَنَّهُمْ يَلْتَقُونَ مَعَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِى أُصُولِهِ ومَبادِئِهِ الأَساسِيَّةِ الَّتي تَتَلَخَّصُ فِى أَنَّهُ لابُدَّ مِنْ مَجِيءِ مَهْدِيٍّ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ ، يُحَقِّقُ الآمالَ ، وتَسْتَقيمُ بِهِ الأَحْوالُ ، وبِهِ يَلْتَئِمُ شَمْلُ الأُمَّةِ ، ويَكْشِفُ اللهُ بِهِ الغُمَّة .

وقَضِيَّةُ (المَوْعُودِ المُنْتَظَرِ) قَضِيَّةٌ تَشْتَرِكُ فِيها جَمِيعُ الأَدْيانِ السَّماوِيَّةِ ، عَلَى خِلافٍ فِى الصُّورَةِ تَتَناسَبُ مَعَ كُلِّ عَقِيدَةٍ ، فالنَّصارَى مَثَلاً يَنْتَظِرونَ عَوْدَةَ المَسِيحِ مِنَ السَّماءِ ، وهُوَ مَوْعُودُهُم ، واليَهُودُ يَنْتَظِرونَ مَجِيءَ مَسِيحٍ صَهْيُونِيٍّ مِنْهُم يُحَقِّقُ لَهُمْ أَحْلامَهُم ، والمُسْلِمُونَ (سُنَّةٌ وشِيعَةٌ) يَنْتَظِرونَ مَهْدِيَّ آلِ البَيْتِ الَّذي بَشَّرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ الصادِقُ صلى الله عليه وسلم ، يُعِيدُ مَجْدَهُم وسِيادَتَهُم ، ويُحَقِّقُ وَحْدَتَهُم وسَعادَتَهُم .

ومِنَ العَجَبِ أَنْ نَرَى قَضِيَّةَ (المَوْعُودِ المُنْتَظَرِ) مَوْجُودَةٌ فِى كَثِيرٍ مِنَ الأَدْيانِ الأَرْضِيَّةِ المُنْتَشِرَةِ فِى الهِنْدِ وأَطْرافِ آسْيا ؛ فالبُوذِيُّونَ ، واللاَّمِيُّونَ ، والكُنْفَشْيوسِيُونَ ، وحَتَّى السِّيخِ ، والهُنْدوكِ ، يَزْعُمُونَ أَنَّ لَهُم مَوْعُوداً يَنْتَظِرونَهُ ، بِمُواصَفاتٍ مُعَيَّنَةٍ عِنْدَ كُلِّ طائِفَةٍ مِنْهُم .

والنَّاسُ أَحْرارٌ فِى أَنْ يُؤْمِنُوا بِظُهُورِ المَهْدِيِّ أَو لا يُؤْمِنُوا ، ولَكِنَّهُم لَيْسُوا أَحْراراً فِى فَرْضِ رَأْيِهِم عَلَى غَيْرِهِمْ ، والسَّفَهِ عَلَيْهِم ، أَو السُّخْرِ مِنْهُم ، فَلَهُم مَنْطِقُهُم

ودَليلُهُم ، ولأَئِمَّتِنا مَنْطِقُهُم ودَلِيلُهُم ، وإِنَّما ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ﴾ ، و ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .

أَراءُ العُلَماءِ فِي أَحادِيثِ المَهْدِيِّ وتَأْوِيلِها :

أ) رَأْيُ العَلاَّمَةِ الدَّحْلان :

قالَ السَّيِّدُ أَحْمَد زِيني دَحْلان (مُفْتِي مَكَّةَ الأَسْبَق) ، (والأَحادِيثُ الَّتى جاءَ فِيها ذِكْرُ المَهْدِيِّ كَثِيرَةٌ مُتَواتِرَةٌ ، فِيها ما هُوَ صَحِيحٌ ، وفِيها ما هُوَ حَسَنٌ ، وفِيها ما هُوَ ضَعِيفٌ ، ولَكِنَّها لِكَثْرَتِها ، وكَثْرَةِ رُواتِها ، وكَثْرَةِ مُخَرِّجِيها ، يُقَوِّي بَعْضُها بَعْضاً ، حَتَّى صارَتْ تُفِيدُ القَطْعَ ، ولَكِنَّ المَقْطُوعَ بِهِ أَنَّهُ لابُدَّ مِنْ ظُهُورِهِ ، وأَنَّهُ مِنْ وَلَدِ فاطِمَةَ ، وأَنَّهُ يَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً ، نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ العَلاَّمَةُ السَّيِّدُ مُحَمَّد بن عَبْدِ الرَّسُولِ البَرْزَنْجِي فِى آخِرِ كِتابِهِ (الإِشاعَة) .

وأَمَّا تَحْدِيدُ ظُهُورِهِ بِسَنَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَلا يَصِحُّ ، لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْبٌ لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللّهُ تَعالَى ولَمْ يَأْتِ نَصٌّ مِنَ الشَّارِعِ بِالتَّحْدِيد)[2] أ . هـ .

ب) ما قالَهُ الإِمامُ أَبو الطَّيِّب القَنُوجِي :

قالَ الإِمامُ أَبو الطَّيِّب ابنُ أَبِي أَحْمَدَ الحُسَيْني البُخارِي القَنُوجِي : (وأَحادِيثُ المَهْدِيِّ بَعْضُها صَحِيحٌ ، وبَعْضُها حَسَنٌ ، وبَعْضُها ضَعِيفٌ .. وأَمْرُهُ مَشْهُورٌ بَيْنَ الكافَّةِ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ عَلَى مَمَرِّ الأَعْصارِ ، وأَنَّهُ لابُدَّ فِى آخِرِ الزَّمانِ مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ النَّبَوِيِّ يُؤَيِّدُ الدِّينَ ، ويُظْهِرُ العَدْلَ ، ويَتَّبِعُهُ المُسْلِمُونَ ، ويُسَمَّى بـ (المَهْدِي) ، ويَكُونُ خُروجُ الدَّجَّالِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ أَشْراطِ السَّاعَةِ الثَّابِتَةِ ، وأَحادِيثُ الدَّجَّالِ وعِيسَى أَيْضاً بَلَغَتْ حَدُّ التَّواتُر)[3] .

ج) رَأْيُ الإِمامِ المُحَدِّثِ الحافِظِ البَيْهَقِي :

قالَ أَبو بَكر أَحْمَدُ بنُ الحَسَيْنِ البَيْهَقِيُّ ، الفَقِيهُ الشَّافِعِيُّ ، الحافِظُ الكَبِيرُ

---

(١) المُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ العِلْم أَنَّ الحُكْمَ عَلَى القَضِيَّةِ أَو المَوْضُوع يَثْبُتُ بِحَدِيثٍ واحِدٍ صَحيح أَو حَسَنٍ أَو ضَعِيفٍ مُعْتَضِدٍ فَكَيْفَ بِكُلِّ ما جاءَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الأَنْواع مُجْتَمِعَةً مُتَسانِدَةً مُؤَكِّدَةً حَقِيقَةَ الأَصْلِ وإِنِ اخْتَلَفَتِ الفُرُوعُ ؟ وكَيْفَ وقَدْ بَلَغَتْ حَدَّ التَّواتُر ؟! .

(٢) الفُتُوحاتُ الإِسْلامِيَّة (٢ / ٣٢٢) .

(٣) الإِذاعة .

المَشْهُورُ : (اخْتَلَفَ النَّاسُ فِى أَمْرِ المَهْدِي ، أَي فِى تَحْدِيدِ شَخْصِهِ ووَقْتِهِ ، مَعَ الإيمانِ بِصِحَّةِ خَبَرِهِ ، فَتَوَقَّفَتْ جَماعَةٌ ، وأَحالوا العِلْمَ إِلَى عالِمِهِ ، واعْتَقَدوا أَنَّهُ واحِدٌ مِنْ أَوْلادِ فاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، يَخْلُقُهُ اللهُ مَتَى يَشاءُ ويَبْعَثُهُ نُصْرَةً لِدينِهِ)[1].

د) ما قالَهُ العَلاَّمَةُ أَبو الأَعْلَى المَوْدودِي :

يَقُولُ السَّيِّدُ الإمامُ المَوْدُودِي فِى رِسالَتِهِ (البَيانات ص ١٦١) ، ما نَصُّهُ :

(قَدْ ذَكَرْنا فِى هَذا البابِ نَوْعَيْنِ مِنَ الأَحادِيثِ : أَحادِيثَ ذُكِرَ المَهْدِيُّ فِيها بِالصَّراحَةِ ، وأَحادِيثَ إِنَّما أُخْبِرَ فِيها بِظُهُورِ خَلِيفَةٍ عادِلٍ ، بِدُونِ تَصْرِيحِ المَهْدِي .

ولَمَّا كانَتْ هَذهِ الأَحادِيثُ مِنَ النَّوْعِ الثَّانِي تُشابِهُ الأَحادِيثَ مِنَ النَّوْعِ الأَوَّلِ فِى مَوْضُوعِها ، فَقَدْ ذَهَبَ المُحَدِّثُونَ إِلَى أَنَّ المُرادَ بِالخَلِيفَةِ العادِلِ فِيها هُوَ : المَهْدِي) . أهـ .

قُلْنا : وهَذا النَّوْعُ مِنْ مِثْلِ ما أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٨ / ١٨٥) بِأَلْفاظٍ كَثِيرَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ (مِنْ خُلَفائِكُم خَلِيفَةٌ يَحْثُو المالَ حَثْواً ، لا يَعُدُّهُ عَدّاً) .

وما أَخْرَجَهُ البُخارِي (٤ / ٢٠٥) : (كَيْفَ أَنْتُم إِذا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُم ، وإِمامُكُم مِنْكُم ؟!) وصَرَّحَ فِى رِوايَةٍ (أَبو عَمْرو الدَّانِي) بِاسْمِهِ ، ونَحْوَهُ عَنِ ابنِ سِيرين .

ومِنْهُ عِنْدَ أَبِي داوُد (المَلاحِمُ والفِتَن / ٢٦) عَنْ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّب : (تَكُونُ بِالشَّامِ فِتْنَةٌ ، كُلَّما سَكَنَتْ مِنْ جانِبٍ ، ضَجَّتْ مِنْ جانِبٍ ، فَلا تَتَناهَى حَتَّى يُنادِي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ : إِنَّ أَمِيرَكُم فُلان) .

وما جاءَ عَنِ الإمامِ أَيْضاً : (إِنَّ عَلاماتِ الفَرَجِ حَدَثاً يَكُونُ بَيْنَ الحَرَمَيْن) .

ومِنْهُ فِى (مُنْتَخَبِ الأَثَر / ٤٤٢) ما نَصُّهُ : (تَكُونُ بَعْدِي فِتَنٌ لا خَلاصَ مِنْها

---

(١) البُرهان : لِلْمُتَّقِى الهِنْدِي ص ٧٩ .

مِنْ بَعْدِها فِتَنٌ أَشَدُّ مِنْها ، كُلَّما انْقَضَتْ تَمادَتْ ، حَتَّى لا يَبْقَى بَيْتٌ إِلاَّ دَخَلَتْهُ ، ولا مُسْلِمٌ إِلاَّ وَصَلَتْهُ ، حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي ..... إلخ) .

هـ) رَأْيُ الشَّيْخ الشَّعْراوِي :

وفِى جَريدَةِ الأَهْرامِ المِصْرِيَّةِ الصَّادِرَةِ بِتاريخ (٣٠ / ١١ / ١٩٧٩ م) وبِالصَّفْحَةِ(١٣) يَقُولُ فَضِيلَةُ الأُسْتاذ الشَّيْخ مُحَمَّد متولِّي الشَّعْراوِي ، ما نَصُّهُ : (الَّذينَ يَقُولُونَ إِنَّ ما وَرَدَ مِنَ الآثارِ حَوْلَ المَهْدِي المُنْتَظَرِ يُقْصَدُ بِهِ الرَّمْزُ لا التَّخْصِيصُ فِى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ ، ويَذْهَبُونَ هَذا المَذْهَبَ ، هَؤُلاءِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا إِنْكارَ هَذهِ الآثارِ الَّتي أَوْرَدَها المُحَدِّثُونَ ، فَأَرادوا أَنْ يَؤَوِّلُوها ، ويُحَوِّلُوها إِلَى مَعْنًى مَقْبُولٍ عَقْلاً (عِنْدَهُمْ) ، ولِهَذا فَنَحْنُ لا نُناقِشُهُم فِى صِحَّةِ هَذهِ الآثارِ ، لأَنَّهُم مُسَلِّمُونَ مَعَنا بِوجُودِها ، فَقَط نُناقِشُهُم فِى الفَهْمِ ، ونَسْأَلُهُم : ما المُرادُ بِالرَّمْزِ .. وما المُرادُ بِالإِصْلاحِ ؟ ! .

الرَّمْزُ والإِصْلاحُ مَعْنَيانِ ، والمَعانِي لا تَقُومُ بِذَواتِها ، فـ (الإِصْلاحُ) لا يُوجَدُ إِلاَّ بِوجُودِ (مُصْلِح) ، إِذَنْ فـ (المُصْلِحُ) لازِمٌ للإِصْلاحِ ، وهُوَ ذاتٌ تَقُومُ بِالإِصْلاحِ ، وعَلَى هَذا فَإِنَّ الَّذي يَقُومُ بِتَشْخِيصِ المَهْدِيِّ عَلَى حَقٍّ ، لأَنَّهُ لا إِصْلاحَ بِدُونِ مُصْلِحٍ .. أَمَّا الَّذي يَقُولُ إِنَّهُ رَمْزٌ للإِصْلاحِ فَنَقُولُ لَهُ : هات لَنا إِصْلاحاً بِدُونِ ذاتٍ مُصْلِحَةٍ .

وهَلْ إِذا ادَّعَى كَذِباً شَخْصٌ أَو أَشْخاصٌ عَلَى طُولِ التَّاريخِ بِأَنَّهُم المَقْصُودونَ بِـ (المَهْدِي المُنْتَظَر) ، وتَحَقَّقَ لَنا كَذِبُ دَعْوَتِهِمْ ، هَلْ هَذا يَهْدِمُ فِكْرَةَ وُجُودِ مَهْدِيٍّ حَقِيقِيٍّ سَيَظْهَرُ فِى آخِرِ الزَّمان ؟ ! .

إِنَّ المَهْدِيَّ الحَقِيقِيَّ الصَّادِقَ سَيَكُونُ (مُبايَعاً) لا (مُسْتَبْيِعاً) ، النَّاسُ هُم الَّذينَ يُبايِعُونَهُ ، ولَيْسَ هُوَ الَّذي يَطْلُبُ البَيْعَةَ مِنْهُم لِنَفْسِهِ ؛ لأَنَّهُ سَيَكُونُ النَّمُوذَجَ المِثالِيَّ لِلْخَيْرِ ، ولِتَطْبِيقِ مَنْهَجِ الإِسْلامِ فِى سُلُوكِهِ وكُلِّ أَعْمالِه .

أَدْعِياءُ المَهْدِيَّةِ والمُجَدِّدُون :

أَمَّا كَثْرَةُ ظُهُورِ أَدْعِياءِ المَهْدِيَّةِ ، فَلا يَقْدَحُ فِي أَنَّها حَقِيقَةٌ مُسَلَّمٌ بِها ، وقَدْ ظَهَرَ مِنَ النَّاسِ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ والمَسِيحِيَّةَ ، ومِنْهُم مَنِ ادَّعَى الرُّبوبِيَّةَ ، وسَوْفَ يَظْهَرُ غَيْرُهُم مِنَ الأَدْعياءِ ، فَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ يُوجَدَ فِيهم مَنْ يَدَّعِي المَهْدِيَّةَ ، ولَقَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ حَقٍّ باطِلاً يُشْبِهُهُ !! .

فَكَيْفَ نُعِيدُ المَهْدِيَّةَ مِنَ الأَدْعِياءِ ، وفِي الحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ :

(لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ ، قَرِيباً مِنْ ثَلاثِينَ ، كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللّه) أَي عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الكَذَبَةِ ، وقَدْ ظَهَرُوا فِعْلاً بِالمَشْرِقِ والمَغْرِبِ وسَوْفَ يَظْهَرُ كَذَّابُونَ آخَرونَ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ ، وأَخِيراً لا يَصِحُّ إِلاَّ الصَّحِيحُ .

ويَقُولُ الإِمامُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهُ : (لا يَخْلُو وَجْهُ الأَرْضِ مِنْ قائِمٍ لِلّهِ بِحُجَّتِهِ ، إِمَّا خَفِيَّاً مَسْتُوراً ، أَو ظاهِراً مَشْهُوراً) ، وهَؤُلاءِ الَّذينَ لا يَخْلُو مِنْهُم وَجْهُ الأَرْضِ هُمْ المُجَدِّدُونَ ، عَلَى مُخْتَلَفِ مَراتِبِهِم ومَواطِنِهِم وتَخَصُّصاتِهِم ، والمَجالِ الَّذي مَيَّزَهُم اللّهُ بِهِ لِخِدْمَةِ الحَقِّ الإِلَهِيِّ ، كُلٌّ فِي تَخَصُّصِهِ ومَجالِهِ .

وفِي الحَدِيثِ : (إِنَّ اللّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَها دِينَها) ، وهَؤُلاءِ المُجَدِّدُونَ هُم المُمَهِّدُونَ للإِمامِ المَهْدِي ، هُم وبَعْدَهُم وَرَثَتُهُم مِنَ الأَئِمَّةِ النُّورانِيِّينَ والأَقْطابِ الرَّبَّانِيِّينَ المَمْدودِينَ بِسِرِّ الحَضْرَةِ ، الَّذينَ يَحْمُونَ حِمَى اللّهِ ، ويَحْفَظُونَ عَهْدَهُ تَعالَى فِيما بَيْنَ المُجَدِّدِ والمُجَدَّدِ ، كُلٌّ عَلَى مَقامِهِ ورِسالَتِهِ ومَجالِهِ وما اسْتَأْمَنَهُ اللّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَمانَةِ العِلْمِ والدَّعْوَة .

المُمَهِّدونَ للإِمامِ المَهْدِي :

وفِي المُمَهِّدينَ لِلْمَهْدِيِّ ، ومَنْ عَلَى أَقْدامِهِم مِنْ أَوْلِياءِ اللّهِ :

• يَرْوِي أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً :(لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلاً مِثْلَ إِبْراهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ ، فَبِهِمْ تُسْقَوْنَ ، وبِهِمْ تُنْصَرونَ ، ماماتَ مِنْهُم أَحَدٌ إِلاَّ أَبْدَلَ اللّهُ مَكانَهُ آخَر) .

• وحَدِيثُ الأَبْدالِ أَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدَ (١ / ١١٢ ، ٥ / ٣٢٢) ، والطَّبَرانِيُّ

فِى الكَبِير (١٠ / ١٨١) ، وعِنْدَ أَبِي داوُد (٤ / ١٠٧) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ، وفِيهِ : (فَإِذا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَتاهُ أَبْدالُ الشَّامِ وعَصائِبُ أَهْلِ العِراقِ فَيُبايِعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ والمَقامِ) .

• ويَرْوِي ابْنُ حِبَّانَ فِى تارِيخِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً :

(لَنْ تَخْلُوَ الأَرْضُ مِنْ ثَلاثِينَ مِثْلَ إِبْراهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ ، بِهِم تُغاثُونَ ، وبِهِم تُرْزَقُونَ ، وبِهِم تُنْصَرونَ) .

وأُولَئِكَ هُم الَّذينَ يُسَمِّيهِم اصْطِلاحُ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ (الأَبْدال) ، وإِمامُهُم يُسَمَّى : (صاحِبُ الوَقْتِ) ، وفِى الحَدِيثِ الثابِتِ عَنْهُ ﷺ :

(هَلْ تُنْصَرونَ وتُرْزَقُونَ إِلاَّ بِضُعَفائِكُم)[1] .

• وذَكَرَ الشَّيْخُ الكِتَّانِي أَنَّ أَحادِيثَ الأَبْدالِ مُتَواتِرَةٌ فِى كِتابِهِ (نَظْمُ المُتَناثِر مِنَ الحَدِيثِ المُتَواتِر) ، وأَفْرَدَها الإِمامُ السِّيُوطِي بِرِسالَتِهِ (الخَبَرُ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِ القُطْبِ والأَوْتادِ والأَنْجابِ والأَبْدال) ، ولِلْعَلاَّمَةِ ابْنِ عابْدينَ رِسالَةُ (إِجابَةُ الغَوْثِ بِبيانِ حالِ النُّقَباءِ والنُّجَباءِ والأَوْتادِ والغَوْث) ضِمْنَ رَسائِلِهِ ، وأَلَّفَ فِى الأَبْدالِ أَيْضاً الشَّيْخُ ابْنُ عَرَبِي الحاتِمِيُّ الطَّائِي ، والشَّيْخُ نَجْمُ الدِّينِ الغِيطِي ، وجَمَّعَ ذَلِكَ كُلَّهُ ورَتَّبَهُ واضِحاً جَلِيّاً شَيْخُنا الإِمامُ الرَّائِدُ مُحَمَّد زَكي إِبْراهِيم فِى كتابِهِ (أُصُولُ الوصُول) .

وإِنَّما يَتَحَدَّثُ الأَئِمَّةُ النُّورانِيُّونَ ، والأَقْطابُ الإِلَهِيُّونَ مَعَ النَّاسِ بِما يُطِيقُونَ ، وقَدْ يَكْتَفُونَ بِالإِشارَةِ ، حِينَ تُتَّهَمُ العِبارَةُ ، وتَضِيقُ بِها القُلُوبُ الغُلْفُ ، والأَلْبابُ المُعَلَّبَةُ !؟ ، والأَلْسِنَةُ اللَّزِجَةُ بِالبَذاءَةِ وبُهْتِ النَّاسِ بِاسْمِ السُّنَّةِ المَظْلُومَة .

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَ أَهْلَ زَمانِهِ مِنْ عِلْمِ كَشْفِهِ الغَيْبِيِّ الأَكيدِ، فَقَصَّ عَلَيْهِم قِصَّةَ الرَّادْيُو والتِّلِيفْزيُونِ ، والسِّينما والتِّلِيفُونِ ، والرَّدار ، والآلَةِ

---

(١) أَخْرَجَه البُخارِي فِى صَحِيحِهِ (٢٧٣٩) .

الحاسَبةِ ، وسُفُنِ الفَضاءِ ، وعَجائِبِ الأَشِعَّةِ ، والكَهْرباءِ ، والبترولِ ، والبُخارِ مَثَلاً ، هَلْ كانَ يُصَدِّقُهُ أَحَدٌ ؟! أَلَيْسَ كانَ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى الإِمْعانِ فِى تكْذِيبِهِ والكُفْرِ بِدِينِهِ ؟! .

فَكَذَلِكَ شَأْنُ الأَئِمَّةِ المُجَدِّدِينَ ، والأَقْطابِ الوارِثِينَ المُمَهِّدينَ لِلْمَهْدِي ، يُحَدِّثُونَ النَّاسَ فِى شَأْنِهِ بِما يُطِيقُونَ ، حَتَّى لا يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ ، وشَرُّ الجَهْلِ ما كانَ عَنْ عِلْمٍ ، وشَرُّ العِلْمِ ما كانَ عَنْ هَوًى ، وشَرُّ الهَوَى ما كانَ لِغَيْرِ اللهِ ، فَفِيهِ عَمَى البَصَرِ والبَصيرَةِ جَمِيعاً ، والشُّئُونُ الرُّوحِيَّةُ لَطائِفُ ونَفَحاتٌ ، لا تَتَأَتَّى إِلاَّ مَعَ السُّمُوِّ والرَّبانِيَّةِ والسَّماحَة .

رُواةُ حَدِيثِ المَهْدِيِّ مِنَ الصَّحابَةِ والتَّابِعينَ :

وعَلَى الجُمْلَةِ فَقَدْ رَوَى أَحادِيثَ المَهْدِيِّ نَحْوَ خَمْسِينَ صَحابِيًّا رضي الله عنهم مِنْهُم :

(أَبو أَيُّوبَ الأَنْصارِيُّ ، وأَبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ ، وأبو ذَرٍّ الغَفارِيُّ ، وأَبو أُمامَةَ الباهِلِيُّ ، وأَبو هُرَيْرَةَ ، وأَنَسُ بنُ مالِكٍ ، وجابِرُ بنُ عَبْدِاللهِ ، وحُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ وأَبو قَتادَةَ ، وزَيْدُ بنُ ثابِتٍ ، وسَلْمانُ الفارِسِيُّ ، وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ ، وعائِشَةُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ ، وعَبْدُاللهِ بنُ عَبَّاسٍ ، وعَبْدُاللهِ بنُ مَسْعُودٍ ، وعَمَّارُ بنُ ياسِرٍ ، وفاطِمَةُ الزَّهْراءُ ، وأُمُّ سَلَمَةَ ، ومُعاذُ بنُ جَبَلٍ) عَلَى ما جاءَ فِى مُخْتَلَفِ الكُتُبِ ، والرَّسائِلِ ، والمَذاهِبِ ، وحَسْبُكَ بِهَؤُلاءِ ثِقَةً وعَدْلاً .

كَما رَوَى أَحادِيثَ المَهْدِي نَحْوُ خَمْسِينَ تابِعيًّا رضي الله عنهم مِنْهُم :

(مُحَمَّدٌ بنُ الحَنَفِيَّةِ ، وإِبْراهِيمُ وَلَدُهُ ، وإِسْحاقُ بنُ عَبْداللهِ ، والزُّهْرِيُّ ، وسَعِيدُ بنُ جُبَيْر ، وسَعِيدُ بنُ المُسَيِّب ، وسالِمُ بنُ عَبْداللهِ بنِ عُمَرَ ، وجابِرُ بنُ يَزِيدٍ الجَعْفِيُّ ، وإِياسُ بنُ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوعِ ، والأَصْبَغُ بنُ نَباتَةَ ، وإِسْحاقُ بنُ عَبْدِاللهِ ، وطاووسُ بنُ اليَمانِ ، وعَبْدُالرَّحْمٰنِ بنُ أَبِي لَيْلَى ، وعَلِيُّ بنُ عَلِيٍّ الهِلالِيُّ ، وأَبو زُرْعَةَ عُمَرُ بنُ جابِرٍ الحَضْرَمِيُّ ، وعَمْرو بنُ عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ ، وعَلِيُّ بنُ عَبْداللهِ بنِ العَبَّاسِ ، ومُحَمَّد بنُ المُنْذِر ، ومَكْحُولٌ ، ومُطَرِّفُ بنُ عَبْداللهِ ، ومُجاهِدُ ،

ونافِعُ مَوْلَى أَبِي قَتادَة) .

ونَجِدُ أَحادِيثَ (المَهْدِي) عِنْدَ : (أَحْمَدَ ، والتِّرْمِذِيِّ ، وأَبِي داوُد ، وابْنِ ماجَه والحاكِمِ ، والطَّبَرانِيِّ ، وأَبِي يَعْلَى ، وابْنِ أَبِي شَيْبَةَ ، وابْنِ جَرِيرٍ ، وأَبِي نُعَيْم ، والبَزَّار ، والدَّارَ قُطْنِي ، وابْنِ عَساكِرَ ، وأَبِي عَمْرو الدَّانِي ، ونَعِيمِ ابْنِ حَمَّاد) ، وغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحابِ الصِّحاحِ والسُّنَنِ والمَسانِيدِ والمُسْتَخْرَجاتِ والأَجْزاءِ الحَدِيثِيَّةِ .

وقَدْ قالَ بِتَواتُرِ الأَحادِيثِ الوارِدَةِ فِى الإمامِ المَهْدِيِّ عليه السلام عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ المُحَدِّثِينَ والعُلَماءِ ، مِنْهُم : أَبو الحُسَيْنِ الأَبْرِي ، والسَّفارِينِي ، وأَيْضاً الحافِظُ ابْنُ حَجَرَ العَسْقَلانِي فى (فَتْحِ الباري) ، والمُحَدِّثُ الفَقِيهُ ابْنُ حَجَرَ الهَيْتَمِي فِى (القَوْلِ المُخْتَصَر ، والفَتاوَى الحَدِيثِيَّة) ، والعَلاَّمَةُ الشَّوْكانِي فى (التَّوْضِيح فِى تَواتُر ما جاءَ عَنِ المَهْدِيِّ والدَّجَّالِ والمَسِيح) ، والبَرْزَنَجِي فِي (الإشاعَة) ، والقَنُوجِي فِى (الإذاعَة) ، والحافِظُ المُحَدِّثُ أَحْمَدُ بنُ الصِّدِّيقِ الغُمارِي ، والعالِمُ الأَزْهَرِي مُحَمَّد زاهِد الكَوْثَرِي فِى (نَظْرَة عامَّة) ، والعالِمُ المُحَقِّقُ المُدَقِّقُ مُحَمَّد زَكى إبْراهيم فِيما نَقَلْناهُ مِنْ كِتابِهِ (قَضِيَّةُ الإمامِ المَهْدِي بَيْنَ الرَّفْضِ والقَبُول) .

التَّآلِيفُ فِى صِدْقِ خَبَرِ المَهْدِي :

ومِمَّنْ أَلَّفَ فِى تَأْيِيدِ خَبَرِ المَهْدِي تَأْليفاً مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، كَثِيرٌ مِنَ السَّادَةِ العُلَماءِ وأَشْهَرُهُم :

١ - المُحَدِّثُ الحافِظُ أَبو نُعَيْم : جَمَعَ أَرْبَعِينَ حَدِيثاً فِى أَخْبارِ المَهْدِي ، أَوْرَدَها الأَرْبَلي فِى (كَشْف الغُمَّة) ، ولأَبِي نُعَيْمٍ أَيْضاً (نَعْتُ الهُدَى) ؛ نَقَلَ عَنْهُ بَعْضُ المُؤَلِّفين .

٢ - ولأَبِي العَلاءِ الهَمَذاني أَرْبَعُونَ حَدِيثاً فِى المَهْدِي ، نَقَلَها الطَّبَرِي فِى (ذخائِر العُقْبَى) .

٣ - الإمامُ السِّيُوطي فِى (العَرْف الوَرْدِي فِى أَحاديثِ المَهْدِي) ، ولَهُ أَيْضاً (علاماتُ الهُدَى) .

٤ - المُحَدِّثُ المُتَّقِي الهِنْدي صاحِبُ كَنْزِ العُمَّال ، لَهُ كِتابُ (البُرْهان عَنْ مَهْدِيِّ آخِرِ الزَّمان) مِنْهُ نُسْخَةٌ خَطِّيَّةٌ فِى مَكْتَبَةِ (بايَزيد) بِتُركيا تَحْتَ رَقَم (٨٢٩) ، ولَهُ أَيْضاً (تَلْخِيصُ البَيان) فِى نَفْسِ المَوْضُوع .

٥ - الإمامُ الشَّوْكانِي الصَّنْعانِي لَهُ كِتاب (التَّوْضِيح فِى تَواتُرِ ما جاءَ عَنِ المَهْدِي والدَّجَّالِ والمَسِيح) .

٦ - مُلاَّ عَلِي القارِي لَهُ كِتاب (الرَّدُّ عَلَى مَنْ حَكَمَ وقَضَى أَنَّ المَهْدِيَّ جاءَ ومَضَى) مِنْهُ نُسْخَةٌ خَطِيَّةٌ بِالمَكْتَبَةِ النَّاصِريَّةِ بِكَلْكَتَّا بِالهِنْدِ ، ولَهُ كِتاب (المَشْرَبُ الوَرْدِي فِى أَخْبارِ المَهْدِي) مِنْهُ نُسَخٌ كَثِيرَةٌ مُبَعْثَرَةٌ بِالمَكْتَبات .

٧ - الإمامُ ابْنُ حَجَرَ الهَيْثَمِي لَهُ كِتاب (القَوْلُ المُخْتَصَر فِى عَلاماتِ المَهْدِي المُنْتَظَر) وهُوَ مَطْبُوع .

٨ - الإمامُ أَبو داوُد السَّجِسْتانِي صاحِبُ السُّنَنِ ، لَهُ كِتاب (المَهْدِي) مَطْبُوعٌ ضِمْنَ مُسْنَدِهِ بِالجُزْءِ الرَّابع .

٩ - ابْنُ القَيِّم لَهُ كِتاب (المَهْدِي) مَطْبُوعٌ ضِمْنَ (يَنابِيع المَوَدَّة) .

١٠ - جَلالُ الدِّين يُوسُفُ الدِّمَشْقِي لَهُ (عِقْدُ الدُّرَر فِى أَخْبارِ المَهْدي المُنْتَظَر) وهُوَ مَطْبُوع .

١١ - الشَّيْخُ مُحَمَّد حَبِيبُ اللهِ بنُ ما يابِي الجَكْنِي الشَّنْقِيطي لَهُ (الجَوابُ المُقْنِعُ المُحَرَّرُ فِى الرَّدِّ عَلَى مَنْ طَغَى وتَجَبَّرَ بِدَعْوَى أَنَّهُ عِيسَى أَو المَهْدِيُّ المُنْتَظَر) .

وتَتَبُّعُ كُتُبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِى هَذا المَوْضُوعِ يَطُولُ جِدّاً ، وبِخاصَّةٍ كُتُبُ الحَدِيثِ فِى المَلاحِمِ وأَشْراطِ السَّاعَةِ ، وكُتُبُ التَّوْحِيدِ وعِلْمِ الكَلامِ ، فَلا يَكادُ

يَخْلُو كِتابٌ مِنْها (نَظْماً أَو نَثْراً) مِنْ ذِكْرِالمَهْدِي ﷺ ، فَضْلاً عَنْ عَشَراتِ الكُتُبِ الشَّيعِيَّةِ المُتَجَدِّدَةِ والمُتَكاثِرَةِ فِى هَذا البابِ الَّذي أَفْرَدَهُ كِبارُ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ مِنَ الفُقَهاءِ والمُحَدِّثِينَ ، كَما رَأَيْنا بِالتَّآليفِ والتَّصْنِيف .

تَقْرِير .. وتَذْكِير

بِما قَدَّمْنا لَمْ يَعُدْ شَكٌّ فِى حَقِيقَةِ الإِمامِ المَهْدِي إِلاَّ عِنْدَ المُكابَرَةِ الَّتي قَدْ تُسْقِطُ صاحِبَها مِنْ عِيْنِ اللهِ ، وعَيْنِ النَّاسِ .

وفِيما عَدا الحَسَنِ والصَّحِيحِ مِنْ أَحادِيثِهِ ، لا تَرَى حَتَّى فِى رُواةِ ضَعِيفِها كاذِبٌ ولا وَضَّاعٌ ، فَلَمْ يَبْقَ أَيُّ سَبِيلٍ لِلطَّعْنِ فِى مُحَصِّلِها ، وهُوَ أَنَّ المَهْدِيَّ حَقٌّ لا شَكَّ فِيهِ ، وإِنْ كانَ لَمْ يَأْتِ زَمانُ ظُهُورِهِ بَعْدُ ؛ فَقَد أَظَلَّتْنا مُقَدِّماتُهُ ، وتَعَدَّدَتْ عَلاماتُه .



ما يَتَعَيَّنُ مَعْرِفَتُهُ مِنَ القَرائِنِ والأَحْوال ..
الَّتي تَعْصِمُ الإِنْسانَ مِنْ بَراثِنِ الدَّجَّال .

* عَنِ النَّواسِ بنِ سَمْعانَ رضي الله عنه قالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذاتَ غَداةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ ، ورَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طائِفَةِ النَّخْلِ ، فَلَمَّا رُحْنا إِلَيْهِ ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينا ، فَقالَ : (ما شَأْنُكُمْ ؟) ، قُلْنا : يا رَسُولَ اللّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ الغَداةَ ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ ورَفَّعْتَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طائِفَةِ النَّخْلِ ، فَقالَ :

(غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وأَنا فِيكُمْ ، فَأَنا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وإِنْ يَخْرُجْ ولَسْتُ فِيكُمْ ، فامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، واللّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

إِنَّهُ شابٌّ قَطَطٌ[1] عَيْنُهُ طافِيَةٌ ، كَأَنِّى أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَواتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ ، إِنَّهُ خارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ والعِراقِ ، فَعاثَ يَمِيناً وعاثَ شَمالاً ، يا عِبادَ اللّهِ فاثْبُتُوا) ، قُلْنا : يا رَسُولَ اللّهِ وما لُبْثُهُ فِى الأَرْضِ ؟ قالَ : (أَرْبَعُون يَوْماً : يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، ويَوْمٌ كَشَهْرٍ ، ويَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وسائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُم) ، قُلْنا : يا رَسُولَ اللّهِ ، فَذَلِكَ اليَوْمُ الَّذي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينا فِيهِ صَلاةُ يَوْمٍ ؟ قالَ : لا ، أَقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ) .

قُلْنا : يا رَسُولَ اللّهِ ، وما إِسْراعُهُ فِى الأَرْضِ ؟ .

قالَ : (كالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتِي عَلَى القَوْمِ ، فَيَدْعُوهُمْ ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، ويَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّماءَ فَتُمْطِرُ ، والأَرْضَ فَتُنْبِتُ[2] ، فَتَروحُ عَلَيْهِمْ سارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ ما كانَتْ ذُرًى ، وأَسْبَغَهُ ضُرُوعاً ، وأَمَدَّهُ خَواصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي القَوْمَ فَيَدْعُوهُم فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ[3] لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوالِهِمْ ، ويَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَها : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُها كَيَعاسِبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شاباً فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ ، فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ ، فَيُقْبِلُ ، ويَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ ، فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ

---

(١) أي : شَدِيدُ جُعُودَةِ الشَّعْر .
(٢) أي : دَوابُّهُم .
(٣) أي : يَنْقَطِعُ عَنْهُم المَطَرُ وتَجِفُّ أَرْضُهُم .

اللّٰهُ تَعالَى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنارَةِ البَيْضاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرودَتَيْنِ ، واضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمانٌ كاللُّؤْلُؤِ ، فَلا يَحِلُّ لِكافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلَّا ماتَ ، ونَفَسُهُ يَنْتَهِي إلَى حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عليه السلام قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللّٰهُ مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ ، ويُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجاتِهِمْ فِي الجَنَّةِ ، فَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إذْ أَوْحَى اللّٰهُ تَعالَى إلَى عِيسَى عليه السلام إنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِباداً لِي لا يَدانِ لأَحَدٍ بِقِتالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبادِي إلَى الطُّورِ .. ويَبْعَثُ اللّٰهُ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ[1] يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوائِلُهُم عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ ما فِيها ، ويَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كانَ بِهَذِهِ مَرَّةً ماء .. ويُحْصَرُ نَبِيُّ اللّٰهِ عِيسَى عليه السلام وأَصْحابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِينارٍ لأَحَدِكُمُ اليَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللّٰهِ عِيسَى عليه السلام وأَصْحابُهُ رضي الله عنهم ، إلَى اللّٰهِ تَعالَى ، فَيُرْسِلُ اللّٰهُ تَعالَى عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ واحِدَةٍ[2] ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللّٰهِ عِيسَى عليه السلام وأَصْحابُهُ رضي الله عنهم إلَى الأَرْضِ ، فَلا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلَّا مَلَأَهُ زُهَمُهُمْ ونَتْنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللّٰهِ عِيسَى عليه السلام وأَصحابُهُ رضي الله عنهم إلَى اللّٰهِ تَعالَى ، فَيُرْسِلُ اللّٰهُ تَعالَى طَيْراً كَأَعْناقِ الْبُخْتِ ، فَتَحْمِلُهُمْ ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شاءَ اللّٰهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللّٰهُ عَزَّ وجَلَّ مَطَراً لا يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ[3] ولا وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَها كالزَّلَقَةِ ، ثُمَّ يُقالُ لِلأَرْضِ : أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ ، ورُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ ، ويَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِها ، ويُبارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى إنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئامَ مِنَ النَّاسِ ، واللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ واللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ ، فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ إذْ بَعَثَ اللّٰهُ تَعالَى رِيحاً طَيِّبَةً ، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آباطِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وكُلِّ مُسْلِمٍ ، ويَبْقَى شِرارُ النَّاسِ يَتَهارَجُونَ فِيها تَهارُجَ الحُمُرِ[4] ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ)[5] .

---

(١) أي : مِنْ كُلِّ صَوْب .
(٢) أي : يَمُوتُونَ دُفْعَةً واحِدَةً .
(٣) أي : حَجَر .
(٤) أي : يُجامِعُ الرِّجالُ النِّساءَ عَلانِيَةً كَما تَفْعَلُ الحَمِيرُ .
(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِم .

بَيانُ مَعانِي المُفْرَدات :

قَوْلُهُ (خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ والعِراقِ) ، أَي : طَرِيقاً بَيْنَهُما .. وقَوْلُهُ (عاثَ) ، والعَيْثُ : أَشَدُّ الفَساد .. و(الذُّرَى) : أَعالِي الأَسْنِمَة .. و(اليَعاسِيب) : ذُكُورُ النَّحْل .. و(جِزْلَتَيْن) : قِطْعَتَيْن .. و (الغَرَضُ) : الهَدَفُ الَّذى يُرْمَى إِلَيْهِ بِالنَّشَّابِ ؛ أَى : يَرْمِيهِ رَمْيَةً كَرَمِي النَّشَّابِ إِلَى الهَدَفِ .. و(المَهْرُودَةُ) : الثَّوْبُ المَصْبُوغ .. وقَوْلُهُ (لا يَدانِ) : أَي لا طاقَةَ لِأَحَدٍ بِقِتالِهِمْ .. و(النَّغَفُ) : دُودٌ .. و(فَرْسَى) : جَمْعُ فَرِيسٍ ، وهُوَ القَتِيل .. و(الزَّلَقَةُ) : المِرْآة .. و (العِصابَةُ) : الجَماعَة .. و(الرِّسْلُ) : اللَّبَنُ .. و(اللِّقْحَةُ) : اللَّبُون .. و(الفِئامُ) : الجَماعَة .. و(الْفَخِذُ) : مِنَ النَّاسِ دُونَ القَبِيلَة .

* وعَنْ رِبْعِيِّ بنِ حِراشٍ قالَ : انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصارِيِّ إِلَى حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ ﷺ فَقالَ لَهُ أَبو مَسْعُودٍ : حَدِّثْنِي ما سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى الدَّجَّالِ قالَ : (إِنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ ، وإِنَّ مَعَهُ ماءً ونارًا ، فَأَمَّا الَّذي يَراهُ النَّاسُ ماءً فَنارٌ تُحْرِقُ ، وأَمَّا الَّذي يَراهُ النَّاسُ ناراً ، فَماءٌ بارِدٌ عَذْبٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَقَعْ فِى الَّذي يَراهُ ناراً ، فَإِنَّهُ ماءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ)[1] ، فَقالَ أَبو مَسْعُود : وأَنا قَدْ سَمِعْتُهُ .

* وعَنْ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرو بنِ العاص ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

(يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِى أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْماً ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْراً ، أَوْ أَرْبَعِينَ عاماً - فَيَبْعَثُ اللهُ تَعالَى عِيسَى بنَ مَرْيَمَ عليه السلام فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَداوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رِيحاً بارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِى كَبِدِ جَبَلٍ ، لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ ، فَيَبْقَى شِرارُ النَّاسِ فِى خِفَّةِ الطَّيْرِ ، وأَحْلامِ السِّباعِ[2] ، لا يَعْرِفُونَ مَعْروفاً ، ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَراً ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطانُ ، فَيَقُولُ : أَلا تَسْتَجِيبُونَ ؟

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

(٢) أَي : يَكُونُونَ فِى إِسْراعِهِمْ إِلَى الشَّرِّ والفَسادِ كَطَيَرانِ الطَّيْرِ ، وفِى العَدْوِ خَلْفَ بَعْضِهِمْ مِثْلَ السِّباع .

فَيَقُولُونَ : فَما تَأْمُرُنا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعبادَةِ الأَوْثانِ ، وهُمْ فِى ذَلِكَ دارٌّ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِى الصُّور ، فَلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتاً[1] ورَفَعَ لِيتاً وأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ[2] فَيُصْعَقُ ويُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللّهُ ـ أَوْ قالَ : يُنْزِلُ اللّهُ ـ مَطَراً كَأَنَّهُ الطَّلُّ ـ أَوِ الظِّلُّ ـ فَتَنبتُ مِنْهُ أَجْسادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرونَ ، ثُمَّ يُقالُ : يا أَيُّها النَّاسُ ، هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ، وقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ، ثُمَّ يُقالُ : أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ[3] فَيُقالُ : مِن كَمْ ؟ فَيُقالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمَائَةٍ وتِسْعَةَ وتِسْعِينَ ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً ، وذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ)[4].

* وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ :(لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ ، إِلاَّ مَكَّةَ والمَدينَةَ ، ولَيْسَ نَقْبٌ[5] مِنْ أَنْقابِهِما إِلاَّ عَلَيْهِ المَلائِكَةُ صافِّينَ تَحْرُسُهُما فَيَنْزِلُ بِالسَّبخَةِ ، فَتَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلاثَ رَجَفاتٍ ، ويُخْرِجُ اللّهُ مِنْها كُلَّ كافِرٍ ومُنافِقٍ)[6].

* وعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ (يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهانَ سَبْعُونَ أَلْفاً عَلَيْهِم الطَّيالِسَةُ)[7].

* وعَنْ أُمِّ شَرِيكٍ رضي الله عنها أَنَّها سَمِعَتِ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ : (لَيَنْفِرَنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِى الجِبالِ)[8].

* وعَنْ عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ : (ما بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ)[9].

* وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قالَ :(يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَيَتَلَقَّاهُ السَّالِحُ[10] : مَسالِحُ الدَّجَّالِ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : إِلَى أَيْنَ تَعْمِدُ

---

(١) اللِّيتُ : صَفْحَةُ العُنُقِ ، ومَعناهُ : يَضَعُ صَفْحَةَ عُنُقِهِ ويَرْفَعُ صَفْحَتَهُ الأُخْرَى .
(٢) أي : يُطَيِّنُهُ ويُصْلِحُهُ .
(٣) أي : مَنْ خُلِقَ لأَجْلِها .
(٤) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) فى صَحيحِه .
(٥) هُوَ الطَّريقُ بَيْنَ الجَبَلَيْن .
(٦) أَخْرَجَهُ مُسْلِم .
(٧)،(٨)،(٩) أَخْرَجَهُ مُسْلِم .
(١٠) المَسالِحُ : الخُفَراءُ والطَّلائِعُ .

فَيَقُولُ : أَعْمِدُ إِلَى هَذا الَّذي خَرَجَ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : أَوَ ما تُؤْمِنُ بِرَبِّنا ؟ فَيَقُولُ : ما بِرَبِّنا خَفاء ، فَيَقُولُونَ : اقْتُلُوهُ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ قَدْ نَهاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَداً دُونَهُ ، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ ، فَإِذا رَآهُ المُؤْمِنُ قالَ : يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ هَذا الدَّجَّالَ الَّذي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ[1] ، فَيَقُولُ : خُذوهُ وشُجُّوهُ ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وبَطْنُهُ ضَرْباً ، فَيَقُولُ : أَوَ ما تُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ : أَنْتَ المَسِيحُ الْكَذَّابُ ، فَيُؤْمَرُ بِهِ ، فَيُؤْشَرُ بِالمِنْشارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ القِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : قُمْ ، فَيَسْتَوِي قائِماً .. ثُمَّ يَقُولُ لَهُ أَتُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ : ما ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً .. ثُمَّ يَقُولُ : يا أَيُّها النَّاسُ ، إِنَّهُ لا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ فَيَجْعَلُ اللهُ ما بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحاساً ، فَلا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلاً فَيَأْخُذُهُ بِيَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ ، فَيَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّما قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وإِنَّما أُلْقِي فِي الجَنَّةِ) .

فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (هَذا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهادَةً عِنْدَ رَبِّ العالَمِينَ)[2] .

❋ وعَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قالَ : ما سَأَلَ أَحَدٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الدَّجَّالِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ ، وإِنَّهُ قالَ لِي : (ما يَضُرُّكَ ؟) قُلْتُ : إِنَّهُم يَقُولُونَ : إِنَّ مَعَهُ جَبَلَ خُبْزٍ ونَهْرَ ماءٍ ، قالَ : (هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ)[3] .

❋ وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مامِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الكَذَّابَ ، أَلا إِنَّهُ أَعْوَرُ ، وإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر)[4] .

❋ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (أَلا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً عَنِ الدَّجَّالِ ما حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ إِنَّهُ أَعْوَرُ ، وإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثالِ الجَنَّةِ والنَّارِ ، فالَّتِي يَقُولُ إِنَّها الجَنَّةُ هِيَ النَّارُ)[5] .

❋ وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ الدَّجَّالَ بَيْنَ ظَهْرانِيِّ النَّاسِ[6] ، فَقالَ

---

(١) أي : يُطْرَحُ عَلَى بَطْنِهِ .
(٢) أَخْرَجَهُ (مُسْلِمٌ) ، وأَخْرَجَ (البُخارِيُّ) بَعْضَهُ بِمَعْناه .
(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .
(٤) ، (٥) ، مُتَّفَقٌ عَلَيْه .
(٦) أي : بَيْنَهُم .

(إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، أَلا إِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طافِيَةٌ)[1].

وفِي الصَّحِيحَيْنِ ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ،قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً ، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، ويَقْتُلَ الخِنْزِيرَ ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ (أَي : فَلا يَقْبَلَ مِنْ أَهْلِها إِلاَّ الإِسْلامَ) ، ويَفيضَ المالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، وحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الواحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيا وما فِيها)[2].

ثُمَّ يَقُولُ أَبو هُرَيْرَةَ : اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[3].

ولِلّهِ دَرُّ الإِمامِ السُّيُوطي فِي أَرْجُوزَتِهِ ، وقَد جاءَ فِي مَطْلَعِها :

الحَمْدُ لِلّهِ العَظِيمِ المِنَّهْ * المانِحِ الفَضْلَ لِأَهْلِ السُّنَّهْ
ثُمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ نَلْتَمِسْ * عَلَى نَبِيٍّ دِينُهُ لا يَنْدَرِسْ
لَقَدْ أَتَى فِي خَبَرٍ مُشْتَهَرْ * رَواهُ كُلُّ حافِظٍ مُعْتَبَرْ
بِأَنَّ فِي رَأْسِ كُلِّ مائَةْ * يَبْعَثُ رَبُّنا لِهَذِي الأُمَّةْ
مَنَّاً عَلَيْها عالِماً يُجَدِّدْ * دِينَ الهُدَى لِأَنَّهُ مُجَدِّدْ
فَكانَ عِنْدَ المائَةِ الأُولَى عُمَرْ * خَلِيفَةُ العَدْلِ بِإِجْماعٍ وَقَرْ
والشَّافِعِيُّ كانَ عِنْدَ الثَّانِيَهْ * لِما لَهُ مِنَ العُلُومِ السَّارِيَهْ

إِلَى أَنْ قالَ :

وآخِرُ المَئِينَ فِيها يَأْتِي * عِيسَى نَبِيُّ اللهِ ذُو الآياتِ
يُجَدِّدُ الدِّينَ لِهَذِي الأُمَّهْ * وفِي الصَّلاةِ بَعْضُنا قَدْ أَمَّهْ
مُقَرِّراً لِشَرْعِنا ويَحْكُمْ * بِحُكْمِنا وفِي السَّماءِ يَعْلَمْ
وبَعْدَهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُجَدِّدْ * ويُرْفَعُ القُرْآنُ مِثْلَ ما بُدِي

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه . (٢) أَخْرَجَهُ (البُخارِيُّ) ، و(مُسْلِم) . (٣) سُورَةُ النِّساء (الآيَة ١٥٩) .

خاتِمَةٌ . . . فاتِحَةٌ

. . وإنَّهُ إذا كانَ أَوانُ بِدايَةِ نِهايَةِ الإنْسانِ وزَوالِ الأَكْوانِ مِنَ الزَّمَنِ المُحَمَّدِى ، والوَقْتِ الأَحْمَدِي ، وارْتَفعَ باطِنُ القُرْآنِ مِنْ ظاهِرِهِ ، وغابَ سِرُّ الأَسْرارِ فِى غَيْبِ حاضِرِهِ ، وبَقِىَ ظاهِرُ الأَحْكامِ لإمْساكِ ما بَقِىَ مِنَ النِّظامِ ، وخَرَجَ المَهْدِىُّ الإمامُ سلِيلُ سَيِّدِ الأَنامِ ﷺ ،وظَهَرَعَلَى مَرْأَى الأَشْهادِ الدَّجَّالُ مَجْمَعُ الكُفْرِ والعِنادِ ، ونَزَلَ عِيسَى بنُ مَرْيَم عليه السلام ، وصَحَّ الخَبَرُ التَّمامُ . . فَيَكُونُ بِقِيامِ هَذا الإمامِ تَلْطِيفُ صُوَرِالأَجْسامِ مَعَ رِقَّةِ تَصَوُّرِ نُفُوسِ الأَنامِ وتَنْكَشِفُ الجانُ الَّذى هُوَ مَعَنا فِى هَذِهِ الأَكْوانِ بِتَجَلِّي كائِنَةِ الأَكْوانِ فَيَكُونُ ما يَكُونُ مِنْ ظُهُورِ أَشْراطٍ وآياتٍ وعَجائِبَ وواقِعاتٍ كَحَدِيثِ الدَّجَّالِ وسِنِينِهِ الغوالِ وجَنَّتِهِ ونَارِهِ ، وإماتَتِهِ وإحْيائِهِ ، وخُروجِ يأْجُوجَ ومأْجُوجَ ، وشُرْبِهِمْ ماءَ أَنْهارِها وبِحارِها وتَسَلُّلِهِمْ مِنْ أَوْهادِها وأَوْعارِها ومِنْ أَحْجارِها وأَشْجارِها ، ونُزولِ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ عليه السلام ، وقَتْلِهِ الدَّجَّالَ وهُوَ فلَكُ إبْلِيسَ الرَّجِيمِ وهُوَ طافِى العَيْنِ كالعِنَبَةِ ، وبما فَقَأَ عُمَرُ رضي الله عنه عَيْنَ إبْلِيسَ لَمَّا اعْتَرَضَ لَهُ فِى الطَّرِيقِ وهَمَّ أَنْ يَعُوقَهُ ذَلِكَ التَّعْوِيقُ ، وكَما اتَّحَدَ إبْلِيسُ فِى صُورَةِ ابْنِ صَيَّادٍ الدَّجَّالِ اتَّحَدَ عَرْشُهُ الَّذى كانَ عَلَى البَحْرِ فِى صُورَةِ حِمارِهِ الَّذي يَضَعُ حافِرَهُ مُنْتَهَى طَرَفِهِ ، فَإذا قَتَلَهُ عِيسَى عليه السلام ماتَ جَمْعُ الكُفْرِ والإغْواءِ ، وانْتَسَخَتْ نُسْخَةُ فَسادِ الآراءِ والأَهْواءِ ؛ هَذا بَعْدَ قَتْلِهِ هُوَ لِلْكَبِيرِ الكَهْفِى أَو كَما جاءَ ، ودُعاءِ عِيسَى عليه السلام عَلَى يأْجُوجَ ومَأْجُوجَ ومَوْتِهِمْ بِدَعْوَتِهِ ، ومَوْتِ جَمِيعِ الكُفَّارِ بِرِيحِهِ ، وتَطْهِيرِ الأَرْضِ بِالمَطَرِ ، وإخْراجِ الأَرْضِ بَرَكاتِها مِنْ أَفْلاذِ كَبِدِها ، وتَعْظِيمِ ثَمَرِها ، وأَمانِ أَهْلِها فِيها .. ويُرْفَعُ كُلُّ ذَلِكَ بِانْتِقالِ عِيسَى عليه السلام .

ثُمَّ يَرْتَفِعُ ظاهِرُ القُرْآنِ كَما ارْتَفَعَ باطِنُهُ قَبْلُ ؛ فَتَبْقَى الخَلْقُ حُثالَةً كَحُثالَةِ التَّمْرِ يَتَهارَجُونَ تَهارُجَ البهائِمِ لا يَعْرِفُونَ كُفْراً ولا إيماناً ولا دِيناً ولا دَيَّاناً .. وهَذِهِ الأَشْراطُ وأَمْثالُها وما جاءَ فِيها كُلُّها واقِعَةٌ عِنْدَ تَلَطُّفِ الأَجْسامِ والأَبْدانِ وتَعْيِينِ

بَرْزَخ عالَم المِثال المَسْتُور فِى الإنْسانِ ، وفِى هَذا البَرْزَخ تَقَعُ الواقِعَةُ ، وهَذا كُلُّهُ مُلْتَمَسٌ فِى الصُّورَةِ التَّاسِعَةِ[1] ، وهَذا مِنْ تَأْصِيلِ ما حَصَلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلُ المَنامِىّ[2] ، والتَّنْزِيلُ فِى الغَيْبَةِ عَنِ الحِسِّ الجِسْمانِى ، ولأَنَّهُ ما مِنْ نَبِىٍّ إلاَّ وقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ الدَّجَّال .. وأَعْلَمَهُمْ بِما سَيَكُونُ مِنَ الأَشْراطِ الواقِعاتِ والعَلاماتِ والأَهْوالِ وكُلُّهُم كانُوا أَهْلَ مُكاشَفاتٍ ومُطالَعاتٍ وإخْباراتٍ عَلَى مُشاهَداتٍ ومُعايَناتٍ وتَكُونُ فِى هَذا العَصْرِ وقَدْ حُشِرَ الكُلُّ لِحِكْمَةِ الحَشْرِ والنَّشْرِ وكُشِفَ غِطاءُ السِّتْرِ بِنَفْيِ كَثافَةِ الجِسْمِ عَمَّا فِى البَرْزَخِ المَشْهُودِ مِنْ تَعْيِينِ أَعْيانِ الوَعْدِ المَوْعُودِ ، وبِنُزُولِ الرُّوحِ عِيسَى عليه السلام الَّذى أَقَرَّ لَهُ إبْراهِيمُ عليه السلام ومُوسَى عليه السلام عِلْمَ السَّاعَةِ تَتَعَيَّنُ هَذِهِ الأَعْيانُ المَوْعُودَةُ والأَحْوالُ المَشْهُودَةُ ، وبِما يَكُونُ مِنْ مَدِّ الأَرْضِ مَدَّ الأَدِيمِ ، ونَسْفِ الجِبالِ ، فَلابُدَّ لِلْبَشَرِ مِنْ زِيادَةِ قُوَّةٍ فِى كَيْفِيَّةِ الحالِ الَّتى يُباشِرُ بِها هَذِهِ الأَحْوالَ وتَحَقُّقِ حَقائِقِ الأَقْوالِ الَّتى لا يَتَطَرَّقُ إلَيْها المُحالُ بِحال .. وتَكُونُ هَذِهِ الكَيْفِيَّةُ الزَّائِدَةُ مِنْ مَبادِىءِ السَّكْرَةِ الَّتى تَكُونُ بِها لِلنَّاسِ عِنْدَ الواقِعَةِ وقَرْعِ القارِعَةِ ، ولأَنَّ هَذِهِ الأَحْوالَ مِنْ أَشْراطِ إتْيانِها ومَبادِي زمانِها وتَجَلِّى أَحْكامِ أَوانِها وإبَّانِها .. وكَيْفَ لا وهُوَ ﷺ يَقُولُ وهُوَ نَبِىُّ السَّاعَةِ : (بُعِثْتُ أَنا والسَّاعَةُ كَهاتَيْنِ) ، وقالَ تَعالَى :

﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[3] ، وبِما ثَقُلَتْ فِى السَّمواتِ والأَرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ ، سَرَى سِرُّ أَحْكامِها فِى الأَسْرارِ وغَشَّى غَشَيانُ سُكْرِها إدْراكَ العُقُولِ والأَبْصارِ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾[4] ، فإذا انْتَهَى القَوْلُ فَلْنَرْجِعْ إلَى المَقُولِ الأَوَّلِ ونَفْيِ شُبْهَةِ قَوْلِ مَنْ تَقَوَّلَ .. فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ غَيْبَتِهِ إلَى حِسِّهِ ذَكَرَ اللهَ وحَمِدَ فَبَرَزَتْ أَنْوارُ أَذْكارِهِ وأَسْرارُ أَقْوالِهِ وأَفْعالِهِ ؛ فَسَرَتْ أَرْواحُ الحَياةِ فِى الأَرْضِ والماءِ والنَّار والهَواءِ ، فَعَذَبَتِ الأَنْهارُ وأَثْمَرَتِ الأَشْجارُ وكُفَّ لَهَبُ النَّارِ بِالأَنْوارِ وطابَ نَسِيمُ الهَواءِ

---

(١) البَقاءُ بَعْدَ الفَناءِ فِى الذَّات .
(٢) النَّوْمَةُ الآدَمِيَّةُ قَبْلَ النُّزُولِ إلَى الأَرْض .
(٣) سُورَةُ النَّجْم (الآية ٥٧ ، ٥٨) .
(٤) سُورَةُ الحَج (مِنَ الآية ٢) .

بِنَسَماتِ تِلْكَ الدَّارِ وهُو مِنْ سِرِّ قوْلِهِ ﷺ :(فِي الأَرْضِ نَهْرانِ مِنَ الجَنَّةِ) أَو أَرْبَعَةُ أَنْهارٍ عَلَى الحَديثِ الثَّانِي (وهِيَ النِّيلُ والفُراتُ) أَو كَما قالَ ﷺ؛ فَأَشارَ إِشارَةً مُعَزَّزَةً مُوَقَّرَةً مُقَدَّسَةً مُطَهَّرَةً تُشِيرُ إِلَى حَقائِقَ وأَسْرارٍ وتَجَلِّيَّاتٍ وأَنْوارٍ ، وبِما كانَتْ هَذهِ الصُّورَةُ الآدَمِيَّةُ هِيَ بابُ صُوَرِ الصُّورَةِ الإِسْرافِيلِيَّة وهُوَ البابُ الَّذي﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾(١)..فَما يَبْرُزُ إِلَى هَذهِ الدَّارِ مِنْ رُوحٍ نَعِيمٍ وريٍّ ماءٍ وبَرْدِ نَسِيمٍ وطِيبِ ثَمَرَةٍ ونَباتِ أَصْلٍ وشَجَرَةٍ وحِفْظِ نَسْمَةٍ وبَشْرَةٍ فَمِنْ هَذا البابِ بُروزُهُ وعَلَى الطَّرِيقِ خُروجُهُ ، ولِذَلِكَ قالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾(٢) وهِيَ السَّماءُ الدُّنْيا الَّتي يَنْزِلُ إِلَيْها رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ فَيَقُولُ : (هَلْ مِنْ تائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ) إِلَى ذَلِكَ ، ولأَنَّ القَلْبَ بَيْتُ الرَّبِّ فَلا مَنْزِلَ لَهُ سِواهُ ، ولا بَيْتَ لَهُ إِلاَّ إِياهُ وبِما قالَ تَعالَى : (لَنْ تَسَعَنِي أَرْضِي ولا سَمائِي ووَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِيَ المُؤْمِن) .. فانْتَفَى النُّزُولُ عَنْ غَيْرِهِ وفِي غَيْرِهِ بِما وَجَبَ بِهِ مِنَ القَوْلِ الفَصْلِ والخَبَرِ الصِّدْقِ بِالنَّبأِ الحَقِّ فَلا تَبْدِيلَ ولا تَغْيِيرَ وإِنِ اشْتَبَهَ ذَلِكَ فِي أَذْهانِ القاصِرِينَ واخْتَلَفَ مَفْهُومُهُ عَلَى عُقُولِ الحائِرِينَ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(٣) .

ولْنَعْلَمْ .. أَنَّهُ إِذا تَمَّتِ القَضِيَّةُ وانْتَهَتْ هَذهِ النَّزْلَةُ السُّفْلِيَّةُ وارْتَفَعَتْ هَذهِ الرَّحْمَةُ بِالكُلِّيَّةِ ونَفَخَ إِسْرافِيلُ فِي الصُّوَرِ وانْحَلَّ نَظْمُ نِظامِ تَرْتِيبِ طِباعِ الكُوَرِ وانْتَثَرَتِ الكَواكِبُ والشَّمْسُ والقَمَرُ وانْطَبَقَ الأَثِيرُ عَلَى قَعْرَةِ القَعْرِ كانَتِ السَّبْعَةُ كَواكِبُ السَّيَّارَةِ الَّتي تَكُونُ فِي الجَحِيمِ وأَعْلاها وأَكْبَرُها الشَّمْسُ والقَمَرُ ، ولِهَذا عَبَّرَ بِهِما وسَكَتَ عَنِ الأَصْغَرِ لانْدِراجِهِ فِي الأَكْبَرِ وبِما يَكُونُ مِنْ فَتْقِ جَهَنَّمَ فِي سَبْعِ طَبَقاتٍ سَجِيناتٍ قَعَراتٍ تَكُونُ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْها طَبَقٌ مِنَ الأَثِيرِ ذِي اللَّهَبِ والزَّفِيرِ والسَّمُومِ والزَّمْهَرِيرِ ، فَتَكُونُ هَذهِ الكَواكِبُ حُجُبَ تَجَلِّياتِ عَذابٍ وانْفِهاقاتِ نَكالٍ

---

(١) سُورَةُ الحَدِيد (مِنَ الآيَة ١٣) .
(٢) سُورَةُ نُوح (مِنَ الآيَة ١٠، الآيَة ١١) .
(٣) سُورَةُ فاطِر (مِنَ الآيَة ٤٣) .

ومَرائِيَ تَجَلِّيَّاتِ أَسْماءِ أَرْبابٍ منْ أَسْماءِ الغَضَبِ والإعراضِ وبِما كانوا فِى هَذهِ الدَّارِ شُهُوداً عَلَى الفاعِلينَ كانُوا أَنْواراً فِى عُيُونِ النَّاظِرينَ فَلا وَزَرَ مِنْهُم ولا مُسْتَتَرَ ولا مَفَرَّ ، وبِما قالَ ﷺ: (لا تُبْدُوا عَوْراتِكُم لِلشَّمْسِ ولا لِلْقَمَر) لأَنَّهُما مَلَكانِ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، أَو كَما قالَ ﷺ، وهَذا مَعْنَى الخَبَرِ فَتَكُونُ هَذهِ السَّبْعَةُ فِى دار الجَحِيمِ كالسَّبْعِ المَثانِي فِى دار النَّعِيم :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١) .



(١) سُورَةُ الواقِعَة (الآيتان ٩٥ ، ٩٦) .

ثَبْتُ المَراجِع (المَصادِرُ والمَناهِل)

- القُرْآنُ الكَرِيمُ بِالرَّسْمِ العُثْمانِى الشَّهِير
- التَّفْسِيرُ الكَبِيرُ ،لـ (فَخْر الدِّينِ الرَّازِى) • تَفْسِيرُ ابنِ كَثِير
- البَحْرُ المَدِيد فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ المَجِيد ، لـ (أَحمد بنِ عَجِيبَة)
- البَحْرُ المُحِيطُ فِى التَّفْسِير ،لـ (أَبى حَيَّان الأَنْدَلُسِى)
- المُوَطَّأ ، للإِمامِ (مالِك) • الأُمُّ ، للإِمامِ (الشَّافِعِى)
- مُسْنَدُ الإِمام (أَحمد بنِ حَنْبَل) • التَّذْكِرَة ، لـ (القُرْطُبِي)
- صَحِيحُ البُخارِى • صَحِيحُ مُسْلِم
- اللُّؤْلُؤُ والمَرْجان فِيما اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخان ، وَضْع (محمد فؤاد عبد الباقى)
- سُنَنُ أَبى داوُد • سُنَنُ ابنِ ماجَه • سُنَنُ التِّرمِذى
- رياضُ الصَّالِحين ، لأَبى زَكَرِيَّا (يَحْيَى بنِ شَرَف النَّوَوِى)
- السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ، لـ (ابن هِشام) • العَرْف الوَرْدِي ، لـ (السِّيوطي)
- حاشِيَةُ الباجُورِى عَلَى جَوْهَرَةِ التَّوْحِيد
- التَّنْدِيد بِمَنْ عَدَّدَ التَّوْحِيد ، لـ (حسن بنِ عَلِى السَّقَّاف)
- إِحْياءُ عُلُومِ الدِّين ، لِحُجَّةِ الإِسْلام (الغَزالِى)
- مَواقِفُ سَيِّدِنا رَسُولِ الله ﷺ مَعَ العالَم ، لـ (عبد الله سِراج الدِّين)
- الإِيمانُ بِعَوالِمِ الآخِرَةِ ومَواقِفِها ، لـ (عبد الله سِراج الدِّين)
- حُجِيَّةُ السُّنَة ، لـ (د. عبد الغنى عبد الخالق)
- مَقالاتٌ وفَتاوَى ، لـ (يُوسف الدِّجْوِى)
- قُوتُ القُلُوب ، لـ (أَبِي طالِبِ المَكِّي)
- أَساسُ السَّعادَة ، لـ (محمد الطاهر الحامدى)
- المُروشُ الإِنْسانِيَّة ، لـ(محمد وفا)

- فُرقانُ القُرآن ، لـ (سلامة العزَّامِى)
- خُلاصَةُ البَيان فِى حُكْمِ نَوْعِ الإِنْسان ، لـ (محمد أَبِى الهُدَى الصَّيَّادِى)
- الدِّينُ القَيِّمُ وقَضايا العَصْرِ ، لـ (محمد الحافِظ التِّجانى)
- بَراءَةُ الأَشْعَرِيِّين مِن عَقائدِ المُخالِفين ، لـ (أبى حامد مرزوق)
- مُقَدِّمَةُ حُجِّيَّةِ السُّنَّة ، لـ (الطاهر محمد الطاهر الحامدى)
- مُقَدِّمَةٌ فِى : الأُصُولِيَّةِ المَسِيحيَّة فِى أَمريكا ، والرئيسُ الَّذى اسْتَدْعاهُ اللّٰهُ وانْتَخَبَهُ الشَّعْبُ الأَمْريكى مَرَّتَيْن ، لـ (عادل المَعَلِّم)
- الإِنسان والإِسلام ، لـ (محمد الطاهر الحامدى)
- القرآن وقضايا الإنسان ، لـ (د.عائشة عبد الرحمٰن)
- مُحَمَّدٌ ﷺ الإِنسانُ الكامِل ، لـ (د. محمد علوى المالكى)
- تَفْجِيرُ الطاقاتِ الكامِنَةُ فِى الإِنسان ، لـ (د. حسن عبَّاس زكى)
- الإِنسان والوجود ، لـ (د. حسن عبَّاس زكى)
- إِنسانيَّات مُحَمَّد ، لـ (خالد محمد خالد)
- مدارسُ الحُبِّ مَصانِعُ الرِّجال ، لـ (محمد خالد ثابت)
- أَنوارُ الشريعة ومَعارِجُ الحقيقة ، لـ (د. حسن عبَّاس زكى)
- قَضيَّةُ الإِمام المَهْدِى بَيْنَ الرَّفْضِ والقَبُول ، لـ (محمد زكى إبراهيم)
- نفحاتُ الرَّحمٰن ، لـ (عبد المجيد عبد الرحمٰن نُصير)
- الإِسلامُ وقَضايا المَرْأَة ، لـ (د. جمال الدين محمد محمود)
- التِّبْيان (مجلة شهرية) ، إِصدارُ الجمعيَّة الشَّرعيَّة الرَّئيسيَّة
- تحريرُ المرأَةِ مِن أَوهامِ المُتجاهلين ، لـ (د. محمود عمارة)
- المُجَدِّدونَ فِى الإِسلام ، لـ (عبد المُتعال الصَّعيدى)
- تَجديدُ الخِطاب الدِّينِى الدَّعَوِى والفِكْرِى ، لـ (د. السعيد محمد على)

- التَّبْشِيرُ عِنْدَ المُسْلِمينَ والجَماعاتِ الأُخْرَى ، لـ (محمد ديبُو الدِّيبُو)
- سلسلةُ كُتُبٍ فلسطينية ، لـ (موسى شحادة)
- الموسوعة العربية الميسَّرَة ، إشراف (شفيق غُربال)
- أُوروبا والتَّخَلُّف فِى أفريقيا ، لـ (والتر رورثى)
- مُحَمَّدٌ ﷺ فِى التَّوراةِ والإِنْجِيل والقُرْآن ، لـ (أحمد خليل إبراهيم)
- التَّربيَةُ الصَّهيُونيَّة ، لـ (حسن الباش)
- مُحَمَّدٌ ﷺ فِى الكِتابِ المُقَدَّس ، لـ (عبد الأحد داوُد)
- الفلسفة الحديثة فِى الميزان ، لـ (محمد فتح الله بدران)
- الفِكْرُ الإِسْلامِى الحَدِيث وصِلَتُهُ بِالاسْتعمار الغَرْبى ، لـ (محمد البَهِىّ)
- دِراسةٌ فِى الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ فِى ضَوْءِ المَعارفِ الحَدِيثَة ، لـ (موريس بوكاى)
- الأَفْعَى اليهُودِيَّة ، لـ (عبد الله التَّلّ)
- بروتوكُولات حُكَماء صَهْيُون ، لـ (محمد خليفة التونْسِى)
- الإِسلام دينُ المستقبل ، لـ (روجيه جارودى)
- آفاقٌ جديدةٌ للدَّعْوَة الإِسلامية فى عالَم الغَرب ، لـ (أَنور الجندى)
- فِى مواجهة الحملة على الإِسلام ، لـ (أنور الجندى)
- أَجْنِحَةُ المَكْرِ الثلاثة ، لـ (عبد الرحمن حسن حَبَنْكَة)
- العُثمانيُّون فِى التاريخ والحضارة ، لـ (محمد حرب)
- الماسُونِيُّون فِى الوطن العربى ، لـ (حسين عمر حمادة)
- التَّبشِير والإِسْتِعْمار ، لـ (مصطفى خالدى ، وعمر فَرُّوخ)
- قُوى الشَّرِّ المُتَحالِفَة ، لـ (محمد محمد الدَّهَّان)
- التَّحَدِّى الصَّهْيُونِى ، لـ (جاك دومان ، مارى لورو)
- اليهودِيَّة العالَمِيَّة وحَرْبُها المُسْتَمِرَّةُ عَلَى المَسِيحيَّة ، لـ (إيليا أبو الرُّوس)

- الإسلام فى أثيوبيا ، لـ (زاهر رياض)
- صلاح الدين الأيُّوبى ، لـ (أبى الحسن عَلِى الحَسَنى النَّدَوِى)
- الاسْتِشْراق والخلفيَّة الفكرية للصراع الحضارى ، لـ (محمود حمدى زقزوق)
- الاسْتِشْراق والمُسْتَشْرقُون ما لهم وما عليهم ، لـ (مصطفى السباعى)
- الغزو الفِكْرى والتيارات المعادية للإسلام ، لـ(عبد الستار فتح الله سعيد)
- مُقارنَةُ الأديان المسيحيَّة ، لـ (أحمد شلبى)
- الملَل والنِّحَل ، لـ (أبِى الفَتْح الشهرستانى)
- المُخَطَّطات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، لـ (محمد محمد الصوَّاف)
- مُحَمَّدٌ نَبِىُّ الإسلام فِى التَّوراةِ والإنْجِيل والقُرْآن،لـ(محمد عزت الطهطاوى)
- جِهادُ المسلمين فِى الحروب الصليبيَّة ، لـ (فايد حمَّاد محمد عاشور)
- قادَةُ الغرب يقولون دَمِّروا الإسلامَ أَبِيدوا أَهْلَهُ ، لـ (جلال الدين العالِم)
- القُرآنُ الكريمُ فِى كِتاباتِ غَيْر المسلمين ، لـ (أحمد محمد علم الدين)
- مُحَمَّدٌ ﷺ فِى الكُتُبِ المُقَدَّسَة ، لـ (محمد رَوَّاس قَلْعَجِى)
- الاسْتِعمارُ والتَّنْصِيرُ فِى أفريقيا السَّوْداء ، لـ (عبد العزيز كحلوت)
- سِياسَةُ إسرائيل فِى أَفريقيا الاسْتِوائيَّة ، لـ (دابونا ماريون)
- ماذا خَسِرَ العالَمُ بانْحِطاطِ المُسلمين ، لـ (أبى الحسن الندوى)
- الصِّراعُ بَيْنَ الفكرة الإسلاميَّة والفكرة الغربيَّة ، لـ (أبى الحسن الندوى)
- الإسلاميَّات بين كِتابات المُسْتَشرقين والباحثين المُسْلِمين ، لـ (أبى الحسن الندوى)
- كِيمْياءُ السَّعادَة ، لـ (أبِي حامِد الغزالِي)
- البَيانُ الجازم .. أَنَّ التَّصَوُّفَ لِتَزْكِيَةِ الإنْسانِ نَهْجٌ لازِم ، لـ (د.سعيد أبو الأسعاد)



الفهرس الموضوعى للكتاب

الموضوع	الصفحة
تصريح الأزهر	٣
الاستفتاح	٤
الشَّيْطان .. في زيِّ إِنْسان	
بِدَعْوَى الإِنْسانيَّة .. ارْتَكَبُوا المَجازِرَ الجَماعِيَّة	٩
العَوْلَمَة	١٠
إِشاعَةُ الفاحِشَةِ بِحُجَّةِ الوِقايَةِ مِنَ الفاحِشَة	١٦
المُزايَدَة باسْمِ المُواطَنَة	١٨
مَزاعِمُ الحُرِّيَّة الدِّينيَّة	٢٣
مَزاعِمُ التَّسامُح الدِّيني	٢٤
حُرِيَّةُ المَرْأَةِ فِي إِطارِها الصَّحِيح	٢٥
بُنُوكُ اللَّبَن وامْتِهانُ الإِنْسان	٣٢
تَعَدُّدُ الزَّوجات وتَصْحِيحُ الافْتراءات	٣٣
الدِّيمُقراطِيَّة فِى ثَوْبِ العَلْمانِيَّة	٣٤
المَفاسِدُ الأَخْلاقِيَّة ومَدْعاةُ الحُقُوقِ الإِنْسانيَّة	٣٧
التَّفْريطُ بِدَعْوَى التَّيْسير	٣٧
خِتانُ الإناث وآدَمِيَّةُ الإِنْسان	٣٩
تَنْظِيمُ النَّسْل .. إِبادَةٌ فِي الأَصْل	٤١
مَزاعِمُ الشَّيْطان بِادِّعاءِ التَمَدُّنِ ورِعايَةِ حُقُوقِ الإِنْسان	٤٤
تَسَتُّرُ الصَّهْيُونيَّة بِاليَهُودِيَّة لِهَدْمِ الأَدْيانِ السَّماوِيَّة	٤٦

الموضوع الصفحة

شَيْخٌ شَيَّخَهُ الشَّيْطان

١) الَّذينَ ادَّعَوا أَنَّهُم قُرْآنِيُّون ٦٥

٢) الَّذين ادَّعَوا سُقُوطَ التَّكْلِيفِ عَنْهُم..... ٧٢

٣) الَّذينَ عَدَّدوا التَّوْحِيد..... ٧٥

وأمَّا مَنْ شَيَّخَهُ الزَّمانُ ٨٨

وأَمَّا مَنْ شَيَّخَهُ الرَّحْمٰنُ ٨٨

تَفْرِيغُ مَواسِمِ الطَّاعاتِ مِنَ الرُّوحانِيَّات..... ٨٩

الفَضائِيَّات .. واسْتِباحَتُها بَكارَةَ الإِنْسانِيَّات..... ٩٠

المُباحات فِى دائِرَة المُحَرَّمات والمُهْلِكات..... ٩١

جَحَدوا بِالرَّحْمٰن .. فاسْتَعْبَدَهُم الشَّيْطان..... ٩٣

الإِنْسانُ بِلا إِيمان .. ذَلِكَ هُوَ الخُسْران..... ٩٥

مَعْرِفَةُ النَّفْس الإِنْسانيَّة .. وِقايَةٌ مِنَ المَزالقِ الشَّيْطانيَّة..... ١٠١

الإِنْسانُ مَجْمَعُ العَجائِب..... ١٠٤

مُشابَهَةُ الإِنْسانِ لِلْفَلك..... ١٠٥

الإِنْسانُ جامِعٌ للمَوْجُودات..... ١٠٨

عُمْرُ الإِنْسان وفُصُولُ السَّنَة..... ١٠٩

العَلاقَةُ بَيْنَ القَمَرِ وأَحْوالِ الإِنْسان..... ١١٠

مَعْرِفَةُ الإِنْسانِ ضَرورةٌ عَلَى طَرِيقِ مَعْرِفَةِ اللّٰه..... ١١٢

الإِسْلام .. دِينُ الفِطْرَةِ المُلائِمُ لِسائِر الأنام..... ١١٨

شَرَفُ الإِنْسانِ واعْتِبارُهُ عَلَى حَسَبِ تَحَقُّقِهِ بِالتكاليفِ الشَّرْعِيَّة..... ١٣٦

الموضوع	الصفحة

إيضاحُ المعانِي .. بِتَعْرِيجٍ حَوْلَ الرُّوحِ الإِنْسانِي..... ١٤١
قِمَّةُ كَمالِ الإِنْسان .. فِى نَبِّي آخِرِ الزَّمان ﷺ ١٥٣
القَوْلُ الفَصْلُ المُيَسَّر .. هَلِ الإِنْسانُ مُخَيَّرٌ أَم مُسَيَّر..... ١٨٨
جَزاءُ انْتِسابِ الإِنْسانِ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وتَوَلِّيهِ غَيْرَ مَوالِيه..... ١٩٢
سُؤالُ الإِنْسانِ عَنْ أَهْلِهِ وعَمَّا اسْتَرعاهُ اللّهُ تَعالَى..... ١٩٣
سُؤالُ الإِنْسانِ عَنِ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤاد ١٩٤
سُؤالُ الإِنْسانِ عَنِ العُمْرِ والعِلْمِ والمالِ والجِسْمِ والشَّباب..... ١٩٦
سُؤالُ الإِنْسانِ عَنِ النَّعِيم..... ١٩٩
سُؤالُ الإِنْسانِ عَنْ بَقِيَّةِ الآلاءِ المالِيَّةِ وغَيْرِها ٢٠٢
سُؤَالُ الإِنْسانِ عَنْ نِيَّتِهِ ومُرادِهِ مِنَ الأَعْمالِ الصَّالِحَة ٢٠٥
انْتِفاعُ الإِنْسانِ بَعْدَ الانْتِقال .. بِما يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ صالِحِ الأَعْمال..... ٢٠٧
حَشْرُ كُلِّ إِنْسانٍ مَعَ مَحْبُوبِه ٢١٤
مَهْدِيُّ آخِرِ الزَّمان .. حَقِيقَةٌ وبَيان ٢١٥
ما يَتَعَيَّنُ مَعْرِفَتُهُ مِنَ القَرائِنِ والأَحْوال ..الَّتي تَعْصِمُ الإِنْسانَ
مِنْ بَراثِنِ الدَّجَّال ٢٤١
خاتِمَةٌ . . . فاتِحَةٌ ٢٤٧
ثَبْتُ المَراجِع (المَصادِرُ والمَناهِل)..... ٢٥١
الفهرس الموضوعى للكتاب ٢٥٥



ما أَعْظَمَ الفَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ إِرادَتُكَ مِنْ وَراءِ عَقِيدَتِكَ ، وبَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَقِيدَتُكَ مِنْ وَراءِ إِرادَتِكَ .

ما أَعْظَمَ الفَرْقَ بَيْنَهُما عُلُوّاً وإِسْفافاً ، وعِزَّةً وانْحِطاطاً ! .

فَهَذا إِنْسانٌ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلرَّحْمٰن .. وذاكَ إِنْسانٌ أَسْلَمَ قِيادَهُ لِلشَّيْطان .

مِنْ هَذِهِ القاعِدَةِ انْطَلَقَ هَذا الكِتابُ لِيَكْشِفَ القِناع .. ويُحافِظَ عَلَى الحُقُوقِ الإِنْسانِيَّةِ مِنَ الضَّياع .

وفِي هَذهِ الأَجْواءِ المَشْحُونَة .. أَوْجَبَتْهُ الضَّرورَةُ المُلِحَّةُ والرَّغْبَةُ المُخْلِصَةُ لإِصْلاحِ ما تَهَدَّمَ مِنْ بُنْيانِ مَمْلَكَةِ الإِنْسان ، وذَلِكَ بَعْدَ أَنْ طَغَى وبَغَى واسْتَعْلَى السَّوادُ الأَعْظَمُ مِنْ أُولِي الأَمْرِ ومُتْرَفِي البُلْدانِ وذَوي السُّلْطانِ فاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطان

إِنَّها خُطْوَةٌ يلْزَمُها خُطواتٌ حَتَّى تَتَحَقَّقَ لِلإِنْسانِيَّةِ حَضارَتُها الحَقِيقِيَّةُ القائِمَةُ عَلَى الإِمْكانِيَّاتِ المادِيَّةِ والمُقَوِّماتِ الرُّوحِيَّةِ عَلَى وِفْقِ ما تَرْتَضِيهِ شِرْعَةُ الرَّحْمٰن ؛ وعِنْدَها تَنْهَضُ عِمارَةُ الأَكْوان ، وتَسُودُ سَعادَةُ الإِنْسان .

الناشر